وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر- بسكرة
قسم العلوم الاجتماعية

محاضرات أنثروبولوجيا الدين والمقدس

الدكتور: سليم درنوني

مستوى: الثالثة أنثروبولوجيا عامة

تقديم الأسس النظرية والمنهجية التي تسمح بالتحليل السوسيو-أنثروبولوجي للظواهر الدينية. الأنثروبولوجيا الدينية التي تطورت في أفق قائم على المقارنة لا ترتكز فقط على الأديان السماوية، ولا كذلك على الظواهر الدينية المتعارف عليها. فهي تتجاوز الحقل الديني التقليدي لتهتم بالتمثلات والممارسات الموصوفة بالدينية. هذه المادة تهدف إلى اكتشاف الطرائق المستعملة لتحليل وفهم الديني من خلال جذور وطبيعة الفكر الديني والمعتقد ووظائف الدين والطقوس والشعائر.

2022/2021

Siteweb :www.dernounisalim.org Email : s.dernouni@univ-biskra.dz / anthropders@gmail.com
http://elearning.univ-biskra.dz/moodle/course/view.php?id=11149#section-1

الموضوعات

I. مدخل عام:.....7

II. تحديد مفهوم المعتقد الديني:.....11

1. تأصيل الاهتمام بالظاهرة الدينية:.....11

2. مفهوم المعتقد الديني:.....22

3. محاولة تعريف الدين:.....23

4. المعتقدات الوثنية القديمة:.....26

أ. المرحلة الطبيعيـــــة.....26

ب. المبدأ الطوطمـــــي:.....27

ج. الروح الكبـــــرى:.....30

د. المانـــــا:.....31

5. الرمز ، الطقس و الشعيرة:.....32

أ- الرمز:.....32

ب- الطقس:.....36

ت- الشعيرة:.....39

6. الحلم في الأديان:.....41

أ- شيء من التاريخ:.....41

ب- الحلم عند علماء النفس:.....43

الأحلام عند فرويد:.....43

الأحلام عند يونغ:.....44

الأحلام عند إيريك فروم:.....45

تجلي الأنبياء ورؤية الملائكة في المنام:.....47

تفسير الأحلام في الأديان السماوية:.....48

7. التصوف:.....49

أ- التصوف (المصطلح والمفهوم):.....49

ب- إله المتصوفة:.....50

ج- مراتب الصوفية:.....52

III. المعتقدات الدينية و الحياة المعاصرة:.....53
1. الممارسات السحرية جزء من الاعتقاد الديني:.....53
أ- السحر: 53
ب- نشأة السحر: 55
ج- السحر عند بن خلدون:.....57
د- منهج جيميس فريزر: 59
ه- السحر والدين:.....60
و- السحر والمعجزة والكرامة:.....61
2. الاعتقاد في الجن و الشياطين:.....63
أ- الجن: الاسم والمعنى: 63
ب- الشيطان: الإسم والمعنى:.....63
ج- الجن في الميثولوجيا:.....64
3. الجن في النصوص القرآنية والحديثية:.....67
4. الاعتقاد في روح الأولياء و الصالحين:.....69
IV. العبادات: الوضعي و السماوي:.....71
1. العبادات في الديانات القديمة:.....71
أ- العبادات في الدّيانات المندثرة: 71
1) العبادات في الدّيانة المصريّة القديمة:.....71
2) العبادات في الدّيانة العراقيّة القديمة:.....74
3) العبادات في الدّيانة اليونانيّة القديمة: 80
مدخل تاريخي:.....80
الهة الاوليمب وتأثر الثقافة اليونانية بديانات الشرق: 82
الهة المدن وازدهار عبادة الابطال:.....82
فكرة الالوهية عند اليونان:.....83
الكتب المقدسة عند اليونان:.....83
المعتقدات الدينية: 84
الطقوس الدينية: 85

4) العبادات في الدّيانة الرّومانيّة القديمة:.....85
عبادة الإمبراطورية:.....85
الكهنة:.....91
الأضحية:.....92
ب- العبادات في الدّيانات الحيّة:.....94
1) العبادات في الدّيانة الهندوسيّة: la religion hindoue.....94
معنى الهندوسية:.....94
2) العبادات في الدّيانة البوذيّة:.....108
3) العبادات في الدّيانة الصّينيّة:.....117
4) العبادات في الدّيانة الفارسيّة القديمة
(الزّرادشتيّة):
124
في معنى الزرادشتية Le zoroastrisme:.....124
إطلالة تاريخية:.....126
عقائد الزرادشتية:.....127
الصلاة في الزرادشتية:.....131
الطقوس والمعابد في الزرادشتية:.....132
الماورائيات في الزرادشتية (الجنة والجحيم):.....133
تصور الخير والشر في الزرادشتية:.....134
الموت في الزرادشتية:.....135
الرموز الزرادشتية:.....135
5) العبادات في الدّيانة الصّابئيّة:.....136
مدخل تاريخي:.....136
معنى الصابئة وسبب التسمية:.....138
كتب الصابئة المقدسة:.....138
طبقات رجال الدين في الصابئة:.....139
الإله في الصابئة:.....140
المندي الصابئية:.....141
الصلاة في الديانة الصابئية:.....141

الصوم لدى الصابئة: 141
الطهارة في الصابئة: 141
التعميد في الصابئة وأنواعه: 142
الشعار وملابس الطقوس: 144
أفكار ومعتقدات تميز الصابئة المندائية: 144
خلاصة المبحث: 145
6) العبادات في الديانة اليهودية: 146
تعريف الدّيانة اليهوديّة: 146
العبادات: 147
أعياد اليهود: 150
يوم التكفير والغفران: 151
أدوات طقوس يهودية: 151
طقوس أيام العطلة والأعياد اليهودية: 153
7) العبادات في الديانة النصرانية (المسيحية): 156.
التعريف بالنصرانية (المسيحية): 156
صلب المسيح: 156
مفهوم القيامة في المسيحية: 157
العقائد اللاهوتية المسيحية حول الثالوث الأقدس: 158
تصور الخير والشرّ في المسيحية: 160
الطقوس والعادات المسيحية: 161
طقوس الاحتفالات والأعياد: 167
8) العبادات في الديانة الإسلامية: 168
شيء من التاريخ: 168
الإسلام (المصطلح والمفهوم): 169
فكرة الله في الاسلام: 169
محمد خاتم النبيئين والرسل: 171
العقائد في الإسلام: 172

العبادات في الاسلام: 174
تصور الجن والملائكة في الاسلام: 177
الطقوس والعادات في الاسلام: 177
الأعياد في الاسلام: 177
V. الممارسات الدينية بين المحلي و الكوني: 178
1. الحج والسياحة الدينية: 178
2. زيارة الأضرحة: 181
3. علاج المرضى : 183
أ- العلاج التقليدي: 183
ب- الرقية: 183
الرقى لدى الصابئة: 183
ج- الحجامة : 184
د- الختان : 185
VI. المقدس: 188
1. محاولة تحديد مفهوم المقدس: 189
2. المقدس / المدنس ، المقدس و الدنيوي: 192
3. المقدس و طقوس المرور (الطقوس الجنائزية مثالا): 195
4. المقدس و السياسي: 197
5. المقدس و الفضاء المكاني: 201
6. المقدس و الفضاء الزماني: 203

I. مدخل عام:

تختلف الأنثروبولوجيا الدينية عن الإثنولوجيا وعن التاريخ وعن علم اجتماع الأديان بالمعنى الذي يجعل منها محاولة لفهم الانسان بعيدا عن سديم وشواش الاحداث الدينية. فالإنسان يخلق منظومة رمزية يمكن وصفها بأنها "فوق طبيعية" أو تشكل ما يمكن تسميته "المقدس " والذي يتحكم فيها .طبعا، إن المهمة الأولى للأنثروبولوجيا الدينية تتمثل في تحديد ما يميز رموز المقدس عن الأنواع الأخرى من الرموز . ليست هناك وجهة نظر أخرى ممكنة إذا أردنا تجنب الوقوع في فخاخ التمركز داخل العرق غير الإنطلاق كل مرة من التعريفات التي يقدمها الأهالي ومن الترتيب والتصنيف الذي يقدمونه عن الأشياء من خلال معجم ثنائي :مقدس و مدنس.

لقد نشأت الانثروبولوجيا الدينية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن سوء حظها أنها تناولت في بداية نشأتها مجموعة من المشكلات الخاطئة: مسألة الأصل، تطور الدين وماهيته، ...ومن هذا المنطلق كانت نكستها التي لم تستطع النهوض منها إلا الآن بعد تغييرها للمنظورات التي كانت تنطلق منها .يتم تقديم الأنثروبولوجيا الدينية اليوم كفصل من فصول الأنثروبولوجيا الاجتماعية (حيث يتم تحديد التشريعات الدينية ضمن البنيات الاجتماعية ويتم البحث عن الوظائف الكامنة وراء هذه التشريعات الدينية داخل المجتمع، وهو ما يتم الإشارة اليه اليوم كعلم مستقل .وفي هذه الحالة تتم دراسة الدين من انطلاقا بعدين :بعد تزامني synchronique كمجموعة أو نظام منسجم من الأفكار أو من الإشارات وبعد آخر تعاقبي تطوري diachroniqueكمجموعة تتحول وتتغير. ففي الحالة الأولى تقترح الأنثروبولوجيا نماذج يتم القياس عليها، أما في الحالة الثانية فتقدم سيرورات عامة مثل سيرورة إعادة التوازن بين الديني ومختلف أوجه الحياة الاجتماعية كلما كان الفارق بينهما كبيرا أو كانت سيرورات تحويل الديني من مجال إلى آخر مختلفا عن الأول تماما.

فالإثنولوجيا الدينية تهتم أساسا بالاختلافات على مستوى الاعتقادات والممارسات الدينية للاثنيات مقارنة لبعضها بالبعض، أما الأنثروبولوجيا الدينية تهتم، كما يحيل اسمها على ذلك، بالإنسان أكثر من اهتمامها بالإثنية؛ إنها تبحث عن اكتشاف النظام الذي يمكن أن ينطبق في نفس الوقت على الديانات العالمية والديانات المحلية للجماعات الصغرى كالاسترالية والهند -أمريكية.

يهتم كثير من التخصصات بشؤون الدين، وذلك أدعى لنبين موقف منهجنا من التخصصات الأخرى:

أنثروبولوجيا الدين: لا تقتصر أنثروبولوجيا الدين على وصف الأمور الدينية وتفنيدها وتصنيفها، بل ترى أن الدين جزء من الثقافة، ويبحث عن تفسير أوجه الشبه والاختلاف بين المظاهر الدينية في المجتمعات المختلفة، دون ان تميز مؤسسة التوحيد التي شكلت ضمائرنا، ولا يقتصر ذلك فقط علة دراسة العهود القديمة أو العالم الثالث، بل يهتم أيضا بالطقوس النيبالية، والأساطير الإفريقية في غينيا، والشامانية السيبيرية، وسحرة إقليم بريطانيا...وتركز الأنثروبولوجيا على المجتمعات صغيرة الحجم، ذات الثقافة المحدودة، والعتيقة أحيانا، والتي ينصهر فيها العادات القبلية والدين. مع تخصصات مشابهة، تبحث جميعها عن فهم الأمور الدينية.

علم الاجتماع الديني: يتناول علم الاجتماع الديني الذي بدأه ماكس فيبر Max Weber دراسة الأديان السماوية في الحضارات الكبيرة، وبحثا محدودا من ناحية الكم يتعلق بالعقائد والممارسات، وأشكال التنظيم الديني في المجتمعات المعقدة والحضرية.

تاريخ الأديان: يدرس ويقارن مؤسسات وعقائد وعبادات، من خلال الزمان والمكان. فهة يوضح التطور التاريخي للأفكار والتراكيب الدينية. ويعد مستودعا للتجارب الماضية، والحالية، التي لا يمكن أن يغفلها المتخصص في الأنثروبولوجيا.

علم نفس الأديان: يشمل علم نفس الأديان تفسيرات نفسية، ويتناول أمورا دينية كما هي معاشة، طرق التعبير عن المقدس في الإنسان طبقا للعمر والجنس أو السمات الأساسية؛ وتنوع الانتماءات والتجربة المعاشة المؤثرة للطقس...

فينومينولوجيا الأديان: تنطلق فينومينولوجيا الأديان من مبدأ أن المقدس يشعر به الإنسان كمصدر للتحول الداخلي، وليس فقط لتوضيح الخارج عن إرادة الإنسان، لكن باعتباره شهادة على علاقة مع بعض القوى العليا، التي تستثمر حاسة الإدراك، والتي نكرس لها الحب والخشية والاحترام.

فلسفة الأديان: تدرس فلسفة الأديان الترابط المنطقي للنظم الدينية المختلفة، وتقدم أفكارا عن النظريات الشارحة مثل: معنى الألفاظ الرئيسية، والموضوعات المتكررة، وقوالب التفكير، وتأثيرات طريقة الفكر على المتدين والجماعة التي تحيط به.

علم اللاهوت: يأتي علم اللاهوت لديانات التوحيد كعلم معياري، يحكمه الإيمان في حقيقته كما أنزلها الإله، فهو علم شامل يجيب عن السؤال الأتي: فيما يتعين علينا الاعتقاد؟ وفي وقت سادت فيه هذه التفسيرات دينا ما، وكان نتيجة ذلك إصدار أحكام تخص اللعان وتناهض الهرطقة، وفقا لمعايير الدين.1

وقد اتبعنا في اعدادنا لهذه المطبوعة العناصر الواردة في عرض التكوين الخاص بموستى لسانس أنثروبولوجيا عامة، ميدان العلوم اجتماعية. وهي كما يأتي:

اولا: تحديد مفهوم المعتقد الديني، حيث تضمن العناصر الأتية:

المعتقدات الوثنية القديمة

الرمز ، الطقس و الشعيرة

الحلم في الأديان

التصوف

ثانيا: المعتقدات الدينية و الحياة المعاصرة، حيث تضمن العناصر الأتية:

الممارسات السحرية جزء من الاعتقاد الديني

الاعتقاد في الجن و الشياطين

الاعتقاد في روح الأولياء و الصالحين

ثالثا: العبادات : الوضعي و السماوي، حيث تضمن العناصر الأتية:

العبادات في الديانات القديمة

العبادات في الديانة اليهودية

العبادات في الديانة المسيحية

العبادات في الديانة الإسلامية

رابعا: الممارسات الدينية بين المحلي و الكوني، حيث تضمن العناصر الأتية:

1 كلود ريفير، الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، ترجمة وتقديم أسامة نبيل، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة-مصر، سنة 2015، ص 21.

الحج والسياحة الدينية.

زيارة الأضرحة .

علاج المرضى : العلاج التقليدي – الرقية – الحجامة – الختان .

خامسا: المقدس:

تحديد مفهوم المقدس.

المقدس / المدنس ، المقدس و الدنيوي.

المقدس و طقوس المرور (الطقوس الجنائزية مثالا).

المقدس و السياسي.

المقدس و الفضاء المكاني.

المقدس و الفضاء الزماني.

II. تحديد مفهوم المعتقد الديني:

1. تأصيل الاهتمام بالظاهرة الدينية:

طالما أنه لا توجد وثائق مكتوبة ولا وجاعات بدائية تتعلق بعصر الباليوت، يضطر الدارس إلى التعامل والاعتماد على الشواهد المادية الصامتة، مثل الأعمال التشكيلية من منحوتات ورسوم جدارية، وبقايا الدفن وتشكيلات يدوية لا تبنى عن قيم استعماليه واضحة. ورغم أن هذه المادة صماء، إلا أنها تحمل رسالة على درجة كبيرة من الأهمية والوضوح. فالصورة التي ينقلها إنسان هذا العصر انطباع رمزي، ونسخة خيالية عن الواقع، تحمل طابع اجتهاديا ورؤية منقحة لهذا الواقع.

وفي الواقع كما يرى فراس السواح نجد أنه من غير المجدي التفتيش عن دلائل وآثار الحياة الدينية لبشر الزمن الباليوليتي الأدنى[2]، بسبب غموض الوثائق وتبعثرها، وصعوبة الربط بينها، فإذا أردنا البقاء في حدود ما تسمح الوثيقة المادية من تفسير، يتوجب علينا القول بأن إنسان الباليوليت الأدنى لم يتمتع بحياة دينية من أي نوع، لأن ذلك يلزمنا بافتراض امتلاكه للحياة الروحية التي لم تكن من الوضوح بحيث تعلن عن نفسها من خلال الآثار التي اقتصرت على الأدوات. وهي فرضية لا يمكن الدفاع عنها.[3]وما يمكن قوله هو أن الحياة الروحية المتطورة نسبيا لإنسان النياندرتال[4] اللاحق لا يمكن أن تكون قد انبثقت فجأة ومن العدم، بل لا بد من وجود جذور لها في تلك الأزمنة السحيقة للثقافة الإنسانية.

نستطيع البحث عن ملامح الثقافة الغير مادية في مدافن الإنسان النياندرتالي التي تم اكتشافها حتى الآن، لقد كان أول نوع بشري عني بدفن موتاه في القبور، وتدل تقاليد الدفن على تمتعه بحياة روحية لم يتمتع بها سابقوه، وتكرار هذه التقاليد عبر المناطق الواسعة التي انتشرت فيها ثقافة النياندرتال، يوحي بشعائر دفن قائمة على موقف إيديولوجي متماسك من مسألة الموت، ساد من شواطئ الأطلسي إلى أواسط آسيا.

هناك معتقد واضح بأن الكائن الحي يتألف من جسد مادي وروح لطيفة، وأن هده الروح تستقل عن جسد الميت لترحل إلى عالم آخر مواز لعالم الأحياء. ويبدو أن الروح في اعتقاد النياندرتالي

---

2 تشكل حقبة العصر الحجري ما يزيد عن 99% من تاريخ الإنسان، ويؤلف معظم هذه الحقبة، العصر الذي يدعى بالعصر الحجري القديم أو الباليوليتيPALAEOLITHIC . يقسم إلى ثلاثة مراحل: الباليوليت الأدنى، الباليوليت الأوسط، والباليوليت الأعلى. يمتد الباليوليت الأدنى من البدايات الأولى لظهور الهيئة البشرية بين الرئيسيات العليا، وإلى ما قبل مائة ألف عام من يومنا هذا. وتمتد فترة الباليوليت الأوسط من 100ألف إلى حوالي 40ألف عاما قبل عصرنا، وقد ساد في هذه الفترة في أوربا وآسيا وإفريقيا الكائن البشري المعروف بالنياندرتال.

3 فراس السواح: دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق-سوريا، سنة 1998، ص 125.

4 نسبة إلى نياندر بألمانيا قرب دوسلدورف.

Siteweb :www.dernounisalim.org Email : s.dernouni@univ-biskra.dz / anthropders@gmail.com
http://elearning.univ-biskra.dz/moodle/course/index.php?categoryid=243

كانت تكتسب عند استقلالها قوة غير عادية، تتخذ شكلا نافعا أو ضارا وفقا لموقف الأحياء منها. وهذا هو التفسير الذي يقود إليه إجراء ثني ركبتي الميت في حيزه الضيق القصير، لأن هذا الوضع من شأنه منع الجسد من التمدد والخروج إلى عالم الأحياء، إذا عاودته الروح التي غدت بانفصالها غريبة عن عالم الأحياء ومحملة بالقوى المؤذية. ويتخذ الرأس أهمية خاصة في معتقد الروح المفارقة والعالم الموازي، ويدلنا على ذلك حماية الرأس بالألواح الحجرية، وكذلك توجيهه نحو الشرق الذي يرمز إلى البعث، لأنه بوابة أكبر الأجرام السماوية وهما الشمس والقمر. ويبدو أن نثر الأزهار في قبر المتوفى، يؤدي معنى البعث الذي يؤديه توجيه الرأس نحو الشرق، فالأزهار رمز لانبعاث الحياة في الشجر كما هو الشرق رمز لانبعاث الجرمين العظيمين...[5]

لقد قام فريزر بمقارنة مختلف الأديان والممارسات السحرية في مستويات ثقافية في أجزاء مختلفة من العالم، وترتبط كلمة (الدين) عند الشعوب البدائية بوجود أرواح قديمة ومتعددة، أو في الاعتقاد بالسحر. ويهتم الأنثروبولوجيون بدراسة الأديان في المجتمعات البدائية باعتبارها تمثل عنصرا هاما من عناصر حياتهم. فقد رأى الأنثروبولوجيون الأوائل أن الرجل البدائي يعتقد فيما يطلق عليه المبدأ الحيوي Animisme . وهو يقوم على أساس أن كل الأشياء حية، وبذلك نجد أن السحر والطقوس بهذا المعنى إنما هي تفسير للمبدأ الحيوي.

يعتقد الرجل البدائي بأن الأجداد والأسلاف يتمتعون بنوع من الوجود، والفرد بعد موته تظل روحه باقية، ولذلك فهم يتحدثون إلى الجثة، ويحاولون تحريكها من مكانها، ويطعمونها، كما يعتقدون أن روح الميت قد ابتعدت عن الجسد، لكنها موجودة ويمكن مشاهدتها، وعلى الأخص في الأحلام.

ماذا يفترض البدائيون عن الروح بعد الموت؟ إنهم يعتقدون أنها تزور الأحياء خاصة بعد منتصف الليل، ويتقد بعض البدائيين أن الروح تحاصر المكان الذي مات فيه الفرد، وهي ترفرف قرب المدافن وفي إقليم يبتعد عن أهل الميت، لذلك تقام المدافن أو المقابر في أماكن بعيدة، في الغابات البعيدة وفي قمم الجبال.

لم يترك فلاسفة الإغريق شأنا من شؤون الإنسان لم يعرضوه على محك العقل، بما في ذلك الشأن الديني. وأقدم فيلسوف أجال النظر في هذا الموضوع وقدم فيه آراء طريفة هو أكسانوفانس*Xenophanes*[570 – 475 ق م] الذي كانت له تأملات في اختلاف المعتقدات الدينية بين الشعوب وتصوراتهم عن الآلهة. يقول إكسانوفانس إن الآلهة من اختراع البشر يصورونها على هيئاتهم ويلبسونها مشاعرهم، لذا فالحباش يصورون آلهتهم سودا فطس

5 للتوسع انظر فراس السواح: دين الإنسان، ص128-131.

الأنوف، والتراقيون يصورون آلهتهم شقرا زرق العيون. وقد سلط سخريته على تلك العقائد التجسيدية التي تجسد الآلهة وتصورهم على هيئة البشر. وانتقد معتنقيها بطريقة لاذعة قائلا: «لو كان للثيران والخيول والأسود أياد مثلنا وكان في وسعها أن ترسم وتصنع صورا وتماثيل كما يفعل البشر لرسمت لآلهتها صورا على شاكلتها وصنعت لها تماثيل على صورتها هي»(6). ووجه نقدا لاذعا لشعراء اليونان مثل هوميروس *Homer*وهوزيود*Hesiod* الذين صوروا الآلهة في صور هزيلة مضحكة يبدون من خلالها وكأنهم أخس من البشر وذلك بأن عزوا لهم أعمالا فاحشة لا تليق بمقامهم وتكللهم بالعار مثل السرقة والزنى والغش والأعمال الدنيئة التي تحط من قدر الآدميين فما بالك بالآلهة....

أما أول من استخدم ما يمكن تسميته **بالطريقة المقارنة في دراسة الأديان** فهو المؤرخ هيرودوتس *Herodotus* [484 – 425 ق م] الذي لاحظ أن الآلهة عند بعض الشعوب بالرغم من اختلاف اسمائها فإنها تؤدي نفس الوظائف وتقوم بنفس الدوار، مما يدل على أن الشعوب تستعير ديانتها وآلهتها من بعضها بعضا وكل ما تقوم به لا يتعدى تغيير الأسماء. وقد فسر السوفسطائيون من أمثال كريتياس*Critias* [460 – 403 ق م] الدين تفسيرا اجتماعيا مفادها أن الآلهة من اختراع البشر ليخيفوا بها من يحيدون عن جادة الصواب. أما بروتاغوراس*Protagoras* [485 – 410 ق م] أهم الفلاسفة السفسطائيين، اشتهر عنه قوله عن الآلهة: «ليس بوسعي أن أجزم إذا كان الآلهة موجودين أو غير موجودين، فهناك مصاعب جمة تحول بيني وبين معرفة ذلك، أخصها غموض المسألة من جهة وقصر العمر من جهة أخرى»(7). لكن بروديكوس*Prodicus* أحد المعاصرين لبروتاغوراس، لم يرقه أن تبقى المسألة معلقة هكذا وجزم بأن نشأة الدين بدأت بعبادة الإنسان للأشياء المفيدة له ومظاهر الطبيعة مثل الشمس والقمر والأنهار ومنها تحول تأليه الملوك والأبطال القوميين. وقريب منه في هذا الإعتقاديوهيميروس*Euhemerus* الذي كان أراد أن يبدد ما يحيط بالإعتقاد بالآلهة من فزع وخوف بالقول إن الآلهة كانوا في الأصل ملوكا وأبطالا وأفرادا أفذاذا متميزين خلد الناس ذكراهم ومجدوهم حتى العبادة. وهذا هو التفسير الذي تبناه لا حقا هربرت سبنسر *HerbertSpencer* [*1820–1903*] حينما فسر نشأة الدين بأنها تعود إلى عبادة الأسلاف والزعماء والمحاربين والسحرة مرهوبي الجانب الذين كان الناس يخشونهم في الحياة فاستمرت خشيتهم لهم حتى بعد مماتهم وصاروا يقيمون لهم الطقوس لاسترضاء أرواحهم والتضرع لها.

بعد انتشار المسيحية لم يعد أحد يجرؤ على البحث في أمور الدين وتناوله كموضوع فلسفي بحت قابل للبحث العلمي المجرد. واستمر الوضع على هذه الحال طيلة العصور الوسطى ولعدة قرون حتى حل عصر النهضة وبدأت ترتخي قبضة الكنيسة. مع التقدم الذي أحرزته الأبحاث العلمية في مجالات الفلك والطبيعة والأحياء واكتشاف قوانين الطبيعة التي تسير الكون بدأت فكرة الناس تتغير عن الله وعلاقته بالكون، حيث لم يعد بالإمكان النظر

6 نفس المرجع، ص 424.

7 المرجع السابق، ملحمة التطور البشري، الطبعة الولى، ص 425.

إليه كمجرد خالق أو صانع، إذ لا بد أن تشمل عنايته الكون كله بكل ما فيه من البشر والحياة وأن تشمل قدرته القوانين التي تحكم الطبيعة وتسير هذا الكون الكبير المعقد دون التدخل في نواميسه. وكان فلاسفة العقد الاجتماعي هم أول الفلاسفة الاجتماعيين الذين بدءوا يهتمون بقضايا الإنسان على الأرض وشؤونه المعاشية وأصول النظم والمؤسسات الاجتماعية، بما في ذلك المؤسسة الدينية. ومن أوائل من أولوا عنايتهم لهذه المسألة هو الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبس (*1588-1679*) *ThomasHobbes*. استبعد هوبس أن يكون الدين حافزا نفسيا من الحوافز الأولية، كحاجة الإنسان للماء والغذاء والنوم والجنس مثلا. ومادامت مشاعر الخوف والقلق والرهبة تكون أكثر في حالة جهل الأسباب فإن الإنسان حسب هوبس تصور أن هنالك قوى خفية تتحكم في هذا الكون ومصائر البشر، وكانت تلك بداية الشعور الديني.

منذ ذلك الحين أصبح الدين من مواضيع البحث المفضلة عند الفلاسفة خصوصا منهم العقلانيين والشكاك الذين هالتهم الحروب الدينية الطاحنة في أوروبا مما دعاهم إلى التبشير بدين فطري طبيعي مبني على العقل لا على الوحي. فبما ان الإنسان كائن عاقل فلا بد أن يكون الدين الذي هو منبثق عن الفكر الإنساني شيئا معقولا ومقبولا، لكن مع الأخذ بعين الاعتبار مفهوم النسبية الثقافية، بمعنى أنه لا يوجد تفاضل بين الديانات فكل ثقافة تختار المعتقد الديني الذي يناسبها، على أساس أن طبيعة الدين وتفاصيله وطقوسه تحددها عوامل تختلف من ثقافة إلى أخرى. بما في ذلك السياق التاريخي والجغرافي لكل أمة ومراحل التطور الحضاري التي مرت بها. هذا المفهوم العقلاني للدين أثار فضول الباحثين والمفكرين ودفعهم إلى التدبر في شأن الظاهرة الدينية والبحث عن أصلها ونشأتها ومراحل تطورها، مثلها مثل أي ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة والمجتمع.

ومع عصر النهضة بدأت تتبلور مفاهيم جديدة صارت تتصارع مع المفاهيم السائدة. ومن أهم هذه المفاهيم الجديدة ثلاثة مفاهيم مترابطة هي: **مفهوم العلم، مفهوم التقدم والتطور، ومفهوم النسبية الثقافية**. بل إن مفهوم التقدم والتطور ذاته لا يتنافى فقط مع المفهوم الديني، بل حتى مع مفاهيم النهضة ذاتها والتي كانت ترى في إنجازات الأولين من المصريين والسومريين والإغريق والرومان روائع أدبية وفنية ومعمارية يصعب على المتأخرين مجاراتها. لكن الاكتشافات الأثرية شيئا فشيئا كشفت النقاب عن حضارات بدائية تعول على الأدوات الحجرية في تحصيل معاشها. وقبل ذلك أتاحت الكشوف الجغرافية في أمريكا وأستراليا التعرف على جماعات لا زالوا يعيشون في العصور الحجرية البدائية، وصار العلماء ينظرون إلى هذه الجامعات البدائية على أساس أنها تمثل القاعدة الأساسية التي انطلقت منها البشرية عبر مراحل متتالية من التطور والتقدم. وكان من الطبيعي أن يقود هذا التفكير إلى فكرة أخرى مؤداها أن الشعوب الأوروبية المتحضرة لربما وصلت إلى ما وصلت إليه من التحضر بعد مرورها بمراحل من التطور ابتدأت من مرحلة بدائية كانت فيها ديانتها ديانة وثنية وكانت ثقافتها وأساليب معيشتها لا تختلف في شيء عن الشعوب البدائية المعاصرة. ومن هنا بدأ الأوروبيون ينقبون ويبحثون عن تلك المرحلة البدائية إما على شكل لُقَى أثرية

ومستحثات وعاديات مطمورة في باطن الأرض، أو على شكل ممارسات شعبية ومعتقدات متحجرة لا تزال آثارها موجودة عند أهل الريف بعدما فقدت وظيفتها ومعناها.

ومن أهم فلاسفة النهضة الذين بلوروا مفهوم التطور العلمي والثقافي وروجوا له بيرنارد فونتيينيل *Bernard le Bouvier deFontenelle* (*1657-1757*) الذي أكد في كتابه الشهير الذي نشره عام *1688* تحت عنوان «استطراد عن المتقدمين والمتأخرين *Digression on the Ancients and the Moderns*» أن المتأخرين تراكمت لديهم مع مرور الزمن تجارب وخبرات ومعارف لم تكن متوفرة للأوائل. وفي نفس الفترة جاء المفكر الإيطالي جيام باتيستا فيكو *GiovanniBattista Vico* (*1668-1744*) ليؤكد بدوره في كتابه «العلم الجديد *La ScienzaNouva*» الذي نشره عام *1725* والذي حاول فيه أن يبرهن على أن الإنسان هو الذي صنع نفسه بنفسه وأن دراسة التاريخ ما هي إلا توثيق لإنجازات البشر أنفسهم من منطلق علمي وواقعي بعيدا عن أي اعتبار لمسائل العناية الإلهية والأمور الغيبية التي ليست في متناول البحث العلمي. أم ما نلحظه من اختلاف بين الثقافات والشعوب، فهذا مرده أيضا، في نظر فيكو إلى الإنسان وإلى جهده وإرادته وعقله. من هنا يصبح الإنسان وتاريخ البشرية منذ بدء الخليقة موضوعا قابلا للبحث العلمي وتتبع مراحله التطورية عبر القرون. وبذلك انتفت الفكرة الدينية التي كانت قد سيطرت على أوروبا طيلة العصور الوسطى والتي تقول إن تاريخ البشرية منذ سقوط آدم في انحطاط مستمر *Dégénération* وأنه يسير في تحلله وتفسخه من سيء إلى أسوأ.

هذه الأطروحات مهدت الأرضية الفكرية لبحث المسألة الدينية بشكل علمي موضوعي محايد وبدأ الاهتمام بدراسة ديانة الجماعات البدائية. وكانت أول دراسة من هذا النوع تلك الدراسة التي أجراها جوزيف لافيتو *Joseph FrancoisLafitou(1681-1746)* على ديانة الهنود الحمر في أمركا الشمالية، خصوصا قبيلة الإركواي*Iroquois* ونشرها عام *1724*. كما حظيت المسألة الدينية باهتمام الفلاسفة ابتداء من الفيلسوف الإنجليزي دفيد هيوم *David Hume* (*1711-1776*) والكاتب الفرنسي الساخر فولتير *Francois Marie Arouet de Voltaire* (*1694-1778*) بدا سلوك الإنسان البدائي لهؤلاء الفلاسفة وكأنه يفتقر إلى العقلانية وتحكمه ردود الفعل العاطفية مما يجعله أقرب إلى رد الفعل الغريزي منه إلى التدبر والتفكير والتروي. ومن هنا جاء تفسير هيوم وفولتير لبداية **الشعور الديني** عند الإنسان وأن أساسه الخوف من المجهول وليس الدوافع الأخلاقية.

لعل من أهم وظائف الدين بالنسبة للإنسان هو تقديم تفسيرات لما يخفى عليه ولا يستطيع فهمه من أسرار الكون والحياة، خصوصا تلك الأمور الغامضة أو التي لا تتوافق مع الأحداث والتجارب التي يعايشها البشر في حياتهم اليومية. لذلك فإنه مع تقدم المعرفة الإنسانية في القرن التاسع عشر انبهر العلماء والمفكرون بمكتشفات العلم الحديثة مما حدى بهم إلى الاعتقاد بأن التقدم التقني وتزايد المكتشفات العلمية والاختراعات سوف تضعف من دور الدين في المجتمع وأن الناس سوف يجدون في المعرفة العلمية ما يغنيهم عن المعتقدات الدينية ويثبت لهم بطلانها.

لكن ما حدث هو العكس من ذلك، فمهما تقدم العلم فإنه لن يتمكن من الإجابة عن كل التساؤلات، بل إن كل اكتشاف علمي يثير في ذهن الإنسان تساؤلات أعمق وأكثر تعقيدا مما يزيد من قلقه ويضاعف حيرته وبلبلة فكره فيرتمي في أحضان الدين بحثا عن الطمأنينة وعن العزاء. ففي كل قفزة من قفزات التطور العلمي والإنجاز التقني يحس الإنسان أنه يقف على مفترق الطرق لا يدري أين يتوجه وأنه بدلا من ان يحل مشاكله المستعصية خلق لنفسه مشاكل أفظع وفتح الباب أمام كوارث محتملة لم يحسب لها حساب، فهناك التوجس من السلاح النووي والبيولوجي ومن تلوث البيئة والمعضلات الأخلاقية المتعلقة بالاستنساخ والهندسة الجينية وبنوك الإخصاب، وهلم جرا. لقد تلاشى ذلك الزهو الذي أخذ به الإنسان مع بداية عصر النهضة وعصر التنوير وذلك الاعتداد بقدرة العقل البشري التي كان يظن أنها غير محدودة واقتنع أخيرا أن الكثير من أسرار هذا الكون ستظل مغيبة عنه مهما اجتهد وحاول أن يهتك حجبها ويكشف أسرارها.

ومع تقدم الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية بدأ يتنامى اهتمام العلماء والمفكرين بالظاهرة الدينية نظرا لما لاحظوه للدين من دور فعال في المجتمع حيث لا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات الإنسانية، مهما كان موغلا في الوحشية أو مغرقا في التحضر، من مظاهر الدين، فالدين يؤدي وظائف أساسية ومتنوعة في المجتمع لا غنى للإنسان عنها. الدين يساعد البشر على مواجهة مختلف القضايا التي تهمهم وتقض مضاجعهم، بما في ذلك حتمية الموت والفناء ومصير الإنسان ووحشية القبر. الدين يعطي معنى لهذه الحياة التي بدونه تبدو أحيانا عبثية وغير مفهومة ومحملة بالشقاء والعذاب، ويعطي تفسيرات مقبولة ومريحة لأسرار الوجود وغوامض الكون. وطوال وجود الإنسان على هذه الأرض أعانته الديانات على تحمل ضغوط الحياة ومواجهة المجهول وأمدته بالقيم والمبادئ الأخلاقية التي استطاع بواسطتها أن ينظم حياته الاجتماعية ويحافظ على استقامة السلوك وتوازن العلاقات بين الأفراد والجماعات.

وقد لاحظ الأنثروبولوجيون من خلال **البحث الميداني والدراسات المقارنة** أن من ضمن وظائف الدين الاجتماعية توافق مضامينه وتعاليمه وطقوسه ومعتقداته مع واقع المجتمع ومتطلباته، لذلك تختلف الديانات باختلاف طبيعة المجتمعات لكنها جميعها تعكس الواقع الاجتماعي والثقافي الذي نشأت فيه وانبثقت منه. وعالم الغيب الذي تصوره الديانة ما هو إلا انعكاس لعالم الشهادة الذي ترعرعت فيه بل إنها هي التي تعطي تسويغا وشرعية للمبادئ التي يفرضها الواقع الاجتماعي. ففي المجتمعات البدائية البسيطة التي تقوم علاقاتها على مبدأ المساواة والندية بين كافة أفراد المجتمع لا نجد عندهم تراتبية في عالم الآلهة ولا كهنوت. أما في المجتمعات التي ينقسم فيها الناس إلى طبقات وإلى سادة ومسودين فإن تعاليم الدين تبرر مثل هذا الوضع بواسطة حث الطبقات المغلوبة على أمرها بالاحتساب وتقبل الوضع على أساس أنه تدبير إلهي وأن الصابرين منهم سيلقون جزاءهم في الحياة الآخرة. وفي المجتمعات التي فيها النساء بأدوار مهمة وتتمتع بمكانة عالية مثلا، كما في المجتمعات التي يقوم إنتاجها على الزراعة البسيطة، نجد أجناس

الآلهة عندهم مختلطة ما بين الإناث والذكور أو من الإناث فقط نظرا لارتباط الأنوثة بالخصب والإنجاب، على خلاف مجتمعات الصيد والمجتمعات الرعوية التي تعتمد على قوة الرجال في طلب العيش وفي الدفاع عن النفس.

الديانة البدائية (المعتقدات والطقوس):

مما يجعل من الصعب تلمس بدايات **الشعور الديني** لدى الإنسان في مراحل ما قبل التاريخ واختراع الكتابة أن المعتقدات والطقوس والممارسات والرموز الدينية لا تترك أثرا يمكن أن يعثر عليه علماء الآثار. إلا أن الشواهد الأثرية التي عثر عليها المنقبون قد تشير إلى أن جماعة النياندرتال *Neanderthal* مارسوا شعائر الدفن بطريقة تنم عن شعورهم تجاه الموت والموتى. كانوا يوارون الميت في التراب بعدما يدهنون جسده بطلاء أحمر ويدفنونه بكامل حليه وملابسه ويدفنون معه أشياء أخرى من متاع الدنيا مثل الأدوات والأسلحة والطعام التي كانوا يعتقدون أنه سينتفع بها في مماته كما انتفع بها في حياته ويستعين بها في رحلة الموت. إلا أنهم لم يمارسوا عزل الأموات عن الأحياء ودفنهم في مقابر بل كانوا يدفنونهم معهم في داخل الكهوف حيثما يسكنون(**8**). كل ذلك يوحي بنوع من الإحساس الديني والاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت(**9**) ومن الأدلة على ذلك المقبرة العائلية التي وجدها المنقبون في مغارة *La T Ferrassie* جنوب فرنسا والتي تضم ستة قبور لأبوين وأطفالهما الأربعة(**10**) وفي مغارة شانديرا *Shanidar* في العراق عثر على حثث دفنت بطريقة توحي بأن عملية الدفن تمت بعناية ومصحوبة بنوع من المراسيم والطقوس الشعائرية. وفي الطبقات العليا من المغارة عثر على جثة مسجاة وضعت معها باقة من الزهور(**11**) كما وضعت على القبور ألواح حجرية ثقيلة لحماية الجثث من الحيوانات المفترسة. وكانت الجثث تجهز بطريقة معينة وتدفن وقد يمت وجوهها نحو مغيب الشمس، ربما اعتقادا منهم أن أرواح الموتى في رحلتها إلى العالم الآخر تذهب حيث ما تغرب الشمس. كل ذلك يدل على إحاطة الموت والدفن بطقوس وشعائر تنم عن قدر من **الشعور الديني**، هذا إذا سمحنا لأنفسنا أن نعطي للدين معنى وتعريفا أوسع وأشمل مما اعتدنا عليه في عالمنا المعاصر وما تمليه الديانات السماوية.

كما تدل رسومات العصر الحجري التي عثر عليها المنقبون في الكهوف، والتي تعود إلى ما يزيد على 20000 سنة، على تغلغل الطقوس السحرية المرتبطة بالشعائر الدينية. فالكثير من العلماء يرون أن تلك الرسومات كانت توظف لأغراض سحرية تتعلق بالصيد وتعبر عن أمل الصيادين في أن تكلل جهودهم بالنجاح. تقتصر تلك الرسومات على حيوانات الصيد مثل الدب والماموث والرنة ووحيد القرن والحصان الوحشي والثور الوحشي التي ترسم وقد وقعت في الشراك والفخاخ، بعضها صوبت إليه الرماح والنبال، وبعضها يتخبط في دمه وبعضها الآخر يترنح من جراحه. وهناك بعض الرسومات التي تصور الصياد وهو يتربص بالطريدة ويتنكر في زي الحيوان حت لا ينفر منه

8CLAEK AND PIGGOTT 1965 : 60-84, WIMER 1982 : 232-254.

9WENKE 1980 : 184

10HAWEL1965 : 128-130.

11RALPH SOLECKI 1963, 1971 : 250.

قطيع الصيد. كما نقش الصيادون على أسلحتهم المفضلة خطوطا وأشكالا هندسية ورسومات للحيوانات التي يصطادونها. كما أن التأكيد على مظاهر الخصوبة والأعضاء التناسلية في بعض الرسومات يعبر عن أمل الصيادين في أن تتكاثر حيوانات الصيد. وبعد مرحلة اكتشاف الزراعة وتدجين الحبوب واستئناس الحيوانات يزداد التركيز على مظاهر الخصب. فقد عثر المنقبون على تماثيل من العاج أو الصلصال معظمها لنساء عاريات مكتنزات الأكتاف والأرداف وبعضهن حوامل أثداءهن ممتلئة يكاد يتصبب منها الحليب. ويركز الفنان في هذه التماثيل التي يرمز معظمها لآلهة الخصب على مظاهر الخصب والأنوثة والعطاء، أما الأطراف والرأس فيكاد يغفلها تماما.

ولتعزيز استنتاجاتهم حول هذه الشواهد يلجأ علماء الأنثروبولوجيا، كعادتهم، إلى **الطريقة المقارنة** وذلك بدراسة ما يمكن اعتباره من مظاهر **الشعور الديني** لدى الجماعات البدائية قناعة منهم أن مثل هذه المظاهر الأكثر بدائية هي التي تساعدنا في فهم وتفسير المخلفات الأثرية للشعوب المنقرضة مما قد يلقي الضوء على الأصل الذي منه انبثقت الديانات الأكثر تطورا وتفيدنا فيما إذا كانت الظاهرة الدينية ظاهرة إنسانية عامة متأصلة، مثلها مثل اللغة والفن الاقتصاد وغير ذلك من الظواهر الثقافية التي يختص بها البشر دون بقية الكائنات. ويدرجون تحت الظاهرة الدينية الإيمان بقوى غيبية عليا غير محسوسة وأي معتقدات أو ممارسات تتعلق مثلا بأصل الخليقة ومكان الإنسان في هذا الكون ومصيره بعد الموت، وربما بعض الطقوس التي تحدد طرق تواصل البشر مع القوى الروحية وكيفية التضرع لها لإنجاح المقاصد، بما في ذلك جلب الخير واتقاء الشر. وقد لاحظ الأنثروبولوجيون أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية، مهما كان بدائيا وبسيطا، من الاعتقاد بالأرواح والقوى فوق الطبيعية، وإن كانت مثل هذه المعتقدات تتسم في معظمها بالسذاجة والغموض وتختلط فيها مظاهر الدين بممارسات السحر والكهانة.

ولعل أصعب إشكالية واجهت الأنثروبولوجيين في دراسة المجتمعات البدائية هي إشكالية التمييز بين السحر والدين وأعيتهم الحيلة في الوصول إلى رأي موحد بهذا الشأن نظرا لتداخل مظاهر السحر ولأن ما تعده هذه الثقافة دينا تعده تلك من أعمال السحر والشعوذة، كما أن المجتمع في مرحلة من مراحل تطوره قد يتبنى دينا جديدا ينظر إلى كل ما سبقه من ممارسات دينية على أنها من أعمال السحر المحرمة والكهانة والكفر الصراح. ومن الآراء التي ساقها الأنثروبولوجيون بهذا الشأن القول بأن السحر ذرائعي ووسائلي *Instrumental* يمكن تسخيره لجلب المنافع أو لإحداث المضار، وهو لا يشتمل على أي بعد روحي أو أخلاقي، بينما الدين تغلب عليه النزعة الخلاقية ويتعلق بأمور الآخرة أكثر منه بأمور الدنيا. يرى جيمس فريزر *JamesFrazer* في كتابه «الغصن الذهبي *Golden Bough*» أن السحر، مثله مثل العلم والتكنولوجيا ما هو إلا وسيلة الرجل البدائي للسيطرة على قوى الطبيعة وتسخير قوانينها لمصلحته من خلال إجرائيات معينة، فهو علم البدائيين. فالساحر، مثله مثل العالم، يحاول التأثير على قوى الطبيعة وتسخيرها لمنفعته، بينما المؤمن يتضرع ويبتهل لربه ليحصل على ما يريد ويخضع لمشيئته. إلا أن الفرق بين العلم والسحر أن السحر يقوم على فرضيات مغلوطة عن الكون وقوانين الطبيعة وفهم خاطئ لقانون

السببية، ولذلك يسميه فريزر "علم زائف". ومع ذلك يتفق السحر مع العلم في أن طرقه وإجراءاته لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، على عكس الديانات التي تتنوع وتتعدد بتعدد الشعوب وتنوعها. ومع أن السحر، على خلاف العلم في أغلب الأحيان لا يؤدي إلى النتائج المطلوبة فإن ذلك لا يقود بالضرورة إلى عدم الإيمان به وعدم الإعتماد عليه وتخلي الناس عن ممارسته.

ويميز برونيسلاو مالينوفسكي*Bronislaw Malinowski* بين السحر والدين بالقول أن ممارسة السحر يرجى منها منفعة عاجلة أما الدعاء والصلاة في الدين فهي هدف في حد ذاته لجلب العزاء والسكينة وطمأنينة القلب، فهي مجرد إعلان عن القناعة والإنتماء(12). ويميز دركايم بين السحر والدين قائلا بأن الدين شأن اجتماعي صرف غالبا ما تكون مظاهره مصحوبة بالمشاعر الجياشة من الخوف والرجاء والتوجس والترقب، وهدفه هو الخير العام للمجتمع برمته وعادة ما تمارس طقوسه بشكل جماعي وفي مواسم محددة وربما أماكن محددة ودور للعبادة خصصت لهذا الغرض، بينما السحر ليس مؤسسة اجتماعية وإنما مسألة فردية يلجأ لها الفرد لمنفعته الشخصية الراهنة والتي تخصه دون غيره. ومن يمارسونه أو يلجأون له حالهم كحال المرضى الذين يقصدون الأطباء أو أولئك الذين يقصدون الميكانيكي لإصلاح سياراتهم، فهم لا يحسون بأي رابط يربطهم ويوحد فيما بينهم كأمة أو جماعة كما هو الحال بالنسبة لمن يؤمنون بدين واحد(13).

وأهم مبدأ تقوم عليه فرضية السحر، في نظر فريزر، هو **مبدأ التأثير***Sympathie* الذي يمكن أن يتم بين شيئين إما عن طريق **التلامس***Contact*، وهذا ما يسميه السحر بالعدوى *Magiehoméopathique*، وهذا ما يؤكد في نظر فريزر أن الساحر على خلاف العالم يبني ممارساته على فرضيات مغلوطة عن نواميس الكون وقوانين الطبيعة. فالشخص الذي يحاول الحصول على قلامة ظفر غريمه أو قصاصة شعره لحرقها وإلحاق الضرر به يعول على **مبدأ التلامس**، لأن شعر الشخص أو ظفره سبق وأن كان جزءا منه ملامسا له. أما لو رسم صورة لغريمه في الرمل وطعنها بالرمح لجلب الضرر له فإنه يعول على **مبدأ التجانس** لأن الصورة تشبه الشخص، أي

12 MALINOWSKI 1954 : 30-31.

13 DURKHEIM 1961 : 60

تتجانس معه. تعتمد هذه الفرضية على مبدأ أن الشبيه يؤثر في شبيهه وعلى أن أي شيئين سبق لهما التلامس لا يفقدان هذه الصلة بينهما حتى لو انفصلا وتباعدا ويستمران في التأثير أحدهما على الآخر. ولهذا السبب يحرص الناس على دفن ما يسقط من شعرهم أو أظافرهم أو أسنانهم، بل حتى البصاق...بعيدا عن أعين الآخرين حتى لا يحاول أحد أن يؤذيهم من خلال حرق هذه البقايا أو العبث بها. ومن أمثلة السحر القائم على **مبدأ التجانس** ذهاب المزارعين في (جاوا) لممارسة الجنس في حقول الأرز حينما تتفتح السنابل طمعا في زيادة الإنتاج. ومن أمثلة السحر القائم على **مبدأ التلامس** الاعتقاد بأن من يأكل قلب الذئب يصبح شجاعا ومن يأكل عين الصقر يصبح حديد البصر ومن يأكل مخ العصفور يقفد الذكاء. وكذلك الاعتقاد بأن الماء الذي ينفخ فيه من أصاب شخصا آخر بالعين يمكن أن يشفي المصاب إذا شربه، أو إذا تمكن من الحصول على شيء لامس من أصابه بالعين، كأن يحصل على كأس شرب به أو نوى تمر أكله أو قطعة ملابسه فغسلها وشرب ماءها. وانطلاقا من هذه الفرضيات فسر الأنثروبولوجيون رسومات الكهوف التي تعود إلى العصر الحجري بأنها ممارسات سحرية كما ذكرنا أعلاه.

وكما سبقت الإشارة، فقد كان بعض الفلاسفة والمفكرين يرون أن الدين بدأ بعبادة الأسلاف. وتنتشر عبادة الأسلاف عند الكثير من الشعوب البدائية، خصوصا في إفريقيا وشرق آسيا والصين. وتعتقد هذه الشعوب أن أرواح الأسلاف تبقى بعد موتهم تعيش بين الأحياء، بل إنها ربما تعرضت لميتة ثانية إذا تعرضت للحريق أو الغرق، وهي تتألم وتشتهي مثلما يشتهون ولها مشاعر وأحاسيس وقد تضر إذا غضبت وتنفع إذا رضيت. وعند عبادة اليونان القدماء لأسلافهم يقول فوستال دي كولانج(1830-1889) *FusteldeCoulanges* في كتابه «المدن العتيقة *The* Ancient *City*» إنهم لا يعتبرون الموت فناء وإنما مجرد انتقال إلى حياة أخرى في العالم السفلي ومن هنا نشأت مراسيم الدفن والطقوس الجنائزية وتقديم القرابين للموتى الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب مثلهم مثل الأحياء. ويدفن الأسلاف عند مدخل المنزل حيث يوجد مذبح *Alter* عنده موقد للنار لا يطفأ أبدا يتعبد عنده أفراد الأسرة. ويحرص الأحياء استرضاء أرواح الأسلاف وكسب عطفهم بحرق البخور لهم وتقديم الهدايا والقرابين، خصوصا في مناسبات الزواج والولادة والوفاة أو بناء كوخ جديد، كما تفعل قبائل السوازي*Swazi* في جنوب إفريقيا وقبائل الداهومي*Dahomey*[14].وفي حفلات الزفاف وغيره تنصب كراسي خاصة للأسلاف يعتقد أحفادهم أنهم يحضرون ويجلسون عليها ويتعاملون معهم باحترام بالغ. وحينما يولد مولود جديد يتفحصه أهله فقد يكون أحد الأسلاف ولد مرة أخرى. وفي الريف الصيني والياباني يدفن أسلاف العائلة عند مدخل المنزل حيث يقام لهم معبد ويحفر اسم كل واحد منهم على لوح خشبي ويزورهم أفراد الأسرة كل يوم ويتحدثون إليهم ويقدمون لهم الأكل والشرب ويخبرونهم بكل ما يستجد من أمور العائلة ويستأذنونهم ويطلبون مشورتهم في شؤون الأسرة.

14HERSKOVITS 1938, CH. 11, KUPER 1963 : 60.

واعتبر الفرنسي تشارلز بروسيه (1709-1777) *Charles de Brosses* في كتاب له عن الديانات البدائية نشر عام 1760 أن التفتيشية *Fétichisme*[15] تمثل أدنى أنواع الديانات وأكثرها بدائية، وبالتالي الأصل الذي انبثقت منه بقية الديانات. وتعد المانا *Mana* والطوطمية *Totémisme* والشامانية *Shamanisme*[16] من أهم المظاهر التي وثقها الأنثروبولوجيون وأدرجوها ضمن المظاهر الدينية لدى المجتمعات البدائية التي درسوها حينما كان البعض منها لم يتجاوز بعد مرحلة الصيد والالتقاط أو مرحلة الزراعة البدائية والبعض الأخر ما زال يعتمد في تحصيل معاشه على الأدوات الحجرية.

من مهام الشامان معالجة الامراض النفسية والجسمية

ولم يحظ أي موضوع من مواضيع الديانة البدائية باهتمام مثلما حظيت به الطوطمية التي لقيت اهتماما بالغا من عدد من قادة الفكر الأنثروبولوجي على رأسهم سيغموند فرويد *Sigmund Freud* وإميل دوركايم *Emile Durkheim* ورادكليف براون *A R Radcliffe-Brown* وكلود ليفي ستروس *Claude Levi-Strauss* وغيرهم.

ولقد حظيت المانا *Mana* بمثل ما حظيت به الطوطمية من اهتمام بالغ لدى الأنثروبولوجيين. وينتشر الإعتقادبالمانا في جزر الملاوي *Malayo-Polynesian*، من ساماوا *Samaoa* إلى هوائي *Hawai* إلى مدغشقر

15 **الفتيشية FÉTICHISME**: كلمة برتغالية الأصل، أطلقها البرتغاليون الذين غزو غرب إفريقيا في القرن الخامس لتعني التعويذة أو التميمة أو الحجاب. وقد أضفيت عليها الكثير من المعاني منها: أن الفتيشية من الناحية الدينية عبادة الأشياء المادية، وهي تختلف عن عبادة الأصنام، من حيث أن الأخيرة تقوم على اتخاذ صنم وسيلة للتقرب إلى الله، على حين أن الأولى تقوم على عبادة الأشياء المادية ذاتها، فالصنم ليس إلها، وإنما هو صورة ترمز إلى الإله.

16 **الشامانية SHAMANISME** مأخوذة من الشامان وهو شخص يشتغل بالتطبيب والكهانة والسحر عند الشعوب البدائية. والكلمة ذاتها تعني "ذلك الذي يعرف". أما الشامانية فهي معتقد ديني عند الشعوب البدائية، يعتمد على الشامان الذي يقال إن لديه قوة خارقة لشفاء المرضى، والاتصال بالعالم العلوي، ينتشر عند قبائل آسيا.

Madagascar واللواء كوك *James Cook* هو أول من تعرف على هذه الجزر من الأروبيين ووصف عوائد أهلها. بما في ذلك اعتقاداتهم بالمانا.

2. مفهوم المعتقد الديني:

المعتقد شيء يرى الإنسان سموه و قدسيته عن غيره من الأمور الأخرى و هو محدد له بالنسبة للصواب و الخطأ. فالمعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يُكره الإنسان على تصديق فكر، أو رأي، أو تأويل، أو مذهب جزافًا، وسوف نرى أن العقل غريب عن تكوين المعتقد، ولا يأخذ العقل في تبرير المعتقد إلا بعد أن يتم تكوينه. يجب أن نصف بالمعتقد كل ما هو من عمل الإيمان، ومتى استعان المرء في تحقيق صحة المعتقد بالتأمل والتجربة لا يظل المعتقد معتقدًا بل يصبح معرفة، فالمعتقد والمعرفة أمران نفسيان يختلفان من حيث المصدر اختلافًا تامًا؛ إذ المعتقد كناية عن إلهام لا شعوري ناشئ عن علل بعيدة من إرادتنا، والمعرفة عبارة عن اقتباس شعوري عقلي قائم على الاختبار والتأمل. وما اكتشف الإنسان الغائص في بحر المعتقد أمر المعرفة إلا في زمن ضرب فيه بسهم وافر من الرقي، وكلما تقدم في عالم المعرفة ظهر له أن الحوادث التي عزا الناس ظهورها إلى موجودات علوية لم تحدث إلا بتأثير نواميس قاهرة. وقد تغيرت صورة فهم الكون في الإنسان منذ اقترب من دائرة المعرفة، ولكنه يصعب الخوض في هذه الدائرة الجديدة كثيرًا؛ لأن العلم يرى على الدوام شيئًا من المجهول متخللًا في مكتشفاته، فأكثر الحقائق وضوحًا تُبطِن شيئًا من الأسرار.17

هو أول أشكال التعبيرات الجمعية عن الخبرة الدينية الفردية التي خرجت من حيز الإنفعال العاطفي إلى حيز التأمل الذهني. ويبدو أن توصل الخبرة الدينية إلى تكوين معتقد، هو حاجة سيكولوجية ماسة، لأن المعتقد هو الذي يعطي الخبرة الدينية شكلها المعقول، الذي يعمل على ضبط وتقنين أحوالها. فبعد تلك المواجهة الإنفعالية مع القدسي في أعماق النفس، يدخل عقل الإنسان من اجل صياغة مفاهيم من شأنها إسقاط التجربة الداخلية على العالم الخارجي، وموضعة القدسي هناك.[18]

والمعتقد الديني هو شأن جمعي بالضرورة، فعقول الجماعة هي التي تعمل على صياغته، كما تعمل الأجيال المتلاحقة على صقله وتطويره. وهو شأن جمعي لأكثر من سبب؛ فأولا، من غير الممكن أن يقوم كل فرد من أفراد الجماعة بصياغة معتقد خاص به، بما يستدعي ذلك من سلوك وأفعال سوف تتضارب حتما مع ما يبادر به الآخرون. وثانيا، أن دوام واستمرار أي معتقد يتطلب إيمان عدد كبير من الأفراد به وإلا اندثر وفقد تأثيره حتى في نفس صاحبه.

17 غوستاف لوبون، الآراء والمعتقدات، ترجمة عادل زعيتر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة مصر، ب س ن، ص 18.
18فراس السواح: دين الإنسان، ص37.

يتألف المعتقد عادة من عدد من الأفكار الواضحة والمباشرة، تعمل على رسم صورة ذهنية لعالم المقدسات، وتوضح الصلة بينه وبين عالم الإنسان. وغالبا ما تصاغ هذه الأفكار في شكل صلوات وتراتيل. فضمن هذا الشكل من الأدب الديني نستطيع البحث عن المعتقدات الأصلية و المباشرة لجماعة من الجماعات.**19**

يختلف المعتقد من عصر إلى أخر ومن مجتمع إلى مجتمع مختلف، هذا الاختلاف ناتج عن اختلاف وضع الإنسان المادي والاجتماعي ومدى تطوره الثقافي والتكنولوجي، فكل زمن وكل مجتمع له معتقده، لان إنسان القرن العشرين لن يستطيع الإيمان بمعتقد إنسان القرن الخامس قبل الميلاد، لأن وضعها ومستوى تطورهما مختلف اختلاف شبه جذري، فتفسير الإنسان لمشاعر معينة التي منها هذه التجربة التي هي أصيلة في الإنسان، أقول أن تفسير الإنسان لهذه المشاعر تخلف باختلاف عوامل كثيرة ذكرت جزء منها هنا، إذن كل عقيدة صحيحة لأن العقائد كلها في الأخير هي مجرد محاولة تفسير.

3. محاولة تعريف الدين:

من الضروري أن يتطرق الباحث الذي أخذ على عاتقه دراسة الظاهرة الدينية، إلى تعريف الدين، لأنه بدون هذه الخطوة المبدئية قد يجد الباحث نفسه يلاحق ظواهر بعيدة عن الدين، أو يتابع جوانب ثانوية من الدين على حساب جوانبه الرئيسية. غير أننا هنا سنضع تعريفا أوليا لا علاقة له بالإطار العام لهذه المحاضرة حتى لا يفهم منه الشمول والإطلاق. فالتعريف الأولي ضروري لتحديد مجال الدراسة، لكن الفهم الحقيقي سيظهر عند التعرض بتأني لمختلف تجليات الظاهرة الدينية عبر التاريخ. يقول وليم جيمس [William James 1842-1910]: «رغم أنه من غير الحكمة وضع تعريف للدين ثم المضي في الدفاع عنه في وجه كل الاعتراضات، فإن هذا لن يقف حائلا دون قيامي بتقديم وجهة نظر محددة بغرض وأهداف هذا الكتاب. فمن بين المعاني المتعددة للكلمة سوف أختار معنى محددا تدور حوله هذه المحاضرات...فالدين الذي أعنيه هنا، هو الأحاسيس والخبرات التي تعرض للأفراد في عزلتهم، وما تقود إليه من تصرفات. وتتعلق هذه الأحاسيس والخبرات بنوع العلاقة، يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعتبره إلهيا ».[20]

تقوم فكرة "فوق الطبيعي" Supernaturel أساسا لعدد من التعريفات. والتعبير هنا يشير إلى كل ما يتجاوز حدود المعارف الإنسانية ويقع في نطاق السر والمجهول. يقول هربرت سبنسر [H.

19بيار بونت، ميشال إيزار، معجم الإثنولوجياوالنثروبولوجيا، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 2006، ص 861.

20 فراس السواح: دين الإنسان ، ص 22.

[Spencer1820-1903] : «إن الأديان على قدر اختلافها في عقائدها المعلنة، تتفق ضمنيا في إيمانها بأن وجود الكون هو سر يتطلب التفسير»[21] وهناك تعريفات أخرى تقوم على فكرة (الألوهية واللانهائي) مثل التعريف الذي قدمه شلر ماخر [SchleirMacher] والذي يقول فيه: «إن الدين هو شعور باللانهائي واختبار له. وما نعنيه باللانهائي هنا، هو وحدة وتكامل العالم المدرك. وهذه الوحدة لا تواجه الحواس كموضع، وإنما تنبئ عن نفسها للمشاعر الداخلية، وعندما تنتقل هذه المشاعر إلى حيز التأملات، فإنها تخلف في الذهن فكرة الله. وإن الخيال الفردي هو الذي يسير بفكرة الله إما نحو المفارقة والتوحيد، أو نحو نوع غير مشخص للألوهية يتسم بوحدة الوجود»[22]

لكن حسب بعض الباحثين، إن فكرة (الألوهية) إذا أخذت بمدلولها الضيق فإنها تترك كثيرا من الأديان خارج دائرة التعريف، وهي الأديان التي تضع في بؤرة معتقدها كائنات روحية من مختلف الأنواع، كأرواح الموتى والأرواح الحالة في مظاهر الطبيعة المختلفة، والتي لا تنضوي تحت مفهوم الآلهة المعتاد. هنا يرى إدوارد تيلور [E. B. Tylor 1832 - 1917] وهو مؤسس الأنثروبولوجيا في بريطانيا، أن التعريف الأشمل ينبغي أن يستبدل مفهوم الآلهة بمفهوم "الكائنات الروحية" الأكثر عمومية. يقول في كتابه "Primitive culture": «إن المتطلب الأول في الدراسة المنهجية لأديان الشعوب البدائية، هو وضع تعريف بدائي للدين. ذلك أن التوكيد على الإيمان بكائن أعلى، من شأنه أن يخرج المعتقدات البدائية من دائرة الدين، لأن مثل هذا الإيمان هو مرحلة متطورة من الحياة الدينية. من هنا، فإن الأفضل أن نضع حدا أدنى لتعريف يقتصر على الإيمان بكائنات روحية»[23] ويعرفه فريزر بقوله: «الدين هو الإعتقاد في وجود قوى عليا تعلو قوى الإنسان. وتستطيع أن توجه العالم الطبيعي، وحياة الإنسان وتضبطها، وعلى ذلك يقوم الإنسان باستعطافها واسترضائها»[24]

ويوجه إميل دوركايم نقدا شديدا للتعريف الذي قدمه فريزر، تحت حجة أنه يقصر الدين على الممارسات التي تتضمن توسلا لكائنات ماورائية تسمو على الإنسان. فمثل هذا التعريف حسب دوركايملا ينطبق إلا على الديانة المسيحية، ولا ينطبق على أديان أخرى واسعة الإنتشار. فدوركايم يرى أن أي تعريف للدين يجب أن ينطبق على جميع الديانات، من أكثرها بدائية إلى أكثرها تطورا وتعقيدا. ولكي نستطيع صياغة مثل هذا التعريف، ينبغي لنا أن نبحث عما هو مشترك بين الديانات المعروفة جميعا، ونسقط من حسابنا تلك الأفكار والمعتقدات التي يختص بها دين دون آخر. إن كل المعتقدات الدينية،

21 نفس المرجع، ص23.

22 نور الدين طوالبي: الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، سنة 1988، ص35.

23فراس السواح: دين الإنسان، ص24.

24حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، ص157.

بسيطها ومركبها، تنضوي على خصيصة عامة مشتركة، فهي تفترض تقسيما لكل الأشياء المنظور منها والغيبي، يضعها في زمرتين؛ زمرة المقدس وزمرة المدنس (الدنيويSacré et Profane). فالتقسيم إلى عالمين يحتوي كل واحد منهما على كل ما هو مقدس، ويحتوي الآخر على كل ما هو مدنس، هو السمة الأساسية المميزة للفكر الديني، وأن كل التمثيلات الدينية ما هي إلا وسائل تعبير عن طبيعة الأشياء المقدسة وعلاقتها ببعضها أو علاقتها بالأشياء الدنيوية.

إن تعريف دوركايم يؤكد على ناحية أخرى ضرورية، وهي الطابع المجتمعي للدين. فالمعتقد الحقيقي هو على الدوام معتقد لجماعة معينة من الناس، يقتصر عليها ويميزها عن غيرها من الجماعات. وبناء على ذلك يصوغ دوركايم التعريف التالي: «الدين هو نظام متسق من المعتقدات والممارسات التي تدور حول موضوعات مقدس يجري عزلها عن الوسط الدنيوي وتحاط بشتى أنواع التحريم. وهذه المعتقدات والممارسات تجمع كل المؤمنين والعاملين بها في جماعة معنوية واحدة تدعى كنيسة»[25].

لقد تأثر ميرسياإلياد بأفكار دوركايم عن المقدس والمدنس كعناصر تساعد على التعرف على الظاهرة الدينية، فحاول من خلال كتابه «المقدس والمدنس» دراسة الظاهرة الدينية استنادا إلى التمييز بين زمرتي المقدسات والدنيويات، وهو يقول: «يتجلى القدسي دائما كحقيقة من صعيد آخر غير صعيد الحقائق الطبيعية...ويعلم الإنسان بالقدسي لأنه يتجلى، يظهر نفسه شيئا مختلفا كل الإختلاف عن الدنيوي. ويمكننا القول إن تاريخ الأديان من أكثرها بدائية إلى أكثرها إرتقاء، عبارة عن تراكم من تجليات الحقائق القدسية؛ ليس ثمة انقطاع لاستمرار الظهورات الإلهية، بدءا من تجلي القدسي في شيئ ما كحجر أو شجر، وانتهاء بالتجلي الأعلى الذي يمثل لدى المسيحي بتجلي الله في يسوع المسيح؛ إنه الفعل الخفي نفسه: تجلي شيء مختلف تمام، أي حقيقة لا تنتسب إلى عالمنا، في أشياء تشكل جزءا لا يتجزأ من عالمنا الطبيعي الدنيوي»[26].

ولا بد لأي حديث في تعريف الدين من الوقوف عند رودولف أوتوRudolf Otto[27] ذلك انه تحدث في كتابه «فكرة المقدس» عن وجود وعي بالقدسي مغروس في النفس الإنسانية. وهو يبدأ القول بأن القدسي قد فقد معناه الأولي وتحول إلى جملة من التشريعات الأخلاقية والتقوى السلوكية. أما الحالة الأصلية للوعي بالقدسي فتجربة انفعالية غير عقلية هي أساس الدين. وتنضوي هذه التجربة على مجابهة مع قوى لا تنتمي إلى هذا العالم، تعطي إحساسا مزدوجا بالخوف والانجذاب في آن معا، إنها تجربة

25 DURKHEIM EMILE, « *LES FORMES ELEMENTAIRES DE LA VIE RELIGIEUSE* », PARIS : PUF, 1968 (1912), PP. 50-63.

26مرسيا إلياد: "المقدس والمدنس" ، ص 10.

27رودولف أوتو RUDOLF OTTO 1869 – 1937 لاهوتي ألماني وباحث في تاريخ وفينومينولوجيا الدين.

مع الآخر المختلف كليا، تأتي على الوصف بالمصطلحات والتعابير المعتادة في وصف التجارب الأخرى. وإن الإنقياد إيجابيا لهذه التجربة فكرا وعملا هو الذي يكون الدين.

4. المعتقدات الوثنية القديمة:

أ. المرحلة الطبيعيـــــة.

تعتبر ظاهرة تقديس الحجارة وتبجيلها ظاهرة عالمية، وقد تعددت الآراء حول دوافع الإنسان في العصور القديمة لعبادة الحجارة. فمنها من يرى أن لها أسباب مشتركة في الديانات القديمة البدائية، ومنها من يرى أن الحجارة تستطيع أن تحتوي الحياة كالحيوان والنبات، أو لأنها سكن الأرواح والآلهة. [28] وترجع أقدم الأدلة على انتشار عبادة الحجارة بشمال إفريقيا إلى عصر الحجارة المشذوبة العائدة إلى العصر الحجري القديم الأوسط، وقد وجدت الحجارة ذات الشكل الكروي في المعبد الفينيقية، ويرد اختيار الشكل الكروي للحصى لكونه يربط بمعتقدات الشعوب في عصرها الأول بالرجم الذي علقت ذكراه بلاوعي الكائن البشري، الذي يبقى من خلال ذلك مرتبطا وبإخلاص بكل تجاربه الأولى. واللافتللانتباه انه إلى جانب الشكل الكروي فإن ألوان ووزن ونقاء الحجارة تعتبر أساسية كخصائص تميز الحجارة التي حظيت بالتقديس، لأنها تجلب النظر والمقدس. وفي هذا ترى الكثير من الدراسات في هذا المجال أنه بالإتصال مع الحجارة يتجند قسم من المقدس الذي تحتويه، وينتظر الإنسان منها تأثيرات خيرة، كالشفاء من الأمراض والخصوبة عند النساء.[29]

وحتى أيامنا هذه إستمر تبجيل الحجارة من خلال وضع كرات حجرية وتكديسها على مصطبة في المزارات بالأرياف، بجانب أعطيات أخرى كالمصابيح ومجمرات البخور وعادة ما يتم مد عمود بشكل أفقي إلى أعلى من المصطبة تعقد فيه قطع وخرق القماش. وقد أفاض الإثنوغرافيون في وصف المزارات وطرق التداوي بالحجارة بالمزارات أو اتخاذ أنواع منها كتمائم.[30]

تمثل الجبال إلى جانب الكهوف العبادة الطبيعية الأولى بالمغرب القديم، وقد يعود تبجيل الجبال لنظرتهم لها على أنها مساكن الآلهة، فشكلها كما يرى «كامب Camps »[31]هو الذي يجلب لها القداسة، أو قد يذكر ارتفاعها الإنسان بالسماء مقر كل إله قوي. وقد ذكر «القديس أوغسطينSaint Augustin» بأنه يتم ارتقاء الجبال لأداء العبادات لأن ذلك يعني لدى العبّاد بأنهم أقرب إلى الإله.[32]

---

28 CLAUDE RIVERE, « SOCIO-ANTHROPOLOGIE DES RELIGIONS », ARMAND COLIN, PARIS 2003, P26.

29محمد الصغير غانم: "**الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا**"، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، سنة 2005، ص 66.

30نفس المرجع، ص 67.

31صاحب كتاب" البربر على هامش التاريخ "LES BERBERES AUX MAGES DE L'HISTOIRE.

32محمد الصغير غانم: "**الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا**"، ص 68.

وقد عبد القدماء الأشجار لأنها في اعتقادهم تعتبر سكنا للمقدس، فقد كانوا يربطون خيوطا وخرقا إلى بعض الأشجار وكان الهدف عندهم من وراء ذلك هو ممارسة ذلك الطقس التعبدي الذي يتمثل في طرد الأرواح الشريرة. ويلاحظ أن أنواع الأشجار التي تم تقديسها متنوعة فمنها: شجرة الزيتون والكرمة ثم النخلة والسدرة وغيرها. وقد يعود ذلك لخصائص تتوفر فيها، أو لأن الإنسان يدين ببعض الأغذية التي يستهلكها من هذه الأشجار المشار إليها. ويمكن انطلاقا من هذا المفهوم تعليل اختلاف أنواع الأشجار المقدسة باختلاف المناطق الجغرافية، أو لأن الأشجار تمثل شكلا من أشكال الحياة تسمح بتجددها، فارتبطت من خلال ذلك بفكرة الخصوبة، لذلك نجدها قربة من آلهة الأرض- أي الإلهة الأم – آلهة الإنبات مثل الإله "تموز Temuz" في بلاد ما بين النهرين، و"أتيس Attis" و "أدونيس Adonis" في الحضارة الإغريقية...(33)

ب. المبدأ الطوطمـــــي:

جاءت الكلمة أصلا من كلمة *Ototeman* المأخوذة من لغة هنود الأوجبوا*Ojibwa* في أمريكا الشمالية، وهي تعني في لغة الأجبوا ما معناه "هذا من أقربائي"، وقد دخلت اللغة الإنجليزية عام *1797* على يد جون لونغ*John Long*(34). وتنتشر الطوطمية خصوصا بين قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية وبين سكان أستراليا الأصليين. والطوطم غالبا ما يكون حيوانا أو نباتا ولكن يمكن أن يكون جمادا أو مظهرا من المظاهر التضاريسية أو الطوبوغرافية كجبل أو نهر أو بحيرة أو قوة من قوى الطبيعة أو مظهرا من مظاهرها مثل الماء أو المطر أو الريح. وغالبا ما تتخذ العشيرة البدائية طوطما يميزها عن غيرها من العشائر فتسمى باسمه وتتخذه رمزا لها وتقدسه لاعتقادها بأنه يتكفل بحمايتها ورعايتها وأنه يرتبط بها برباط سري، وإذا وجدوه ميتا، في حالة الحيوان، دفنوه في جنازة مهيبة كما يفعلون بموتاهم. ويصل احتفائهم بالطوطم إلى درجة نقش صورته الخرافية على أجسادهم بطريقة الوشم وينقشون صوره على معظم أدواتهم وملابسهم، وفي أمريكا الشمالية يصنعون له أعمدة ضخمة من خشب الأرز يحفرون عليها صوره ومشاهد درامية ورموز تؤكد على العلاقة الخفية بين والوثيقة بين التي تربطهم به.

وكانت العشائر الأسترالية يحفرون صورة طوطمهم على أجسادهم، وأحيانا ينقشون له صورا دقيقة على ألواح مصطحة ملساء وصغيرة من الحجر أو الخشب تكون بيضاوية أو مستطيلة الشكل ورقيقة يثقبونها من أحد الجوانب وينظمون بها خيوطا من الشعر الآدمي، وتسمى هذه تشورينغا*Churinga*. ويحرم على الأشخاص المدنسين مثل النساء والأطفال الاقتراب من التشورينغا أو حتى مجرد النظر إليه. ويقدسون هذا النقش ويعدونه بمثابة الراية للعشيرة أو الشارة التي ترمز لها ولطوطمها الذي تعبده ويميزها عن غيرها من العشائر. ولا تختلف

33نفس المرجع، ص 71.

34بيار بونت وميشال إيزار، **معجم الإثنولوجيا والنثروبولوجيا**، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت-لبنان، سنة 2006، ص 635.

التشورينغا عن أي قطعة حجر أو خشب أخرى لكنها بحكم نقش الطوطم عليها تكتسب قدسية خاصة عندهم وأهمية بالغة في طقوسهم الاحتفالية حيث يمسكون بها من طرف الخيط المشدود فيها ويلوحون بها في حركة دائرية وسريعة لتحدث طنينا يشبه العويل.

وتدور طقوس العشيرة ومراسيمها ومعتقداتها حول تقديس طوطمها. كما يروون حكايات خرافية وأساطير عن هذا الطوطم وعلاقته بهم وبأسلافهم وكيف تناسلوا منه، على أساس أنهم ينتمون له بصلة القربى. من هذه الخرافات ما يحكى عن عشيرة الأرونتا*Arunta*، وهي من عشائر أستراليا الأصليين، أن حيوانهم الطوطمي من فصيلة الكنغر أنقذ جد العشيرة الأول من هلاك محقق. ولكي يرد الجميل لذلك الحيوان الذي أنقذ حياته أوصى الجد أبناءه وأحفاده بأن لا يمسوه بسوء. وبالمقابل تعهد الحيوان أن تظل روحه تحرس سلالة ذلك الجد أبد الدهر. وتقطن عشيرة الأرونتا في منطقة تخصها دون غيرها يستثمرون خيراتها ويتغذون على نباتاتها وحيواناتها. وتوجد في المنطقة عدد من البقع المقدسة كل منها تخص طوطما معينا يعتقدون أنه مدفون فيها. وتتميز هذه البقعة بعلامة بارزة من الشجر أو الحجر أو غير ذلك من العلامات المميزة والتي تسكنها نصف روح الطوطم بينما يحوم النصف الآخر حولها متربصا حتى تمر بالقرب منه امرأة حامل ليحل في جنينها الذي يولد وقد تَلبس بهذه الروح الطوطمية(35). ويتحدد طوطم الجنين الذي في بطن أمه بحسب الظروف التي كانت تمر بها حينما أحست لأول مرة بأعراض الحلم كأن تحس بالجنين يتحرك داخل رحمها أو تحس بالغثيان أو تتوحم بنوع معين من الطعام. ما يصادفها في تلك اللحظة وفي تلك البقعة من طائر أو حيوان أو نبات أو حتى منظر طبيعي غير مألوف لها يكون في نظرهم، هو المأوى الذي انسلت منه الروح لتلج روح الطوطم في رحمها وتحل بها لتتقمص جنينها. وعلى هذا يكون منشأ الطوطمية نابع من جهل الأقوام البدائية بحقيقة عملية التخصيب والأسباب الطبيعية للحمل.

وتحرم العشيرة إيذاء طوطمها أو أكله إلا في مواسم معينة، هي بمثابة الأعياد عندهم، يأكلون فيها لحم طوطمهم نيئا وفق طقوس جماعية يلتم فيها كافة أفراد العشيرة وفي مراسم احتفالية بهيجة يشارك فيها الجميع وتستمر لبضعة أيام يقصد بها تجديد القوة الخفية غير المجسدة التي اكتسبوها من الطوطم فحلت بهم وصارت تسري في عروقهم وتمتزج بدمائهم وتقوي وشائج القربى الخاصة التي تربطهم بطوطمهم وببعضهم البعض. وفي هذه المناسبات الاحتفالية يطلقون العنان لغرائزهم ويتحللون من كل القيود والمحرمات، يغنون ويرقصون على قرع الطبول وقد صبغوا أجسادهم بالطلاء وتزينوا بأزياء يتشبهون بها بطوطمهم ويطلقون صيحات كصيحاته وحركات كحركاته. وهناك من النثروبولوجيين من يعتقد بأن هذه الطقوس الاحتفالية التي يتم فيها أكل الطوطم الذي يمثل إله العشيرة من أجل استدخال قواه وخصائصه الالهية كانت هي البدايات الولى لتقديم القربين والأضاحي للآلهة كما وردت في الديانات اللاحقة، بما فيها القرابين البشرية، وكذلك عشاء الرب أو القربان المقدس عند المسيحيين الذي يأكلون

35 FREUD 1946 : 148.

فيه فتاتا من الخبز يرمز لدم السيد المسيح وخمرا يرمز لدمه. كما أن هناك من الأنثروبولوجيين من يعتقد بأن الشعور غير المبرر تجاه بعض الحيوانات أو النباتات بأنها نافعة أو ضارة أو مسكونة بالأرواح، وكذلك تسمية بعض الأشخاص بأسماء نباتات وطيور ووحوش وحيوانات أخرى هو بقايا من الطوطمية.

ومن أهم خصائص الطوطمية أن العشائر التي تؤمن بها تمارس الزواج الخارجي، بمعنى أن من ينتمون لنفس الطوطم ويتسمون باسمه لا يحق لهم التزاوج من بعضهم البعض لأنهم ينتمون إلى نفس العشيرة ولا بد أن يبحثوا لهم عن أزواج وزوجات من عشيرة أخرى تتسمى باسم طوطم مختلف. ومن هنا تتقاطع مباحث الطوطمية مع النسق الديني ومع النسق القرابي.

إن الإستخدامات المختلفة لصورة الطوطم لدى مختلف القبائل والشعوب البدائية، تبين لنا أن الطوطم بالنسبة للعشيرة ليس مجرد اسم أو شعار، بل هو في الوقت نفسه شارة ذات بعد روحي وديني، وهيئة الطوطم تشير إلى جوهر العالم القدسي. وإننا نجد في طقس «التشورينغا»[36] صورة لهذه القداسة[37]، إذ تضفى على المكان الذي يحفظ فيه هالة من القداسة، وتشكل الدائرة المحيطة به مكانا حراما لا يجوز فيه الإقتتال أو الصيد، ومن دخله صار آمنا من أعدائه، أما النساء وغير البالغين من الفتيان فيحظر عليهم الإقتراب من المكان كما يحظر عليهم حتى النظر إلى الأدوات الطقسية عندما يتم إخراجها لإقامة الطقوس.

إن صورة الطوطم المحفورة أو المرسومة على هذه الأدوات الخشبية أو الحجرية هي التي تعطيها صفة القداسة، فصورة الحيوان هنا، ليست مقصودة لذاتها بل لما وراءها من أفكار تنتمي إلى مستوى آخر غير منظور، والطوطم الممثل في هيئة مادية ليس إلا رداءً لقوة غير مادية. وهناك تمييز بين الحيوان الطوطمي وشارته المقدسة، فالشارة الطوطمية تحاط بشتى أنواع تابو اللمس والنظر وحتى الإقتراب، وتخفى بعيدا عن جو العالم الدنيوي، ويتم الإجتماع أمام شارة الطوطم في المناسبات الدينية، فيرقص حولها ويتعبد لها، ويتم تلقين الفتيان أسرار الحياة الدينية في الحرم المقدس حيث تحفظ صور الطوطم... ومن هنا فإن الإعتقاد الساذج بأن الطوطمية هي نوع من عبادة الحيوان، هو اعتقاد بعيد عن واقع الأمور، وقد جاء نتيجة الكتابات المتعجلة التي قدمت إلى الجمهور لتعريفه بالطوطمية خلال الفترات المبكرة لكتشفاها.[38]

إن الشيء المقدس من وراء شارة الطوطم هو بالدرجة الأولى (قوة غفلة) غير مشخصة، بلا اسم وبلا شخصية وبلا تاريخ حياة تسري في مظاهر الكون المادي جميعا، لا في هذا المظهر أو ذاك ولا في هذه الفصيلة الحيوانية أو

36"**التشورينغا**": عبارة عن قطع من الخشب أو الحجر المصقول يغلب عليها الشكل البيضوي أو المستطيل. ولكل جماعة عدد من هذه الأدوات ، تحفر عليها صورة طوطمها وتنظر إليها بعين القداسة.

37 فراس السواح: دين الإنسان ، ص 181.

38 المرجع نفسه، ص 182.

تلك. تجسد هذه القوة الغفلة من خلال موضوع مرئي مأخوذ من عالم النبات أو الحيوان، وهذا هو الطوطم الذي يعبر من خلال شكله المادي عن الجوهر غير المادي، عن تلك الطاقة المنبثة في كل شيء والجديرة وحدها بالعبادة والتقديس، فهذه القوة فعلية لا غيبية، تعبر عن نفسها بقوة ووضوح من خلال سيلانها في الموضوعات المادية، ويخشى من التعامل معها بطريقة مخالفة للأصول، كيلا تصيب الإنسان بنوع من الصدمة التي تشبه ما نعرفه عن الصدمات الكهربائية.

ج. الروح الكبـــــرى:

غير أن المجتمعات الطوطمية في طورها المتقدم خاصة في أمريكا الشمالية[39]، قد سارت بمفهوم المبدأ الطوطمي نحو شكل أكثر شمولية ونقاء، إذ توجد فوق الكائنات قوة شمولية غير مشخصة تستمد منها الكائنات الإلهية وجودها وفعاليتها. وتعتبر مظاهر الطبيعة كالأرض والرياح والشمس والقمر والنجوم، إلا تمظهرات لهذه القوة المحركة الشمولية المتخللة في كل شيء، والتي تشبه أحيان نسمة الهواء التي تتفصل مع الكون عند الجهات الأربعة وتتسبب في تحريك كل متحرك. إن خصائص «الواكان»[40] لا تتبدى في مقدرته على إتيان هذا الفعل أو ذاك، ولكنه القوة بالإطلاق، والمبدأ الذي به يقوم كل شيء؛ الطاقة التي تغذي كل قدرة متبدية في هذا العالم. ففي الأساس من كل ظاهرة، هناك مقادير من هذه الطاقة غير متكافئة، وليس الإستقرار الكوني إلا نتاج تقابل هذه القوى غير المتكافئة وتحييدها لبعضها بعضا.

ونجد الإعتقاد نفسه لدى جماعات الهنود الحمر بتسميات مختلفة، إذ يقوم المعتقد الديني عندها على الإيمان بقوة شمولية كلية السلطان وكلية الحضور يدعونها «مانتو». يتجلى حضور هذه القوة من خلال دورة الأيام والفصول وخصب الأرض وطاقة الحركة في الأحياء وأفعال الأرواح غير المرئية، وهو حضور لا يمكن حصر آثاره لأنه أساس كل التحولات الجارية في العالم. وإضافة إلى هذا التجلي على المستوى الطبيعي، فإن له تجليا آخر على المستوى الإجتماعي؛ فعن طريق الأحلام يتلقى القادة عون القوة على اتخاذ القرارات، ومنها يتم استلهام أغان ورقصات جديدة، وما إلى ذلك من فنون وطقوس تعيد شحن الحياة الثقافية للجماعة، فهي مصدر الوحي والحياة الفكرية والروحية والجمالية للإنسان.

39 المرجع نفسه، ص 183.

40"الواكان": هو السر المحرك للكون لدى القبائل الهندية في أمريكا الشمالية (الوماها، والبونكا، وكنساس ودونكا)

استنادا إلى ما تقدم، يمكن القول بأن الطوطمية الأسترالية قد رأت إلى الألوهية في قوتها السارية فقط، ولم تتأمل في المجال القدسي الذي صدرت عنه هذه القوة. أم الطوطمية في أمريكا الشمالية فقد رأت فيما دعوناه تجاوزا بالروح الكبرى، مجالا قدسيا وقوة سارية في الآن نفسه.(41)

د. المانـــــا:

من ميلانيزيا جاءنا مصطلح «المانا» الذي تم استخدامه منذ التعرف عليه، للدلالة على معتقد القوة أينما تم التعرف عليه لدى بقية الثقافات البدائية.(42)وقد قدم مصطلح «المانا» لأول مرة إلى الحلقات الأنثروبولوجية للمبشر «كوردينغتونCordingnton» في كتابه عن جزر مبلانيزيا وثقافاتها. وانطلاقا من ملاحظات كوردينغتون عن الديانة الميلانيزية، توسع باحثون آخرون في دراسة مفهوم «المانا» في ديانات جزر المحيط الهادي، وأهم هؤلاء الفيلسوف والأنثروبولوجي البريطاني «ماريتR. Maritt» الذي يرى أن الميلانيزي يحس بحضور عالم فوق طبيعي يتجلى كشيء خارق وغير مفهوم، يستثير الإحساس بالروع، ويجد الإنسان نفسه في علاقة غير اختيارية ولا يمكن دفعها. وهو يميز بين حالين للمواجهة مع العالم فوق الطبيعتي؛ حال إيجابي وحال سلبي، فيدعو الأول بالمانا، وهو الإحساس بفعالية ذلك العالم وآثاره في الإنسان ومظاهر الطبيعة، ويدعو الثاني بالتابو، وهو الإحساس بالجوانب الخطرة لتلك الفعالية واحتمالات الأذى الكامن فيها، وضرورة مراقبتها بحذر.(43)

والمانا *Mana* مفهوم قريب من مفهوم البركة أو الحظ، بمعنى أنها طاقة خفية وقوة غير مشخصة يمكن أن تحل في الأشياء مثلما تحل في الأشخاص . وكل شيء يبدو للملاويين خارقا للعادة أو في حكم المعجزات يعزون ذلك إلى قوة المانا فيه، كأن يكون قاربا سريعا أو سنارة لا تخفق في صيد السمك أو عقيد غزوات مظفر أو مغنيا صوته جميل. يقول رالف لنتون*Ralph Linton* إن قوة المانا قوة خفية لا ندركها ولا نعرف بوجودها إلا من آثارها وما يترتب على مخالفة قواعد التعامل معها من أضرار، ويشبهها بالطاقة الكهربائية التي لا تشعر بها حتى تلامس يدك سلكا عاريا موصولا بتيار كهربائي. وأي شخص أو شيء تحل به المانا يصبح محرما لا يسمح لأحد بالاقتراب منه أو مسه، ولذا يلزم وضع علامات تحذيرية تشير إلى أن ذلك الشيء أو المكان أو الشخص محرم، أو كما يقولون بلغة الملاوي "تابو Taboo"، وهي كلمة يستخدمونها في هذا السياق تحديدا، وتعطي المانا صاحبها قدسية مصحوبة بقوة سحرية وقدرات فوق عادية، خصوصا إذا كان من أفراد العائلة الحاكمة أو شخص متنفذ دينيا أو سياسيا، بحيث يصبح مجرد الاقتراب منه أو من الأرض التي يطأ عليها نذير خطير ومصدر هلاك محقق لأن المانا سريعة العدوى والانتشار وبالغة التأثير، فهي تشع وتتفشى في الأجواء المحيطة كما يشع النور ويتفشى الصوت أو الروائح. وتعتمد

41فراس السواح: دين الإنسان ، ص 185.

42بيار بونت وميشال إيزار: "معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا"، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، بيروت-لبنان، ط 01 ، سنة 2006، ص 802.

43 فراس السواح: دين الإنسان ، ص 186.

قوة المانا على قوة الشخص نفسه ومكانته في العشيرة. أما رئيس العشيرة فإنه يتحول إلى كتلة مشحونة بطاقة المانا بحيث يلزم التخلص من كل شيء يمسه أو يستعمله من آنية أو ملابس، حتى أن ظله أو مجرد نظرة منه لو وقعت على شخص لأهلكته. وحينما يضطر للخروج ينتظر حتى يحل المساء ويخلي الناس الطرقات حتى لا ينالهم بسوء ثم يحمله أتباعه على أكتافهم حتى لا تطأ قدماه الأرض فيصبح الدرب الذي مر به مشحونا بطاقة المانا الخطرة. ولتفادي هذا الخطر يقوم على خدمة الرئيس أعوانه من الأغراب الذين يفدون إلى الجزيرة من جزر أخرى لخدمته، لأن المانا لا يطال تأثيرها إلا من ينتمون إلى نفس العشيرة...

نستطيع أن نعثر في أساس كل الديانات الإفريقية على معتقد جوهري تقوم عليه بنية الدين الإفريقي المعقدة والمتشابكة الفروع والأغصان، وهذا المعتقد يتماشى والمصطلحات التي ركزنا عليها مثل: «القدسي، القوة السارية». ففي جميع هذه الديانات التقليدية، هناك إعتقاد بوجود عنصر غير مادي يسكن في الأشياء والكائنات مرئية كانت أم غير مرئية، هو نوع من القوة الحيوية التي تتوزع بهذا المقدار أو ذاك على كل عنصر من عناصر العالم. وهذه المقادير من القوى هي أجزاء متفرقة من قوة كونية عظمى تنبث فيما لا يحصى من الموضوعات. وعند اضطراب التوازن الموجود في العالم، خصوصا على يد الإنسان عندما يرتكب خطيئة أو رجس طقسي، يمكن إصلاح الخلل عن طريق التحكم الطقسي بمقدار الطاقة المتوزعة، وذلك بالأضاحي الدموية التي تحرر القوى الحيوية من الضحية.

إن كل عنصر في العالم هو متلق ومخزن ومرسل للقوة، ويمتلك السحرة بشكل خاص مقدارا عاليا من هذه القوة، وذلك بسبب إمكانياتهم الفطرية أو المكتسبة على اجتذاب القوة واستخدامها في سبيل الخير أو الشر. ومثل السحرة أيضا الملوك والزعماء وبعض الشخصيات الاستثنائية.

5. الرمز ، الطقس و الشعيرة:

أ- الرمز:

الرَّمْزُ: تصويت خفي باللسان كالهَمْس، ويكون تحريكَ الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل: الرَّمْزُ إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم. والرَّمْزُ في اللغة كل ما أَشرت إليه مما يُبانُ بلفظ بأَي شيءٍ أَشرت إليه بيد أَو بعين، و رَمَزَ يَرْمُزُ ويَرْمِزُ رَمْزاً[44]. وفي التنزيل العزيز في قصة زكريا: ﴿أَلا تكلِّمَ الناسَ ثلاثة أَيام إِلاّ رَمْزاً﴾.[45]

44 ابن منظور، " لسان العرب"، المجلد الثالث، ص 119.

45 سورة آل عمران، الآية 41.

لم يخضع مصطلح أو كلمة مثلما خضعت كلمة « رمز» لاستخدامات متنوعة ومتعددة دون تحديد أو تعريف لها، ولم يخضع تصور أو مصطلح مثلما خضع «الرمز» لتعريفات شتى متضاربة ومتناقضة ليس فقط في العلوم المختلفة بل داخل العلم الواحد مثل الأنثروبولوجيا. والمشكلة الجوهرية في تعريفات الرمز لا ترجع فقط إلى اختلاف العلوم وفروضها ونظرياتها، بل إلى خلط المعاني المرتبطة بالرمز من خلال إطلاق كلمة رمز على قضية عامة وتطبيقها في الوقت نفسه على الفروع التي تندرج تحت ما هو عام. فعلى سبيل المثال تستخدم كلمة إشارة بنفس معنى كلمة رمز عند بعض الباحثين، بينما يضع البعض الآخر تمييزا بينهما، وقد وضع البعض الرمز على أنه أحد أنواع الإشارة مثل ما فعل «بيرسCHARLES SANDERS PEIRCE ».[46]

كما أسلفنا اختلفت مدلولات الرمز من حقل معرفي إلى آخر، بل كثيرا ما تعددت معانيه داخل الحقل المعرفي الواحد، لذلك كان لزاما علينا الأخذ بالمفاهيم التي تخدم موضوع دراستنا، فعند علماء النفس يرى فرويد أن الرمز أداة في يد اللا شعور أو المكبوت الجنسي« فأغلب الرموز في الحلم رموز جنسية»[47]، وقد أورد « فرويد» Sigmund Freud [1856- 1939] بعض الأمثلة على هذا النوع من الرموز قائلا: « إن البيت يرمز لشخص الإنسان في مجمله، الأبوان يرمز لهم بالإمبراطور والإمبراطورة، العضو الجنسي الذكري يرمز له بالعصي، جذوع الأشجار والأسلحة والسكاكين والخناجر والسيوف ... أما عضو الأنوثة فيرمز بكل الأشياء التي فيها تجويف، والتي يمكن بالتالي أن تكون أوعية ومستودعات كالمناجم والحفر والكهوف» [48]

فالإبداع الفني في نظر فرويد أشبه ما يكون بالحلم حين يفلت من الرقابة، فتكون فيه الصورة رمزية لها باطن وظاهر، ويصرح فرويد بأن «الرمزية ليست خاصية من خواص الأحلام فحسب، بل من خواص التفكير اللا شعوري» [49]، فالرمز بمعناه الواسع في التحليل النفسي يمثل تصويرا غير مباشر للأفكار والرغبات اللا شعورية. وقد عده فرويد أحد ميكانيزمات تفسير الأحلام فأفرد له مبحثا مطولا في كتابه تفسير الأحلام بعنـــوان « التصوير بواسطة الرموز في الأحلام»، فأشار إلى العلاقة الثابتة بين عنصر الحلم وتأويله فسماها العلاقة الرمزية (La relation symbolique)، فتأويل الأحلام من وجهة نظر نفسانية تستند إلى دعامتين أساسيتين«أولاهما تداعيات الحالم وثانيهما يتعلق بتأويل الرموز» [50]، كما أكد فرويد على ثبات العلاقة الموجودة بين الرمز والفكرة

46 عشتار داود محمد: " الإشارة الجمالية في المثل القرآني" دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، سنة2005، ص 20، تم تحميله من الموقع: WWW.AWU-DAM.ORG/BOOK يوم: 2007/02/27.

47 سيقموند فرويد: " **نظرية الأحلام**"، تر جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت- لبنان، 1980، ص 92.

48 المرجع السابق، ص92.

49 سيقموند فرويد: " تفسير الأحلام"، ترجمة مصطفى صفوان، مراجعة مصطفى زيور، دار المعارف، القاهرة- مصر، 1981، ص 358.

50 جان لابلانش، ب بونتاليس: معجم التحليل النفسي، تر مصطفى حجازي، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 1987، ص 271.

المرموز إليها، وهذا الثبات لا يلاحظ في الأحلام وحدها بل أيضا في أعراض اللاوعي الأخرى من مثل الأساطير والفلكلور والدين...

أما « كارل يونغ » Karl Gustav Young [1875- 1961] فقد تناول الرمز من جانب مستوى اللا شعور الجمعي، الذي هو المخزون الشامل لذكريات شخصية وصور بدائية موروثة من أجيال عديدة عن السلف « فكل فنان يملك ذكريات شخصية لبعض الأشياء ترتبط غالبا بمجالات وجدانية ارتباطا لا يمكن تحليله، ووراءها تقبع انطباعات قديمة أو صور أولية...هذه الصور تلوح من بعيد غامضة وراء التجربة الحاضرة وتؤثر تأثيرا خفيا في النفس » [51] فاللا شعور الجمعي الذي هو مكمن الموروث من تاريخ البنية العقلية البشرية بكل ما يمثله هذا الموروث من الأساطير البدائية والمكونات الدينية والخرافية، يتكون من وحدات يسميها «يونغ» بالأنماط الأولى (Arche types) وهي عبارة عـــن «صور كونية توجد منذ أزمنة بعيدة الغور، وتعود إلى حين كان الشعور الإنساني مرتبطا بالكون متوحدا فيه، عن طريق الترميز والأسطرة، وهذه الصور النمطية هي التي تصل الإنسان بجذوره الأولى فيظل مرتبطا بأرضه وجنسه وأسلافه» [52] إن هذه الأنماط الأولى المكونة للاشعور الجمعي، هي مجموع الأساطير التي تركها الإنسان البدائي وتبقى مخزونة في ذهن الإنسان، في عصور مختلفة وبين شعوب مختلفة مهما ارتقى الإنسان في سلالم التقدم والمدنية. فالإنسان حسب هذا الطرح يجد نفسه مرغما على إعادة إنتاج هذه الصور البدائية بصيغ متشابهة، وهذا التشابه في الرموز الأسطورية والأحلام، كما يبدو في عصور وبين شعوب متباعدة، هو أكبر دليل عند يونغ على وجود اللاشعور الجمعي.

وقد شكل مفهوم اللاشعور الجمعي والأنماط العليا الأساس الذي قامت عليه الكثير من الدراسات النقدية والأنثروبولوجية التي راحت تلتمس في البحث عن الأنماط الأولى مقياسا لتحديد قيمة الأعمال الإبداعية وخلودها، لكون هذه الأنماط نتاج الفطرة الخالصة، وهكذا يبدو الفارق واضحا بين كل من فرويد ويونغ في تحديدهما لماهية الرمز، فإذا كان الأول ينسب إليه محتوى يتعلق بالجنس الطفولي المحرم وإلى المكبوت المكتسب في حياة الفرد، فإن الثاني ينسب الرمز إلى الذكريات الشخصية التي تعود بالفرد إلى العهود الغابرة مما يضفي على طروحاته طابعا له علاقة وطيدة بالأنتربولوجيا أو تاريخ الأديان.

هذا في مجال التحليل النفسي، أما في مجال السيمياء فقد حاولت الفلسفة الرمزية التي تزعمها «أرنست كاسيرر» Ernest Cassirer [1874 - 1945] في كتابه « فلسفة الأشكال الرمزية» أن تجد في الرمز مفتاحا

51 نعيم اليافي: تطور الصورة الفنية في الشعر الحديث، ط 1، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، 1983، ص 285.

52 عبد الفتاح محمد أحمد: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ط 1، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1987، ص 84.

لفهم طبيعة الإنسان من خلال اهتمامها بالأشكال اللغوية والفنية والميثولوجية التي تمثل وسيطا رمزيا يواجه به الإنسان الكون وما حوله، لتضحى هذه الأشكال عبر السنين نتاج تفاعل بين عالم الإنسان وعالم الواقع.

لقد أورد «كاسيرر» مبادئ أساسية تبرز اللغة في صورة أوسع من أنها مجرد أداة للتواصل، فاللغة خاصة الشفوية منها، تتقاسم مع سلسلة من الأنظمة التي تشكل في مجموعها أجزاء هامة من كون الإنسان. .وهذه الأنظمة تتمثل في الخرافة والدين والعلم والتاريخ؛ فبهذه الوحدات استطاع الإنسان التعبير عن الواقع الطبيعي المادي بلغة الواقع الاجتماعي البشري ومن ثم صرح «كاسيرر» (أن الإنسان حيوان رمزي في لغاته وأساطيره وديانته وعلومه وفنونه).

أشار «فيرديناند دي سوسير» Ferdinand de Saussure [1857- 1913] ولو بشكل عرضي في كتابه «محاضرات في اللسانيات العامة» إلى مفهوم الرمز في محاولته لتعريف الدليل اللغوي، فتحدث عن العلاقة الاعتباطية التي تربط الدال بالمدلول، كأن لا يحمل الدال "شجرة "على سبيل المثال أي صفة تحيل على مدلولها، وأن ما يبرر هذه التسمية هو مجرد الاصطلاح. ثم أشار «سوسير» إلى نوع آخر من الدلائل سماها الدلائل الطبيعية، أي تلك التي يحيل مدلولها على مدلول ثان بشكل طبيعي كدلالة الميزان على العدل .فالمدلول اللغوي هنا يضطلع بالوظيفة الرمزية ويؤكد «سوسير» على هذه الخاصية قائلا: « فالرمز يتميز بكونه ليس دائما اعتباطيا تماما، فهو ليس خاويا، بل نجد فيه شيئا طفيفا من الربط بين الدال والمدلول، فلا يمكن أن نعوض رمز العدالة بما اتفق من الأشياء الأخرى كالدبابة مثلا» [53].

أما « تودوروف » Tzvetan Todorov [1939-] فقد منح الرمز مدلولا شاملا يتضمن كل أشكال المجاز بحيث يكون للكلمة مدلول آخر غير معناها المعجمي، فكلمة لهيب مثلا إذا وظفت توظيفا استعاريا قد ترمز إلى الحب، ثم يعلل تودوروف بأن العلاقة في صلب الرمز بين الرامز والمرموز ليست ضرورية، إذ أن الرامز وأحيانا المرموز (المدلولان لهيب وحب) يوجد أحدهما مستقلا عن الآخر، ولـهذا السّبب « فإن العلاقة لا يمكنها إلا أن تكون سببية، وإلا فليس هناك ما يبرر » [54] وقد استدل «تودوروف» على عدم وجود علاقة مشابهة واضحة بين الرامز والمرموز أحيانا في دراسة قام بها عن الرمز عند الرومانسيين، ومن جهة أخرى يرى «تودوروف» أن الدراسات عن الرمز، تندرج ضمن إطار واسع يشمل اختصاصات مختلفة كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والتحليل النفسي والألسنية والسيمياء. ..إلى درجة أن الأدب في حقل الدراسات السيميائية، لم يبق بمعزل عما يجري من

53 فرديناند دي سوسير: "***دروس في الألسنية العامة***" ، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش، الدار العربية للكتاب، طرابلس- ليبيا، 1998، ص 113.

54 OSWALD DUCROT, TZVETAN TODOROV: "Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage", Edition du Seuil, 1972, Page 135.

نقاش حول الرمزية حتى أن سيمياء الأدب أصبحت تَعتبر الخطابات بمختلف أنواعها كأنظمة رمزية تصوغ عالم الثقافة وتمنحه أشكاله المختلفة.

أما « بيرس» CHARLES SANDERS PEIRCE [1839- 1914] أحد رواد علم السيمياء فهو ينفي صفة التعميم عن الرمز ويميز العلامة الرمزية عن أنماط العلامات الأخرى كالأيقونة (Icône) والمؤشر (Indice)، وفي نفس الوقت نجد بيرس يميز بين ثلاثة أنماط وأنواع من العلامات، فهناك العلامة الأيقونة التي تدل على موضوعها من حيث أنها ترسمه أو تحاكيه بفضل صفات تملكها مثل الصور الفوتوغرافية، وهناك العلامة الإشارة التي تدل على الشيء الذي تشير إليه بفضل ارتباط سببيتها بمرجعيتها مثل الدخان الذي يشير إلى الحريق. أما العلامة الرمزية فهي تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل قانون غالبا ما يعتمد على التداعي بين أفكار عامة، فهي حسب «بيرس» أكثر العلامات تجريدا كون العلاقة بين الدال والمدلول غير عرفية وغير معللة. فالعلامة الرمزية عند «بيرس» أرقى فنيا من الأيقونة والمؤشر ذلك أن الرمز« دليل يحيل على الموضوع الذي يعينه بفضل وجود قانون يحدد تأويل الرمز بالإحالة إلى هذا الموضوع ... فالرمز إذن، دليل وقانون، فكل كلمة وكل دليل تعاقدي عبارة عن رمز».[55]

ب- الطقس:

بادئ ذي بدإ نحاول ضبط مفهوم الطقس، حتى نتمكن من تأسيس قاعدة تؤهلنا لفهم فضاء الخيمة المليء بالممارسات الطقوسية، التي لازالت المعتقدات الشعبية تحافظ على حويتها. فالطقوس كما يعرفها علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية هي: «مجموعة حركات سلوكية متكررة يتفق عليها أبناء المجتمع وتكون على أنواع وأشكال مختلفة تتناسب والغاية التي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعة للقيام بها».[56]

إن كلمة طقس « Rite » مشتقة من الكلمة اللاتينية « Ritus » و هي عبارة تعني عادات و تقاليد مجتمع معين كما تعني أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي57، تكمن دعوة الطقس في إثبات استمرارية الحدث التاريخي الشهير فهو يميل إلى تكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده فهو استنادا إلى ذلك إعادة خلق و تحيين لماض غامض غالبا لكنه يأخذ معناه عند الدين يستخدمونه على انه فعل ديني[58] يشير« فان درلو VAN DERLew » عندما يتحدث عن الطقس بأنه إحياء و تحيين

55 مبارك حنون: " دروس في السيميائيات"، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، سنة1987، ص 56.

56 MARTINE SEGALEN : « ***Rites et Rituels Contemporains*** », Éditions Nathan, Paris, 1998, P 8.

57 **طوالبي نور الدين : "**الدين، الطقوس، التغيرات**"، منشورات عويدات و ديوان المطبوعات الجامعية 1988 ص 147.**

58 **المرجع نفسه، ص 34.**

لتجربة مقدسة و يضيف بأن الطقوس أساطير تتحرك لأن الأسطورة هي مؤسسة الفعل المقدس فهي تسبقه و تضمن بقاءه[59]، وعليه إن ممارسة الطقس التقليدي تبدو قريبة في الوسط الريفي إلى المعتقد الديني أكثر منه في الوسط المدني ، و من جهته يرى« نور الدين طوالبي» أن التطبيق الشامل للطقوس العامة ليس قبل كل شيء سوى برهان إضافي على التعلق الشعبي بالدين فهو في دلك مقبول شرعا باعتباره إرادة جماعية تسعى نحو إعادة الاعتبار للتقاليد و على الأخص للإسلام.

لكن لاصطلاح (طقوس) ثلاثة استعمالات مختلفة، الاستعمالان الأولان يؤكدان على الطبيعة الرمزية للطقوس، أما الاستعمال الأخير فيعرف الطقوس بالنسبة للعلاقة بين الواسطة والغاية التي تكمن في السلوك الاجتماعي. وتبعاً للمعايير الطقوسية فإننا نشاهد استعمال الطقوس في التصرفات السحرية والدينية وفي بقية أنواع التصرفات التي تقرها العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع. ويمتنع «رادكلف براون Radcliffe-Brown »[1881-1955] في كتاباته الانثروبولوجية عن استعمال مصطلحي سحر ودين كما استعملـــها «فريزر James Frazer»[1854-1941] ويمتنع أيضاً عن استعمال مصطلحي مقدس وشرير كما استعملها «اميل دوركهايم Emile Durkheim »[1858-1917]، ويستعمل بدلاً عن هذه المصطلحات اصطلاح القيم الطقوسية الذي استعمله لأول مرة في العلم الانثروبولوجي.[60]

وفرضيته حول الطقوس تنص بأن القاعدة الأساسية للطقوس هي تطبيق القيم الطقوسية على الأشياء والحوادث والمناسبات التي يمكن اعتبارها بمثابة الأهداف ذات المصالح المشتركة التي تربط أعضاء المجتمع الواحد أو تمثل تمثيلاً رمزياً جميع الأشياء التي تستند على تأثير السلوك الرمزي بأنواعه المتعددة. إذن يمكن اعتبار فرضيته حول الطقوس بأنها فرضية عامة للرموز لها تأثيراتها الاجتماعية المهمة. والطقوس حسب آراء «رادكلف براون» هي حدث رمزي يعبر عن قيم اجتماعية مهمة.

أما العالم الانثروبولوجي الاسكتلندي «وليم روبرتسن سمث William Robertson»[1846-1894] فأنه يعتقد بأن الطقوس الدينية هي أشياء تعبر عن آراء يمكن تمريرها من شخص لآخر ومن عصر لآخر دون إحداث أي تغيير فيها. كما يمكن التعبير عن جميع الآراء التي لا تدخل في إطار الخرافة أو العقيدة المتحيزة بالتصرفات الطقوسية، ويعتقد العالم «إدموند رونالد ليج Sir Edmund Ronald Leach» [1910-1989] بأن الطقوس هي نوع من أنواع السلوك الاجتماعي له صفة رمزية تنعكس في الشعائر والممارسات الدينية وأحياناً يعبر عنها في سياق العادات والتقاليد، كما توضح الطقوس حسب آراء العالم «ليج» معالم التركيب الاجتماعي إذ تحدد أنماط

59 المرجع نفسه، ص 35.

60MARTINE SEGALEN : « Rites et Rituels Contemporains », P 10.

العلاقات الاجتماعية المتناسقة بين الأفراد والجماعات. الطقوس إذن ليست نوعاً من أنواع الحدث وإنما هي وسيلة إعلامية تعبر عن أنواع الأحداث والتصرفات الاجتماعية وذلك لخاصيتها الإعلامية البارزة.

الطقس يهدف –كما جاء في معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا- إلى تأدية مهمة وإعطاء نتيجة عبر تلاعبه ببعض الممارسات لاجتذاب العقول وجعلها تؤمن به قبل التفكير في تحليل المعنى. ولا يلامس الطقس دائرة الميدان الديني أبدا، ولكن هذه الدائرة هي التي تبقى متمسكة به لكونها تظهر من خلاله وتمتلك حصرية تفعيله.[61] وكما يرى فراس السواح: «أن الطقس والمعتقد يتبادلان الإعتماد على بعضهما بعضا، فرغم أن الطقس يأتي كنتاج لمعتقد معين فيعمل على خدمته، إلا أن الطقس نفسه ما يلبث حتى يعود إلى التأثير على المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه، بما له من طابع جمعي يعمل على تغيير الحالة الذهنية والنفسي للأفراد».[62]

يندرج الطقس في الحياة الاجتماعية بعودة الظروف التي تستدعي إعادة القيام به. وهو يتسم بأوليات يفترض تفعيلها لكي يفرض طابعه على الإطار الذي يساهم تدخله في تحديده. كما تتسم الأوليات الطقوسية بالمفارقة أكثر من التعبير، وذلك لكون الطقس يهدف إلى تأدية مهمة وإعطاء نتيجة عبر تلاعبه ببعض الممارسات لاجتذاب العقول وجعلها تؤمن به قبل التفكير بتحليل المعنى. الطقس لا يلامس دائرة الميدان الديني أبدا، ولكن هذه الدائرة هي التي تبقى متمسكة به لكونها تظهر من خلاله وتمتلك حصرية تفعيله.[63]

تولد الخبرة الدينية المباشرة حالة انفعالية، قد تصل في شدتها حدا يستدعي القيام بسلوك ما، من أجل إعادة التوازن إلى النفس والجسد اللذين غيرت التجربة من حالتها الاعتيادية. ولعل الإيقاع الموسيقي والرقص الحر كانا أول أشكال هذا السلوك الاندفاعي الذي تحول تدريجيا إلى طقس مقنن. ويترافق تقنين الطقس وتنظيمه في أطر محددة ثابتة مع تنظيم التجربة الدينية وضبطها في معتقدات واضحة يؤمن بها الجميع، ويرون فيها تعبيرا عن تجاربهم الفردية الخاصة. وبذلك يتحول الطقس من أداء فردي حر إلى أداء جمعي ذي قواعد وأصول مرسومة بدقة، ويتم ربط الطقس بالمعتقد بدل ارتباطه بالخبرة الدينية المباشرة.[64]

إذا كان المعتقد حالة ذهنية، فإن الطقس حالة فعل من شأنها إحداث رابطة. وإذا كان المعتقد مجموعة من الأفكار المتعلقة بعالم المقدسات، فإن الطقس مجموعة من الأفعال المتعلقة بأسلوب التعامل مع ذلك العالم، إنه اقتحام على المقدس وفتح قنوات اتصال دائمة معه.

---

61 بيار بونت وميشال إيزار: "معجم الإثنولوجيا والأنتروبولوجيا"، ص 631.

62 فراس السواح: "دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني"، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط04، سنة 2002، ص55.

63بيار بونت، ميشال إيزار، معجم الإثنولوجياوالنثروبولوجيا، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 2006، ص 631.

64فراس السواح: دين الإنسان، ص53.

إن الطقس ليس فقط نظاما من الإيماءات التي تترجم إلى الخارج ما نشعر به من إيمان داخلي، بل هو أيضا مجموعة الأسباب والوسائل التي تعيد خلق الإيمان بشكل دوري. ذلك أن الطقس والمعتقد يتبادلان الإعتماد على بعضهما بعضا. فرغم ان الطقس يأتي كناتج لمعتقد معين فيعمل على خدمته، إلا أن الطقس نفسه ما يلبث حتى يعود إلى التأثير على المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه، بما له من طابع جمعي يعمل على تغيير الحالة الذهنية والنفسية للأفراد. وهذا الطابع هو الذي يجدد حماس الأفراد ويعطيهم الإحساس بوحدة إيمانهم ومعتقدهم. فالطقس، رغم قيامه على مجموعة من الإجراءات المرتبة والمنسقة مسبقا، والتي تم القيام بها مرارا وتكرارا، إلا أنه يبدو جديدا كلما أكدت الجماعة على الأداء المشترك له. لهذه الأسباب يظهر الطقس للمراقب باعتباره أكثر عناصر الظاهرة الدينية بروزا، ويقدم نفسه كأول معيار نفرق بواسطته الظاهرة الدينية عن غيرها من الظواهر، لأن الدين لا يبدو للوهلة الأولى نظاما من الأفكار، بل نظاما من الأفعال والسلوكات، والمؤمن ليس إنسانا قد أضاف إلى معارفه مجموعة من الأفكار الجديدة، بل هو إنسان يسلك ويعمل بتوجيه من هذه الأفكار.[65]

ت- الشعيرة:

الشَّعِيرَةُ لغة : ما ندب الشرعُ إليه، وأمر بالقيام به.66 وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوب﴾.67 و الشَّعِيرَةُ البَدَنة ونحوها مما يهدى لبيت الله. وفي التنزيل العزيز: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ﴾.68 والشَّعِيرَةُ العلامة. والجمع: شعائر.

وإجمالا الشعيرة عبارة عن مجموعة من الأفعال المتكررة، والمقننة التي تكون غالبا وقورة، ولها نظام تأدية شفهي أو حركي ومحملة بالرمزية، وقائمة على الإيمان بالقوة الفعالة للقدرة العليا، التي يحاول الإنسان أن يتصل بها بغرض الحصول على نتيجة مرجوة. وهناك بعض الممارسات الروحانية التي تعطي انطباعا عن فورية العلاقة بين قوى ما وراء الطبيعة وبين البشر كالوسطاء الروحانيين وكالمس. وهناك طقوس غريبة قائمة على بعض القيم المرتبطة بخيارات اجتماعية مهمة، ولا تكشف فعاليتها المرجوة عن منطق اختياري بحت. وبالنظر إلى العالم الحيواني، المصطلح يعبر كل ما هو سلوك نمطي، متكرر وإلزامي (كطقوس الإغواء، والخضوع أو رسم حدود الأراضي).[69]

65فراس السواح: دين الإنسان، ص55.

66 معنى شعيرة في قاموس المعجم الوسيط ،اللغة العربية المعاصر. قاموس عربي عربي: HTTPS://WWW.ALMAANY.COM/AR/DICT/AR-/AR/%D8%B4%D8%B9%D9%8A%D8%B1%D8%A9

67 سورة الحج، الآية 32.

68 سورة المائدة، الآية 2.

69 **كلود ريفير**، الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، ترجمة وتقديم أسامة نبيل، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة-مصر، سنة 2015، ص 150.

والتصنيفات غالبا ما تكون مقسمة بطريقة ثنائية: شعيرة احتفالية أو منزلية، دينية أو سحرية، حركية أو شفهية، عرضية أو دورية. ويفرق مارسال موس Marcel Mauss [1872-1950] بين الشعائر الإيجابية ذات الأفعال التي تتطلب المشاركة كالصلاة والقربان والتضحية، وبين الشعائر السلبية كحظر الجماع والغذاء، كالصيام أو التقشف، التي تنهي عن الصلاة بأي وقت خطيرة. وأضاف إمل دوركايم David Émile Durkheim [1858-1917] إلى تلك الطقوس الشعائر المكفرة القائمة على الاستغفار والتطهير التي تهدف إلى التحرر من الآثام المعدية أو طردها، وكذلك الشعائر المتعلقة بأعداد التعاويذ التي هي عبارة عن ممارسات تحمي من الأرواح الشريرة.

ويميز كلوكمان Max Herman Gluckman70 [1911-1975] بين الشعائر الإنعكاسية (كزواج المحارم بين الملوك وهو ما يعد انتهاكا مسموحا به بصفة مؤقة) وبين الشعائر التحويلية كالبعد عن الفساد الأخلاقي أو كانقطاع أحد المخلصين لخدمة القوى المقدسة. ويقابل تيرنر Victor Witter Turner71 [1920-1983] بين الشعائر المتعلقة بالكوارث حين يصاب الناس بالنكبات (كالجفاف، والحروب، المرض، الجدب) وبين شعائر الأزمات الحياتية Life-crisis التي تحدد مراحل الحياة (الميلاد، المسارة72، الزواج، الوفاة، التأبين). وهناك شعائر متشابهة نسبيا قد تهدف إلى غايات مختلفة: كطلب الغيث أو الخصوبة، والتضرع إلى الله (المفارق[73]) كلبا للتنبؤات، وأفعال الشكر بعد ميلاد طفل أو بعد انتصار ما، أو (كالتدنيس) لتحويل شيء خاص بالعبادة إلى شيء آخر لغرض دنيوي مثل الانتقام والاستغفار والتناسل.

إن كانت الشعائر المتعلقة بالسحر قائمة على قوانين المحاكاة، والتقليد كما يدعى (فريزر Frazer)، أو على قانون المشاركة الخاصة بالعقل البدائي، كما يؤكد (ليفي برويل Lévy-Bruhl)؛ وإن كانت الشعائر الدينية عبارة عن قواعد سلوكية محددة لكيفية التصرف تجاه ما هو مقدس، وقد يكون هذا المقدس ركودا للقوة الجماعية لجسد المجتمع، كما يظن (دوركايم Durkheim)، وإن كانت شعائر سكان غينيا الجديدة، كما وصفها (مالينوفسكي

---

70 **ماكس هيرمان جلوكمان** (1911-1975) عالم أنثروبولوجيا بريطاني ولد في جوهانسبرغ (جنوب أفريقيا). أسس مدرسة مانشستر في عام 1947 ، والتي تقوم على دراسات الحالة وحل النزاعات الاجتماعية. بعد حصوله على شهادة في القانون ، حصل على منحة دراسية في كلية إكسيتر في أكسفورد حيث تعرف على النظريات البنيوية الوظيفية. في عام 1941 عين مديرا لمعهد رودس ليفينغستون ، الذي أنشئ لدراسة الثقافات المحلية في روديسيا الشمالية (الآن زامبيا). وفي عام 1947 دعي إلى جامعة أكسفورد وفي عام 1949 عين أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة مانشستر. تعتبر مؤتمراته الإذاعية حول العرف والصراع في إفريقيا نجاحًا عالميًا وسيتم نشرها لاحقًا.

71 **فيكتور ويتر تيرنر** ، المولود في غلاسكو ، 28 مايو 1920 ، في 18 ديسمبر 1983 ، وهو عالم أنثروبولوجيا بريطاني ، اشتهر بعمله في دراسة الرموز والطقوس وطقوس المرور والدراما. مثل كليفورد غرتز CLIFFORD GEERTZ ، غالباً ما يكون مرتبطاً بمدرسة الأنثروبولوجيا الرمزية. قادته دراسته من طقوس المرور إلى مزيد من التفصيل في أعمال أرنولد فان غينيب ARNOLD VAN GENNEP، مع التأكيد على الجانب الهامشي الذي يتعلق بموضوع الطقوس. لم يعد عضوا في المجتمع، وليس بعد جزء من المجتمع. بعد تلقيه درجة البكالوريوس في الأنثروبولوجيا في سن 29، غادر تيرنر لندن للانضمام إلى قسم الأنثروبولوجيا في جامعة مانشستر UNIVERSITÉ DE MANCHESTER التي أنشأها ماكس جلوكمان MAX GLUCKMAN. بفضل معهد رودس ليفينغستون ، يقوم تيرنر بإعداد حقله البحثي في نديمبو في زامبيا NDEMBU DE ZAMBIE (ثم روديسيا الشمالية RHODÉSIE DU NORD). بدأ من خلال دراسة القضايا الديموغرافية والاقتصادية للقبيلة ولكن سرعان ما أصبحت ممتعة في الطقوس.

72 **المسارة:** احتفالات كانت تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحدية.

73 مفارق: وصف يطلق للدلالة على سمو الله على المخلوقات ومفارقته لها، استعمله كانط بمعنى السمو من حيث الوجود ومن حيث المعرفة حين تطلق الصور الفكرية إلى ما بعد التجربة).

Malinowski)، تستدعي انفعالات قوية، ورغبات جامحة، وصعبة التحقق؛ وإن كان الدور الشعائري، حسب (جوفمان Goffman)، يضم قناعا يمنع بشكل مسرحي الرفقاء عن فقدان الثقة؛ أو إن كنا نعتقد، كما يعتقد (تيرنر Turner)، أن الشعيرة عبارة عن دراما معبرة عن نهاية أزمة ماء ونتيجة آلية للتغيرات والصراعات، فإن وجهات نظر عديدة أكثر دقة من الفكرة التي تعتبر أن الشعيرة تفترض وجود غيرية ما أدت إلى تبادل رسائل مشفرة، كما يؤكد ليش Leach، حتى وإن فرق (فان جنيب Van Gennep) بين ثلاث لحظات حاسمة في فقرات الشعائر العابرة وخاصة التي تتعلق بالمسارة، فلا نستطيع تطبيق هذا المقطع بدقة على كل الفقرات الشعائرية.

وحول المنشئ الأصلي للشعيرة، لا يستطيع أحد تعريفه عن يقين؛ فحسب فريزر Frazer تعتبر الشعائر الدينية منشقة من الشعوذة. ويعتبر الأخلاقيون أن الشعائر متأصلة في الطبيعة الحيوانية. أما بالنسبة لرونيه جيرار René Girard فالعنف مكون أساسي؛ منشق من آلية كبش الفداء، وقد يسمو وينصرف هذا العنف مع التضحية. ويؤكد فرويد مع جامعي عصره أن التضحية هي النموذج الأول للشعيرة، وكذلك يحكم روبرتسون سميث Robertson Smith بأن هناك تسلسلا بدءا بالحيوان الطوطمي ونهاية بالقربان المقدس. أما بالنسبة إلى المحللين النفسانيين، فهم يفسرون الشعيرة على أنها آلية تصعيدية قاعدتها عقدة ليبيدو Libido وأنها، قريبة من داء الجهاز العصبي الاستحواذي. وإن كان من الخطأ أن نقول إن الشعائر تعيد إحياء زمن العهد القديم، ففي المقابل يصح القول كما يؤكد، ليفي ستروس Lévi-Strauss في نهاية كتابه (الرجل العاري)، أن الشعيرة تستحوذ على الفكر، وتحث على الإيمان أكثر مما تحث على دراسة المعاني.[74]

6. الحلم في الأديان:

أ- شيء من التاريخ:

عرفت ثقافة العالم القديم الأحلام كنوع من التجليات الرمزية، تساءل من خلالها البشر عن الوجود الغيبي، وتشابكت تفسيراتها مع القيم الثقافية والمعرفية التي نسجت سردها من المعتقدات المتوارثة والعادات السائدة. إن عمر الأحلام هو بعمر الإنسانية تمامًا، فحيثما وُجد الإنسان وُجد معه الحلم، حتى أنه يمكننا أن نقول عن الإنسان إنه «حيوان حالم». والحلم من هذه الناحية يشبه «الدين»، وكذلك يشبهه من ناحية أخرى، وهي الاختلاف والتباين في تفسير الظاهرة، وفي تبين أصولها وجذورها وأسبابها. وفي التاريخ، أصبحت جنساً أدبياً خاصاً، واستخدمت في أدوار سياسية ودينية، ومجالاً للمواعظ الأخلاقية. ودراستها اليوم قد تكون باباً للتعمق في فهم التركيبة النفسية والفكرية لشعوب استنطقت في أحلامها نبوءات الآلهة عن المستقبل، وتوجيهات لمجرى حياتهم واختياراتها.

74 كلود ريفير، الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، ص 154.

منذ خمسة آلاف عام، قدم السومريون في بلاد ما بين النهرين أقدم دليل على الأحلام، يعود لعام 3100 قبل الميلاد. منها نعرف أن الملوك وشعوبهم آمنوا بقدرة الأحلام على التأثير في مصير الناس. فكانوا يعتقدون أن الروح أو جزءاً منها أثناء النوم، تترك الجسد وتتنقل بحرية لتزور أماكن وأشخاصاً، وأن هنالك إلهاً يحمل الروح في تجوالها.

وفي أقدم ملحمة من الشرق القديم، يرى جلجامش سلسلة من الأحلام، تساعده والدته على تفسيرها. هي نبوءات عن مستقبله، فكان يتضرع للآلهة لتمنحه رؤيا في أحلامه. فهو يصلي لإله الشمس ليعرف مخبأ خمبابا، وتضرع لإله القمر ليصل إلى الحكيم إوتنابشتيم.

قسم البابليون والآشوريون الأحلام إلى ثلاثة أنواع: خيرة آتية من الآلهة، سيئة مرسلة من الشيطان، ونبوءات لأحداث المستقبل. أما في معتقدات المصريين القدماء، فتعتبر الأحلام رسائل من الآلهة، وكان المصريون يزورون المعابد وينامون في أسرّة مخصصة للأحلام، على أمل أن تصلهم رسائل الآلهة. ومع استمرارية تأثير ثقافة الشرق القديم، اشتركت الأديان السماوية الثلاث باعتبار الرؤيا جزءاً من النبوءة. فتتكرر النبوءات في سفر التكوين، وكمثال عليها ماتجلى ليعقوب عليه السلام في رؤياه لسلم امتد من الأرض إلى السماوات.

تأثر تطور تعامل الإسلام مع الأحلام بداية بالثقافة اليونانية، التي قدمت نظريات مختلفة للأحلام. وكان العمل الأهم لتفسير الأحلام، الذي بقي من الثقافة اليونانية الرومانية، هو مخطوطة بعنوان "تعبير الرؤيا" لكاتبه الإغريقي أرطميدورس[75] أو أرتميدورس الأفسي (الذي عاش في القرن الثاني الميلادي).

وقد تحدثت الباحثة السورية (خنسه إيناس)[76] عن أرطميدورس الذي اهتم بالبحث في ماهية الأحلام، فجمع كل المخطوطات المتوفرة في زمنه، واستشار المنجمين والمفسرين، وتوصل إلى تعريف للحلم قسمه إلى خمسة أنواع: الرمزي، التكهني (ذو المصدر الإلهي)، الخيالي (الذي ينبع مما نتوق له)، أحلام اليقظة، والكوابيس.

ما يميز الكتاب أن أرطميدورس ربط تفسير الأحلام بحالة الشخص نفسه، وبيئته ووضعه. ولعل الفكرة الأشهر التي لا تزال تتداول حتى اليوم في العالم العربي، التي يذكرها أرطميدورس، هي تفسير الرموز بعكسها. فالموت في الأحلام هو إشارة للحياة، وقد اعتقد به المصريون القدماء، فالمال والذهب هما نذير بالفقر، والفرح يفسر بمصائب آتية.[77]

75 إريك فروم، اللغة المنسية (مدخل إلى فهم الأحلام والحكايات والأساطير)، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، سنة 1995، ص 113.

76 **إيناس خنسه**: باحثة سورية مختصة بشؤون العالم العربي. عملت كأكاديمية ودبلوماسية في عاصمة الولايات المتحدة واشنطن. حاصلة على شهادة دكتوراه من جامعة جورج تاون وعلى منحة زمالة ميلون من جامعة هارفارد. إيناس تكتب بشكل مستمر لرصيف22.

77 إيناس خنسه، المنامات والرؤيا عند العرب، رصيف 22، /HTTPS://RASEEF22.COM/CULTURE/2016/07/02/

ب- الحلم عند علماء النفس:

في كتابه «اللغة المنسية»، تناول عالِم النفس الألماني «إيريك فروم» مسألة الأحلام، وأورد خلاله أيضًا آراء عالِم النفس النمساوي سيجموند فرويد، كذلك عالِم النفس السويسري كارل يونغ. ويشير إلى أن الأحلام نُظر إليها قديمًا على أنها آتية من قوة إلهية عُليا، فهي رسائل ترسلها لهم تلك القوى فوق الطبيعية، ولذلك كان يجتهد الإنسان في معرفة ما ترمي إليه تلك الرسائل وما تخبره به. بل أن هناك من كان يرى أن الأحلام هي خبرة فعلية من خبرات النفس.[78]

الأحلام عند فرويد:

إن المبدأ الذي يحكم تفسير فرويد للأحلام ينبع من فهمه للنفسانيات بشكل عام. هذا المبدأ ينص على أننا ننطوي في دواخلنا على قوى ومشاعر ورغبات هي التي تملي علينا أفعالنا، رغم أننا لا نعي منها شيئًا. القوى المذكورة تشكل في رأي فرويد ما يسميه بـ «اللاوعي»، مما يعني أمرين متلازمين: أولهما، أننا لا نعي وجود هذه القوى، وثانيهما، أن هناك «رقابة» شديدة تحول بيننا وبين وعينا لها. هذه القوى المكبوتة لا تنعدم وجوديًا، ولكنها تختفي عن أنظار الوعي وتظهر أحيانًا متنكرة في زي الأعراض العصابية، التي اكتشف فرويد أنها تتحدد بعوامل داخلية.

وتشكل الأحلام فسحة كبيرة لهذه الدوافع المكبوتة لتظهر من خلالها، وحتى هنا، يرى فرويد، أن الرقابة تكون موجودة بحيث يكون التركيز في الحلم على أتفه الأمور بينما الدوافع الأساسية تكون فيه ثانوية ومهمشة. وكما استطاع فرويد أن يرى بفضل فهمه لعمليات اللاوعي تفسير بعض الهفوات، مثل النسيان وفلتات اللسان، وذلك بردها إلى دوافع لا عقلانية. فنسيان اسم معين مثلًا مرتبط بالخوف أو بالغضب أو بشعور آخر من مثل هذه المشاعر، ولأن رغبتنا في استبقاء هذه الحالة المزعجة يجعلنا ننسى الاسم المرتبط بها. ويتم فهم هذه الرغبات المعبر عنها في الحلم من خلال ما يسميه فرويد بـ «التداعي الحر للأفكار» وهي عملية رجوع بالذكريات إلى الماضي لمعرفة الدوافع المكبوتة. ويربط فرويد بين نظرية الأحلام ووظيفة النوم. حيث يقول: «ما الذي ينبغي لنا أن نقوم به عندئذ لكي نظل نائمين سوى أن نتخيل أن رغباتنا قد لُبيت وأُشبعت؟ وهكذا فإننا نتذوق حلاوة الانشراح والإشباع بدلًا من أن نعاني وطأة الكبت والقمع».[79]

وهكذا يصل فرويد إلى الجزم بأن جوهر الحلم هو تلبية الرغبات اللاعقلانية تلبية خيالية، وإن وظيفته هي المحافظة على النوم. ثم يصل فرويد إلى نتيجة أخرى متعلقة بطبيعة الأحلام، فالرغبات اللاعقلانية التي يعبر

78 أنظر: إريك فروم، اللغة المنسية (مدخل إلى فهم الأحلام والحكايات والأساطير)، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، سنة 1995، ص 49.

79 سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، تبسيط وتلخيص نظمي لوقا، سلسلة دار الهلال، العدد 137 أوت 1962، ص 38.

الحلم عن تلبيتها تعود في أصولها إلى فترة الطفولة من حياتنا؛ وأن هذه الرغبات كانت قد ظهرت ذات مرة عندما كنا صغارًا، ثم استمرت موجودة فينا بصورة مستترة ودفينة. لذا فهي تعود وتحيا من جديد في حياة أحلامنا.

قلنا إن فرويد يرى أن الـ «رقابة» تظل موجودة حتى في حالة الحلم، لذا فهو يذهب إلى أن العملية الأساسية في لغة الحلم هي عملية تقنيع الرغبات اللاعقلانية وتحريفها، وأن هذه العملية هي التي تمكننا من الاستمرار في النوم دون أن ينتابنا الانزعاج، ففرويد يعتقد أن وظيفة الرمز الرئيسية هي أن يعمل على تقنيع الرغبة الدفينة وتحوير شكلها. إنه يعتبر اللغة الرمزية كناية عن «كود سري» كما يعتبر تفسير الحلم كناية عن عمل يرمي إلى كشف سرية هذا الكود.

والكلام الرمزي عند فرويد لا يعتبر كلامًا للتعبير بصورة أو بأخرى عن جميع أنواع المشاعر والأفكار، بل هو كلام يعبر عن الرغبات الغريزية البدائية وحدها، فمعظم الرموز،[80] في رأيه، هي من طبيعة جنسية. ويشير فرويد إلى عاملين آخرين يجعلان فهم الحلم أمرًا عويصًا، ويزيدان من أهمية الوظيفة «التحويرية» في عمل الحلم. العامل الأول هو أن عناصر الحلم كثيرًا ما يكون معناها مضادًا لها بحد ذاتها. أما العمل الثاني، فهو أن مختلف العناصر لا تتسلسل في الحلم الظاهر تسلسلًا منطقيا.

إن تشديد فرويد على الطبيعة الطفولية للحلم لا يعني أنه لا يسلم بوجود صلة انفعالية بين الحلم والزمن الحاضر. فهو يعتقد أن الحافز على الحلم هو دائمًا حدث متعلق بالحاضر، وهو حدث يحصل عادة في النهار نفسه أو المساء نفسه الذي يسبق الحلم. لكن الحلم لا يمكن أن يتولد إلا عن أحداث على علاقة بميول تعود إلى الطفولة الأولى. فالطاقة اللازمة إنما تنجم عن زخم التجربة الطفولية. لكن هذا الزخم لا يبرز أبدًا إلى حيز الوجود ما لم يحصل للحالم حدث قريب العهد من شأنه أن يحيي تلك التجربة القديمة، مما يجعل حصول الحلم في الوقت الذي حصل فيه بالذات أمرًا ممكنًا.

الأحلام عند يونغ:

رأى كارل يونغ، وهو من أبرز تلامذة فرويد، تلك العيوب التي تشكو منها نظرية أستاذه، فخط لنفسه طريقًا، خاصة في تفسير الأحلام. فتخلى عن نظرية «التداعي الحر»، وسعى إلى تفسير الحلم بوصفه تعبيرًا عن حكمة اللاوعي، فهو يرى أن الفكر اللاواعي قد يكون في بعض الأحيان قادرًا على الإعراب عن ذكاء وإرادة أرفع بكثير من طاقتنا الواعية والمعتمدة في مواجهة الأمور.

80 فمثلا لدى قبائل الأشنتي إحدى القبائل البدائية، كانت تعتبر مثلًا أن على الرجل، إذا حلم بأنه أقام علاقة جنسية مع زوجة رجل آخر، أن يدفع الغرامة التي تتوجب عادة على من يرتكب فعل الزنا. إذ إن روحه وروح المرأة الآثمة قد أقاما علاقة جنسية وجد هناك أيضا التفسير الرمزي، حيث يكون لكل رمز يظهر في الحلم دلالة معينة فيتم تفسير الحلم من خلال تفسير الرموز الواردة فيه.

ويونغ لا يتوقف عند هذا الحد، بل يدافع عن وجهة النظر التي ترى أن هذه الظاهرة بالأساس هي ظاهرة دينية، والتي ترى أيضًا أن الصوت الذي يتكلم في أحلامنا ما هو بصوتنا، بل هو صوت يأتينا من مصدر فوقاني. وهو يرفض رأي أستاذه في أن الحلم يعمل على تقنيع وإخفاء حقيقة دوافعه، فيقول: «إنني أشك في مقدرتنا على القول بأن الحلم هو شيء آخر غير ما يبدو عليه، لهذه الأسباب جميعًا أعتقد أن الحلم، عندما يتكلم عن الدين، فهو بالفعل يتكلم عنه. إذ مادام الحلم نتاجًا متبلورًا ومتماسكًا، فبأي حق نسمح لأنفسنا أن تأبى تحليه بشيء من المنطق، أو أن تكون له غاية من الغايات؟ بتعبير آخر، لماذا نأبى عليه أن يكون محددًا من قبل أحد بواعث اللاوعي الذي يجد التعبير عنه تعبيرًا مباشرًا في مضمون الحلم؟»[81]

الأحلام عند إيريك فروم:

الحلم عند فروم هو من إبداع الحالم، حيث يقول: «وكائنا ما كان الدور الذي يقوم به الحالم أثناء حلمه، فإنه هو الذي يبتدع هذا الحلم. إنه حلمه هو، وهو الذي ابتدع حبكته ولا أحد سواه، وبالرغم من أن الأحلام لها صفات عجيبة، فهي لا تخضع لقوانين المنطق التي تحكم فكرنا أثناء اليقظة. كما أنها تجهل مقولتي الزمان والمكان جهلًا مطبقًا، ويتصف الحلم أيضًا بأنه يبعث في الذهن أحداثًا وأشخاصًا لم يسبق لها أن خطرت للحالم ببال منذ سنوات طويلة، ولم يكن له أن يتذكر وقائعها في حالة اليقظة أدنى تذكر».[82]

رغم هذا، تظل الأحلام، بنظر فروم، أمورًا فعلية بالنسبة لمن يحلم بها، طالما أنه يحلم بها. وهي لا تقل فعلية عن أي خبرة من الخبرات التي تحصل لنا في حياة اليقظة. واللغة الرمزية عند فروم هي اللغة الأجنبية الوحيدة التي ينبغي لكل منا أن يتعلمها. إذ إن فهمها يجعلنا نضع أيدينا على مصدر من أغنى مصادر الحكمة، كما أن هذا الفهم يضعنا على صلة بأعمق الركائز التي تقوم عليها شخصيتنا.

ولنلاحظ هنا أن فروم يستخدم تعبير «فهم» بدلًا من «تفسير»، فالكلام الرمزي كلام من نوعية خاصة، وإذا كان يشكل في جوهره اللغة الجامعة الوحيدة التي قيض للجنس البشري أن يبتدعها، فإن فهم هذه اللغة يصبح بالنسبة لنا أوجب بكثير من تفسيرها كما لو كنا حيال كود سري مصطنع. واللغة الرمزية لغة تتعبر بواسطتها الخبرات الحميمة والمشاعر والأفكار كما لو كانت خبرات معيوشة في العالم الخارجي أو أحداث من هذا العالم.

يميز فروم بين ثلاثة أنواع من الرموز: الرمز الاصطلاحي، الرمز العرضي، والرمز الجامع. الرمز الاصطلاحي هو المعروف لدينا والمستخدم بشكل شائع في كلامنا اليومي. مثلًا، دلالة كلمة «طاولة» على الشيء

81 كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ترجمة نهاد خياطة، الطبعة الثانية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سورية، سنة 1997، ص 37.
82 إريك فروم، اللغة المنسية (مدخل إلى فهم الأحلام والحكايات والأساطير)، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، سنة 1995، ص103.

نفسه المسمى بهذا الاسم، حيث لا علاقة فعلية بين أحرف كلمة «طاولة» وبين الشيء الذي نسميه بها. وكما تكون الكلمات رموزًا اصطلاحية فقد تكون الصور أيضًا كذلك. مثل أعلام الدول.

أما الرمز العرضي فهو لا يكون شائعًا ومعروفًا، مثلًا هناك شخص عاش فترة بائسة في مدينة معينة فإن اسمها يصبح رمزًا للبؤس والشقاء بالنسبة لذلك الشخص. يشترك كل من الرمزين، الاصطلاحي والعرضي، في أنهما لا يحملان علاقة جوانية مع ما يرمزان إليه. أما الرمز الجامع فهو يتصف بوجود مثل هذه العلاقة الجوانية. مثل إشارة النار إلى الحيوية والدفء والنشاط والماء إلى الحياة والاستمرارية والحيوية.

يشير فروم إلى الترابط بين نمط النشاط الذي نقوم به وبين عملية التفكير الملازمة لهذا النشاط، فيقول: «إن الفرق بين الوظائف الحيوية أثناء اليقظة وأثناء النوم هو الفرق الذي يميز، في الواقع، صيغتين من صيغ الوجود، فإن مهمة الإنسان المستيقظ تتلخص في الحفاظ على بقائه. ولذا فهو يخضع للقوانين التي تحكم الواقع، في حين أن الإنسان النائم لا يهتم أدنى اهتمام بإخضاع العالم الخارجي لغاياته ومآربه. إنه يصبح عاجزا، ولذا سُمي النوم بحق شقيق الموت».[83]

ويضيف: «رغم ذلك فنحن نكون أحرارًا خلال النوم، بل أكثر حرية مما نكون عليه خلال اليقظة، بل إننا نشبه الملائكة من حيث عدم خضوعنا لقوانين الواقع. خلال النوم يتراجع ملكوت الضرورة ويخلي مكانه لملكوت الحرية وتغدو كينونة الأنا مرجعية الأفكار والمشاعر الوحيدة. من هنا كان النشاط الذهني يخضع خلال النوم لمنطق مختلف تمامًا عن منطق اليقظة. فالتجربة التي يعيشها النائم لا شأن لها البتة بخصائص الأشياء التي لا تهمنا إلا عندما نواجه الواقع».[84]

من هنا يقف فروم موقفًا وسطًا بين فرويد وبين يونغ في النظر لطبيعة اللاوعي، فلا هو ذلك الملكوت الأسطوري المشبع بخبرة متأصلة موروثة عن الجماعة العرقية، كما يقول يونغ، ولا هو ملكوت القوى اللاعقلانية الناجمة عن الليبيدو «الغريزة الجنسية»، كما يقول فرويد. بل ينبغي أن يفهم بناءً على المبدأ التالي: «إن ما نشعر به وما نفكر فيه خاضع لما نقوم به». فالوعي هو النشاط الذهني الذي هو نشاطنا نحن في انصرافنا إلى مواجهة العالم الخارجي، أي بتعبير آخر، عندما نكون قادرين على الفعل، أما اللاوعي فهو الخبرة الذهنية التي هي خبرتنا عندما نعيش تلك الصيغة من الوجود التي ينقطع خلالها كل اتصال لنا مع العالم الخارجي.

83 إريك فروم، اللغة المنسية (مدخل إلى فهم الأحلام والحكايات والأساطير)، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، سنة 1995، ص 127.

84 إريك فروم، اللغة المنسية (مدخل إلى فهم الأحلام والحكايات والأساطير)، ص 128.

هكذا يخلص فروم إلى أن للنوم «وظيفة متعددة الأبعاد، به يتجه غياب صلتنا بالحضارة إلى استخراج أفضل ما في دواخلنا وأسوأها في آن معًا. وبالتالي، فنحن قد نكون أثناء الحلم أقل ذكاءً وحكمة وحياءً مما نحن في حالة اليقظة، لكننا قد نكون أيضًا أفضل حالًا وأشد حكمة».[85]

من هنا يرى فروم أن بعض الأحلام لها القدرة على التكهن بالمستقبل، كما أن هناك أحلامًا قد تعبر أيضًا عن حكم أخلاقي، وقد يقوم الحلم أيضًا بعمليات ذهنية أرقى من أفعال الذهن المستيقظ، مع أن الأحلام، كما يرى في الوقت نفسه، قد تكون تعبيرًا عن الوظائف الذهنية في أدنى درجاتها وأشدها لا عقلانية.

تجلي الأنبياء ورؤية الملائكة في المنام:

في ورود الأنبياء في الأحلام انعكاس لفكرة قديمة تفترض قوى عليا كمصدر لهذه الرؤى، ولذلك تعتقد بقدسيتها وصدقها. من أهم الفلاسفة الذين كرسوا لهذا الفهم للأحلام أفلاطون، الذي خالفه أرسطو وأرجع الأحلام لحالة الإنسان واستبعد أصلها الإلهي.

وردت في القرآن الكريم آيات عدة تشير إلى ألفاظ الرؤيا وصورها، لعل أشهرها قصة يوسف عليه السلام، وبهذا احتفظت رؤيا الأنبياء بقدسيتها في الإسلام. يقول إبن سيرين أن رؤيا الأنبياء أحد شيئين، إما بشارة وإما إنذار، فمن يرى آدم في حلم قد يقع في مصيدة مكيديه، وأما نوح فرؤيته في الحلم تعني طولة العمر، والنبي هود في الحلم يعني فترة اختبار وخسارة يليها فرج، ورؤية إبراهيم تعني أن صاحب الحلم سيذهب إلى الحج (وهذا لأنه من بنى الكعبة في معتقدات المسلمين)، ومن رأى أيوب "ابتلى في نفسه وماله وأهله وولده ثم يعوضه الله من كل ذلك ويضاعف له لقوله تعالى "ووهبنا له أهله ومثلهم."[86]

لكن التجليات في الأحلام وظفت في كتب التاريخ والأدب لتخدم أهدافاً كثيرة، سياسية وأخلاقية. من أشهر تجليات الأنبياء في الأحلام قصة وصول العرب إلى الأندلس: في غمرة الغزو والتخطيط الحربي، قرر طارق بن زياد أن يركب آخر سفينة تنقل جنوده من المغرب شمالاً، وأثناء اجتياز المضيق، غفا غفوة قصيرة ارتئا له فيها النبي وحوله المهاجرون والأنصار، وقد "تقلدوا السيوف" و"تنكبوا القسي". فقال له الرسول: "يا طارق تقدّم لشأنك!"، ونظر طارق إليه وإلى أصحابه، وقد دخلوا الأندلس، فهبّ من نومه مستبشراً وبشّر أصحابه وثابت نفسه ببشراه ولم يشك في الظفر". وهذه هي القصة كما يرويها المقري من كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" في القرن الحادي عشر هجري، أي قرابة عشرة قرون بعد طارق بن زياد، وبعد نهاية الحكم الإسلامي في

85 المرجع نفسه، ص 131.

86 إيناس خنسه، المنامات والرؤيا عند العرب، رصيف 22، //HTTPS://RASEEF22.COM/CULTURE/2016/07/02

الأندلس. الحلم يتلبس سرداً خاصاً ويضفي قداسة على دخول الأندلس، وكأنها نبوءة كان لابد أن تتحقق، مباركة لأنها تعكس صورة النبي والصحابة.

من المنجمين والعرافين الذين يقرؤون المستقبل في أحلام الناس، وصولاً للاعتقادات الشعبية بمعاني الرموز المبشرة بثروة أو سفر أو لقاء، والمنذرة بموت أو كارثة، إلى ما وصلت إليه تفسيرات الأحلام اليوم، وأرائك أطباء النفس الذين يعتبرونها عينة عما يجول في خواطرنا ومجالاً لعلاج مشاكلنا وتنغيصاتنا. تتماهى الأحلام مع قيم ومفاهيم عصرها، وتأخذ أبعاداً معرفية وفكرية، فيها نظرة ليس للمستقبل، بل لمجتمعاتنا ومعتقداتنا، ومن خلالها كل ما يجول في خواطرنا من هواجس ومخاوف وأمنيات. كانت الأحلام، وما زالت، مجالاً خصباً خصوصاً للفن بكل صوره وأجناسه، ومجالاً غنياً للكشف عن الرغبات الحقيقية للأفراد ومعتقداتهم، ومجالاً خصباً أيضاً للباحثين، والعلماء، والمشعوذين.

تفسير الأحلام في الأديان السماوية:

يعتقد البعض أن الأحلام بعيدة كل البعد عن الدين وتعاليمه ولكن الكثير من الأحلام نجد تفسيرها في الكتب والأديان السماوية الثلاثة التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليه السلام في التواراه والإنجيل والقرآن الكريم ففي هذه الكتب ستجد رؤيا يوحنا (النبي يحي عليه السلام ابن خالة المسيح عليه السلام) وهذه الرؤيا مروية بنصوص مقدسه في الكتاب المقدس، وستجد في القرآن سورة يوسف نستطيع أن نقول: إنها سورة الرؤى، فقد ورد في القرآن ذكر سبع رؤى في ستة مواضع؛ ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى جاءت في سورة يوسف، وهي قول الله _تعالى_: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لَأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِي رأيت﴾،[87] وذكر رؤياه وفيه رؤيتي صاحبي السجن الذين ذكرا له ما رأيا، وكل واحد منهم رأى رؤيا غير التي رآها صاحبه، ثم جاءت الرؤيا الرابعة، وهي رؤيا الملك وتلك رؤية عظيمة جداً، فهذه ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى كلها في سورة يوسف.

وفي بقية القرآن نجد في سورة الأنفال ذكر الرؤيا في قول الله _تعالى_: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.88 ثم في الصافات في قصة إبراهيم مع إسماعيل _عليهما السلام_ قال الله _عز وجل_: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.[89]

87 سورة يوسف، الآية04.
88 سورة الأنفال، الآية 43.
89 سورة الصافات، الآية 102.

ورؤيا النبي ــصلى الله عليه وسلمــ التي أخبر الله ــجل وعزــ عنها في سورة الفتح، فقال ــسبحانهــ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.[90]

هذه سبعة رؤى في القرآن، وقد يتساءل متسائل فيقول: أين رؤيا سورة الإسراء التي قال الله ــجل وعلا فيهاــ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾؟[91] والجواب: إن هذه الرؤيا رؤية عين، وليست رؤيا منامية على الصحيح، وكذلك فسرها ابن عباس ــرضي الله تعالى عنهــ كما في البخاري. أما ما ذكره بعض المفسرين من أنها رؤيا في بني أمية فضعيف لا يثبت، بل ربما كان من أكاذيب الرافضة وما أدخلوه في التفسير من أخبار.

7. التصوف:

إن جوهر التصوف يقود إلى حقيقة ومعنى التصوف بأنّ يتنزه الإنسان عن حب الذات والتوجه وحث النفس للبحث والسعي وراء الحقيقة بالمحبة والإخلاص المتفاني، وهو ما يدعى بالطريقة التي تعتبر طريقاً روحانياً إلى الله، فالشخص المتصوف يعتبر إنساناً مُحباً للحق ويسعى من خلال المحبة والتقوى لبلوغ التمام الذي يبحث عنه كل إنسان، وتعد الصوفية مدرسةً باحثةً عن القيم السماوية وتثقيف النفس ليس بالإثبات العقلاني وإنما عن طريق الوحي والإقرار بذلك بحيث لا يستند على منطق معين.

أ- التصوف (المصطلح والمفهوم):

نبدأ هذا من رأي القدماء، حيث سئل الشبلي[92]-رضي الله عنه-لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟ فقال: «هذا الاسم الذي أطلق عليهم، اختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه، ولم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد».[93] ومن أقدم الآراء التي قيلت ما ذكره البيروني[94]: من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة سوف اليونانية التي تعني الحكمة. يقول البيروني : « إن من اليونانيين من كان يري الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها، وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره؛ فوجوده كالخيال

90 سورة الفتح، الآية 27.

91 سورة الاسراء، الآية 60.

92 هو الشيخ الزاهد أبو بكر بن جعفر بن يونس الشبلي، ولد في سامراء عام 247هـ، الموافق 861م، توفي ليلة السبت 27من ذي الحجة عام 334هـ، الموافق 945م.

93 القشيري، الرسالة القشيرية، مكتبة صبيح واولاده، القاهرة –مصر، سنة 1965، ص 4.

94 أبو الريحان محمد بن أحمد بيروني عالم مسلم ولد في ضاحية عاصمة خوارزم أوزبكستان في شهر سبتمبر حوالي سنة، 326هـ ، 973م رحل إلى جرجان في سن ال 25حوالي 388هـ 962م حيث التحق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس بن شمس المعالي و نشر هناك اولى كتبه و هو الاثار الباقية عن القرون الخالية و حين عاد إلى موطنه الحق بحاشية الامير ابي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه الذي عهد اليه ببعض المهام السياسية نظرا لطلاقة لسانه و عند سقوط الامارة بيد محمود بن سبكتكين حاكم غزنةعام407هـ الحقه مع طائفة من العلماء إلى بلاطه و نشر ثاني مؤلفته الكبرى تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة كما كتب مؤلفين اخرين كبيرين هما القانون المسعودي التفهيم لاوائل صناعة التنجيم توفي سنة، 440هـ (1048م و اطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس العرب / انظر تاريخ التصوف الاسلامي . د / بدوي.

غير حق. والحق هو الواحد الأول فقط وهذا رأي السوفية وهم الحكماء، فإن "سوف" باليونانية الحكمة و بها سمي الفيلسوف: فيلا سوفيا، أي محب الحكمة».[95]

أما المحدثون فقد اختلف في ذلك اختلافا كبيرا ووضعت فروض متعددة، و ليس بعضها أولى من بعض، و كلها غير مقبولة. «إنها في الحقيقة تسمية رمزية، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها وأنه لمن الرائع أن نلاحظ: أن القيمة العددية لحروف صوفي تماثل القيمة العددية لحروف: الحكيم الإلهي، فيكون الصوفي الحقيقي إذن، هو الرجل الذي و صل إلى الحكمة الإلهية، إنه العارف بالله، إذ أن الله لا يعرف إلا به، و تلك هي الدرجة العظمى فيما يتعلق بمعرفة الحقيقية».[96]وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحيى- فيما نعلم بهذا الرأي- وهو رأي لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية، ولكنه لا يمكن أيضا أن يؤيد بالأدلة المنطقية، قد يقبله قوم دون برهان، و قد ينكره قوم آخرون من غير ما حجة ولا دليل. وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد؛ لننظر إلى الباحثين في هذه اللفظة فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما، يجاري فريق منهم أبا الريحان البيروني في أنها مأخوذة عن أصل يوناني، هي كلمة سوفيا اليونانية. وقد ذهب إلى هذا الرأي "فون هامر"[97] من المستشرقين - واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين، وأيده في حرارة محمد لطفي جمعة - بقوله: «أما السبب الذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف فهو أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية؛ وينسبها إلى الظاهر والشكل على حد تعبير محمد لطفي جمعة " : يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام من صفة الحكمة و الفضيلة».[98]

الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين إن - لفظة التصوف تنتسب إلى الصوف، وكما أنه يقال: تقمص إذا لبس القميص، كذلك يقال تصوف إذا لبس الصوف، ومن أبرز القائلين بهذا الرأي: المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرزاق، والمرحوم الدكتور زكي مبارك، والمستشرق "مرجليوت". و إذا كانت الكلمة تنتسب إلى الملبس - و هو مظهر وشكل ورسم - فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر أو شكال. ليس من المحتم دائما أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضع الاسم له، إذ المعنى الأصلي قد يتطور ويتغير و يختلف؛ وقد يقصد عكسه، ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه.

ب- إله المتصوفة:

التصوف كسلوك زهدي بدأ في الثقافة الاسلامية منذ البدايات الأولى للاحتكاك مع الثقافة المسيحية في مصر وبلاد الشام، ومع الثقافات المشرقية الأخرى فيما بين فارس وحدود الصين. أما المعتقد الصوفي، فرغم أن ملامحه الأولى قد تشكلت على يد متصوفة من أمثال الجنيد منذ أواخر القرن الثالث الهجري، إلا ان صياغته

95 جميل محمد ابو العلا، التصوف الاسلامي نشأته واطواره، مطبعة النهضة، القاهرة – مصر، سنة 1894، ص 15.

96 عبد الحليم محمود، المنقد من الضلال، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، سنة 1985، ص 156.

97 مستشرق المانى ولد عام 1749م، كتب مقدمة ترجمة القرآن، من اقواله: القرآن ليس دستور الاسلام فحسب بل هم ذروة بيان العرب.

98 عبد الحليم محمود، المنقد من الضلال، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، سنة 1985، ص 156.

النظرية المتماسكة لم تكتمل حتى القرن السادس الهجري، وذلك على يد الغزالي ومحي الدين ابن عربي، ومن بعدهما عبد الكريم الجيلي في القرن السابع.

يجري الفكر الصوفي لقاء كاملا بين مفهومين للألوهية ساريين في كتاب الله وسنة رسوله، المفهوم الأول يأتي من آيات مثل: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾.[99] و ﴿مكروا ومكر الله، والله خير الماكرين﴾.[100]والمفهوم الثاني يأتي من آيات مثل: ﴿ونحن أقرب إليكم منكم ولكن لا تبصرون﴾.[101]و﴿إن الله لغني عن العالمين﴾.[102]ومن أحاديث قدسية مثل: و«ما وسعتني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن» الذي يذكرنا بقول الأوبانيشاد: «هو رب اليوم ورب الغد، ولكن القلب الذي بحجم إصبع الإبهام مقر له ومكان».[103]واللقاء بين هذين المفهومين في الفكر الصوفي يأتي من وحدتهما الضمنية، واختلافهما في الظهور والتجلي، وذلك أن الأصل في الألوهية الكمون والغنى، وما درجات التشخيص التي تتجلى بها سوى أمر اقتضاه ظهور الكون عنها؛ فالموجودات هي التي تتطلب من الأوهية الصفات والأسماء، وبغير الموجودات تبقى الألوهية ذاتا مستغرقة في نفسها. لقد أورد فراس السواح قولا لعبد الكريم الجيلي في كتابه الإنسان الكامل يعبر عن ذلك حيث يقول: «إن ذات الله سبحانه وتعالى عبارة عن نفسه التي هو بها موجود، لأنه قائم بنفسه...فالذات لاتدرك بمفهوم عبارة، ولا تفهم بمعلوم إشارة؛ لأن الشيء إنما يفهم بما يناسبه فيطابقه، أو بما ينافيه فيضاده. وليس لذاته في الوجود مناسب ولا مطابق ولا مناف ولا مضاد. فإرتفع من حيث الإصطلاح إذن معناه في الكلام، وانتفى بذلك أن يدرك للأنام. المتكلم في ذات الله صامت، والناظر باهت. عز أن تدركه العقول والأفهام، وجل أن تجول فيه الفهوم والأفكار، لا يتعلق بكنهه حديث العلم ولا قديمه...وهذا الوجود المطلق هو الذات الساذج الذي لا ظهور فيه لإسم أو نعت أو اسم أو إضافة، ولا لغير ذلك».[104]

المرتبة الأولى في خروج الألوهية عن كمونها وغناها، يؤشر إليها ظهور الممكنات فيها جميعا، ولكن بحكم البطون لا بحكم الظهور. فكل ما سيظهر للوجود فيما بعد، كان في حيز الممكن الثابت في الإلهية الغنية. فهنا يتجلى المطلق في نفسه ولنفسه، وتتأمل الألوهية نفسها دون أن تلحقها الاعتبارات والإضافات. ويدعى هذا التجلي الأول للذات بالأحدية.

والتخصيص هو أن تدبر الألوهية وجهها نحو الخارج وتخرج عن بطونها وكمونها، فتنتقل بذلك إلى التجلي الثاني المدعو بالألوهية، وهو الذي يظهره نشوء الثنائيات ضمن الأحدية وهنا يظهر الإسم "الله"، وهو الإسم الذي يبصر الحق به نفسه، ويتوصل الخلق به إلى معرفة الألوهية.

فالألوهية والحالة هذه هي برزخ بين الذات الكامنة والخلق الذي يصدر عنها، إنها مرتبة الذات من حيث كونها إلها يعبد ويقدس، من خلالها يتوصل العقل إلى معرفة الألوهية. وعندما تدخل الألوهية طور الخلق، نأتي إلى تجلي الرحمانية؛ وهنا تتجلى الألوهية كقدرة خالقة لكل مظاهر الكون. إلا أن الخلق هنا ليس خلق صانع ماهر يشكل

---

99 سورة الفتح، الآية 10.

100 سورة آل عمران، الآية 45.

101 سورة الواقعة، الآية 75.

102 سورة العنكبوت، الآية 06.

103 فراس السواح: دين الإنسان، ص 293.

104 المرجع نفسه، ص 294.

العالم بيديه، وإنما خلق ألوهة تنقسم إلى حق وخلق. دون أن تفقد وحدتها وتكاملها. وهذان المصطلحان اللذان يتكرران في الأدبيات الصوفية كلها، يشيران إلى المظهر المزدوج للحقيقة الواحدة؛ فالوجود خلق من حيث مظاهره، وحق أو ألوهة مولدة من حيث جوهره. ويتطلب الخلق عند الجيلي أولا، أن تظهر الألوهية بحقائق أسمائها وصفاتها، فتظهر أولا بالأسماء الذاتية المقتصرة على الحق؛ مثل الصمد والقيوم وما إليها، ثم تظهر بأوصافها العامة التي تشترك بها مع الخلق مثل السميع والبصير وما إليها.[105]

فانقسام الألوهة إلى حق وخلق، وصدور المخلوقات عنها دون أن تفقد وحدتها وتكاملها، يشبه الجليد أو الثلج الذي يتكون على أطراف البحيرة أو سطحها؛ فهذا الثلج إذا نظر إليه من حيث ظاهره بدا شيئا مختلفا عن الماء، وإذا نظر إليه من حيث جوهره بدا عين الماء؛ فاسم الثلج والحالة هذه هو اسم مؤقت لطور عابر يصير إليه الماء فإذا ذاب الثلج عاد إلى أصله واسمه.

آخر مجالي الألوهية هو الربوبية؛ وهو المجلى الخارجي المختص حصرا بعالم الخلق، والرب اسم لهذه المرتبة. ويقع تحت هذا الإسم كل الأسماء التي يتطلبها وجود المخلوقات مثل؛ المريد والملك والقهار والمجيب والمعز والمذل...فإذا كانت الذات تمثل بطون الألوهية المطلق وغناها الكامل عن العالمين، فإن الربوبية هي ظاهر الألوهة. الذي يتجه نحو عالم الخلق ويتطلبه. إن وحدة هذين التجليين للربوبية تظهر ذوقا لمن يناجيهم الحق، فيسمع المناجي خطابا لا يصدر عن جهة ولا عن جارح: «أنت خلاصة الأكوان والمقصود بالوجود والحدثان، تقرب إلى شهودي فقد تقربت إليك بوجود، لا تبتعد فإني إنا الذي قلت ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. لا تتقيد باسم العبد فلولا العبد ما كان الرب؛ أنت أظهرتني كما أنا أظهرتك، فلولا عبوديتك لم تظهر لي ربوبية، أنت أوجتني كما أنا أوجدتك، فلولا وجودك ما كان وجودي موجودا».[106]

ج- مراتب الصوفية:

مراتب الصوفية، التي وضعوها لبيان طبقات المتصوفة ومكانتهم، وقدرتهم واختيارهم على الخلق، وأعدادهم، وهم حسب كلام لسان الدين بن الخطيب: «خواصّ الله في أرضه، ورحمة الله في بلاده على عباده: الأبدال، والأقطاب، والأوتاد، والعرفاء، والنجباء، والنقباء، وسيدهم الغوث».[107] ولدى الهجويري هم: «أهل الحل والعقد، وقادة حضرة الحق جل جلاله، فثلاثمائة يدعون الأخيار، وأربعون آخرون يسمون الأبدال، وسبعة آخرون يقال لهم: الأبرار، وأربعة يسمون الأوتاد، وثلاثة آخرون يقال لهم: النقباء، وواحد يسمى القطب والغوث. وهؤلاء جميعا يعرفون أحدهم الآخر، ويحتاجون في الأمور لإذن بعضهم البعض».[108]

- ✓ **مرتبة القطبية:** ولا يكون فيها أبداً إلا واحد بعد واحد، ويسمى غوثا، لكونه مغيثاً للخلق في أحوالهم.

105 المرجع نفسه، ص 296.

106 فراس السواح: دين الإنسان، ص ص 297-298.

107 لسان الدين ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق محمد الكتاني، دار الثقافة، الطبعة الأولى، سنة 1970، بيروت – لبنان، ص 432.

108 الهجويري: كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة وتقديم بديع جمعة، الجزء الثاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – مصر، سنة 2007، ص ص 447-448.

- ✓ **ثم مرتبة الإمامين:** وهما كالوزيرين للسلطان. أحدهما صاحب اليمين، وهو المتصرف بإذن القطب في عالم الملكوت والغيب، وثانيهما صاحب اليسار، وهو المتصرف في عالم الملك والشهادة. وعند إرتحال القطب إلى الآخرة، لا يقوم مقامه، منهما و إلا صاحب اليسار، لكونه أكمل في السير من صاحب اليمين: لأنه، بَعْدُ، ما نزل في السير من عالم الملكوت إلى عالم الملك، وصاحب اليسار نزل إليه، وكملت دايرته في السير والوجود.
- ✓ **ثم مرتبة الأربعة:** كالأربعة من الصحابة، رضي ا لله عنهم أجمعين!
- ✓ **ثم مرتبة البدلاء السبعة:** الحافظين للأقاليم السبعة. وكل منهم قطب للإقليم الخاص به.
- ✓ **ثم مراتب الأولياء العشرة:** كالعشرة المبشرة.
- ✓ **ثم مراتب الاثني عشر:** الحاكمين على البروج الاثني عشر، وما يتعلق بها ويلزمها من حوادث الأكوان.
- ✓ ثم العشرين والأربعين والتسعة والتسعين، مظاهر الأسماء الحسنى، إلى الثلاثمائة والستين.
- ✓ وهؤلاء قائمون في العالم على سبيل البدل، في كل زمان، ولا يزيد عددهم ولا ينقص إلى يوم القيامة. وغيرهم من الأولياء يزيدون وينقصون، بحسب ظهور التجلي الإلهي وخفائه.
- ✓ وبعدهم: مرتبة الزهاد والعبّاد والعلماء من المؤمنين، الكائنين في كل زمان إلى يوم الدين. وجميع هؤلاء المذكورين، داخلون في حكم القطب.

والأفراد الكمّل، الذين تعادل مرتبتهم مرتبة القطب إلا في الخلافة، هم الخارجون من حكمه. فإنهم يأخذون من الله، سبحانه، ما يأخذون من المعاني والأسرار الإلهية بخلاف الداخلون في حكمه، فإنهم لا يأخذون شيئا إلا منه.

III. المعتقدات الدينية و الحياة المعاصرة:

1. الممارسات السحرية جزء من الاعتقاد الديني:

أ- السحر:

السحر في لغة العرب يطلق على كل سيء خفي سببه ولطف ودق، ولذلك تقول العرب في السيء الشديد الخفاء: أخفى من السحر، وتصف ملاحة العينين بالسحر، لأنها تصيب القلوب بسهامها خفاء، كما يوصف البيان بالسحر، ومنه قول الرسول: «ومن البيان لسحرا»، وإنما كان بعض البيان سحرا لأنه يروق للسامعين، ويستميل قلوبهم، ويغلب على نفوسهم، ويحول الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن وجهته، وسمي السحور سحورا لأنه يقع خفيا آخر الليل؛ وتطلق العرب السحر على الخديعة، لأنه يخفى سببها ويدق.[109]

109 سليمان الأشقر: عالم السحر والشعوذة، دار النفائس للنشر والتوزيع، الطبعة الرابع، عمان- الأردن، سنة 2002، ص ص 69-70

السحر في الاصطلاح: «هو اسم لكل أمر خفي سببه، وتخيل على غير حقيقته، وجرى مجرى التمويه والخداع». وعرفه ابن عابدين بقوله: «علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة لأسباب خفية». وعرفه ابن خلدون تعريفا قريبا من التعريفين السابقين فقال: «السحر علوم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على التأثير في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني الطلسمات».[110]

يذهب الباحث الألماني أدولف آرمان، المتخصص في المصريات، في كتابه ديانة مصر القديمة إلى أن «السحر نبت وحشي في واحة الدين. وهو عمل يهدف إلى التغلب على القوى التي تتصرف في مصير الإنسان. وإنه من الخير أن نتعرف كيف يمكن أن ينشأ الاعتقاد بإمكان القيام بمثل هذا العمل قد يبدو أن الإله قد استجاب للدعاء تارة ولم يستجب إلي الدعاء تارة أخرى، وعند ذلك يطرأ قسرا على الفكر أن العبارة التي صيغ فيها الدعاء أول مرة قد لقيت عند الإله قبولا خاصا؛ لذلك يعد هذا التركيب أفضل تركيب من نوعه ويغدو صيغة لا يلبث الإنسان أن يعتقد أنّ لها مفعول لا يخيب، وأنها تقهر القدر»[(111)].

وفي معجم الحضارة المصرية القديمة تحت مادة سحر ترد القصة التالية التي تقول بأنه «عقدت مباراة بين النبي موسى وسحرة الفرعون فدمرهم بسبب خداعهم بأنْ ألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين ابتلع ثعابينهم فخروا له ساجدين. وما أسرار المقابر الملكية المروعة وقصص الخوارق إلا خزعبلات، رغم رسوخ الاعتقاد بحلول لعنة الفراعنة على منتهكي حرمة المقابر. وجعلت هذه الأمور مصر القديمة دولة السحر. والحقيقة أنّ السحر كان يحكم في أرض الفراعنة، وليست الأسطورة التي أسكنت وادي النيل بالسحرة خطأ؛ والبرهان على هذا متيسّرة، إذ تدلّ القصص الشعبية والتمائم وتلك التعاويذ المكتوبة التي تملأ خزائن المتاحف على أن السحر جاء واستقر في أرض السحرة»[(112)].

يشير إلى أنّ «السحر كان أولا وقبل كل شيء إيمانا مطلقا بالقوة الخارقة للصوت، ولم يعتبر الشخص البدائي اسم الكائن الحي أو الجسم وسيلة لتسهيل تبادل الآراء بين الناس بل اعتبره الكائن الحي أو الشيء نفسه. إنه بمجرد النطق باسمٍ ما كان يخلق ذلك المخلوق أو الشيء. وتزخر قصص الخليقة بفقرات تنص على أنه ليس على الخالق إلا أن ينطق باسم كل عنصر من مكونات الخلق حتى يبادر ذلك العنصر في الحال بأن يأخذ مكانه المحدّد».[113]

110 أورد هذه التعريفات سليمان الأشقر في كتابه: عالم السحر والشعوذة، مرجع سابق، ص 72.

111أودلف آرمان. ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، (القاهرة: الهيئة المصريةالعامة للكتاب، 1997)،

112جورج بونزوآخرون. ***معجم الحضارة المصرية القديمة***، *ترجمة:أمين سلامة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996)، ص 187.*

113 راجع في المعنى اللغوي: لسان العرب: 106/2. والقاموس المحيط ص519.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ لاهوت "منف" تعتقد أن الإله الخالق "بتاح" أو "فتاح" بالتفكير في الخلق بقلبه ثم ينطق ذلك بلسانه فيتكوّن الخلق والعالم والكون. وهي نظرية الخلق بواسطة الكلمة والتي تعرف في الثقافة الإسلامية بـ«كن فيكون».

ويذهب روبير جاك تيبو الباحث الفرنسي في المصريات ومؤلف موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية إلى اتجاه يرى فيه «أن مصر القديمة كانت تضم العديد من الكهنة السحرة ولكن ليس بالمعنى المفهوم في عصرنا الحالي. فالكاهن الساحر[114]كان مجرد مفسر ومترجم لدى الآلهة، أو أنه كان المتحدث بلسان الآلهة ولكنه لا يستطيع أن يضع أي شيء خارج نطاق العالم ولا يمكنه تحويل المادة لفائدته أو لمنفعته الشخصية أو حتى لصالح المجموع. ويرى أنه على الرغم مما يحظي به الفرعون من قوة ومقدرة فإنه لا يستطيع أن يكون هو نفسه ساحرا مع أنه يتمتع بنفوذ مادي على الكائنات. فهو في البداية كان خادما للحقيقة والعدل؛ وبالإضافة إلى ذلك فهو الوسيط والشفيع بين السماء والبشر؛ وبهذا فإنه من خلاله شخصيا تستطيع الآلهة أن تكشف عن قدرتها وهيمنتها. وكان ذلك أيضا وضع الرسل والنساك»[115].

ب- نشأة السحر:

يُرجع روبرتسن سميث (Robertson Smith)ظهور السحر إلى عصور التفكك الاجتماعي عند الإنسان البدائي ويرى أنّ «الدين باعتباره شيئا آخر غير السحر والشعوذة؛ فهو يخاطب الأفراد المقربين وينصب علي كيانات ودودة قد تغضب أحيانا على قومها ولكنها دائما تتسم بالسماحة باستثناء الأعداء أو المارقين على المجتمع». ويضيف بأن الدين الحقيقي لا يبدأ بخوف غامض من قوي مجهولة بل بتقديس ودي لآلهة معروفة ترتبط مع أتباعها بعلاقات وثيقة . ويشير إلى «أنّ قوي السحر الغيبية القائمة علي الرعب والطقوس التي تهدف الي مهادنة الآلهة الغريبة لم تبدأ في غزو الدين القبلي أو القومي إلا في عصور التفكّك الاجتماعي»[116].

114صفة الكاهن الساحر، تعني العليم بالأمور. انظر:

THE NEW DICTIONARY OF CULTURAL LITERACY, P, 311.

115روبير جاك تيبو. ***موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية***، ترجمة فاطمة عبد الله، (القاهرة: مشروع الترجمة في المجلس الأعلى للثقافة، 1998)، ص 165.

Roget's II: The New Thesaurus

116*ROBERTSON SMITH, P. 57*

يرى الباحثون في الأنثروبيولوجيا وتاريخ الأديان أن هناك تداخلا بين السحر والدين سواء في النشأة أم في استراتيجية العمل. يشير بعض الباحثين إلى أنّ السحر والدين نشأ معًا حينما واجه الإنسان الأوّل الطبيعة وغوامض الكون وسعى إلى محاولة تأمين حياته. ومن أقدم أشكال سعيه لحماية نفسه وتأمين بقائه فيعالم غير محتم بوجوده وغير مكترث لموته ولا يدري عن الصعوبات التي تواجهه؛ فحاول ذلك الإنسان النفاذ إلى مكنونات الغوامض التي واجهه به العالم؛ ومن تلك المحاولات سعى لدرء الشر مما يعتقد أنه خطر يتربص به من قوي فوق طبيعية ومحاولة الانتقال من مرحلة استرضائها لتكون معه لا عليه. ومن المسعى الأول في درء الشر نشأ السحر ومن المسعى الثاني في الاسترضاء نشأ الدين. لقد بدأ السحر والدين معًا لكن انفصالهما كان محتوما؛ فرغم أنهما نشأ بسبب خوف الإنسان وفضول هو نزوعه نحو القوة وسعيه إلى تأمين بقائه وإشباع حاجاته إلا أن اختلاف مقومات كل منهما أدى إلى قيام الصراع بينهما.

يشار إلى أن كلا من السحر والدين يؤمّنان للإنسان الأدوات التي تمكنه من فرض نوع من التحكم بالظواهر الطبيعية وجعلها تعمل لصالحه وتتيح له في الوقت ذاته التعامل مع قوى خفية آمن بوجودها باعتبارها تكمن في الظواهر الطبيعية كلها. فالسحر يتضمن تجسيدا لاعتقاد الإنسان بأنه قادر على التحكم في ظواهر الطبيعة، وهي ظواهر يشترك السحر مع الدين في الاعتقاد بمرونتها وقابليتها للتحكم والتعديل. في حين أن الدين يجسد اعتقاد الإنسان بأنه أضعف شأنا من أن يتحكم في ظواهر الطبيعة أو يستغل مرونتها وقابليتها للتعديل لصالحه؛ وهو اعتقاد يجعله يتنصل من طاقة السحر والاكتفاء بمحاولة الوصول إلى القوى العليا عن طريق ممارسة طقوس معينة كالصلاة والشعائر في محاولة لاسترضاء القوى العليا التي يعتقدها لكي تعمل تلك القوى لحسابه في التحكم في ظواهر الطبيعة فتجلب له الخير وتكف عنه أذى القوي الخفية الشريرة.[117]

وعلى الرغم من العنصر المشترك بين السحر والدين في أنهما يؤمنان بقوى خفيّة تسيطر على الكون وتتحكّم به إلا أن الفرق هو في وسيلة الاتّصال بتلك القوى. وبسبب هذا التقارب بينهما نشأ الصراع الذي كان له طابع التنافس في البداية وما لبث أن تحوّل مع الزمن والأجيال إلى نوع من العداء المستحكم جعل الدين يُحرِّم السحر ويُجرّم المتعامل معه. ومن وجهة نظر الدين الإسلامي فإنّ السحر نشأ من مصدر سماوي. فالملكان **هاروت وماروت**[118]نزلا من السماء وهما يحملان معهما السحر في مدينة بابل. وتعلم منهما الناس السحر الذي ينفع مع التحذير من الفتنة المرتبطة بذلك السحر.

---

117 انظر: ROGET'S II: THE NEW THESAURUS, PP. 92-94

118قال الله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: 102].
القصة:

ج- السحر عند بن خلدون:

يشير ابن خلدون في مقدمته إلى أن «علوم السحر والطلسمات119 هي علوم بكيفيةٍ تقتدر النفوس بها على التأثيرات في عالم العناصر؛ إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية . والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات»[120]. وهو يشير هنا إلى نوعين من السحر وكأن الطلسمات نوع من أنواع السحر يبدو أنه يحمل شفرة أقل درجة مما يحمله السحر ذاته.

ويفرق ابن خلدون بين السحر والدين من خلال تفريقه بين الساحر والنبي، يقول: «هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر؛ ذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع إلا أنها مختلفة بالخواص، وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية لا توجد بالصنف الآخر، وصارت هذه الخواص فطرة وجبلة لصنفها. فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصة تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة وما يتبع ذلك في التأثير بالأكوان. أما نفوس السحرة فلها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية»[121]. فهو يعطي الساحر طاقة ذاتية تجعله قادرا على التأثير في الكون من خلال ما تملكه نفسه من مقومات خاصة، في حين أن النبي يملك مقومات شبيهة بما لدى الساحر لكنها مقومات ليست ذاتية فيه وإنما وهبت له من قوى غيبية كالملائكة ليتخاطب بتلك المقومات مع القوى الغيبية ويكتسب المعرفة التي تؤهله للحصول على الطاقة التي تؤثر في الكون. ورغم أن في ذلك إعلاء من شأن الساحر بمنحه سمات غير بشرية في نفسه إلا أن ابن خلدون ينسب ذلك

والقصة: أن اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة والشعوذة التي كانت تُقْرَأ في زمن ملك سليمان عليه السلام. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرؤونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك في زمان سليمان عليه السلام، حتى قالوا إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون هذا علم سليمان عليه السلام، وما تمّ لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الجن والإنس والطير والريح، فأنزل الله هذين الملكين هاروت وماروت لتعليم الناس السحر ابتلاءً من الله وللتمييز بين السحر والمعجزة وظهور الفرق بين كلام الأنبياء عليهم السلام وبين كلام السحرة.

وما يُعلِّم هاروت وماروت من أحدٍ حتى ينصحاه، ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم منا السحر واعتقده وعمل به كفر، ومن تعلَّم وتوقَّى عمله ثبت على الإيمان.

فيتعلم الناس من هاروت وماروت علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، بأن يخلق الله تعالى عند ذلك النفرة والخلاف بين الزوجين، ولكن لا يستطيعون أن يضروا بالسحر أحداً إلا بإذن الله تعالى، لأن السحر من الأسباب التي لا تؤثر بنفسها بل بأمره تعالى ومشيئته وخلقه.

فيتعلم الناس الذي يضرهم ولا ينفعهم في الآخرة لأنهم سخروا هذا العلم لمضرة الأشخاص.

ولقد علم اليهود أن من استبدل الذي تتلوه الشياطين من كتاب الله ليس له نصيب من الجنة في الآخرة، فبئس هذا العمل الذي فعلوه.

والخلاصة: أن الله تعالى إنما أنزلها ليحصل بسبب إرشادها الفرق بين الحق الذي جاء به سليمان وأتم له الله به ملكه، وبين الباطل الذي جاءت الكهنة به من السحر، ليفرق بين المعجزة والسحر.

119 طلسم وجمعها طلاسم (تسمى في اللاتينية AMULETUM ولفظها في اليونانية قريب للفظ العربي، ومن العربية انتقل اللفظ إلى اللغة الإنكليزية (TALISMAN هي خطوط وكتابات لا تحتوي على معنى واضح ومفهوم يستخدمها السحرة أو أتباع بعض المعتقدات وتكون تعويذة ما يُزعم أنها تدفع كل مؤذ و/أو تجلب الحظ السعيد. الطلاسم عادة تكون كتابة على ورق لكن أحياناً قد تشمل أحجار عليها نقوش أو رموز صلبة أو خرز وكذلك قد تشمل ما يسمى الحرز.

تاريخ الطلاسم: وجدت الطلاسم لدى المشعوذين القدماء لدى المغارب؛ حضارات عديدة في الشرق الأوسط ومن بينها حضارات بلاد ما بين النهرين ومن ضمنهم السومريون والبابليين القدماء إضافة إلى الفراعنة والعرب في الجاهلية

الطلاسم والفلكلور: تدخل الطلاسم في تراث العديد من شعوب العالم حيث انها كانت موجودة لدى الفراعنة على شكل عين حورس إضافة إلى وجودها في فلكلور شعوب جنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا.

120عبدالرحمن بن خلدون. ***مقدمة بن خلدون***، (القاهرة: طبعة دار المعارف المصرية، كتاب الشعب، ب ت)، ص467.

121 ابن خلدون،**المقدمة**، ص 468.

إلى الشيطان، يقول: « فأما تأثير الأنبياء فبمدد إلهي وخاصية ربانية، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوي شيطانية»[122].

ويبدو أنه قصد بنفوس الكهنة السحرة. ومن الملاحظ على تفريق ابن خلدون بين الساحر والنبي أنه تفريق يقوم على النظر في مصدر الطاقة التي يعتمد عليها الساحر أو النبي، فمصدر الطاقة يكون الشيطان في حال الساحر ويكون الملائكة في حال النبي. ولا شك أن مصدر الطاقة سواء أكان الشيطان أم الملائكة هو مصدر غيبي يمثل قوة يعتمد عليها صاحب الفعل المنسوب إليه العمل الديني أو السحري؛ ويصعب على الباحث التثبّت من المصدر عند النظر إلى طبيعة الفعل إلا من خلال نتيجته الإيجابية أو السلبية.

يقسم ابن خلدون النفوس الساحرة إلى ثلاث أنواع هي، «الأول: المؤثر بالهمة فقط من غير معين وهو ما يسميه الفلاسفة السحر. والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول. والثالث هو تأثير القوى المتخيلة ويعمد هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرّف بها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤون وكأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك ويسمي هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة»[123].

ومن الواضح أن ترتيب أنواع النفوس الساحرة كان ترتيبا بحسب قوتها؛ فالسحر يعتبر أعلى درجة من حيث القوة باستقلاليته عن المعين، في حين أن الطلسمات هي محاولة فلكية معينة ربما يكون السعي من ورائها منتجا لمعرفة مستقبلية معينة أكثر من كونه مؤثرا في الكون كما هو مع السحر. أما النوع الثالث الذي أشار إليه ابن خلدون من التأثير بالمخيلة أو الشعبذة فهو قريب مما يعرف اليوم بعلم النفس الغيبي أو البارا سيكولوجي(Parapsychology)[124]الذي يستند على طاقة التخاطر وهي طاقة نفسية ذهنية يستطيع من

122ابن خلدون، **المقدمة**، ص 469.

123ابن خلدون، **المقدمة**، ص 468.

124يتألف مصطلح الباراسيكولوجي «ما وراء علم النفس» من شقين أحدهما البارا (PARA) ويعني قرب أو جانب أو ما وراء، أما الشق الثاني فهو سيكولوجي (PSYCHOLOGY)ويعني علم النفس، وفي الوطن العربي هناك من سماه الخارقية، ومن سماه علم القابليات الروحية، ومن سماه علم نفس الحاسة السادسة ولكنه ظل محتفظا باسمه لعدم الاتفاق على تسمية عربية موحدة له.

وكان الفيلسوف الألماني ماكس ديسوار عام 1889م أول من استخدم هذا المصطلح ليشير من خلاله إلى الدراسة العلمية للإدراك فوق الحسي والتحريك النفسي «الروحي» والظواهر والقدرات الأخرى ذات الصلة، وتعددت التسميات حتى أصبح يطلق عليه في كثير من الأحيان «الساي»،وللباراسيكولوجي موضوع يدرسه وهو القدرات فوق الحسية «الخارقة» كالتخاطر والتنبؤ والجلاء البصري والاستشفاء وتحريك الأشياء والتنويم الإيحائي «المغناطيسي» وخبرة الخروج من الجسد... الخ، أما المنهج الذي يستخدمه هذا العلم فهو المنهج العلمي الحديث مع شيء من التطوير الذي تقتضيه طبيعة الظاهرة المدروسة وهذا هو الرد على من يريد أن يعرف «هل الباراسيكولوجي علم أم لا» فهو قديم في ظواهره وقدراته، جديد بمنهجه ووسائله وأساليبه، ويبدأ بالفهم والتفسير ويمر بالتنبؤ حتى يصل إلى الضبط والتحكم بالقدرات التي يدرسها.

يمتكها أن يرسل من عقله رسالة تخاطرية إلى عقل آخر أو إلى عدة عقول بحيث يرون أشياء هي في الحقيقة لا تحدث ولكن هذه العقول تراها بالنظر كما لو كانت واقعة ومتحققة[125].

د- منهج جيميس فريزر:

عرض جيمس فريزر (James Frezer) الباحث الأنثروبيولوجي، رأيه في السحر والدين في الجزء الأول من كتابه الغصن الذهبيThe Golden Bough ، ثم عرضه بالتفصيل في كتاب مستقل هو الدين والسحر. يشار إلى أن فريزر من المؤمنين بتشابه الجنس البشري في كثير من السمات الأساسية في التعامل مع معطيات الحياة المختلفة؛ ولهذا فقد اعتمد على الاستنباط المستمد مما يعرف بالرواسب الثقافية[126] في المجتمعات بسبب أن موضوع السحر والدين وما ارتبط بهما من مفاهيم كالأسطورة والخرافة يرجع في نشأته إلى مراحل موغلة في القدم ويصعب الحصول على المعلومات والبيانات الدقيقة عنه لاسيما وقد اندثرت بعض مظاهر الحضارة في تلك الأزمنة. لهذا كان الاستناد إلى الرواسب الثقافية باعتبارها السمات الثقافية التي تلكأت في سيرها و لم تتطور بنفس السرعة التي تطورت النظم في مجتمعات أخرى – وسيلة مهمة للتعرف على بعض المظاهر ذات الجذور القديمة ومنها السحر والدين.

وتتمثل هذه الرواسب الثقافية في بعض العادات التي يمارسها العالم المتحضر دون أن يدرك لوجودها سبب معين، كما يتمسك بها الناس دون أن يعرفوا معناها الأصلي. كما تتمثل في الرواسب والبقايا في النظم الاجتماعية والأنساق الثقافية السائدة في المجتمعات البدائية علي اعتبار أن هذه المجتمعات تمثل مراحل سابقة في تاريخ المجتمعات الإنسانية ككل. وجدير بالذكر أن فريزر تعامل مع مفهوم الرواسب الثقافية لكنه لم يترك تعريفا محددا لاصطلاح الرواسب الثقافيه سوى إشارته إلى المحددات السابقة، ويعد تايلور (Tylor) أبرز من وضع هذا المفهوم في مصطلح معروف في الأنثروبيولوجيا[127].

يعدّ فريزر من أبرز من أسهم في دراسة السحر والدين في الدراسات الأنثربولوجية التطورية. فقد حاول الربط بين السحر والعلم اللذين يقفان موقف التعارض مع الدين، ولكنهما يقومان على أسس ومبادىء منطقية واحدة

125للمزيد يمكن الاطلاع على: PSYCHOLOGICALSUPERNATURALOCCURRENCES, P. 49

126«الراسب الثقافي عنصر أو مركب ثقافي تغيرت وظيفته الأصلية بمرور الزمن بحيث أصبح استعماله مجرد اتفاق شكلي».

إيكهولتكرانس، **قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور**، ترجمة حسن الشامي ومحمد الجواهري، (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1973)، ص214.

127 على أن مصطلح الرواسب الثقافية يستخدم في الفلكلور بمعنى يختلف عن استخدامه في الأنثروبيولوجيا باعتبار تلك الرواسب تمثل الآثار العتيقة الدارجة، أو الآثار الثقافية القائمة التي لايعرف أصلها أو مصدرها بالدقة الكافية. لمزيد من التفصيل ينظر:

MALNOFISKY, *A SCIENTIFIC THEORY OF CULTURE*, PP. 54-57.

تعتمد علي تداعي المعاني وترابط الأفكار. ويرى أن عملية التداعي في السحر تتم بطريقة خاطئة، لذلك أطلق على السحر لفظ "العلم الزائف"[128].

يقوم السحر عند فريزر على مبدئين أساسيين هما: الأول، أن الشبيه ينتج الشبيه؛ ويعني هذا أنك إذا صنعت دمية تشبه الشخص العدو مثلا وقمت بقتلها فإن هذا العدو سيموت وفقا لمبدأ أن "الشبيه ينتج الشبيه". أمّا المبدأ الثاني فهو استمرار التأثير المتبادل بين الأشياء المتصلة حتي بعد انفصالها عن بعضها البعض. فالأشياء التي كانت متصلة في وقت من الأوقات يؤثر كل منها في الآخر حتى بعد انفصالها.

يعتبر فريزر هذين المبدئين قانون السحر البدائي باعتبار ذلك ممثلا لموقف الرجل البدائي من العالم ونظرته إليه. وفكرته في وضع قانون السحر قائمة على أساس ملاحظة البدائي وخبرته الطويلة مع ظواهر الحياة وأحداثها وتقلب الفصول؛ وهذه أسس مهمة في قيام العلم والتفسير العلمي. ومن هنا جاء ربط فريزر بين السحر والعلم.

ميَّز فريزر بين السحر والدين على أساس أنّ الدين يشترط الاعتقاد في الكائنات الروحية أو الإلهية والأرباب في حين يتألّف السحر من الأعمال والممارسات والشعائر التي تتصل بالكائنات الأخرى مثل الأشباح. ويعتمد السحر على عبارات وتعاويذ وصيغ قد لا تكون مفهومة عند مستخدميها بخلاف الدين الذي يستخدم اللغة العادية السائدة في المجتمع. ويبدو أن فريزر اعتمد في هذا التفريق على الصورة الحديثة للسحر والدين، إذ لا نعلم عن مدى معرفة السحرة بالتعاويذ التي يرددونها في تلك الفترة التي قيلت فيها؛ ومن هنا فإن هذا التفريق بين السحر والدين من جانب لغوي يبدو أنه ليس فرقا جوهريا بدرجة كافية.

على أن فريزر يرى أن السحر سابق للدين في الوجود بخلاف الرأي القائل بوجودهما معًا. فهو يرى أن السحر هو الذي مهد لظهور الدين وأن معظم الممارسات والطقوس التي تتصل بعالم الغيبيات وبالكائنات ذات الصفات الخارقة للطبيعة هي في الأصل ممارسات وطقوس سحرية اتخذت طريقا إلى الدين الذي نشا بعد ذلك[129].

٥- السحر والدين:

الأشياء المحرمة على فئتين، فقد تكون طاهرة وقد تكون نجسة، وإذا درسنا السحر وجدنا أن معظم محرماته تستمد قوتها من الأشياء النجسة، ومن أمثال القاذورات والأوساخ والشعر والحيض والبول والعظام. وإذا تناول الساحر الأشياء المحللة عمد بادئ ذي بدء إلى تنجيسها. أما الدين فهو على نقيض السحر، إذ المحرمات فيه

128James Frazer. *The Golden Bough: a Study in Magic and Religion*, (1st edition, 1890), PP. 17-22.

129ينظر: FRAZER, *THE GOLDEN BOUGH: ASTUDY IN MAGIC AND RELIGION, PP. 67-71.*

أبدا طاهرة، فالكتب المقدسة طاهرة والمعبد طاهر والمسجد طاهر...وهكذا نستطيع أن نفرق بين الدين والسحر بقولنا إن الأول يستمد قوته من المحرم الطاهر والثاني من المحرم النجس.

لا جرم أن التمييز بين هاتين الفئتين من أدق المسائل التي تعرض لعلم الانثروبولوجيا، لأن مدار عملها على التصورات المشتركة والأعمال التي بواسطتها يستغل الإنسان القوى المنتشرة في أرجاء العالم، زد على ذلك أن كل ديانة جديدة تنعت بالسحرية الديانة القديمة البائدة.

ويأتينا ماريت، للفرق بين السحر والدين، بما يكاد يقرب منه ما اقترحناه؛ فعند الأول يشتمل على جميع الوسائط الطالحة، والثاني على جميع الوسائط الصالحة، للتقرب إلى ما فوق الطبيعة. أما المدرسة الفرنسية فتراعي في تمييزها القواعد العامة التي قررتها في شأن الفرد والمجتمع. يقول رينيه هوبير: «السحر جملة من العقائد مفادها أن بعض الطقوس، من إشارات وأقوال، لها القدرة على التأثير في الأشياء والكائنات، بل في استعدادات الفرد الخلقية، وما هو سوى استغلال أكثر ما يكون فرديا للقوى المبثوثة في أرجاء العالم، كما تؤمن به المنطقية الأولية».130وهذا ما ذهب إليه العالمان هوبير وموس إذ عرفا السحر بأنه جملة من الطقوس السرية، الخاصة الممنوعة، تمتاز من الطقوس الدينية بكون الذبيحة ليست من شروطها الأساسية.

وعليه، فإن ما يميز السحر من الدين هو أن الأول من الطقوس الخاصة الفردية، والثاني من الطقوس العامة الاجتماعية، أي أن الساحر يقوم بعملية في مصلحة فرد أو بضعة أفراد بينما الكاهن يخدم المجتمع بأسره.

و- السحر والمعجزة والكرامة:

إذا كان السحر يشير إلى تحكم الإنسان في ظواهر الكون والقدرة على التأثير فيها بالاستعانة بقوى غيبية معينة، فإن السحر يشترك مع المعجزة والكرامة في أنها جميعًا ظواهر غير طبيعية تتسم بأنها تخرق القانون الطبيعي للأشياء المادية. لكن الفروق بين هذه الممارسات يكمن في مصدرها؛ فالسحر يصدر من شخص يسمّى ساحرا في حين أن المعجزة يأتي بها شخص يسمّى نبيّا والكرامة الصوفية تأتي كذلك من شخص يُسمّى وليّا[131]. وبناء على مصدر الممارسة يمكن تصنيف العمل على أنه سحر أو معجزة أو كرامة؛ فالنبي شخصية دينية تمثل وسيطا بين الله

130 يوسف شلحت، نحو نظرية في علم الاجتماع الديني (الطوطمية-اليهودية-النصرانية-الإسلام)، تحقيق وتقديم خليل أحمد خليل، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، سنة 2003، ص 56.

131يشار هنا إلى أن الآيات لله والمعجزات للأنبياء والكرامات للأولياءولخيار المسلمين. وقد سميت معجزات لايعجاز الخلق أن ياتوا بمثلها؛ فمن أثبتمن ذلك شيئا لغير الأنبياء فقد ساواهم بهم.والفرق بين المعجزةوالكرامة أن الأنبياءمامورونباظهارالمعجزاتأما الولي فعليه أن يستر كرامته. انظر: عبد المنعم الحفني، **المعجم الصوفي**، ص 57.

ومخلوقاته؛ أما الولي فهو شخصية دينية أقل مرتبة من النبي لكنه وصل إلى درجات عالية من الصلاح فأصبح في موقع معين يتوسط فيه للمؤمن العادي مع النبي أو مع الله بحسب الاتجاه الصوفي الذي يتبعه.

يلاحظ أنه ليس ثمة فارق كبير بين الساحر والنبي والولي من حيث العمل إذا نُظر إليه مجردا من النزعة الأيديولوجية؛ لكن الساحر يعتبر مرفوضا والنبي مقدسا والولي مكرما وفق النظرة الدينية، وهو أمر مهم في تقرير سمات كل صنف. تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك باحثين يرون أن طبيعة الممارسة الصادرة من الساحر والنبي والولي تُصنف في خانة السحر[132].

وبسبب التداخل في هذه الممارسات والالتباس بينها فقد ذكر النبهاني في كتابه جامع كرامات الأولياء أن الفعل الخارق ثلاثة أقسام: القسم الأول، هو أن يكون مع الدعوى، وله أربعة أصناف: الأول ادعاء الألوهية، والثاني ادعاء النبوة، والثالث ادّعاء الولاية، والرابع ادّعاء السحر.

والقسم الثاني هو أن تظهر خوارق العادات علي يد شخص من غير شيء من الدعاوى ويفرق بين حالين، الحال الأول أن يكون الشخص صالحا ويسمي وليا وفعله من قبيل كرامات الأولياء. والحال الثاني أن يكون الشخص خبيثا مذنبا وقد أنكر المعتزلة جواز ذلك وإن اقره الصوفية[133].

القسم الثالث هو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودا عن طاعة الله ويسمي ذلك بـ "الاستدراج". ويُعرّف الاستدراج بأنه «الخارق الذي يظهر من الكفار وأهل الفسوق»[134]

يلاحظ من التعريفات السابقة التي تسعى إلى التفريق بين الممارسات المختلفة المنسوبة للساحر أو النبي أو الولي أنها لا تركز على طبيعة الفعل بقدر اهتمامها بالمصدر الذي تنسب إليه تلك الممارسة. وبناء على ما يتسم به المصدر من سمات يغلب عليها أنها سمات غيبية تتعلق بالإيمان والصلاح أو بالفساد والشر تكتسب تلك الممارسات صفاتها التي تفترق به عن غيرها. ومن هنا فليس مستغربا أن يصنّف عمل معين على أنه سحر عند فئة معينة وفي الوقت نفسه يصنّف على أنه نبوّة أو كرامة عند فئة أخرى لأن الفرق في التصنيف قائم على النظر إلى مصدر العمل لا إلى العمل نفسه.

132من الباحثين العرب القائلين بهذا الرأي، على سبيل المثال: سيد محمود القمني في كتابه النبي موسي وآخر أيام تل العمارنة، ج3،(القاهرة: المركز المصري لبحوث الحضارة، ط1، 1999). وشفيقمقار كتابه السحر فيالتوراة والعهد القديم الذي اعتمد في بعض أفكاره على ماجاء عند سيمغوندفرويد في كتابه موسيوالتوحيد.يقول مقار:«إن موسي لم يكن سوي شامانا /ساحرا وأنه اغترف من السحر المصري ما اغترف».وفسر على هذا الأساس كل المعجزات الواردة في العهد القديم وكذلك معجزات أنبياءالتوراة والعهد القديم مثل "ايليا" و "اشعيا" وغيرها.شفيق مقار . السحر في التوراة والعهد القديم، (لندن: دار رياض الريس،ط1، 1990)، ص 149.

133يوسف بن إسماعيل النبهاني. جامع كرامات الأولياء، ص 46

134الحفني، المعجم الصوفي. كما يوضح النبهاني الفرق بينالكرامة والاستدراج بأن«معنى الاستدراج أنيعطيه الله كل ما يريده في الدنيا ليزداد في غيه وضلاله فيزداد عن اللهبعدا [...] والاستدراجاتأنواع عدة هي : الاستدراج و المكر والكيد الاملاءوالاهلاك [...] وأن صاحب الكرامة لايستانس بتلك الكرامة عند ظهورها عليه خوفا من أنتكون استدراجا من الله وامتحانا له.وإذا أدت الكرامةأو الفعل الخارق إلى غروروفساد كان ذلك استدراجا لا كرامة».

2. الاعتقاد في الجن و الشياطين:

أ- الجن: الاسم والمعنى:

الجِنّ (اسم جمع لكلمة "الجَانّ"، ومفردها "جِنّيّ"، أو "جِنِّيَّة")، وفي القاموس: المفرد يسمى جني والأنثى تسمى جنية، وهو من الفعل جَن (بفتح الجيم وتشديد النون وفتحها) وهو بمعنى أستتر وغطى ومنها قولهُ في القرآن: ((فلما جن عليه الليل))، أي سترهُ ظلام الليل وغطاه، وهم وبحسب الأديان والأساطير العربية القديمة الجن مخلوقات تعيش في ذات العالم ولكن لا يمكن رؤيتها عادة، وهي خارقة للطبيعة، لها عقول وفهم، ويقال إنما سميت بذلك لأنها تستتر ولا تُرى.[135] فلم ينكر المعتقد الإسلامي على العرب وجودها، بل أفرد جزءاً ليس بيسير ليتحدث عنها في النصوص الدينية الإسلامية مزاوجا في كثير من الأحيان بين "الإنس" (أي الناس أو البشر) و"الجن."[136]

يعتقد الكثير من الناس بوجودها وبأنها هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، ولها قدرة على عمل الأعمال الشاقة، كما أجمع المسلمون قاطبة على أن النبي محمد مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس ولقد ورد ذكر ذلك في القرآن: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.[137] وهناك سورة كاملة في القرآن اسمها سورة الجن.

ب- الشيطان: الإسم والمعنى:

الشيطان كائن خارق للعادة يعتبر تجسيدا للشر في كثير من الثقافات والأديان باختلاف المسميات وفي أحيان كثيرة عدوا ونقيضا للإله.[138] فهو ممثل الشر وكل ماينطوي تحته من أفعال وأفكار في حرب مقدسة أو كونية مع قوى الخير وأدق المصطلحات الفلسفية لوصف علاقة الشيطان بالإله هي الثنوية. فالإله يمثل قوى الخير والنور التي تقاتل لأجل نجاة الأرواح البشرية من شر الشيطان وأعوانه.

تختلف التسميات من ثقافة لأخرى فهو إبليس في الإسلام ولوسيفر في المسيحية أما اليهودية فهو أحد أعضاء المحكمة الإلهية ليهوه؛ ويعتبر ملاكا ساقطا في المسيحية ويسمى أيضا عزازيل و طاووس ملك في الديانة الأيزيدية، وفي الإسلام هو من الجن يغوي البشر لإرتكاب الذنوب والمعاصي بحق الإله. يلعب الشيطان

135 عمر سليمان الأشقر: عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الطبعة الرابعة، الكويت، سنة 1974، ص 11.
136 موسوعة ويكيبيديا على الرابط: HTTPS://AR.WIKIPEDIA.ORG/WIKI/%D8%AC%D9%86
137 سورة الأنعام، الآية 19.
138 الشيطان ـ الموسوعة البريطانية نسخة محفوظة 29 أبريل 2015 على موقع واي باك مشين.

دورا محوريا في هذه الأديان الثلاث تحديدا فقد أرتبط اسمه بالكفر والهرطقة وكل ما يمكن اعتباره كذلك حسب المعتقد والدين.

إبليس139 اسم لشيطان واحد وكان اسمه عزازيل حتى معصيته لله. وقيل أن الشيطان إما من شطَن (ابتعد عن الحق) وإما من شيَط (احترق غضبا). وقال أبو عبيدة أن الشيطان كل عات متمرد من إنس أو جن ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.[140] وقال الراغب[141] أن الشيطان هو كل ذي صفة ذميمة من إنسان أو جني، أو حيوان، كل ذميم ذما مطلقا.

غير أن مؤلفي معاجم اللغة العربية وعدداً من المفسرين يرجحون اعجمية كلمة ابليس، أو انها من الألفاظ الدخيلة على اللغة العربية، ومعنى كلمة إبليس في اللغة العربية هو من الفعل بَلَسَ (بمعنى طُرِدَ)، عندها يكون معنى إبليس هو "المطرود من رحمة الله، ولفظة ابليس كذلك تأتي في معنى الضلال، الدهشة، السكوت، وكثيرة هي الأحاديث التي تدل على ان اسم ابليس مشتق من الإبلاس، كما ان كتاب اللغة يرجحون اشتقاقها من اللغة العربية.[142]

ج- الجن في الميثولوجيا:

قيل أن الإنسان عرف الروح بعد ما فكر في بعض التجارب مثل النوم والحلم والظل والسراب والنفس والموت، واتسعت هذه الفكرة عنده فهدته إلى معرفة الجن والروح، وما زالت تتسع شيئا فشيئا حتى غشي الطبيعة بالأرواح. فمظاهر الحياة مثل النوم ومشاهدة كل ما يجري من الحوادث في الحلم حملت الإنسان على الاعتقاد أنه ذو شخصيتين: الشخصية الأولى هي القالب المادي، والشخصية الثانية أخذ يطبقها على الأشياء جميعها، فحسب في الحجر الصامت والشجر النامي شخصية مستورة مثل شخصيته في جسده، وأصبحت الموجودات التي كانت كلها في نظره عالم الجمادات والسكوت الخاضع لنواميس الطبيعة ذات عالم حيوي كعالم الحلم في ذات نفسه.

---

139 نسبت إلى إبليس صفات الخيلاء والكبر والعصيان والتمرد والكراهية والحسد والباطل والغواية والخبث والخداع وغيرها. وكانت معرفته فاتحة التمييز بين الخير والشر بوصفها مفهومين أخلاقيين أقامها الفكر النظري مستنداً إلى الدين التوحيدي أو دين الإله الواحد. وأصبح الواجب والجائز والمحظور من أهم دعامات الحياة الاجتماعية. فقبل ظهور الديانات التوحيدية وتحول إبليس إلى رمز للشر في العالم، لم تكن أعمال البشر تقاس سوى بميزان النفع والضرر والأمن والخوف واللذة والألم، ولم يكن للأحكام الأخلاقية من مدلول في الكلام، ومن البديهي أنه لم يكن لها مدلول في الذهن والوجدان. فقد كان مفهوم إبليس ضرورياً لمعرفة الخير والشر والحق والباطل والحسن والقبيح. وهو في الديانات الإبراهيمية مصطلح يشير إلى أحد أعيان الجن المقربين من الله إلى أن داخله الغرور فلُعن وطرد من السماء. فطرده الله من رحمته ولعنه إلى يوم القيامة وبعدها مصيره النار وبئس المصير.

140 سورة الأنعام، الآية 113.

141 الرَّاغِب الأَصْفَهَانِي (توفي 502 هـ / 1108 م) هو أديب وعالم، أصله من أصفهان، وعاش ببغداد. ألف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة.

142 فراس السواح: الرحمان والشيطان (الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية)، منشورات دار علاء الدين، ب ط، ب ت ن، ص 57.

هكذا بدأ الإنسان الأول يرى في كل مظهر من مظاهر الطبيعة حياة كما كان يشعر في نفسه، وقف حائرا أمام الغرائب كلها، فاكتفت عقليته المتحيرة بأن تحسبها أشخاصا مثل شخصيته، وأن لها حياة مثل حياته. بدأت هذه الفكرة عند الإنسان منذ القدم ولا يزال يقدس الأشياء حيث لا يجوز تقديسها. هذا النظر يشبه عقيدة أصحاب وحدة الوجود إلى يومنا هذا؛ وقد إمتد به فكره إلى أفق أبعد، فجعل صلة بينه وبين الموجودات كصلة الأبوة والأمومة والأخوة، ثم جاوز ذلك فقدس الموجودات إجلالا وحفظا لكرامة الأسلاف. وفي فهرس الأصنام نجد أسماء الأشياء الطبيعية مثل الشمس والقمر والأرض والسماء والشجر والحجر، وقد جعل الإنسان علاقته بها كعلاقة العبد بالمعبود، فخاطبها كما كان يخاطب الإله.[143]

إن الروح عبارة عن الحياة الطبيعية أو الحركة عن الإنسان قديما، كان يعتقد في الجن والهواتف والغول والسعلاة...، والجن والغول وأشباه ذلك ماهي إلا صنف من الحيوان في تصورات القدماء. وقد تطورت حيوية الشجر والحجر إلى صورة الجن والأرواح التي تسكنه، فأصبحت الأشجار والأحجار من بقايا تبركات تلك الأرواح، وهذه الفكرة المعكوسة إنما هي رد فعل لتطور الحيوية وهو ما يسمى بالمذهب الفيتيشي Fétichisme. وإذا التفتنا إلى تصور الجن عند العرب، تظهر الفكرة الطوطمية بأجلى معانيها ومظاهرها؛ فالجن في العقيدة الجاهلية خلق من بيضة كما قال المسعودي: «وما ذكره اهل التاريخ والمصنفون لكتب البدء حوهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما أن الله عز وجل خلق الجان من نار السموم، وخلق منه زوجته، كما خلق حواء من آدم، وأن الجان غشيها فحملت منه، وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة، وأن بيضة تفلقت من تلك البيضة قطربة وهي أم القطارب وان القطربة على صورة الهرة وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة، وأن مسكنهم الجزائر، وأن الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخربات والفلوات، وأن السعالي من بيضة أخرى وسكنوا الحمامات والمزابل، وأن الهوام من بيضة أخرى وسكنوا الهواء في صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك، وأن الحماميص من بيضة أخرى...».[144]

فهذه الرواية تدل صراحة على كون الجن من نسل الحيوان، فما الذي يخلق من البيضة ولا يكون من الحيوان يا ترى؟ زد على ذلك قول الألوسي: «إنهم يعتقدون في الديك والغراب والحمامة والورل وساق حر والقنفد والأرنب والظبي واليربوع والنعام والحية اعتقادات عجيبة، فمنهم من يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقا، ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن».[145]ومن تصفح كل الروايات نستطيع القول بأنها تدل صراحة على كون الجن من الدواب والسباع والهوام. نعم أحيانا نجد الجن على صورة الإنسان، وتارة على شكل غريب الخلق، لكن التصورات من

143 أنظر: محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة-مصر، سنة 1932، ص 61.
144 محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة-مصر، سنة 1932، ص 71.
145 نفس المرجع، ص 72.

هذا السبيل لم تكن تصورات عربية خالصة، وذلك لأن العقلية العربية كما بينا لم تجرد المادة في بداوتها، لذلك كان تصور الجن كراكب النعامة من أحدث التصورات.

إن الجن والغول والسعلاة كانت من الحيوان في صميم الفكرة العربية؛ لذلك نرى الباحثين عن معنى الجن عند العرب أدخلوه في نوع الحيوان متأثرين بفكرة البادية وقالوا: «إن الغول حيوان شاذ». 146وإذا نظرنا إلى أصل نشوء الجن عند العرب نشعر أن مساكن الجن تشبه مساكن السباع التي كانت العرب تخاف منها، فكل شيء مخيف أو صوت غريب كان متعلقا بالجن في بادية العرب. فهذه الفكرة إما أن تكون قد بدأت في بادية العرب نفسها، وإما أن تكون قد جلبت من الخارج، وأغلب الظن أن تكون بذور تلك الفكرة هي أن العربي كان يخاف بعض الخرافات والفلوات، ويستوحش من سماع الصدى فيما بين الجبال. ويقال إذا نزل العربي في واد مخيف كان يعوذ بعظيم هذا الوادي. قال شاعر استعاذ ومعه ولده فأكله الأسد:

قد استعذنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعادي فلم يجرنا من هزير عادي[147]

تطورت الفكرة إلى أن النفس التي كانت طيرا في تصور الإنسان القديم أصبحت جنا من الجن الخيالية وصارت من الشياطين، ومع ان فكرة الجن تطورت عند الإنسان إلى حد بعيد، فقد بقي في تصور الجن جزء من الحيوانية، فإذا تحولت العلاة غي صورة المرأة مثلا فقد تكون رجلاها رجلي حمار أو عنز... والإنسان في العصور المتأخرة يرى في الجن أو في هذا الحيوان كل ما يراه المتوحش في طوطمه؛ ولا زال ينسب الأفراد والقبائل إلى نسل الجن. ومع كل هذه المماثلة بين الجن والحيوان وطوطم البدائي، فإنا نرى صفات الجن تختلف عن صفات الحيوان في بعض الأساطير القديمة. ففي كثير من التصورات حول الجن، مع كونها إنسانا ذا لحم وعظم ضخم يطير في الهواء ويسكن في ناحية يلوح فيها البرق مثلا...

إن تصور الجن لم يبق على حيوانيته القديمة في جميع تطوراته من عصر البداوة إلى عصر الأديان التوحيدية، خاصة الإسلام. ولكن هذا لا يمنع من كون الجن حيوانا في تصور الإنسان القديم كما أسلفنا، لكنا لا نوافق على كون الجن طوطما عند المسلمين والعرب على وجه الخصوص، ذلك لأن للطوطم أتباع يحمونه ويحميهم، أما الجن منذ نشأتها فهو شيء مخيف ومنفر للناس، وقد استعاذت العرب من الجن، ولم يرجوا الخير منه، لا كما يفعل أهل الطوطم الذين كانوا يلجأون إليه في الساعة الحرجة. فكان الجن يمثل قوة الشر...ومن هذا نقول إن الجن كان من أعداء القبيلة لا من آبائها. وفضلا عن ذلك فإن الجن كانت تمثل الحيوان في مخيلة الإنسان، لكن يفرق بين الجن والحيوان في عالم المشاهدة، إذ لم يكن كل صنف من الحيوان جنا في تصور الإنسان العربي أو المسلم مثلا، وزد

146 قزويني زكرياء بن محمد، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق قاضي محمد بن يوسف، مكتبة الثقافة الدينية، القاعرة – مصر، سنة 2004، ص 202.
147 محمود شكري الألوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المجلد الثاني، دار الكتاب المصري، القاهرة – مصر، ص 326.

على ذلك أن السباع لم تكن وحدها الجن، بل كانت الإبل أيضا من الجن، ولو أنها ليست من الحيوانات المخيفة، وكذلك نوعية الجن لم تكن محصورة في الحيوانية، بل كل شيء مخيف أو صوت غريب أو بناء عظيم يستلفت الأنظار كان متعلقا بالجن.[148]

ثم إن صاحب الطوطم لا يؤذي طوطمه ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع؛ والعربي أو المسلم كان يجتنب قتل الحيوان خوفا من الجن، وإذا طالت علة الواحد منهم ظنوا به مسا من الجن. كما يحرم اللمس والنظر إلى الطوطم، ويحرم التلفظ باسمه، وإننا نجد شيء من هذا عند العرب والمسلمين فيسمون النعامة بالطلع والمجلم، ويلقبون الأسد بأبي الحارث، والثعلب بابن آوى، والضبع بأم عامر، وسموا الغراب بحاتم.

3. الجن في النصوص القرآنية والحديثية:

ورد في القرآن: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[149] ويعتقد المسلمون بأن للجن قوى مادية غير عادية، وأن الجن باستطاعتها رؤية الناس، والبعض يعتقد إن أجسام الجن غير مرئية وقادرة على التشكل بالشكل الذي تريده، ولكن الجن[150] له وجود مادي لحياة عاقلة ورد ذكرهم في الكتب السماوية. ويقوم بعض المتخصصين بالقراءة من القرآن على أشخاص مسهم أو تلبَّسهم الجن لإخراجهم ويحدث في ذلك مخاطبة الجني ومجادلته حسب إعتقاد بعضهم.

ولقد سموا جنا في لغة العرب لاستتارهم عن العيون، فهم يرون الناس ولا يستطيع الإنسان رؤيتهم، وهذه الحقيقة ذكرت في القرآن: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾،[151] والمقصود إن الإنسان لا يرى الجن على صورتهم الحقيقية التي خلقوا عليها ولكن قد نراهم بصور أخرى متجسدين لها أو وهما للعقل كشبح وغيره كما يحصل لبعض الأشخاص.[152]

---

148 محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، مرجع سابق، ص ص 75-80.

149 سورة الحجر، الآية 27.

150 أسماء الجن في لغة العرب وأصنافهم: قال ابن عبدالبر رحمه الله: بأن الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب وهي:

1- يسمونهم جناً.
2- إذا سكنوا الدَّار يسمون عمّار جمع عامر.
3- إذا تعرض للصبيان يسمون أرواح.
4- إذا خبُثت يسمى شيطان.
5- فإذا زاد في الخبث يسمى مارد.
6- فإذا زاد في الخبث يسمى عفريت.

151 سورة الأعراف، الآية 27.

152 أنظر: عمر سليمان الأشقر: عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الطبعة الرابعة، الكويت، سنة 1974، ص 53.

ويقرر القرآن إن حقيقة الجن خلق آخر غير الإنس وغير عالم الملائكة والأرواح، وبين الجن والإنسان قدر مشترك من حيث الإتصاف بصفة العقل والإرادة ومن حيث القدرة على اختيار طريق الشر والخير، ومن حيث التكليف بالعبادة وحسب ما ذكر في القرآن في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[153].

الجن في القرآن والحديث لهم حقيقة موجودة وهم كما يصفون أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾.[154] منهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾.[155] هم قابلون للهداية من الضلال مستعدون لإدراك القرآن سماعاً وفهماً وتأثرا: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.[156] أنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾.[157]أنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.[158] أن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾[159].

ولقد صححت هذه السور القرآنية ما كان يعتقده المشركون من العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون، حيث وردت في الجن آيات كثيرة توضح حقيقتهم في هذا العالم ومنها: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾.[160]

كما ورد في صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: أستطير أو اغتيل، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا به جاء من قبل حراء فقلنا: "يا رسول الله فقدناك وطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم"، فقال صلى الله عليه وسلم:

153 سورة الذاريات، الآية 56.
154 سورة الجن، الآية 11.
155 سورة الجن، الآيتان 4-5.
156 سورة الجن، الآية 1-2.
157 سورة الجن، الآية 13-14.
158 سورة الجن، الآية 6.
159 سورة الجن، الآية 12.
160 سورة الأنعام، الآية 130.

"أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن"، قال ابن مسعود: فانطلق بنا، صلى الله عليه وسلم، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم...).[161]وروي أيضا عن صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن النبي محمد، قال: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم كما وصف لكم".[162] أما عن أصناف الجن في السنة النبوية، فجاء عن جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجن ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون".[163]

4. الاعتقاد في روح الأولياء و الصالحين:

إن ظاهرة الممارسات والمعتقدات الشعبية حول أضرحة الأولياء، ظاهرة متأصلة وراسخة لدى المجتمع الجزائري بصفة خاصة، ومجتمعات شمال إفريقيا وبلاد الشام والرفين بصفة عامة؛ ولهذه الظاهرة جذور تاريخية واجتماعية وثقافية بعيدة، ولا تزال تفرض نفسها ليومنا هذا. هنا نحاول تقديم وصف إثنوغرافي لظاهرة متجذرة في الثقافة الشعبية لهذه المجتمعات، ومحاولة فهم أسباب استمرار الاعتقاد في الأولياء وزيارة أضرحتهم وقبوره.

طقوس زيارة الأضرحة:

الطواف حول القبة : الطواف خمس أو سبع مرات مع الدعاء خلال الدوران " إن الأعداد كالأشخاص والألوان والأصوات تكسب شخصيتها من ظروف ناشئة عنها ونتائج ناتجة من حولها فنجد الأعداد ثالثة وسبعة وعشرة واثني عشر وعشرين واربعين وسبعين ومائة وألفا شأنا في 2التعامل والتفكير البشري أكثر من الأعداد الأخرى.164

الحزام: تترك الزائرة التي لم ترزق بالذرية حزامها داخل القبة طمعا في نيل بركة الولي وحصول الحمل، وهذا شائع في حضرة سيدي منصور ويمكن ممارستها في حضرة أولياء آخرين تقول إحدى المبحوثات: "سيدي منصور مختص في عالج المرأة التي تجهض، يكفي أن تطوف سبع دورات على القبر وتترك حزامها هناك وتأخذ حزاما آخر من عند القائمة على الضريح . يمثل الحزام (الفال) ، والفأل هو مجموعة الوقائع والأحداث التي تقع من باب المصادفة قبل أو بعد إقدام شخص على مبادرة ما وقد يكون حسنا أو سيئا وكثيرا ما يربط الزوار ما يعترضهم في حياتهم

161 صحيح مسلم بشرح النووي، 170/4.
162 صحيح مسلم بشرح النووي 123/18.
163 رواه الطبراني (214/22) (573)، و ابن حبان (26/14) (6156)، و الحاكم (2/495).
164 عبد المالك مرتاض ،عناصر التراث الشعبي في اللاز: دراسة في المعتقدات والعادات الشعبية، د م ج، الجزائر،1987 ص 24

اليومية بأن هذا مؤشر من عند الولي على الاستمرار في عمل ما أو الانقطاع عنه وتعتبر المقتنيات المأخوذة من الضريح أو من محيطه أو من عند الخادم أو أحد الزوار بمثابة فأل حسن.[165]

التضحية: تتنوع عطاءات الزوار من هدية أو طعام أو نقود، هاته الأخيرة يقدمها الزوار لخادم الضريح أو الخادمة لنيل البركة وقد تكون في شكل قطعة قماش لتجديد لباس الضريح أو ذبح حيوان.

المعروف: غالبا ما تشير كلمة معروف لإطعام أو للوليمة التي يقدمها الفرد للمحتاجين وعابري السبيل عندما ينال مراده في شأن ما أو عندما ينجو من مصيبة ما كحادث سيارة مثال وتتجاوز وليمة المعروف كونها مجرد مظاهر احتفالية إلى أهداف أخرى تتمثل في إعادة لم شمل العائلة أو العرش وترسيخ الانتماء إليه وهو عدة انواع ويقام لعدة أسباب ومناسبات مثال معروف الساس عند وضع أساس البيت. ومعروف الحج وهو وليمة يقيمها الشخص الذي ينوي الذهاب ليعتمر أو يحج من أجل توديع أقاربه وأصدقائه ومعروف الحصاد وهو وليمة تقام عند جني المحصول الفلاحي أو حصاد القمح ... الخ.[166]

طقس الحناء : الحناء هي مادة تلوينية قديمة عرفت تاريخيا عند الفراعنة بهذا الاسم، وقد شاع استعمالها في العصر الجاهلي عند العرب، العصر الإسلامي أيضا، وساعد على انتشارها نشاط التجار العرب الذين كانوا يستوردونها من بالد الهند على شكل صبغة نباتية، ذات لون أحمر وأسود .بالنسبة للأضرحة فإنه من الشائع كتابة أسماء الزوار وبعض الأدعية والتمنيات بالحناء على جدران الضريح، وذلك من قبيل)إن شاء هللا تتزوج فاطمة من علي(و)إن شاء هللا ينجح مراد(و)يا رب فرج على خديجة...الخ) إضافة الى وظيفة الحناء التزيينية والعلاجية فإن لها " وظيفة اجتماعية اذ تعد الحناء دلالة رمزية اجتماعية تميز العروس من قريناتها الأخريات، ويضفي عليها بهاء ورونقا وجمالا، وبذلك تكون الحناء مظهرا من مظاهر مباهاة المرأة الريفية في ليلة زفافها. من المعلوم أن الحنة هي الليلة التي يتم فيها الاحتفال بتحضير العروس لليلة الزفاف والدخلة، بدءا من الاستحمام وانتهاء بوضع الحنة على يديها ورجليها في طقوس خاصة تقوم بها نساء متخصصات .و لليلة الحنة عدة مدلولات، اذ تعد ليلة مهمة وفاصلة في حياة كل عروسين، ألنها تحمل في مضمونها كثيرا من المدلولات الاجتماعية والنفسية على حد سواء، إذ يفترض على كل مجتمع إنساني، قبل الزواج، القيام ببعض التدابير التي تحمل سمة احتفالية جمعية، بهدف إلسهام بتهيئة العروسين لليلة مفصلية ومهمة في حياتها، ألا وهي(ليلة الزفاف) وما يسبقها من مراسم كانت تمتد في الماضي القريب لأيام متتالية، إذ لكل ليلة منها معانيها ومدلولاتها الرمزية الخاصة بها، إذ لم يكن في الماضي يقتصر معنى هذه الليلة

[165] مناد سميرة ، طقوس زيارة أألضرحة في مستغانم، مقاربة أنثروبولوجية، مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة مستغانم، المجلد 4، العدد 6، الصفحة 129-139.
[166] نفس المرجع.

(ليلة الحنة) على احتفالات جمعية بوضع الأصباغ على بعض الأنحاء من جسد المرأة كالكفين والقدمين والشعر فحسب، وإنما في الحقيقة كانت تتجاوز مدلولات هذه الليلة الاحتفالية.[167]

IV. العبادات: الوضعي و السماوي:

1. العبادات في الديانات القديمة:[168]

أ- العبادات في الدّيانات المندثرة:

1) العبادات في الدّيانة المصريّة القديمة:[169]

بينت لنا كتب تاريخ الحضارات أن أهم ما يميز فترة عصر (الباليوليت الأوسط)، هو انحسار سيطرة إنسان النياندرتال بصورة ملاحظة، وظهور أول دين بشري قائم على الأساطير وطقوس عبادات معينة، حيث أن الأساطير هي محاولة من الإنسان لتفسير الظواهر الطبيعية التي يعجز عن تفسيرها، والتي هي من أهم الدوافع لإنشاء الأديان.

في هذا العصر، بدأ الإنسان بعد نمو نوازعه الروحية في تقديس الحيوان؛ بسبب شراسته، وقوته، وتنوعه، ومنافسته له في الحصول على الغذاء، ثم اقترب منه واصطاده أما بدافع الغذاء أو بدافع الخوف منه، واتقاء شره، وتميز الحيوان عن النار بأن الإنسان استطاع ترويض الحيوان، وتدجينه بل، واقترب منه لدرجة مرافقته في كل تجواله، ورحلاته.

تقديس الحيوان عند القدماء حمل رمزًا مُهِمًا، حيث رأى الإنسان القديم في الحيوان القوي، وفي أكل لحمه أن الحيوان قد أصبح جزءًا من جسده، خصوصًا بعد اتحاده مع النار، ويعتقد العلماء أن إنسان النياندرتال هو من ابتكر المدافن، والقبور كنوع من التقديس أو التكريم الديني أكثر من أن يكون وعي اجتماعي، فدفن إنسان النياندرتال موتاه بالإضافة للحيوان المقدس جنبًا إلى جنب، ولعل هذا هو المدخل لاعتقاد الإنسان القديم بوجود حياة ما بعد الموت، فدفنه للحيوان المقدس بجانبه إنما هو للحماية في العالم الأخر.

ويتكون أي دين من ثلاثي (العقيدة، والطقس، والأسطورة)؛ مما يجعل طقوس الدفن الجنائزية عند قدماء المصريين اللاحقين – كما سنستعرضهم لاحقًا – هي امتداد لطقوس الدفن أو حتى الطقوس الدينية عند الإنسان القديم في عصر الباليوليت الأوسط، هذه الطقوس، كما أشرنا سابقًا، هي بذرة لوجود عقائد ما بعد الموت، أو بسبب اعتقاد الإنسان بوجود حياة البعث والخلود.

---

167 نفس المرجع.

168 عبد الرزاق رحيم، صلال الموحي: العبادات في الديانات القديمة (المصرية-العراقية القديمة-اليونانية القديمة-الرومانية القديمة-الهندوسية-البوذية الصينية-الفارسية القديمة (الزرادشتية)-الصابئية)، دار صفحات للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، دمشق-سورية، سنة 2012، ص ص 17-57.

169 عبد الرزاق رحيم، صلال الموحي: العبادات في الديانات القديمة، ص 18.

تَلّى هذا العصر، عصر جديد عُرف باسم عصر (الباليوليت الأعلى)، وتميز ببداية ظهور ديانات الإنسان العاقل، ويختلف هذا العصر عن العصور السابقة بأنه شهد تكوين، وإنتاج الأشياء المقدسة، فبعد أن كان الإنسان يقدس النار، ويهاب الحيوانات، بدأ في تشكيل الدمى والعرائس، والرسم على جدران الكهوف، بدأ الإنسان في إنتاج مقدسه بنفسه بعد أن كان يعتمد على الطبيعة في ذلك.

تشير النظريات العلمية بأن الرسومات، والتمائم، والدمى التي وضعها الإنسان بداخل الكهوف، وعلى جدرانه ما هي إلا لتحويل الكهف إلى معبد، يتم من خلاله استحضار قوي الحيوان أو النار أو التميمة السحرية. وهذا ما ظهر في مهد الحضارات المصرية القديمة التي سبقت توحيد القطرين وبالخصوص حضارات حلوان، والبداري، ونقادة، ومرمدة بني سلامة، و دير تاسا، والمعادي، وجرزة.

العصور اللاحقة لعصر الباليوليت الأعلى هي عصور بداية التاريخ، التي شهدت بداية تدجين الحيوان الذي استلزم – عن وعي وقصد – زراعة أنواع معينة من النباتات. وهو ما عرف لاحقًا باكتشاف الزراعة كأعظم الاكتشافات البشرية بعد اكتشاف الكتابة، حيث تعد أيضًا الكتابة الهيروغليفية هي تطور لرموز وصور المقدسات القديمة منذ عصر الباليوليت الأعلى وما قبله.

في بداية عصر جديد يُدعي بـ:(العصر النيوليتي)، بدأت مرحلة من الجفاف وتراجعت الأحراش، والغابات نحو أماكن المستنقعات المائية بجانب نهر النيل، وبدأ الإنسان القديم في الاستقرار بجانب النهر .. في بداية هذا العصر كانت الديانة المصرية بدأت باكتساب ملامحها الأولى، والتشكل على الرغم من بقايا عالقة لممارسات روحية منذ عصور ما قبل التاريخ، حيث تواجدت مراحل حضارية دينية مهمة في مصر، أهمهم دير تاسا، والبداري، و نقادة في مصر العليا (الجنوب)، ومرمدة بني سلامة، وحلوان في مصر السفلي(الشمال)، نستطيع أن نتعرف على بوادر تطور الديانة في عصور ما قبل الحضارة المصرية القديمة من المقابر وطرق دفن الجماعات البشرية في تلك الفترة، وهو دليل دامغ على اعتقادهم بوجود حياة ما بعد الموت.[170]

في حضارة البداري، كانت أجساد الموتى تلف أو توضع بداخل الجلود الحيوانية، وهي ملابس الصيد في تلك الفترة فكان من الطبيعي أن تكون أيضًا ملابس المقبورين ، وفي حضارة مرمدة بني سلامة، كانت أجساد الموتى تدفن داخل نطاق القرية البدائية وأحيانًا تحت مساكنهم، وبالقرب من أماكن وجود النار، لبث الدفء في

170 خزعل الماجدي : أديان ومعتقدات ماقبل التاريخ،

أوصال الموتى، وحمايتهم في حياتهم الأخرى، بالإضافة لمشاركتهم حياتهم والعبادة باعتبار أن النار هي من مقدسات هذا العصر.[171]

فكر المصري القديم في بيئته، الشمس التي تشرق وتغيب، والقمر يكتمل أحيانًا وينقص أحيانا أخرى، ونهرٌ ينبع من الجنوب، ويصب في الشمال حيث البحر الواسع المفتوح، وهكذا تعددت المعبودات، واختلفت في شكلها ووظائفها، أيضًا تأثرت الديانة بطبيعة البلاد، فاتخذت الديانة طابعًا خاصًا يتفق مع أسلوب الحياة الهادئ، والعمل المستمر الذي تعود عليه المصري القديم من زراعة، و تربية ماشية، وفيضان النيل السنوي، وبعض العواصف الرعدية التي ظنها المصري ألهة كبرى تتعارك فوق السحاب، وتظهر من خلفها الشمس كأنها منتصرة، وكانت الشمس أيضًا تعتبر بمثابة صديق لشعب مصر، فهي تمنحه الحرارة في أيام الشتاء الدافئة.

وهكذا تكونت من كل المظاهر الطبيعية عدة آلهة أحاطت بالإنسان المصري القديم ولعبت دورًا مهمًا في حياته اليومية، وقسم المصري القديم الآلهة إلي آلهة كونية كبرى تعتني بأمور الكون، وتسيير حركة الكواكب، والنجوم، والحياة ككل، وآلهة محلية صغرى يستطيع الإنسان أن يلجأ إليها إذا ما مرضت بقرته مثلًا أو داهمه الخطر.

ولكي نفهم مراحل تطور الديانة، لابد أن نبدأ بشرح طريقة الدفن، وما تمثله من رموز، فوضع الدفن الاعتيادي بداخل المقبرة في عصور ما قبل التاريخ الفرعوني كان الرقود على الجانب الأيسر في الوضع الجنيني، والرأس ناحية الجنوب حيث يواجه الجسد اتجاه الغرب، ويمكننا استخلاص المعني من كتب نصوص الأهرامات الشهيرة، حيث أن المتوفي بهذه الوضعية هو مدعو لأن ينهض، ويستدير على جانبه الأيمن ليتلقى القرابين، ورأسه ناحية الجنوب منابع النيل، وجسده ناحية الغرب.

الواقع أن عقيدة البعث، والخلود هي مركز الثقل وحجر أساس الذي قامت عليه كل الحضارة المصرية العظيمة بكل أثارها، وأهراماتها، ومعابدها، وكنوزها التي تحدت الزمن، ومازالت قائمة حتي يومنا هذا ، ففي مصر العليا(الوجه القبلي) سادت فكرة أن الغرب هو أرض الموتى، حيث دفن المتوفي في الغرب أو وجهه ناحية الغرب حيث تذهب الشمس لتغيب في المساء؛ لتواصل رحلتها في عالم الموتى تحت الأرض لتولد صباح اليوم الجديد من ناحية الشرق؛ مما عزز لديهم فكرة وجود حياة أخرى بعد الموت سوف يبعثون ليصبحوا خالدين في حقول (إيارو) أو الجنة بمفهومه، فبني المصري القديم مدنه، وعاش حياته في البر الشرقي من النيل، بينما دفن موتاه في البر الغربي، وتمثل الصحراء بالليل أو عالم الموتى، فالإنسان يحتاج للمؤنة والأطعمة معه إن كان على سفر، كذلك يحتاج الميت إمدادات طازجة يجلبها له أقاربه الأحياء من حين لأخر.

171 جورج سعد: تطور الديانة المصرية القديمة " الجزء الأول "، مدونة الباحثون المصريون، الرابط: HTTPS://WWW.EGYRES.COM/ARTICLES يوم: 09 جويلية 2016.

أما في مصر السفلى(الوجه البحري)، فإننا نقابل مفهومًا مختلفًا، فالأفق المفتوح الممتد للدلتا، ومن خلفها البحر عزز فكرة وجود عالم الموتى في السماء، حيث تتحول الأرواح إلى نجوم، كذلك تصف نصوص الأهرامات اللاحقة لتلك الفترة رحلة صعود الملك المتوفي إلى السماء عبر سلم عظيم لتبقى روحه خالدة وسط النجوم لاحقًا، وبعد التوحيد انصهرت الفكرتان معًا ليكونوا أصل الديانة المصرية القديمة، وهي عقيدة البعث، والخلود.[172]

مثلما كان الوضع في العصور ما قبل التاريخية، فإن العالم بالنسبة للمصري القديم هو عالمٌ ملئ بالآلهة! فمن كل ركن من أركان مصر القديمة ينبثق وجود غريب يثير تساؤلات العقل .. و بالإضافة للآلهة الكونية الكبرى، فإن العقائد الدينية التي ارتبط بها المصري القديم في عبادته لآلهته الصغرى أو المحلية تمثلت في ثلاثة أنواع، الأول هو عبادة الأشكال الحيوانية، والطيور، و التي اختار بعضها ليقدسها؛ بسبب اعتقاده أن تلك الحيوانات أو الطيور تحوي شيئًا من القوة الإلهية أو الحكمة الخالدة، وقد قدس المصري القديم القوة المجهولة في الحيوان، والتي اختارت الحيوان لتتجسد فيه، وليس الحيوان بذات نفسه، فهو قدس البقر (حاتحور) رمز الأمومة والحب، لكنه لم يعبدها ولم يجد حرج في أن يذبح البقرة ليتغذى بلحمها، كذلك الحال بالنسبة للتمساح (الإله سوبك)[173] لم يجد حرجًا في أن يقتله دفاعًا عن نفسه، كما أعجب المصري القديم بهيبة وضراوة الحيوانات البرية، وقوتها، فعلىَ صلايات ولوحات العصور القديمة نجد صور لثيران وأسود، وهي رمز للملك في قوته، وسلطته المسيطرة ،وهكذا، ظهرت آلهة واختلفت أسمائها من إقليم لإقليم، واندثرت آلهة أو تحولت وتحورت لتندمج مع حيوانات أو ألهة أخرى بمسميات مختلفة، وكمثال على ذلك المعبودة (بات) التي يُرمز لها برمز البقرة، تحولت في العصور القديمة إلى (حاتحور)، ونستطيع أن نؤكد أن المصري القديم لم يقدس حيوان لذاته، فما عبدوه قدماء المصريين هي الرموز الأرضية للقوى الكونية الخفية التي لا تعيش معه على الأرض.

والنوع الثاني هو عبادة الأشكال النباتية، فقد اعتقد المصري القديم أن شجرة الجميزة مرتبطة بالآلهة (حاتحور) التي مُنحت لقب سيدة الجميزة كآلهة أنثى طيبة تنفع الناس.

أما النوع الثالث والأخير فهو عن العبادة المرتبطة بالأشكال المادية غير الحية، مثل الحجر المقدس أو ما يعرف بالـ (بن بنbenben) وهو على شكل مسلة، كذلك عامود الـ (چدDjed) وهو مرتبط بالإله أوزيريس.[174]

2) العبادات في الدّيانة العراقيّة القديمة:

172 يسرية عبد العزيز حسني : الديانة المصرية القديمة،

173 سوبيك أو سوبك أو سُبك (كما يمكن نطق اسمه : سِبك ، سوخت ، سوبكي) ، هو إله مصري قديم مع طبيعة متعددة الجوانب ، فهو إله مرتبط بتماسيح النيل ، و يمثّل صورياً إما في شكل التمساح أو في شكل إنسان برأس التمساح ، و ارتبط سبك كذلك بالسلطة الملكية و الخصوبة و البراعة العسكرية ، و قد اعتبر كذلك إلهاً وقائياً ضد الأخطار بصفات طاردة للشر ، ارتبطت بوجه خاص مع الأخطار التي يمثلها النيل بفيضانه.

174 ياروسلاف تشيرني: الديانة المصرية القديمة، ترجمة أحمد قدري، مراجعة محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للآثار، مصر، ب س ن، ص 25.

كان للدين اثر كبير في حياة الامم القديمة والمجتمعات على اختلاف عاداتها وتقاليدها والقوانين المتحكمة بها، لذا فان دراسة النظام الديني يمثل القدر الاكبر من تاريخ الشعوب، مهما اختلفت الديانات وتباينت فإنها تشترك في وجود قوة او قوى غيبية عليا يسعى الانسان دائماً الى التقرب اليها عن طريق العادات والطقوس الخاصة لكل ديانة.

وما يخص الديانة في بلاد الرافدين فإنها نشأت بشكل فردي او في مرحلة تاريخية محدد، وكانت عبارة عن ردود فعل مشتركة لأقوام ما قبل التاريخ تظافرت افكارهم واحاسيسهم بعضها ببعض ممزوجة بثقافتهم التقليدية والمتوارثة ، لذا فقد جاء الدين متناغماً مع عادتهم الطبيعية في التفكير والشعور والحياة.

وفي الحقيقة يمكن تصوير الواقع الموضوعي لفكر الانسان الديني لا سيما في النظام الديني لبلاد وادي الرافدين ، من خلال استقراء المخلفات المادية واعمال معينة تجسدت في صور فنية باعتبار ان الفن في العصور القديمة ما هو الا انعكاس للحياة الاجتماعية والدينية والدعامة الاساسية لكل حضارة ، لذا فقد عمل الانسان على تصوير متاعبه ومعاناته وانتصاره على تلك المتاعب ، فحفر ورسم اشكالاً للحيوانات المختلفة وبوضعيات وواقعية متناهية واقتنع بأن الاشياء الطبيعية يمكن ان تتحول الى ادارات قادرة على التأثير بالعالم الخارجي وتغييره .[175]

وبعد تفكر وتأمل استنتج ان الاشياء المستحيلة يمكن الوصول اليها بأدوات سحرية ما دامت تلك الاشياء متشابهة او متطابقة ، لذا فان قوته ازاء الطبيعة قادرة على التحكم بالأشياء والسيطرة عليها حتى اعتقد ان القوى السحرية هي قوى شاملة وغير محدودة. فأخذ يرسم انواعاً مختلفة من الطيور والحيوانات والأسماك التي يقتات عليها وقد رسمها بدافع سحري ، اعتقاداً منه بان رسم تلك الصور سيجعلها تحت سيطرته وبهذا فان الانسان قد وجد بهذا الطريق ما يعتقد بانه عوناً له في مواجهة الطبيعة.

مع استقرار الانسان في مستوطنات زراعية وانتقاله في مرحلة جمع القوت ، اخذت الافكار الدينية تتبلور بصورة اوضح وذلك لارتباط الطبيعة وتداخلها بصورة اعمق في الحياة اليومية . لذا فقد مثلت الارض الزراعية وما يرتبط بها العنصر الاساس والمحور التي دارت حولها بدايات الديانة والعبادة الاولى فعمل الانسان أنذاك على تجسيد القوى المهيمنة والمؤثرة في الانتاج بهيئة الهة تصورها قياساً على الجنس البشري (ذكر وانثى) ، فكان هذا هو الحال بالنسبة لبداية الديانة والمعتقدات الدينة في بلاد وادي الرافدين. حيث انتخب القوم اهم الظواهر الطبيعية التي كانت لها اثر قوي في حياتهم وجسدوها بعدئذٍ وشخصوها على هيئة الهة فعبدوها واقتربوا اليها ابتغاء لرضاها واتقاء لشرها.

175 رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق ، ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 2016، ص 53.

اذن بالنتيجة فقد نسب الفرد العراقي القديم كل مظاهر الخصب والانماء والتكاثر بما في ذلك تكاثر الانسان والحيوان الى قوى الخصب المتمثلة بالآلهة الام حيث تجسدت في هذه الالهة امرأة حبلى عارية شخصت فيها بمبالغة معالم الانوثة والخصوبة والولادة . وقد وجدت الكثير من هذه الدمى في قرى زراعية يرقى زمنها الى الالف السادس قبل الميلاد مثل قرية جرمو وحسونة وتل الصوان وحلف والعبيد. بالمقابل نجد هناك دمى ونقوش على شكل رأس ثور وجدت في فخار عصر حلف حيث كانت هذه الرموز تشير الى العنصر الذكري في الطبيعة وانه عد نظيراً للآلهة الام .

وتشير الاواني التي وجدت في قبور حسونة وحلف، والتي ربما احتوت على بعض المواد الغذائية والماء، الى نوع من الاعتماد بحياة ما بعد الموت وكذلك الامر بالنسبة للحلي والادوات الاخرى التي لا بد وان الغاية من دفنها مع الموتى هي استخدامها من قبل الاموات في العالم الاخر.[176]

مع ذلك فان هذه التصورات لم تحدد معالم الفكر الديني الواضح في بلاد الرافدين اذ انها مثلت ممارسات سحرية او سبه سحرية ذات طابع تعبدي شأنها السيطرة على قوى الطبيعة فضلاً عن التركيز عبى الارض عن التركيز على الارض وخصوبتها وما ارتبط بها من تقديس مصور على شكل المرأة أي ملامح الديانة لم تكن قد نضجت بعد حسبما اشارت اليه المكتشفات الاثرية العائدة الى تلك الفترة (العصر الحجري المعدني).

لأن الاثار المادية والمخلفات الصورية لا تعطي شرحاً واضحاً للنظام الديني او المعتقدات الدينية لعصور ما قبل التاريخ ، لذا فان معرفة الباحثين بالحياة الدينية اخذت تزداد تدريجياً بالنسبة لظهور الكتابة وشيوع استخدامها في شتى أضاف المعارف والعلوم وفي الواقع ان المصادر المدونة عن الحياة الدينية عند العراقيين القدماء كثيرة جداً حتى باتت تشكل مشكلة للباحثين لتنوع النصوص وكثرتها.

لقد احتوت النصوص المكتوبة بالخط المسماري[177] باللغتين السومرية والاكدية[178] اهم ما كتب عن المعتقدات والمتمثلة بالطقوس والشعائر الدينية والآراء الفلسفية حتى اصبح من النادر ان يخلو نص مسماري مهما كانت طبيعته ومضمونه من اشارة مباشرة او غير مباشرة من ذكر للديانة الرافدينية القديمة. والنصوص التي كانت

176 طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، دار الوراق للنشر المحدودة، الطبعة الثانية، بيروت لبنان، سنة 2012، ص 183.

177 الكتابة المسمارية هي نوع من الكتابة تنقش فوق ألواح الطين والحجر والشمع والمعادن وغيرها. وهذه الكتابة كانت متداولة لدى الشعوب القديمة بجنوب غرب آسيا.

178 هي اللغة التي تحدث بها السومريون في جنوب بلاد الرافدين منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد على أقل تقدير. خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، حصل تطور تكافلي ثقافي بين السومريين والأكديين، تضمن هذا التطور انتشارا واسعا للثنائية اللغوية (كتابة لغتين في آن واحد). كان تأثير السومرية على الأكدية (والعكس صحيح) واضحاً في جميع المجالات، من الاقتراض المعجمي واسع النطاق، إلى النحو، والصرف، وحتى التقارب الصوتي. هذا الذي جعل الدارسين يشيرون إلى أن اندماجا لغويا حصل في الألفية الثالثة قبل الميلاد.

مع مرور الزمن استبدلت السومرية بشكل تدريجي بالأكدية في حوالي الألفية الثالثة أو الثانية قبل الميلاد، لكن السومرية استمرت كلغة مقدسة، وطقسية، وأدبية، وعلمية في بلاد الرافدين حتى القرن الأول قبل الميلاد. مع مرور الزمن، أصبحت اللغة السومرية منسية حتى القرن 19، عندما قام علماء الآشوريات بفك رموز المسمارية والتنقيب عن الآثار التي تركوها ناطقي هذه اللغة. تعتبر اللغة السومرية لغة معزولة لا تشابه أي لغة في المناطق الجغرافية القريبة منها.

ذات صلة مباشرة بالنظام الديني في العراق القديم تتنوع من حيث المضمون فمنها الاساطير الخاصة بخلق الكون والانسان وعالم ما بعد الموت ومنها ما يذكر اسماء الالهة والقابهم وعلاقتهم مع بعضهم ومنها ما نص على الادعية والتراتيل والنصوص التي تصدر من الكهنة حول كيفية اقامة الشعائر والاحتفالات الدينية وكيفية بناء المعابد وما يتعلق بإدارة المعبد وشؤون موظفيه على مختلف اصنافهم.

مع وجود هذه المصادر اصبح من الممكن رسم صورة عن الواقع الديني الشامل لديانة بلاد الرافدين وعن النظام الديني والمعتقدات الخاصة بالعراقيين القدماء . ومن الطبيعي ان تكون هناك مستويات للديانة جاءت الالهة في مقدمتها كونها الاكثر تقدسياً و تكريماً في المجتمعات القديمة.

وهذه (الديانة) البدائية قد واكبت مرحلة الصيد والالتقاط حيث كان الغذاء متيسرًا ويعتمد على الثمار والنباتات البرية والحيوانات الصغيرة، وبالتالي كان همُّ الإنسان هو التخلص من المخاطر التي تهدد حياته سواء من البيئة التي يعيش فيها بما فيها من حيوانات مفترسة ومظاهر طبيعية متنوعة أو من أبناء جلدته المشاكسين والفضوليين، فبدأ يعتمد، إضافة إلى قدراته الجسدية (العضلية)، على السحر الذي يحاول به التأثير على الأشياء من حوله لتكون طوع بنانه أو تكفيه شرها. وفي مرحلة لاحقة ربط نفسه بشيء ما ليكون هذا الشيء بمثابة الحليف أو المعين الذي يعتمد عليه في درء المخاطر، وقد كان يصنع لهذا الشيء، حيوانًا كان أم نباتًا أم جمادًا، رمزًا يبقيه على مقربة منه من أجل أن يحفظه أو يحميه. إذًا فقد تسلح الإنسان آنذاك بالرقى والتعاويذ والتمائم التي تساعده في حماية نفسه من المخاطر وإبعاد الشر عنه، ونظرًا لتحول الإنسان من الحياة الوحشية إلى الحياة العائلية في فترة من الفترات فقد استمر معه هذا التقليد وأصبح لكل عائلة أو جماعة طوطم حام قد يكون ثعلبًا أو سنجابًا أو صخرة أو نخلة إلى آخره تبعًا لما هو موجود في البيئة التي يعيش فيها الإنسان. ويُعتقد أنَّ النخلة وشجرة النبق والطين من الأشياء التي أكثر العراقيون القدماء من اعتمادها كطواطم في تلك الفترة القديمة. ولكن هذه (الديانة) البدائية شابها التغيير في وقت ما عندما برز زعماء الجماعات أو حكمائهم نتيجة لدورهم الهام في حياة الجماعة، فقد جرى تقديسهم ليُنشأ ما يعرف بعبادة الأسلاف (لا يمكننا أن نجزم بوجود هذه الظاهرة في أي فترة من تاريخ العراق القديم المبحوث من قبل المؤرخين وإن كنا لا ننكر احتمال ظهورها في فترة ما، ثم ربما خبت بعد ذلك ما جعل وجودها ضئيلاً أو معدومًا في ديانات العراق التالية). وبعد ظهور الديانة المنظمة في فترة لاحقة كتطوير لـ (الديانة) الطوطمية تخلفت بعض العادات والطقوس الطوطمية التي بقيت جزءًا هامًا من موروث العقل الديني (العراقي بشكل خاص) إلى وقتنا الحاضر كالحروز والتمائم والأختام والأحجار والعلك والتربة ورمي الماء خلف المسافر والراية (البيرق) وشرب الماء المخلوط بالطين (الجروة)... الخ.

الديانة الرافدينية من أقدم الديانات في العالم، تعود جذورها إلى الألف الثامنة أو التاسعة قبل الميلاد، مرت على ما يرجح بعدة مراحل أولها العبادة الأنثوية (عبادة الآلهة الأم) التي واكبت مرحلة اكتشاف الزراعة، أي

ارتبطت بالحاجة إلى توفير الرزق وإدامة الخير، أي أضافت وظيفة جديدة غير وظيفة الحماية المرتبطة بفكرة الطوطم البدائية. وربما نستطيع أن نحيل إلى هذه الفترة بعض الأساطير والمعتقدات الدينية الرافدينية كقصة نزول اينانا (عشتار) إلى العالم الأسفل، وفكرة خلق الإنسان بطريقة الزرع تشبيهًا بعملية الزراعة، ولعل هذا مما يشير إلى هيمنة المرأة في الحياة الاجتماعية حيث كانت تمثل الخصب والنماء، وهي التي تمارس مختلف الإعمال وتتزعم العائلة أو المجموعة. ومن مخلفات تلك الفترة وجود منصب الكاهنة العليا لمعبد (إينانا) في أوروك. وأخيرًا حصل تطور كبير نتج عنه الإطاحة برمز الإلوهية الأنثوي الذي ربما نتج بتأثير غزو خارجي، ربما من شعب جبلي أو بدوي، أو أن ظروف الإنتاج الجديدة فرضت ذلك خصوصًا بعد بروز الحاجة لتأسيس أولى النظم السياسية. ويبدو أنه تم توثيق أصداء ذلك من خلال قصة الخليقة البابلية التي أشارت إلى الإطاحة بحكم الإلهة تيامات وتحول السلطة إلى الثالوث المقدس (آنو، إنليل، أيا)، وعلى إثرها، أو بالتزامن معها، شاعت العبادة الثلاثية في أكثر من مكان من العالم القديم. وفي هذه الفترة أيضًا بدأ عهد جديد تمثل ببروز الصناعة البدائية: صناعة جرار الفخار والأواني والحلي والمصوغات المعدنية والتماثيل. ويبدو أنَّ هذا التطور هو الذي طرح فكرة الخلق، فأصبح الإله لا يمتاز بصفة الحماية والمعاونة وحسب بل هو الخالق والراعي أيضًا. لكن الديانة الرافدينية اتسمت بسمات أخرى أهمها إيمانها بأن كل شيء آيل إلى الفناء، حتى الإلهة، التي نتصورها خالدة، هي، وفق المفهوم الرافديني، ليست خالدة تمامًا لأنها مهددة بالفناء القادم من قوى الفوضى المتربصة والمجمدة لأن الإله (ابسو) - زوج تيامات[179] - لم يمت بل جرى تخديره ثم سجنه تحت طبقات الأرض ليمثل المياه الجوفية، وبالتالي بإمكان هذه القوى العودة لحكم الكون من جديد، حيث ما زال، حسب المعتقد القديم، زئير ابسو يخرج من الأعماق على شكل زلازل وهزات أرضية. ومن الدلائل على عدم خلود الآلهة الرافدينية وجود آلهة موتى في الموروث الرافديني، ولذلك فالإله الرافديني لا يستطيع ضمان سلامتك على طول الخط، فهناك شيء يبقى عصيًا عليه، ولذا فالإنسان لا يستطيع أن يضمن جريان الأمور بشكل طبيعي؛ فإن أمن إلهًا ما فهو لن يستطيع أن يضمن جميع الآلهة التي بمقدورها جميعًا، وليس إلهًا واحدًا، تقرير المصائر، وإن ضمن جميع الآلهة فلن يستطيع أن يضمن القوى المتربصة التي لا تخضع لقانون الكون. هذا الأمر جعل العراقي القديم لا يؤمن بوجود حياة أخرى (جنة ونار) ولا يقدس البشر، أيًّا كانت وظيفتهم سواء كانوا ملوكًا أو رجال دين، ولا يثق بمساعدة الآلهة بشكل كلي، والموت بالنسبة له هو نهاية حتمية ومطلقة يفنى بعده الجسد بتأثير عوامل الطبيعة وتذهب الروح إلى أرض اللاعودة (العالم الأسفل) لتبقى هناك سجينة إلى الأبد. ولم يتغير جوهر هذا الدين طوال مسيرة حضارة وادي الرافدين، وإن جرت بعض التغييرات الشكلية بتأثير بعض الأقوام الوافدة، ومن المؤكد أن أول تأثير كان في مرحلة عصر فجر السلالات الأول من قبل قوم، قد يكونون من الوافدين، آمنوا بعودة الجسد،

[179] تيامات هي إلهة المحيط في ديانات حضارات ما بين النهرين القديمة (السومرية والأشورية والأكدية والبابلية) التي تتزوج من أبزو إله المياه العذبة لينتجا آلهة أصغر. ترمز تيامات لفوضى الخلق البدائية وتصور بهيئة أمراة تمثل الأنوثة والجمال بشكل متلألىء. هناك شقان لهذه الأسطورة، إحداهما تقول إن تيامات هي إلهة خالقة من خلال زواج مقدس سلمي بين الملح والمياه العذبة حيث خلق الكون خلال الأجيال المتعاقبة. في الجزء الثاني من ملحمة فوضى الخلق تظهر أسطورة تيامات كتجسيد وحشي للفوضى البدائية و تصور تيامات بها على شكل ثعبان البحر او تنين.

حيث تشير المقبرة الملكية في أور إلى اعتقاد من هذا النوع، لكن هذه الجماعة سرعان ما تخلت عن اعتقادها بسرعة ولم نجد مثيلاً له بعد ذلك. ثم حصل تغيير آخر في عصر الدولة الآكادية عندما أله الملك نارام سن نفسه، ربما بتأثير بعض الأقوام أو البلدان التي أخضعها، وقد أثار ذلك كهنة البلاد فأطاحوا به من خلال ثورة عارمة أشارت إلى أحداثها بعض النصوص المسمارية، وحصل مثل ذلك في عهد شولكي، ثاني ملوك سلالة أور الثالثة. ولكن أهم تغيير هو الذي تمثل - من وجهة نظري - بظهور التفريد الذي أخضع جميع الآلهة لسلطة إله واحد هو الإله مردوخ، إله مدينة بابل بعد أن استوت بابل كعاصمة لإمبراطورية ذات آلهة كثيرة، وقد كانت محاولة يراد منها دعم السلطة السياسية أو هيمنة بابل على الأقاليم. ومن الجدير بالذكر أنَّ بعض المؤرخين يعدون التفريد العامل الأساس في ظهور الديانة اليهودية حيث ناظر اليهود بين إلههم والإله الأكبر وبين الملائكة وبين الآلهة الأقل شأنًا في الديانة الرافدينية. أما مخلفات هذه الديانة في عقلنا الديني فتتمثل ببعض الطقوس الحسينية أو الشيعية كإحياء عاشوراء الذي يماثل إحياء العراقيين لعيد الاكيتو الذي يستمر إحدى عشر يومًا، وتلاوة قصة مصرع الحسين التي تماثل تلاوة قصة الخليقة البابلية، وتمثيل عرس القاسم الذي يماثل طقس الزواج المقدس لدى العراقيين، وفداء العباس لأخيه الحسين وبكاء الأخير عليه الذي يماثل فداء انكيدو (أخ جلجامش بالتبني بعد إعلان أم جلجامش أمومتها له) لجلجامش وجزع الأخير عليه، ثم مفهوم التضحية الحسيني الذي أقترن بطقس موت تموز، وفرحة الزهراء التي تماثل فرحة إينانا (عشتار أو الزهرة) بعودة تموز عند العراقيين القدماء؛ هذا ناهيك عن طقوس الحزن التي تماثل سمة الحزن لدى العراقيين القدماء النابعة من حياتهم الصعبة ومعاناتهم المختلفة، وخير مثال على ذلك حزن إينانا (عشتار) على ثورها السماوي الذي قتله جلجامش، إذ جمعت المتبتلات وبغايا المعبد وأقامت مناحة على فخذه الذي قذفه جلجامش عليها في سورة من غضبه.[180]

أعقب ذلك بوقت قصير مجيء الكشيين، الهندو أوربيين، كجزء من موجة شملت معظم أنحاء الشرق الأوسط (الأدنى) حيث استولوا على بابل، وأسسوا فيها سلالة حاكمة هي سلالة بابل الثالثة حيث اعتنقوا ثقافة البلاد وديانتها. لكن، من المرجح أنَّ هذا الأمر لم يشمل جميع الكشيين إذ بقي بعضهم، لاسيما رجال الدين، على ديانتهم التي أخذت تتأثر بالديانة الرافدينية، وربما هاجر بعضهم إلى فلسطين حيث نشروا ديانتهم هناك بعد أن ضمنوها الكثير من القصص والأساطير المتداولة. ومما يبدو فإنهم كونوا شخصية إبراهيم من عدة شخصيات منها، على الأرجح، شخصية راما التي أخذوها من موروث الأقوام الهندو أوربية، لاسيما قصة (الرامايانا)، هذا إنْ لم تكن هذه القصة قد انتقلت إلى الهند خلال مرحلة لاحقة، مثلما أخذوا أيضًا مفهوم الجنة والنار، وتقديس البشر، والإيمان بالخوارق والمعجزات، وعمل المحارق، ومفهوم الكتاب المقدس... الخ. كذلك تتشابه قصة يوسف وزليخا التوراتية مع قصة جلجامش وإينانا (عشتار) عندما أغوته وأملته بالسعادة والهناء فما كان منه إلا أن ردها وشتمها الأمر الذي

180 جان بوتيرو : بلاد الرافدين الكتابة – العقل –الآلهة، ترجمة الأب البير أبونا، مراجعة وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، سنة 1990، ص ص 243-330.

سبب له المتاعب كما حصل ليوسف. أما شخصية موسى فهي مكونة من قصص تعود إلى ثلاث شخصيات: الولادة تشبه قصة سرجون الآكدي، والهجرة من مصر مأخوذة من قصة سنوحي المصرية، واستلام الرسالة تشبه قصة استلام زرادشت للرسالة. أما قصة سليمان فربما أخذت بعض تفاصيلها من سيرة الملك الأشوري شلمانصر (لاحظ تشابه الاسم) وربما مزجت أيضًا بأساطير من حضارات مختلفة. أما قصة الخروج من مصر فربما لها علاقة بخروج بقايا الهكسوس بعد فشل مشروع ديانة اخناتون الذي يرجح أنه تأثر بالتوحيد الهكسوسي وربما لم تقم الجماعة اليهودية بكتابة سيرة ديانتها إلى أثناء السبي الآشوري خلال القرن الثامن الميلادي حيث واكب ذلك، على ما يبدو، عملية تدوين التراث العراقي التي قام بها بعض الملوك الأشوريون، وبالذات الملك آشور بانيبال باني مكتبة نينوى المسمارية، فاستفادوا منه في إعادة تدوين تراثهم وتعزيزه بأفكار وقصص من تراث العراق القديم حيث استمر التدوين اليهودي طوال العهد الكلداني التالي مع حصول سبيين بابليين لاحقين لليهود بواسطة الملك نبوخذ نصر الثاني. وبعد مجيء الفرس وعودة أغلبية الجالية اليهودية إلى فلسطين أخذوا معهم ما دونوه عن تاريخهم، بما في ذلك التوراة التي ربما اقتبست، ككتاب وليس كنص ديني مقدس، من نموذج الكتاب الأشوري الذي برز خلال هذه الفترة. أما مخلفات هذه الديانة في العقل الديني العراقي فهي متنوعة منها الاعتقاد بالحياة الأخرى والحساب، وتقديس البشر، وإقامة المقامات لهم على غرار ما يفعل اليهود.[181]

3) العبادات في الدّيانة اليونانيَّة القديمة:
مدخل تاريخي:

يجمع المؤرخون على ان الديانة اليونانية تعد من اعقد الديانات الوضعية القديمة. و يرجع المؤرخون المحدثون بأن الاساطير اليونانية القديمة هي المصدر الرئيسي للفكر الديني اليوناني، و ذلك بما تحويه من قصص عن أصول الالهة و أسمائها و أشكال الطقوس وأسس العبادات. وإذا بحثنا عن العناصر الموحّدة في حضارة هذه المدن اليونانية المتفرقة وجدنا منها خمسة عناصر جوهرية: لغة مشتركة ذات لهجات محلية؛ وحياة ذهنية مشتركة لا يعرف من رجالها في الأدب والفلسفة والعلوم خارج حدود بلادهم السياسية إلا كبارهم، وشغف مشترك بالألعاب الرياضية ينفسون به في المباريات التي تقام بين الأفراد في المدن نفسها أو بين الدول بعضها وبعض، وحب للجمال تعبر عنه المدن بأشكال من الفن عامة بين الجماعات اليونانية كلها، وطقوس وعقائد دينية موحدة بعض التوحيد.

وكان الدين عاملاً في التفرقة بين اليونان بقدر ما كان في وحدتهم. فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمبس العامة البعيدة، وهي العبادة التي كان فيها قسط كبير من الأدب والمجاملة، عبادة أقوى منها للآلهة وللقوى التي تدين بالطاعة لزيوس. وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذي الشرك وتجعل التوحيد مستحيلاً. فقد كان لكل

181 باسم محمد حبيب، قراءة في العقل الديني العراقي، موقع معابر على الرابط: HTTP://WWW.MAABER.ORG/ISSUE_MARCH10/LOOKOUT3.HTM

أسرة في أيام اليونان القديمة إلهاً الخاص، توقد له في البيت النار التي لا تنطفئ أبداً، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة. وكان هذا الاقتسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التي تعمل في البيت. وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها هالة من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة، وبهذه الطريقة كان الدين عاملاً في خلق الشعر الصوفي وفي إكساب الحوادث الرئيسية في الحياة البشرية مسحة من الوقار أعانت على استقرارها وثباتها. وكذلك كان لكل جماعة بطناً كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص، بها فكانت مدينة أثينة تعبد الإلهة أثينا؛ والوسيس تعبد دمتر، وساموس تعبد هيرا، وإفسوس تعبد أرتميز، وبوسيدونيا تعبد بوسيدون. وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها، وكان الاشتراك في عبادة إلهها رمز مواطنيها وميزتهم والواجب المفروض عليهم. وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها في مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يخبئه الغيب لها. وكان لها عليه في نظير هذا أن يحارب في صفها، وكان يبدو لأهلها أحياناً أنه قد يتجلى لهم في مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود. ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله. وكانت المدينة، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام في بهو المدينة، ترمز لحياة منشئتها وأبطالها القوية الخالدة؛ وكان مواطنوها يجتمعون في مواسم معينة ليطعموا جميعاً أما هذه النار. وكما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركونها كبير كهنة في دين الدولة، وكان الإله يخلع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة. وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر.

وحرر الاستقلال المحلي خيال اليونان الديني من القيود فأخرج للعالم أساطير دينية موفورة ومجموعة كبيرة من الآلهة. فكان كل شيء وكل قوة في الأرض أو السماء، وكل نعمة أو نقمة، وكل صفة- ولو كانت رذيلة- من صفات الإنسان، تمثل إلهاً في صورة بشرية عادة. وليس ثمة دين يقرب آلهته من الآدميين قرب آلهة اليونان. وكان لكل حرفة، ولكل مهنة، ولكل فن، إله خاص أو راع حارس؛ بلغة هذه الأيام. وكان عند اليونان فضلاً عن هذا شياطين، ونساء مجنحة، وآلهة انتقام، وجن، وأرباب بشعة المنظر، وإلاهات ذوات صوت شجي يسلب العقول، وحور عين في البحار والغاب لا يقل عددهن عن سكان الأرض من الآدميين. وفي هذه البلاد بنوع خاص لا تبقى حاجة للسؤال القديم "هل الدين من وضع الكهنة؟". ذلك أن من غير المعقول أن أية مؤامرة يدبرها رجال الدين الأولون تستطيع أن تخرج هذه الكثرة من الآلهة. وما من شك في أن من أكبر النعم التي ينعم بها هؤلاء الأقوام أن يكون لهم كل أولئك الآلهة، وكل هالة القصص الفتانة الساحرة، وكل هذه الأضرحة المقدسة والحفلات المهيبة المرحة. لقد فُطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فُطر على الزواج من نساء متعددات، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية، لأنها توائم كل المواءمة ما في العالم من تيارات متعارضة. وإن مسيحية البحر المتوسط في هذه الأيام لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون. ذلك أن الشرك هو الذي يوحي إلى حياة السذج

بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى؛ ويهب النفس الذليلة المعونة والراحة واللتين لا تجرؤ على انتظارهما من كائن أعلى رهيب بعيد لا تستطيع الوصول إليهِ .

وكان لكل إله من الآلهة أسطورة (Mythos) أي قصة، متصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدينة، أو تفسر الطقوس التي تقام تكريماً له. وقد أصبحت هذهِ الأساطير التي نشأت نشأة تلقائية مما في المكان ومما لدى الناس من معارف، أو كانت من وضع الشعراء الدواوين وزخرفهم، أصبحت هذهِ الأساطير عقيدة اليونان الأولين، وفلسفتهم، وآدابهم، وتاريخهم، جميعاً. فمنها استمدوا الموضوعات التي زينوا بها مزهرياتهم، وهي التي أوحت إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسوم، والتماثيل، والنقوش. وقد ظل الناس إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير، بل يخلقون الآلهة أنفسها، رغم ما أنتجته بحوثهم الفلسفية، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد. لقد كان في وسع رجال من أمثال هرقليس أن يعدوا أمثال هذهِ الأساطير مجرد مجازات وتشابيه، وفي وسع آخرين أمثال أفلاطون أن يعدلوها ويوفقوا بينها وبين ما تقبله العقول، وفي مقدور رجال من أمثال زنوفانيز أن يندوا بها وينبذوها؛ غير أن بوزنياس، حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون، وجد الخرافات والأساطير التي كانت تثير الحمية في قلوب الأهلين في عصر هومر لا تزال حية قوية. ذلك أن عملية تشعير الأساطير، وتشعير الدين عملية طبيعية، تحدث في هذهِ الأيام كما كانت تحدث على الدوام في العصور الخالية؛ وثمة نسبة للوفيات ونسبة للمواليد بين الآلهة. فالألوهية كالطاقة تبقى كميتها مهما تغيرت صورتها لا تكاد تنقص أو تزيد خلال الأجيال المتعاقبة .[182]

الهة الاوليمب وتأثر الثقافة اليونانية بديانات الشرق:

أتاحت فتوحات الاسكندر العسكرية فرصة تغلغل الثقافات الشرقية في الفكر اليوناني و طبعه بطباعها. فعبدت الهة المصريين بجانب الهة اليونان بعد تسميتها بأسماء اغريقية، واشهر هذه الالهة بتاح الذي اصبح هيفايستوس، (امون: زيوس) (حورس: ابولو) (خونسو: خرقل). وأقيمت المعابد المشتركة على يد الكاهن مانيتو و الكاهن تيموثياسو و اطلق على الاله اسم سيرابيس، وكان يجمع بين صورتي اوزيريس معبود المصريين و زيوس كبير الهة الاوليمب.

الهة المدن وازدهار عبادة الابطال:

نصب الاسكندر نفسه الها عام 323 ق.م وكان اليونانيون يؤلهون حماة المدن و يضعونهم في مرتبة اقل من الهة الاوليمب، كما كانوا ينظرون الى من يسجدون للإسكندر من الفرس بوصفه معبودا نظرة استخفاف وازدراء في بداية الامر ولا سيما الفلاسفة و المثقفون. غير ان هذه النظرة سرعان ما تحولت الى النقيض بفضل انتصارات

182 مدونة المعرفة، مقال بعنوان: الديانة في اليونان القديمة، الرابط الآتي: HTTPS://WWW.MAREFA.ORG ، يوم: 2018/12/21.

الاسكندر المتعاقبة الامر الذي أدى الى قبول هذه الاساطير و السجود للإسكندر و تقبيل أصابعه باعتباره الها سياسيا .

فكرة الالوهية عند اليونان:

فكرة الالوهية عند اليونان من أفضل النماذج التي تدلل على ارتباط فكرة التأليه بطبيعة المجتمع و ثقافته السائدة، و من ثم فإن كثرة الالهة اليونانية و تعددها مردها للطبيعة الجغرافية و السياسية و الاجتماعية لبلاد اليونان التي كانت تقضي بضرورة وجود معبود قوي لكل مدينة يقوم بحمايتها ضد الغزاة ويحفظ على الاسرة تضامنها.

زيوس: كبير الهة الاوليمب وملكها وهو ابن كرونوس و ريا و هناك من يرى انه ابن "لجايا" الأرض الام، صور على هيئة رجل مستند على يده اليمنى ممسكا بيده اليسرى صولجان و هو رمز السلطان، ويكلل رأسه تاج من الزيتون، وكان النسر و البلوط من الموجودات المقربة اليه.

اريس: اله الحرب و هو ابن زيوس و هيرا، و رفيق كل من ايريس ربة الشقاق، و انيو ربة الحرب و الخراب، و دايموس اله الخوف، و فوبوس اله الفزع. وقد انجب من افروجيتي هرمونيا زوجة كادموس مؤسس طيبة، ووصفته الاساطير بانه مكروه من سائر الالهة و البشر، و مغضوب عليه من والديه لقسوة قلبه.صورته الاساطير على هيئة رجل ضخم مفتول العضلات ذو وجه مروع، يضع على رأسه قبعة و يحمل درعا و رمحا.

الالهة الصغرى: ذهب البعض الى انها الهة قديمة، وان هوميروس قد وضعها في ملاحمه و انتحل لها انسابا تربطها بالهة الاوليمب، بينما ذهب البعض الى انها الهة شرقية قد تسللت الى العقيدة اليونانية بفعل التأثر الثقافي بين الشعوب، وان هوميروس قد وجد في سماتها ما يكمل به ما افتقرت اليه الهة الاوليمب.

المعبودات السماوية و الأرضية: لا تختلف عن الهة الاوليمب من حيث التعدد و التجسيد و الثوب الأسطوري الخرافي الذي علق بها وتشتمل على معاني وقيم مثل الحظ والحب والقدر وارواح الأجداد، وعناصر الطبيعة والقوى الغيبية.

عبادة الابطال: كان الاغريق القدماء يقدسون ابطالهم و يرفعونهم الى مرتبة الالوهية أو انصاف الآلهة، وقد اختلف الباحثون فذكر بعضهم ان هذا يرجع الى الاقاصيص الخرافية و الحكايات الأسطورية و الروايات التي نسجها كتاب الملاحم و صوروا فيها بعض الأشخاص في هيئة أصحاب الكرامات و المعجزات التي تفوق البشر، و ربط البعض الاخر بين معتقد عبادة أرواح الاسلاف و بين عبادة الابطال، مستندا على القوى الغيبية التي كانت تنبعث من مقابر الموتى التي كان اليونانيون يؤمنون بوجودها.

الكتب المقدسة عند اليونان:

الإلياذة و الاوديسة: اختلف المؤرخون حول تحديد مصادر الالياذة وزمن كتابتها و يشككون في نسبتها الى هوميروس. فيستنكر بعضهم خلو الادب الاغريقي من ملاحم سابقة على الالياذة و الاوديسة، و من تم يرفضون نسب هذه الملحمتين الى هوميروس، بل يردها الى شعراء من الرواة التراث الشعبي.

و الالياذة تشمل 15537 بيتا، و تنقسم الى 24 انشودة، بداها هوميروس بدعاء لربات الشر ليلهمنه الشعر و الغناء، وهوميروس يعد بمثابة الكاهن الأول أو المؤسس الحقيقي لعالم الالهة الاوليمبي او الديانة الهومرية على حد تعبير العديد من الكتاب. غير ان بعض النقاد ينظرون اليه مفكرا ناقدا ساخرا و متهكما على الآلهة و عالمها القذر الشاغر من الفضيلة، ومنصفا في الوقت نفسه الانسان و مناقشا لهمومه و مشكلاته.

اما الاوديسة فهي احدى الملاحم التي انبثقت عن الإلياذة، اذ تروي رحلة عودة اوديسيوس (أحد ابطال الالياذة) الى وطنه، وقد جمع هوميروس في صفات ذلك الرجل كل المكارم الخلقية التي تجعل منه نموذجا لليوناني فهو محارب شجاع و حكيم و كاهن شغوف بالمعرفة وزوج عاشق لزوجته وبيته و والد محب لأبنائه، وملك محبوب مخلص لوطنه و رعيته، و تعد ملحمة تربوية تتناول الكثير من القيم الأخلاقية و العادات والتقاليد الاجتماعية.

- **الاعمال والأيام:** و هي قصيدة تحتوي على 828 بيتا نظمها هزيود وهي تنقسم الى أربعة اقسام: يتضمن القسم الأول قصصا تاريخية اسطورية رمزية، و الثاني مجموعة من القواعد الزراعية و الملاحية. و الثالث مجموعة من النصائح المألوفة في الزواج و السلوك الحسن. والرابع بتحديد الأيام السعيدة و المشؤوم عند اليونانيين.

- **أنساب الالهة:** وهي أولى القصائد التي تكشف عن تصور اليونانيين لفكرة نشأة الكون وتطوره من الفوضى الى النظام، ووجود الموجودات عن طريق التزاوج و الانبثاق.

أهم المعتقدات و الطقوس في الديانة اليونانية:

المعتقدات الدينية:

- **الجن والعفاريت:** اعتقدوا في وجود الجن والعفاريت ككائنات يمكن الاستعانة بها لكف الشر، وقد تبلورت أفكارهم عنها و عالمها منذ القرن الرابع ق.م، ولم تكن كتاباتهم عنها قبل هذا التاريخ الا كتابات مشوشة فاعتقدوا انها تعيش في الهواء في منزلة بين الالهة و البشر و هي اقرب للإنسان في سلوكها من حيث الميول و الرغبات و الانفعال.

العرافة و التنبؤ: كان اليونانيون يؤمنون بنوعين الأول عرافة مكتسبة بالخبرة و يطلق عليها الطيرة و العرافة، وتتم بفحص العراف احشاء الحيوانات المقدمة كقرابين للإلهة، ومراقبة مسرى الطيور و النجوم، وتفسير الاحلام. اما الثانية فكانت تتم في حالة اشبه بالغيبوبة حيث تنزل روح الالهة بهذا الشخص فيتلقى التعاليم و

الاخبار منه مباشرة و ينطق باسمه و يتحدث بلسانه، وذلك بعد أداء العديد من الطقوس التي تؤهله لهذا الاتصال، فتبدأ بالاغتسال في النبع المقدس ثم التبخر و التمسح في الأشياء المقربة للإله المراد الاتصال به.

التطير و الخرافة: كان اليونانيون يعتقدون في الفأل الخير و الحظ النحس، و يربطون مصير الافراد ببعض الاحداث و التواريخ، ويشترطون ساعات بعينها لأداء أفعال معينة حتى لا تصيبهم اللعنة. وكان اليونانيون يتشاءمون من اليد اليسرى لأنها اليد التي قطع بها أحد أساطيرهم عضو ابيه الذكري، و يفزعون من نعيق البوم، ويفرون من المجنون اعتقادا منهم بان جانا شريرا قد تلبسه.

الموت و عالم الأرواح: يعد الموت من أكثر الموضوعات غموضا في الديانة اليونانية حيث يخافون منه لاعتقادهم بان الموتى سوف يتحولون الى اشباح لا دماء في عروقها، الامر الذي يبرر تقديسهم للأفعال البطولية التي تكتب للإنسان الخلود وترفعه الى درجة الالهة.

الطقوس الدينية:

الطقوس الجنائزية: كان اليونانيون يسرعون بدفن امواتهم عقب الوفاة، بحجة ان الميت قد انتقل من هذا العالم بروحه، وتبدأ أولى المراسم الجنائزية بعويل اهل البيت المتوفى، و النحيب من المتخصصات من الندابات.

التضرع والصلوات: كان لليونانيين طقوس للتعبد والدعاء، منها التضرع الى الاله والتوسل اليه بترديد اسمائه و صفاته و التبرك بأضرحته.

المراسيم و الأعياد: لقد ارتبطت معظم أعياد اليونانيين بعالم الالهة ومن اشهر اعيادهم عيد ميلاد الربة أثينا، وقد ارتبطت جميع الأعياد الاوليمبية بأعياد الالهة ولاسيما عيد زيوس الذي كان يعد مهرجانا رياضيا، وعيد الفصح الذي كان ينحر فيه خروف ورحلة للتنزه.

التطهر: كان اليونانيون يعمدون أولادهم وكانوا يعتبرون غير المعمدين بالأشقياء ويصفونهم بالوحوش.

القصاص: كان اليونانيون يفتقدون بضرورة القصاص من القاتل، ايمانا منهم ان روح القتيل لن تدخل عالم الموتى الا بعد أن يقتص من قاتلها، او تظل لأسرتها حتى تنتقم لها[183].

4) العبادات في الدّيانة الرّومانيّة القديمة:

عبادة الإمبراطورية:

183 عبد الإله خبطة: الحياة الدينية في الحضارة اليونانية - دولة المدينة، موقع رقيم، رابط الموقع: HTTPS://WWW.RQIIM.COM/ABDOUJUVE ، بتاريخ: 2016/06/05.

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى. وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين، والخلق، والنظام الاقتصادي، وكيان الدولة بأجمعها، كما كانت هي المنبع الذي تُستَمد منه هذه المقومات كلها. وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جدّيّاً بالعالم الروحي؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التي لا تخمد ليست إلا رمز الإلهة قستا[184] Vesta ومادتها، وأنها هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة والى دوامها؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار، وأن يُعنى بها العناية "المقدسة"، وأن تغذى بنصيب من كل وجبة. وكان الطفل يرى فوق الموقد النصبات تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة: إللار Lra الذي يحرس حقولها ومبانيها، وسعادتها ومصيرها؛ والبينات Penates أو الآلهة الداخلية التي تحمي ما تجمع للأسرة في مخازنها وأصونتها وبيادرها؛ وكان الإله يانوس[185] Janus يحوم حول عتبة الدار وإن كانت الأعين لا تراه، وكان ذا وجهين، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب.[186] وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفنى بفناء الجسم بل يجب أن تغذى على الدوام عند قبر الأب. وكانت الأم هي الأخرى تحمل ربّاً من الأرباب، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة. وكان فيها يونو Juno وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق. وكان للطفل أيضاً يونوه Juno وهو ملاكه الحافظ وروحه أو النواة الإلهية في غلافه الفاني. وكن يقال له قولاً يبعث في قلبه الرهبة، إنه يحيط به من كل مكان أطياف رحيمة Di Manes هي أطياف الذكور من أسلافه التي كانت أقنعة وجوههم الرهيبة معلقة على جدران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأسلاف، وتذكره بأن الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا في الأيام الخالية أو سيكونون في الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم،

---

184 **هستيا**: (باليونانية القديمة: ΕΣΤΙΑ) بحسب الميثولوجيا الإغريقية القديمة، إلهة موقد النار العذراء، وهي الابنة الكبرى لـكرونوس وريا من جبابرة الإغريق .كان يعتقد أنها مسؤولة عن موقد المذبح في المعابد، وكانت تقدم الصلوات لها قبل وبعد الوجبات. ورغم أن ظهورها في الأساطير كان قليلاً، إلا أن غالبية المدن كانت تحتوي على موقد عام حيث تشتعل نيرانها المقدسة. في روما، عرفت بالإلهة فيستا، وكانت تخدمها ست كاهنات عذارى عرفن بعذارى قستا. **أسطورة عذريتها الخالدة**: لقد كانت هيستيا مثل آرتميس وآثينا رية عذراء، وحدث بعد أن أطاح زيوس بعرش أبيه كرونوس أن تنافس في طلب يدها كل من بوسيدون وأبولو، غير أن هيستيا رفضت كل عروض الزواج التي تقدَّم بها الآلهة والبشر وأقسمت برأس زيوس أن تظل عذراء إلي الأبد. **خصالها:** ولم تكن العذرية وحدها هي موضع افتخار هستيا، فقد كانت دون سائر آلهة الأولمبوس هي الوحيدة التي لم تشترك أبداً في حروب أو منازعات، ولهذا السبب استجاب زيوس إلي رغبتها في أن تكون الذبيحة الأولي من نصيبها في أي حفل عام للقرابين وإن تحت في أي منزل مكانة الأوسط. **رمزها:** وبذلك أصبحت هستيا كما يتبين من اسمها ربة الموقد رمز الحياة العائلية وما يسودها من سلام وتضامن وهناء. **من مميزات عبادتها:** وكانت هستيا تبسط حمايتها علي من يستجيرون بالموقد المقدس سواء في المنزل أو في مكان عام. وكانت كل وجبة من وجبات الطعام تبدأ وتنتهي بتقديم القرابين إليها. وكان اسمها أول ما يذكر عند الصلاة وأول ما ينطق به غالباً عند القسم، وكما كان في كل بيت موقد لهيستيا كان لكل مدينة موقد عام موقوف علي الربة في دار الرئاسة حيث كان يستقبل الضيوف والأجانب. **عذارى هستيا:** وكانت تخدمها ست كاهنات عذراوات عرفن بعذراى هيستيا، حيث يقمن على رعاية النار المقدسة، ومنهن من تخدم معبد هيستيا في روما ويتم اختيارهن من بين عشرين ليكتمل عددهن ستة، وكلهن من العذاري ومن تفقد عذريتها أثناء مدة خدمتها للإلهة يكون عقابها الموت بحرقها حية. وفي مقابل هذه المعاملة الدقيقة الصارمة، كانت عذارى الفستال (عذارى هيستيا) موضوع احترام الكل فكان شأنهم شأن أصحاب المناصب الكبيرة. **الحمار حيوان هستيا المقدس:** وقد كان الحمار حيوانا مقدسا عند هيستيا. كانت تصور كامراة متجهمة ترتدي ثوبا طويلا او قصيرا خارجة من النار او بالقرب من الموقد.

185 **يانوس أو جانوس** (باللاتينية: IANUS) هو إله البوابات و المداخل والإنتقالات والطرق والممرات والمخارج في الميثولوجيا الرومانية،[1] هذا الإله له وجهين، وجه ينظر للمستقبل ووجه ينظر للماضي، هو الإله التقليدي لشهر يناير ويعتبر أصل إسمه،[2] ويعتبر حسب الميثولوجيا أنه مثير وحاسم النزاعات والحروب والسلام.

186 منير البعلبكي: معجم أعلام المورد (موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين)، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، سنة 1992، ص 503.

والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحي ووحدتها الأبدية. وكانت أرواح أخرى تأتي لمعونته كلما كبر: فكوبا Cuba[187] تحرسه وهو نائم وأبيونا Abeona تهدي خطاه، وفبيولينا Fabulina تعلمه الكلام. وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أينما حل. وكانت الأرض نفسها آلهة فهي تارة تلس Tellus وتارة ترا ماتر Terra Mater أي الأرض الأم، وكانت أحياناً هي مارس Mars أي الأرض التي يطؤها بقدميه وخصبها المقدس، وأحياناً تكون هي الآلهة الصالحة Bona Dea التي تمد النساء والحقول بالأرحام الخصيبة.[188]

وكان في المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها، پومونا Pomona للبساتين، وفونس Faunus للماشية، وپالس Pales للمراعي، واستركيولس Sterculus لأكوام السماد، وساترن Saturn للزرع، وسيريز Ceresللحاصلات، وفُرناكس Fornax لتحميص الذرة في التنور، وڤلكان Vulcan لإيقاد النار.

وكان يشرف على الحدود الإله العظيم ترمينس Terminus وهو يتمثل ويعبد في الحجارة والأشجار التي تحدد المزارع. وإذ كانت غير الروماني تتطلع إلى السماء، فإن الرومان أنفسهم لم يكونوا ينكرون أن فيها هي الأخرى آلهة، ولكن المحور الذي كانت حوله أعظم مظاهر تقواه وإيمانه وأخلص كفارته واستعطافه كان هو الأرض أم حياته ومصدرها، ومنزل أمواته، والمربية الساحرة للبذور النامية. وإذا ما حل شهر يناير من كل عام أقيمت الصلوات للارات Lares الأرض في عيد ملتقى الطرق Compitalia أو Corssroads البهيج؛ وإذا أقبل شهر يناير قدمت الهدايا الغالية مرضاة لتلس Tellus واستدراراً لعطفه على كل المزروعات؛ وفي شهر مايو من كل عام يسير كهنة "إخوان أرفال Arval" إلى أخوان الحرث في موكب غنائي حول حدود المزارع المجاورة لهم يطوقون الحجارة بتيجان من الزهر، ويرشون عليها دماء الأضاحي، ويدعون المريخ (الأرض) أن تخرج الفاكهة الموفورة. ويرى من هذا أن الدين كان يؤمن الملكية، ويزيل أسباب الشحناء، ويكرم العمل في الحقول، فينشئ فيه الشعر، ويؤلف فيه المسرحيات، ويقوي الجسم والروح والإيمان والعمل.

ولم يكن الروماني، كما كان الإغريقي، يفكر في آلهته كأن لها صوراً كصور الآدميين، ولم يكن يسميها إلا مونينا Munina أي الأرواح، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة، أو الشباب، أو الذاكرة، أو الحظ، أو الشرف، أو الأمل، أو الخوف، أو الفضيلة، أو العفاف، أو الوفاق، أو النصر، أو روما. وكان منها أرواح للمرض يصعب استرضاؤها كالأطياف وأرواح الموتى؛ ومنها أرواح فصول السنة، مثل Maia روح شهر مايو؛ ومنها آلهة الماء مثل نپتونNeptune ، وأرواح الغابات أو الآلهة التي تسكن الأشجار مثل سيلڤانس Silvanus.وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح، أو الأوز المقدس الذي كان المتقون

187 هي بلد يتألف من جزيرة كوبا بالإضافة على جزيرة دى لا خوفنود ومجمعة من الأرخبيلات. تقع كوبا في شمال الكاريبي حيث يلتقي البحر الكاريبي، خليج المكسيك، والمحيط الأطلسي. وتقع جنوب ولاية فلوريدا الأمريكية والباهاماس، غرب هايتي، وشمال جامايكا. هاڤاناهي عاصمتها وأكبر مدنها؛ ومن بين المدن الأخرى الكبرى سانتياگو دى كوبا، كاماگي. كوبا هي أكبر جزر الكاريبي، وتبلغ مساحتها 109.884 كم²، وثاني أكبر الجزر من حيث تعداد السكان بعد هيسپانيولا، بما يزيد عن 11 مليون نسمة.

188 الدين في روما القديمة، مدونة المعرفة، الرابط الآتي: HTTPS://WWW.MAREFA.ORG/ ، بتاريخ: 2018/12/21.

يحتفظون بها فوق الكبتول لا يناله أحد بأذى، ومنها أرواح التناسل والإنتاج: تتومس يشرف على الحمل، ولوسينا تحمي الحيض والولادة، وكان بريابس Priapus ألهاً للإخصاب عند اليونان، ولكنه سرعان ما سكن روما، وكانت العذارى والأمهات (إذا كان لنا أن نصدق القديس أوغستين الغاضب) يجلسن على قضيب تمثاله ليضمن بذلك استعدادهن للحمل.

وكانت صور خليعة فاحشة لهذا الإله تزين كثيراً من الحدائق، وكان السذج من الأهلين يلبسون صوراً صغيرة منه ظاهر فيها قضيبه لتبهم القدرة على التناسل أو ترد عنهم "العين الحاسدة". وجملة القول إننا لا نعرف قط ديناً يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان، ويقدرها فارو بثلاثين ألفاً، ويشكو بترونيوس من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر ممن فيها من الرجال؛ لكن الذين يسميهم بترونيوس deus لم يكونوا كلهم آلهة؛ لأن كلمة deus كانت تعني عند الرومان قديساً أو إلهاً.

وكان يكمن تحت هذه الأفكار الأساسية حشد من العقائد الشعبية المتعددة الأشكال، من عبادة الطبيعة، والدكاكيرية fetishism ، والطوطمية، والإيمان بالسحر، والمعجزات، والرقى، والخرافات، والمحرمات، ومعظمها عقائد باقية من أيام سكان إيطاليا فيما قبل التأريخ، ولعلها باقية من أيام أسلافهم الهندوربيين جاءوا بها من موطنهم القديم في قارة آسيا. وكان الكثير من الأشياء والأماكن والأشخاص مقدساً (sacer) محرماً مسه أو تدنسيه، ومن هؤلاء الأشخاص الأطفال حديثو الولادة، والنساء في وقت الحيض، والمجرمون إذا أدينوا. وكانت مئات من الصيغ اللفظية أو المبتكرات الآلية تستخدم للوصول إلى غايات طبيعية بوسائل خارقة للطبيعة. فكانت التمائم شائعة بينهم لا يكاد يخلو منها واحد منهم؛

وكان كل طفل تقريباً يلبس "بلّة Bulla "أو طلمساً ذهبياً معلقاً في عنقه. وكانت تماثيل صغيرة تعلق إلى الأبواب أو الأشجار لترد الأرواح الخبيثة. وكانت الرقى والتعاويذ تستخدم لمنع الأخطار، وللشفاء من الأمراض، وإنزال الماء من السماء، وإهلاك جيوش الأعداء، وإتلاف محصولات العدو أو إهلاكه هو نفسه. ومن أقوال پلني Plinyفي هذا: "كلنا نخشى أن تصيبنا اللعنات أو الطلاسم بالسوء". كذلك يرد ذكر الساحرات في أقوال هوراس Horace، وڤرجيلVirgil ، وتبيولوسTibulus ، ولوشيان .Lucian وكان الاعتقاد السائد أنهن يأكلن الأفاعي ويطرن في الهواء ليلاً، ويعصرن السم من أعشاب لا يعرفها غيرهن، ويقتلن الأطفال، ويحيين الموتى.

ويلوح أن الرومان جميعاً، إلا قليلاً من المتشككين، كانوا يؤمنون بالمعجزات، وبالفأل والطيرة، وبأن التماثيل تتحدث وتعرق ، وبأن الآلهة تنزل من جبل أولمپس Olympus لتحارب في صف الرومان، وبأن الأيام الفردية الأسماء محظوظة، والزوجية الأسماء منحوسة، وبأن الحوادث الغريبة تنبئ بالمستقبل. ويحتوي تأريخ ليفي على عدة مئات من أمثال هذا الإنباء يسجلها كلها بوقاره الفلسفي. وفي مجلدات پلني الأكبر Pliny من التنبؤات ووسائل

العلاج السحري ما يصح لنا معه أن نسمي تأريخه "تأريخ خوارق الطبيعة". وكثيراً ما كان يحدث أن تؤجل أهم الأعمال التجارية أو الحكومية أو الحربية أو تلغى إلغاءً تاماً إذا تشاءم الكاهن بأن وجد شيئاً غير مألوف في أمعاء ذبيحة، أو سمع قصف رعد في السماء. وكانت الدولة تبذل كل ما في وسعها لتحد من الإسراف في هذه العادات،

وكان يطلق عليها اللفظ الذي يعبر عنها أدق تعبير وهو لفظ Supersitis أي العقائد الدينية المفرطة. ولكنها كانت لا تقعد قط عن استغلال تقوى الشعب لتثبيت دعائم الحكم والنظام الاجتماعي فكيفت آلهة الريف لتوائم حياة الحذر، وشادت موقداً قومياً للإلهة فستا، وعينت طائفة من العذارى الفستيات لتقوم على خدمة نار المدينة المقدسة، وأخرجت من مجموع آلهة الأسرة والمزرعة والقرية الآلهة القومية للدولةdi indigetes ، ونظمت لهذه الآلهة عبادة جديدة جميلة المنظر تقوم بها الدولة باسم جميع المواطنين. وكان أحب هذه الآلهة القومية الأولى إلى قلوب الشعب الإله جوبتر أو جوف Jupiter or Jove وإن لم يكن هذا الإله قد أصبح ملكها كما أصبح زيوس عند اليونان، بل كان في القرون الأولى من حياة روما لا يزال قوة نصف معنوية يمثل رقعة السماء المتلألئة وضياء الشمس القمر وقصف الرعد،

وكان في صورة جوبتر فلوفيوس Jupiter Fluvius يمثل شؤبوباً من المطر المخصب. وقد كان فرجيل وهوراس نفسهما يستعملان في بعض الأحيان لفظ "Jove" مرادفاً للفظ المطر أو السماء. وكانت أكثر نساء روما ثراءً إذا أجدبت السماء يسرن حافيات في موكب كبير إلى تل الكبتولين حيث هيكل جوبتر تونانز Jupiter - Tonansجوف المرعد- ليستسقين. ولعل لفظ جوبتر محرف عن ديوسپاتر Diuspater أو ديسپيتر Diespeterأي إله السماء. ولعل يانوس Janus الذي كان في الأصل يسمى ديانوس Dianus كان يؤلف هو وجوبتر في بداية الأمر إلهاً واحداً، وكان يرمز به أولاً إلى روح باب الكوخ ذي الوجهين ثم إلى باب المدينة، ثم إلى أي فتحة أو بداية كبداية اليوم أو السنة. وكانت أبواب هيكله لا تفتح إلا في أيام الحرب ليخرج منها مع جيوش روما لهزيمة آلهة الأعداء. وكان المريخ Mars إلهاً معظماً عند الشعب مذ بدأ يعظم جوبتر. وكان أولاً إله الحرث، ثم أصبح إله الحرب، ثم كاد أن يكون هو فيما بعد رمز روما وشعارها؛ وكانت كل قبيلة في إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور. ولم يكن زحل الإله القومي للبذرة الحديثة الزرع (Sata) أقل قدماً من جوبتر والمريخ، وكانت الأساطير تصوره على أنه ملك من ملوك ما قبل التأريخ أخضع القبائل كلها لقانون واحد وعلمها الزراعة وأقر السلام والمشايعة في العهد الذهبي من عهد زحل .Saturna Regina وكانت إلهات روما أقل قوة من آلهتها، ولكنهن كن أحب إلى قلوب الشعب من الآلهة الذكور. وكان من هذه الإلهات يونو رجينا Juno Regina ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة. وكانوا يوصون بالزواج في شهرها -شهر يونيو - ويقولون أن الزواج فيه أسعد الزيجات؛ وكانت مينرفا Minerva إلهة الحكمة (mens) أو الذاكرة، والصناعات اليدوية وطوائف الصناع، والممثلين والموسيقيين والكتبة.

وكان البلاديوم Palladium التي تقف عليها في اعتقادهم سلمة روما صورة صغيرة للإلهة بلاس منيرفا Pallas Minervaمدججة بالسلاح جاء بها إنياس Aeneas في زعمهم من طروادة إلى روما بأساليب الحب والحرب، وكانت ڤينوس Venus الزهرة) إلهة الشهوة، والزواج والإخصاب. وكان شهرها المقدس هو شهر إبريل شهر تفتح الأزهار .(Aperire) وكان الشعراء أمثال لكريشيوس Lucretius واوڤيد Ovid يرون فيها المنشأ الغرامي لجميع الكائنات الحية. وكانت ديانا Diana إلهة القمر والنساء والولادة والصيد والغابات وسكانها من الوحوش؛ وكانت في زعمهم روح شجرة جيء بها من أريشية Aricea حينما خضع هذا الإقليم من أقاليم لاتيوم لحكم روما. وكان بالقرب من أريشيا بحيرة نيمي Nemi وأيكتها، وكان في هذا الأيكة مزار ديانا ملجأ الحجاج الذين كانوا يعتقدون أن هذه الإلهة قد ضاجعت في هذا المكان ڤيريبوس Virbius ملك الغابات الأول. ولكي يضمن دوام إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء فريبوس -وهم كهنة الصائدة وأزواجها- يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أي عبد قوي يعوذ نفسه بغصن (يسمى عندهم بالغصن الذهبي) يأخذه من شجرة البلوط المقدسة إحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك ويذبحه. وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثاني بعد ميلاد المسيح. هذه إذن هي الآلهة الكبرى لدين روما الرسمي.

وكان للأهلين غير هؤلاء أرباب قومية أصغر منها ولكنها لم تكن تقل عنها محبة لدى الرومان. ومن هذه الأرباب الصغرى هرقول Hercules إله الفرح والخمر، والذي لم يتورع أن يقامر وهو مبتهج مع قندلفت هيكله لينال منه محظية. وكان مركيوري Mercury راعي التجار والممثلين واللصوص. وكانت أپس Aps إلهة الثروة وبلونا Bellonaإلهة الحرب، وكان غير هؤلاء أرباب ذكور وإناث يخطئهم الحصر. ولما أن بسطت روما سلطانها جاءت إليها آلهة جديدة. وكانت في بعض الأحيان إذا غلبت مدينة جاءت منها بآلهتها لتضمها إلى مجمع الآلهة الروماني دليلاً على غلبتها وضماناً لهذه الغلبة كما فعلت بيونو إلهة فياي حين قادتها أسيرة إلى روما؛ وكان سكان الأقاليم النائية إذا جاءوا إلى العاصمة أتوا معهم بآلهتهم ليثبتوا فيها أقدامهم حتى لا تجتث أصول أولئك السكان الجدد الروحية والأخلاقية اجتثاثاً مفاجئاً لسبب من الأسباب، وكذلك يفعل اليوم المهاجرون إلى أمريكا فيأتون إليها بآلهتهم. ولم يكن الرومان يأبهون بمجيء هؤلاء الآلهة الأجانب؛ وكان معظمهم يعتقدون أنهم إذا أزاحوا التمثال من مكانه أزاحوا الإله معه، ومنهم كثيرون كانوا يؤمنون أن التمثال نفسه هو الإله. على أن بعض الآلهة الجديدة لم تغلب، بل كانت هي الغالبة. فقد تسربت إلى العبادات الرومانية بطريق التجارة والصلات الحربية والثقافية التي نشأت بين الحضارتين الرومانية واليونانية.

وقد حدثت هذه الصلات أول الأمر في كمبانيا ثم جنوبي إيطاليا ثم صقلية، وانتهت آخر الأمر في بلاد اليونان نفسها. وكان في آلهة دين الدولة شيء من التجرد المعنوي وبرود الطبع؛ وكان المستطاع رشوهم بالقرابين والتضحيات، ولكنهم قلما كانوا يمدون عبادهم بالراحة أو الإلهام الفردي؛ وكانوا من هذه الناحية يختلفون عن آلهة

اليونان ذوي الصفات البشرية الممتلئين مغامرة وفكاهة وشعراً. ومن أجل هذا رحب الشعب الروماني بآلهة اليونان وأقام لهم الهياكل، وسره أن يتعلم ما يتطلبه أولئك الآلهة من مراسم وطقوس، وكذلك سر الكهنة الرسميين أن يجندوا أولئك الجند الجدد لبث النظام والطمأنينة في النفوس، فضموهم إلى أسرة روما المقدسة، ومزجوهم كلما استطاعوا بأقرب الآلهة الوطنية المماثلة لهم. فجاء من عهد بعيد أي من عام 496 ق.م دمتر Demeter وديونيسيوس Dionysius ومُزجا بسيريس Ceres وليبر) Liber إله العنب) واستقبل كاستر Castor وپلكس Pollaxبعد اثني عشر عاماً من ذلك الوقت وصارا حاميي روما: وشيد في عام 431 هيكل لأپلون Apollo الشافي لعله يخفف من وباء طاعون فشا في روما وقتئذٍ؛ وفي عام 294 جيء إلى روما من إپيدوروس Epidaurus بإسكلاپيوس Aesculapius إله الطب عند اليونان في صورة أفعوان ضخم ، وشيد على جزية في نهر التيبر معبد في صورة مستشفى تكريماً له. وجيء بكرونس Cronus اليوناني وقيل أنه لا يختلف في شيء عن زحل، ومزج پوسيدن Poseidon بنبتون Neptune وأرتميس Artemis بديانا Diana وهفستس Hephaestus بڤلكان Vulcan، وهرقل Heracle بهرقولHercules ، وهادس Hades بپلوتون Pluto وهرمس Hermes بعطاردMercury ، وارتفع جوبتر بفضل بعض الشعراء إلى زيوس غير زيوس اليونان، فصار شاهد الأيمان الصارم وحارسها، وقاضي الأخلاق الملتحى، والقيم على القوانين، وإله الآلهة؛ وهيئت عقول الرومان المتعلمين على مهل لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية.

الكهنة:

واستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت محكم الوضع لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب. وكان الأب في منزله كاهناً، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة، تملأ كل منها ما يخلو في صفوفها من الأماكن ويرأسها كلها حبر أعظم Pontifex Maximus تختاره الجمعية المئوية. ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب خاص؛ بل كان في وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها؛ ولم تكن تؤلف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات، ولم يكن لها أي سلطان سياسي عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها. وكانت تستولي على إيراد بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش، وكان لها عبيد يقومون على خدمتها؛ وقد أصبحت بتوالي الأجيال عظيمة الثراء بما كان يحسبها عليها أتقياء الناس من الأموال. وكانت الكلية الدينية الكبرى في القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة من الأعضاء، يحتفظون بالحوليات التاريخية، ويسجلون القوانين، ويقرءون الغيب، ويقربون القرابين، ويطهرون روما مرة في كل خمس سنوات. وكان يساعد هؤلاء الأحباء في القيام بالمراسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون فلميني flamine- أي موقدي نيران الأضاحي.

وكان ثمة طوائف من الأحباء أقل من هؤلاء شأناً يؤدون واجبات خاصة: فالساليون Salii أو القافزون كانوا يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ، والفتيالي fetiales يصدقون على عقد الصلح، وإعلان

الحرب، واللوبرسي Luperci أو إخوان الذئاب يقومون بطقوس لوبركاليا Lupercalia العجيبة. وكانت طائفة العذارى الفستية Vestal Virgins تعني بموقد الدولة وترشه في كل يوم بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة إجريا Egeria ؛ وكان هؤلاء الراهبات ذوات الثياب البيض والخُمُرُ البيض يُخترن من بين الفتيات اللاتي تتراوح سنهن بين السادسة والعاشرة، وكن يقسمن بأن يظللن عذارى في خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة، وينلن في نظير هذا ضروباً من الامتيازات والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى ودفنت وهي على قيد الحياة، وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتي عشرة جريمة من هذا النوع، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة الإلهة ويتزوجن، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتنمها إذا أتيحت لها.

وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون إدارة الآلهة ومقصدهم باتجاه الطيور في الأيام الأولى ، وبالفحص عن أحشاء الحيوانات المضحاة فيما بعد. فكان كبار الحكام "يستطلعون الطلع" قبل كل عمل هام من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب، ثم يفسر العرافون ما يجده الحكام، أو يفسره لهم مفتشو الأكباد hauruspices الذين تلقوا فنهم هذا من بلاد الكلدان أو من أمم قبلهم عن طريق إتروريا. ولم يكن الكهنة على الدوام بمنجاة من الإغراء بالمال، ولذلك كانوا في بعض الأحيان يوقفون بين أقوالهم وبين حاجات من يذهب لاستشارتهم. من ذلك أن أي قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة أو جماعة من الناس كان يمكن تعطليه إذا قيل إن اليوم الذي ينظر فيه القانون يوم مشئوم لا يصلح العمل فيه، وكان في الاستطاعة إقناع الجمعية بالموافقة على إعلان الحرب إذا قيل لها أن اليوم الذي يطلب إليها إعلانها فيه يوم سعيد. وكانت الحكومة في الأزمات الخطيرة تدعى أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السبيلية Sibylline، وهي الكتب التي سجلت فيها نبوءات سيبيل Sibyl أو كاهنة أبلون Apollo في كومية Cumae. وكان في وسع الأعيان أن يؤثروا في الشعب بهذه الوسائل وبالرسل الذين كانوا يرسلونهم إلى هاتف دلفي The oracle at Delphi في بعض الأحيان وبذلك يوجهونهم في أي اتجاه يشاءون، ويكادون يبلغون كل غاية يبغونها. ولم يكن يقصد بطقوس العبادات إلا أن تقدم هدية أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو اتقاء غضبها. وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التي تقام لهذا الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعي فيها منتهى الدقة في الأقوال والحركات، وهي دقة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها. وإذا وقع في طقس من هذه الطقوس أيّاً كان نوعه وجبت إعادته من جديد ولو تطلب ذلك إعادته ثلاثين مرة. وكان معنى لفظ Religio هو أداء الطقس الديني بالعناية التي يحتمها الدين.

الأضحية:

وكان أهم ما في الاحتفال هو التضحيةSacrifice ؛ ومعنى اللفظ مشتق من كلمة Cacer اللاتينية ومعناها ملك للإله. وكانت التضحية في البيت تتخذ عادة شكل قطعة من كعكة توضع على الموقد أو كمية من النبيذ تلقى في نار البيت، وتكون في القرية أول ثمرة تخرجها الأرض، وقد تكون كبشاً أو كلباً أو خنزيراً، وتكون في

المناسبات الهامة فرساً أو خنزيراً أو شاة أو ثوراً، وكانت الثلاثة الحيوانات الأخيرة تذبح في أكبر المناسبات أهمية في عيد السو-أوفه-طوريليه) Su-ove-taur-illa أي عيد الخنزير والشاة والثور). وكانوا يعتقدون أنه إذا تليت صيغ خاصة على التضحية استحالت إلى الإله الذي يراد منه أن يتقبلها؛ وعلى هذا الاعتبار كان الإله نفسه هو الذي يضحي به ؛ وإن كانت أحشاء الحيوان وحدها هي التي تحرق على المذبح؛ وكان الكهنة والناس يأكلون كل ما بقي منه، فقد كان هؤلاء يأملون أن تنتقل قوته ومجده إلى عبيده المحتفلين بعيده. وكان يضحي بالآدميين في بعض الأحيان؛ ومما يجدر ذكره أنه كان لابد من صدور قانون في عام 97 م لتحريم هذه العادة.

ثم حورت هذه الكفارة تحويراً يبيح للرجل أن يضحي بحياته للدولة كما فعل القنصل پبليوس ديسيوس Publius Deciusوولده، وكما فعل مارخوس كورتيوس Marchus Curtius إذ ألقي بنفسه في أخدود شقه زلزال في السوق العامة ليسكن بذلك غضب القوى الأرضية الخفية، وتقول القصة بعد ذلك إن الشق قد التحم وإن الأمور قد عادت إلى مجاريها. وكان احتفال التطهير أكثر من هذه الطقوس متعة؛ وكان هذا التطهير يحدث للمحصولات الزراعية أو لقطعان الماشية أو المدينة. وكانت الطريقة المتبعة في هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشيء المراد تطهيره، ويقدم له الصلوات والذبائح، فيتطهر بذلك من المؤثرات السيئة ويرد عنه الشر. ولم تكن الصلوات قد خلصت كل الخلاص من الرقي السحرية؛ وكان اللفظ الذي يطلق عليها وهو كارمن Carmen يعني الأنشودة والرقية جميعاً؛ ويعترف بلني صراحة بأن الصلاة ضرب من الأقوال السحرية. وإذا ما تليت الصيغة حسب الأصول المرعية ووجهت إلى الإله الذي يجب أن توجه إليه حسب سجل الآلهة indigitamenta الذي جمعه الكهنة واحتفظوا به، فإن الرجاء لا بد أن يجاب؛ فإذا لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت في الطقوس المرعية.

وقريب من السحر وذو صلة به الفوتا vota أو النذور التي كان يطلبون بها معونة الآلهة؛ وكانت هياكل عظمية تشاد في بعض الأحيان وفاء بهذه النذور. وتوحي النذور الكثيرة التي كشفت بين مخلفات الرومان على أن الدين كان يملأ قلوبهم، وعلى أنه كان يمتزج به ويلطفه تقي وشكر على النعم، وشعور بالصلة القوية بين الناس وبين قوى الطبيعة الخفية، ورغبة أكيدة في أن يكون الناس على وفاق مع هذه القوى جميعها. هذا ما كان للدين من أثر في قلوب الشعب، أما دين الدولة فكان على النقيض من هذا، كان شكلياً جامداً، لا يعدو أن يكون نوعاً من العلاقة القانونية التعاقدية بين الحكومة والآلهة. ولما أن تسربت إلى البلاد أديان جديدة من الشرق المغلوب، كان أول ما تضعضع في الدولة الرومانية هو هذا الدين الرسمي، أما الإيمان العميق ذو المظاهر الجميلة الجذابة، والطقوس المنتشرة في الريف، فقد ظلت تقاوم الأغلال في صبر وعناد طويلين. ولما تغلب الدين المسيحي في آخر الأمر استسلم بعض الاستسلام إلى هذا الإيمان الريفي القديم فأخذ عنه كثيراً من عقائده وطقوسه، وكان ذلك الأخذ عن حكمة وأصالة رأي، ولا تزال هذه الطقوس باقية في العالم المسيحي إلى هذه الأيام، وإن تشكلت بأشكال جديدة وعبر عنها بألفاظ غير الألفاظ القديمة.

ب- العبادات في الدِّيانات الحيَّة:

1) العبادات في الدّيانة الهندوسيّة: la religion hindoue

معنى الهندوسية:

الهندوسية (بالإنجليزية: Hinduism والفرنسية: Hindouisme) ويطلق عليها أيضاً البراهمية Brahmanisme، هي الديانة السائدة في الهند ونيبال. وهي مجموعة من العقائد والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر، ولا يوجد لها مؤسس معين تنتسب إليه شخصياً وإنما تشكلت عبر امتداد كثير من القرون.[189] أحد أصولها المباشرة هي ديانة فيدا التاريخية منذ هند العصور الحديدية، ولذلك فكثيراً ما يطلق عليها أقدم ديانة حية في العالم وتضم الديانة الهندوسية القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله ولكل عمل أو ظاهرة إله. وأحد التصنيفات المنهجية للنصوص الهندوسية هي النصوص الشروتية (الإلهام)، والنصوص السيريتية. (المحفوظ). وتناقش هذه النصوص اللاهوت، الفلسفة، الأساطير، وطقوس وبناء المعابد. وأحد النصوص العظمى الفيدا[190]، الأوبانيشاد[191]، البوراناس[192]، رامايانا[193]، البهاغافاد غيتا[194]، والآجاما. أتباعها يربون على المليار نسمة، منهم 890 مليون نسمة يعيشون في الهند في شبه القارّة الهندية ذات الـ 96% من تعداد الهندوس في العالم، وتعتبر بذلك ثالث أكبر ديانة في العالم بعد المسيحية والإسلام.

المنشأ والجذور:

---

189 عبد الرزاق رحيم صلال الموحي، العبادات في الديانات القديمة، ص 41.

190 **فيدا** (بالإنجليزية: Vedas) الكتاب المقدس للديانة الهندوسية وهو كتاب يقع في 800 مجلداً تقريباً تم تأليفه طيلة 1000 سنة وقيل 3 آلاف سنة، وهي النصوص المقدسة من الترانيم والتراتيل لدي الآريين الهنود لتكريم الآلهة. والكتاب مقسم إلى أربعة أجزاء ضخمة هي الرامايانا ويتحدث عن نشأة الآلهة وأساطيرها والكون، والمانوسمرتي ويتحدث عن حقوق الطبقات الأربعة الهندية - البراهمة الذين خلقوا من رأس الإله كريشنا، مع العلم بأن البراهمة هم الوافدون من أواسط أوروبا والذين سكنوا على مصب نهر السند، والكشاتريا الذين خلقوا من ذراعي كريشنا والفايشيا من الأفخاذ وأخيرا الشودرا الذين خلقوا من أقدام كريشنا وهم المنبوذين والمضطهدين الذين لا يحق لهم شيء في دين الهندوس، وقد قاموا بثورة شاملة في القرن الأول الميلادي ونجم عن ذلك رفع بعض الضيم عنهم فكان إخماداً محنكاً لتلك الثورة، وأيضا المهابهاراتا تتحدث عن الأعمال والمهن وإرشادات الحياة والقضايا والوصايا، ثم أخيرا الأوبانيشاد ويتحدث عن الطقوس العبادية والأناشيد والقرابين وطريقة تقديس الآلهة، وقد ترجمت بعض الأجزاء الصغيرة من هذا السفر الضخم في عدة لغات الإنجليزية والفرنسية وغيرها الهندوسية تعطي معلومات عن الآريين وعن التعاليم والطقوس الفيدية والتراث الفلسفي الهندي. وما زالت آلهة الشعب الفيدي موجودة في العقيدة الهندوسية حتي اليوم بصورة أخف من السابق لتأثير الأديان الجديدة في النفور من الهندوسية كالإسلام والمسيحية، وأيضاً لتحكم القوانين البشرية الجديدة والعولمة في السطوة القديمة للطقوس الفيدية القاسية. (أنظر موسوعة ويكيبيديا).

191 **الأوبانيشاد** الجزء الأخير في مجموعة من الكتابات الهندوسية التي تُسمى الفيدات (جمع فيدا). وتكوِّن الأوبانيشاد جزءًا أساسيًا من مصادر الديانة الهندوسية، كما أثَّرت في معظم الفلسفات الهندية. ويُطلق عليها أحيانًا اسم الفيدنتا ، وتعني الكلمة تجميع الفيدا.

192 **البوراناس** هي عبارة عن مجموعة واسعة من الحكايات الرمزية التي وُثقت في في القرون الوسطى. يُعتبر ثمانية عشر منها على أنها ماهابوراتا (البورانا العظيمى)، وهي المراجع الموثوقة عن الآلهة الهندوسية، الشعائر الدينية والأماكن الدينية (مُعظم الأماكن الدينية توجد في شبه القارة الهندية).

193 **رامايانا:** هي ملحمة شعرية هندية قديمة بالسنسكريتية تنسب إلى الشاعر فالميكي.[1][2][3] وتعتبر من التراث الهندي وتكاد تكون نصاً مقدساً، وهي ملحمة لا يزيد طولها على ألف صفحة، قوام الصفحة منها ثمانية وأربعون سطراً؛ وعلى الرغم من أنها كذلك أخذت تزداد بالإضافات من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد ، فإن تلك الإضافات فيها أقل عدداً مما في المهابهاراتا، ولا تشوه الموضوع الأصلي كثيراً؛ ويعزو الرواة هذه القصيدة إلى رجل يسمى فالميكي، وهو كنظيره المؤلف المزعوم للملحمة الأخرى الأكبر منها، يظهر في الحكاية شخصية من شخصياتها ولكن الأرجح أن القصيدة من إنشاء عدد كبير من المنشدين العابرين، أمثال أولئك الذين لا يزالون ينشدون هاتين الملحمتين، وقد يظلون يتابعون إنشادها تسعين ليلة متعاقبة، على مستمعين مأخوذين بما فيها من سحر.

194 **البهاغافاد غيتا** ": تُعد الكتاب الهندي المقدس في الديانة الهندوسية، وهي الحوار الذي جرى بين السيد أو الرب المبارك كريشنا وأرجونا عند بداية المعركة هو عبارة عن 700 بيت أو آية تقع في ثمانية عشر فصلاً، يعرف باسم البهاغافاد غيتا ويعود تاريخها إلى قرابة الألف الثالث قبل الميلاد.

لم تكن الهندوسية مجرّد ديانة، وإنما كانت طريقا للحياة التي تنظم حقوق أتباعها وواجباتهم الروحية. وهي تحاول اليوم، أن تكون مصدرا للتقاليد القديمة والعقائد والعبادات والتأملات الروحيّة في الله والكون والطبيعة، وتحاول ايضا توفير القيم السامية والآداب والسلوك والأخلاقيات البشرية المختلفة لأتباعها والمعجبين بتعاليمها .

أما بالنسبة الى نشأتها، ففي الحقيقية لم يستطع المختصون تحديد بدايتها الزمنية ولكن التقديرات تشير على ان التاريخ التقريبي لتأسيس هذه الديانة هو 2000 ـ 3000 ق.م. وتقول بعض المصادر الأخرى، أن بداياتها تعود الى ما قبل التاريخ، أي الى عهد الديانة الطوطمية التي كان الناس يعبدون أجدادهم، ويتخذون من الطبيعة طريقا للعبادة، ويعبدون كل ما فيها من كائنات حيّة وغير حيّة. فهي إذا من أقدم الديانات في العالم. وعلى العكس من الديانات الأخرى. إذ لا يوجد للهندوسية، مؤسس أو نبيّ كما لمعظم الأديان التاريخية. وتختلف الهندوسية أيضا عن الديانات الأخرى في عدم وجود لاهوت مُحدّد واحد، ونظام اخلاقي واحد ومركزية سلطوية واحدة لرجال الدين .

وتتألف الهندوسية من آلاف المجموعات الدينية التي تبلوّرت منذ ما قبل التاريخ المدوّن حوالي سنة 9000 ـ8000 ق.م، في الهند والمناطق الآسيوية. فالهندوسية إذا عبارة عن معتقدات وعادات وسلوك يلتزم بها أتباعها كطريق روحي يهدف الى إكتشاف الذات من خلال التأمل في الله والتقشف في الصوم، وكل أنواع التجرّد الذاتي لغرض السيطرة على الجسّد ورغباته العديدة. والغاية التي يتمناها كل هندوسي أولا وأخيرا هي الاتحاد بالله (براهما) ولكن هذا لن يحصل وفقا لمعتقداتهم إلا إذا تخلصت النفس من شرورها ونزاعاتها وشهواتها ورغباتها وهي ما يسمونها بمرحلة الإشراق والانطلاق نحو الأسمى، بإعتبار أن الروح تعود من حيث صدرت، فهي جزء من الله وتعود إليه لتتحد به.

تحاول الهندوسية بكل الطرق ومنذ زمن بعيد أن تجدّد نفسها وتشريعياتها القديمة الباليّة التي ورثتها منذ القدم، والتي كانت سببا في إزعاج الدولة والمجتمع، ولا سيّما نظام الطبقات الذي كان له تاثير سلبي حاد في المجتمع الهندي. وتعتقد الهندوسية بهذا النظام الطبقي وتدعي بأنها حصلت عليه من العدالة السماوية المنزلة ولذلك لا يمكن تغييره بأي شكل من الأشكال. مع انه كانت هناك محاولات جادة في التخلص من هذا النظام الغير الإنساني لكن المحاولات باءت كلها بالفشل الذريع. وكان المهاتما غاندي من الداعين الأقوياء لتغيير هذا النظام سنة 1950 ولكنه لم ينجح كغيره من السياسيين والمصلحين، بالرغم من إصراره وعناده المعروف.

وجدير بالاشارة أن الهندوسية هي من الديانات الهندية الرئيسة، إذ يمارسها 80 % من عدد سكان الهند، ويتجاوز عدد أتباعها المليار شخص بحسب الإحصاءات العالمية في سنة 2005. ومنهم حوالي 900 مليون تابع يعيشون في الهند وتبلغ نسبتهم (96%) من هندوس العالم. ويعيش الباقي في الدول الاخرى مثل بنغلادش(11%) وباكستان وسيريلانكا و(بالي ـ اندونيسيا 95%) وسينغافورا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الامريكية وكندا .

ومع ان الهندوسية تشكل الغالبية العظمى في بعض البلدان في العالم إلا أنها ليست الديانة الرسمية في البلد الام (الهند)، فهو بلد علماني ومدني. وتعد الهند أكبر دولة ديمقراطية في العالم. وأما الهندوسية في النيبال فهي الديانة السائدة والرسمية فيها. فالغالبية العظمى من الشعب النيبالي يتبعون هذه الديانة، ولكن حرية العبادة مكفولة للجميع، إلا ان الاهتداء ممنوع للأديان الاخرى.

البدايات والأصول:

كانت الهندوسية في بدء عهدها عبارة عن عبادات شعبية للأجداد والطبيعة والحيوانات كما أسلفنا. ثم امتزجت هذه العبادات مع ديانة الغزاة الآريين التازحين من أوروبا والذين جلبوا معهم الأساطير الدينية عن الآلهة والخلق والانسان والكائنات الحيّة وذلك بعد أن تعرضت الهند الى هجومهم سنة 1700 ق.م. وحكم الغزاة الجدد ما وراء نهر السند، وامتزجت عاداتهم وأساطيرهم ولغتهم بالجماعات البشرية المحلية. ولم تستطع الشعوب الآرية ودياناتها محو الديانة المحلية القديمة للهنود، بل مازجتها وتأثرت بها وأثرت عليها. فكانت الهندوسية التي جمعت كل هذه التعاليم الروحيّة والصوفية والأسطورية لحضارة الشعوب الهندو اوروبية(الآرية) والتي تعني (الأشراف أو السادة) مع مزيج آخر من الدرافيديين القدماء الأصليين .

وكان الآريون الآتون من ضفاف بحر القزوين، المجموعة الأبرز من الشعوب التي سكنت الهند. وكان تأثيرهم على الهند كبيرا جدا، إذ جلبوا معهم ثقافتهم الدينية والحضارية ومزجوها بالثقافات المحلية في منطقة السند، التي ترجع في أصولها الى ما قبل التاريخ المدّون. وهم الذين وضعوا الأسس الثقافية والحضارية والدينية في الهند وإيران ولاسيّما فكرة الطبقات التي لا زالت راسخة في الشعب الهندي، وهي نظرة تفوقيّة عنصرية مارسها الشماليون البيض على أهل البلاد من الملونيين الهنود(الدرافيديين). وأمتزجت أفكارهم بمرور الزمن. وكان من أهم نتائج ذلك المزيج، نشوء البراهمية والتي سُميّت بعد قرون من تأسيسها بالهندوسية. وهي مؤسسة على الكيان الألهي الذي يُسميّه الهندوس(براهمان)، ومفهومها، التخلص من كل ما يُزعج الروح الأنسانية من الجهل والضعف الجسدي وما ترافقه من الخطايا الجسدية .

ويُفضل بعض الهندوس استخدام الأسم القديم لديانتهم وهو(الفيدية)، والمُشتق من اسم كتابهم المقدس(الفيدا)، وهي كلمة سنسكريتية قديمة، تعني الحكمة المقدسة. ومن الأسماء القديمة الأخرى لهذه الديانة، (الدهارما والسينتانا والبراهمية). وأما بالنسبة الى الهندوس فهو اسم أطلق عليهم من قبل الأغريق اليونانيين في عهد الاسكندر المقدوني. ولم يُطلق الإسم لوصف ديانتهم بقدر ما اطلق على الشعب الذي يعيش ما وراء نهر السند. ومن ثم أصبحت التسمية تطلق على العقائد والمفاهيم الدينية لذلك الشعب، ولتدل دلالة دينية وقومية ووطنية لهم. ومن ثم باتت تشمل كل ما يتعلق بالهند من دين وحضارة وعادات وتقاليد. وهي ديانة تضم القيّم الروحية والصوفية

والخلقية والانسانية إلى جانب المبادئ والنظم القانونية العديدة والتي تتخذ من مفهوم الآلهة المتعدّدة تفسيرا للكون والخليقة والإنسان. فلكل منطقة إله ولكل عمل إله ولكل ظاهرة إله وفي كل كائن إله، وفي كل منها روح يُحييها، سواء كان إنسانيا أو حيوانيا. وعندما تنتهي الروح من دورة الحياة تعود الى روح العالم وتتحد مع الله الخالق (براهمان)، وهنا تكمن السعادة القصوى التى تتمناها كل روح انسانية، وذلك للوصول الى ما يُسمى (النيرفانا ـ السعادة القصوى).

النصوص المقدسة:

تسمى الكتب المقدسة بالفيدا وتعني(الحكمة أو المعرفة المقدسة) وهي من أقدم الكتب في تاريخ الأديان. وهي عبارة عن مجموعة هائلة من الكتب التي تتكلم عن الآلهة والخلق والتناسخ والمُقدّسات والمُحرّمات. وكانت الفيدا بالأصل تعاليم شفهية دوّنت باللغة السنسكريتية القديمة في الفترات المتفاوتة من الزمن. وإن كانت في معظمها عسيرة الفهم وغريبة اللغة .

بدأ الكهنة الهندوس بتدوين هذه الكتب حوالي 900 ق.م. وهي تقسم الى أربعة أقسام: (فيدا وياجور فيدا وساما فيدا وآثهار فيدا). وتحتوي على الفلسفات الهندية المحلية والترانيم الروحيّة والملاحم الشعرية الحربية وآلاف الأناشيد عن الآلهة والرهبان والصلوات والأدعية، وعن الأناشيد القديمة والعبادات الأولية للبشر وعبادت الطبيعة ودور الروح الأزلية في الديانة والروحانيات التي تسمو بالإنسان الى النيرفانا(السعادة القصوى.(

وجدير بالذكر، أن الأدبيات الهندوسية هي ثمرة تراث لشعوب عديدة إنصهرت في كينونة واحدة وتمازجت تقاليدها وثقافاتها معا لتشكل ديانة حضارية وتاريخية واحدة هي الهندوسية .

ريغ فيدا :(RIG VEDA)وتشتمل على1017 أنشودة دينية وضعت ليتضرع بها الهندوسي أمام الآلهة، ويرجع تأليفها إلى الألف الأول ق. م. وينقل الكثير عن الشعوب والقبائل الآرية التي هاجرت الى ما وراء السند .

ياجور فيدا :(YAJUR VEDA) هي تفاصيل دقيقة عن الطقوس الدينية للقرابين والذبائح التي يقدمونها للآلهة. وتشتمل على الطرق المختلفة للصلوات والعبادات عند تقديم القرابين .

ساما فيدا :(SAMA VEDA)تشتمل على الأغاني التي ينشدها المنشدون آثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

آثهار فيدا :(ATHAR VEDA)مجموعة من الترانيم والمزامير تستعمل من قبل الكهنة والرهبان الهندوس في أثناء الأدعية الدينية والقرابين التي تقدم للآلهة. ويتكون على تعاليم التناسخ والتقمّص والحوارات المتعلقة بالتجسّد الآلهي.

وقد تم تدوين الكتب المقدسة على مراحل مختلفة وظهرت أول المُدوّنات الدينية في القرن التاسع قبل الميلاد، وهي من أقدم النصوص الهندوسية المقدّسة في تاريخ البشرية وتسبق الكتب العبرانية المُسماة (العهد القديم). ويؤكد العلماء بأن الفيدا دوّنت في الفترة بين 900 ق.م ـ 300 ق.م. وتحتوي على الأناشيد والمفاهيم اللاّهوتية حول التقمُص والملاحم والتواريخ الآرية والهندية. فالريغ فيدا، مثلا هي من أقدم الكتب المقدسة، يعود تاريخ حوادثها ما بين 4000 ق.م ـ 1500 ق.م. واما تاريخ حوادث الأثهار فيدا يعود الى 2500 ق.م، والتقاليد الشفهية التي تعد البدايات الأولى للكتاب المقدس الهندوسي الطوطمي تعود حوادثها الى ما قبل 4000 ق.م. وكذلك الكتب الملحمية الآرية، والتي ظهرت ممتزجة بالتقاليد المحلية وأدت الى تكوين مستقل بحد ذاته. وكانت تسمى قديما بالدهارما أو (السانتا آنا) وهي تشمل الحضارة والدين والعادات والتقاليد والأشعار والتواريخ.

وأما بالنسبة الى تدوين الكتب المقدسة الأخرى والتي تمّت كتابتها على أكثر تقدير بين الفترة 600 ق.م الى 300 ميلادية، فهي في معظمها كتب ملحمية واسطورية، ومن أهمها ملحمتي (الراماينا والماهابهارتا) وتجسّدان تاريخ الهند وآدابها وفلسفاتها. وتشهد تلك الفترة الزمنية ايضا نشوء المذاهب الجديدة التي انشقت عن الهندوسية وهي البوذية والجاينية.

وللفيدا تاثير قويّ على الديّانات البوذية والجاينية والسيخية التي كانت تتناقلها الأجيال شفهيّا الى أن دوّنت لتبقى كنزا مُقدسّا للشعوب التي تؤمن بها ومن أهم الكتب وأشهرها (بهافاغات جيتا) و(براهما سوترا). وقد دوّنت كلها باللغة السنسكريتية القديمة، وهي اللغة الطقسيّة والروحيّة للهندوس الى يومنا هذا. ولا يزال الباب مفتوحا لقبول النصوص المُقدسة الجديدة لأن القانونية الكتابية التي تعتمد عليها في قبول ورفض النصوص المقدسة لم يُغلق بعد.

العقائد الدينية الهندوسية:

تطوّرت الهندوسية من التقاليد الفيدية القديمة التي تتضمن (الدهارما ـ السلوك) والواجبات الشخصية و(السامسارا- الولادة الجديدة)، وتعاليم(الكارما) الأفعال الخيّرة. بالاضافة الى تعاليم(الموشكا) وهي تعاليم الخلاص الروحية. وأصبحت هذه التعاليم والقيّم الروحية، المهد الذي نبعت منه العقائد والأديان الآسيوية التي كان تركيزها على الأخلاقيات الفردية وذلك لخلق مجتمع انساني مثالي. وبما أن الله براهما هو الذي خلق الطبقات الاجتماعية منذ اليوم الأول من الخلق، لذلك يجب أن يبقى هذا التقسيم أبديا، فهو من صنع الله ولا يمكن تغييره أو ازالته، إذ لا يمكن أن يرتفع شخص من قسم طبقي أسفل الي قسم طبقي أعلى. ولا يجوز الزواج بين هذه الطبقات، إلا انه من الممكن أن يتزوج الرجل من الطبقة الأعلى من الفتاة في الطبقة الأدنى وليس العكس .

يتفق معظم المفكرون الهندوس، أن الروح أو النفس البشرية (آتمان) هي أبدية لاتموت مثل الروح الآلهية. وبحسب المدارس الروحية المتأثرة برؤية (أدفيتا) فإنها لا تميّز بين الروح الآلهية والروح الإنسانية، وجوهر الروح في كل فرد تماثل جوهر الروح في الله (براهما). وأما بحسب أوبانيشاد ودفيتا وتقاليد فيشنافا، فإن النفس أو الروح (أتمان) لا تتماثل روح الله ولكنها أي الروح تحتاج الى الجهاد في ممارسة المحبة الألهية والتضحية اليومية والاعتماد على النعمة الإلهية التي لا يُمكن بدونها الخلاص والوحدة مع روح الله (براهما).

هذه بعض العقائد الدينية في الهندوسية:[195]

- ✓ تؤمن الهندوسية بالله الخالق المطلق، وهو الباعث للحياة والمُسيّطر على الكون مع الإله (فشنو) الحافظ للخلق والإله (شيفا) المُدمّر الذي هو الإله السلبي والمخرّب الذي سوف يقضي على الكون والحياة في المستقبل. والإله براهمان الذي خلقه فشنو لكي يتخصص بالخلق.
- ✓ تؤمن الهندوسية بوجود عدد كبير من الآلهة (ديفاس وديفيس) الآلهة الذكور والآلهة الأناث التي تمثل الله الواحد المطلق والتي تعدّ صورا له وتجسيدا لأعماله .
- ✓ يؤمن الهندوس بممارسة طقوسهم في الهياكل والمعابد الدينية، وبزيارة النهر المقدس(الكانج) حيث تعيش الآلهة، والحج الى النهر لغرض التطهير والغسل من الخطايا والآثام والتقرّب من الآلهة. وغالبا ما يُلقى بالرماد المتبقي من جثث الموتى في هذا النهر، إذ يعتبر من أقدس المقدسات في ديانتهم .
- ✓ يؤمن الهندوس بعدد كبير من الآلهة ويدينون بها ويؤلهونها، وبعضها أقرب في طبيعتها إلى الملائكة والشياطين والجن في الديانات التوحيدية. ويؤله الهندوسيون كذلك الأجرام السماوية مثل الشمس والقمر والنجوم والحيوانات كالقردة والأفاعي التي لها قدسيّة خاصة .
- ✓ تؤمن الهندوسية، أن الحقيقة الوجودية المطلقة هي واحدة مع صورها العديدة الثنائية والثلاثية وتفرعاتها وتجسّداتها العديدة في المرونة الروحية المثالية. وقد يبدو هذا للبعض تخبطا لاهوتيا وتناقضا في مفهوم الوحدانية الآلهية والتعددية ولكنه ليس كذلك.

[195] عبد الرزاق رحيم، صلال الموحي: العبادات في الديانات القديمة، ص ص 36-38.

- ✓ تؤمن الهندوسية، أن الله براهمان هو(هي) الحقيقة المطلقة الذي يوجد داخل كل كائن حيّ. وهو المبدأ الأول للكون وللنفس البشرية. والحياة نفسها هي رحلة من البحث عن(براهمان) عبر التناسخات العديدة، وذلك للتخلص من الجهل الروحي المحيط بكل شخص والأتحاد به في نهاية المطاف .

- ✓ تؤمن الهندوسية، أن العالم ليس خالدا ولا يدوم الى الأبد، إذ سيأتي يوم ينهار فيه كل شيء وذلك بسبب أعمال الإله شيفا المُخرّب ولكن بمساعدة الأله فشنو يتحوّل العالم الى عصر آخر من التكوين المستمر بدلا من الفناء النهائي.

- ✓ تؤمن الهندوسية أن للحيوانات مكانة خاصة، فهي لا ترى فارقا بين الإنسان والحيوان، لأن لكل منهما روح، ويمكن للروح أن تنتقل بينهما بموجب مبدأ التناسخ التي تؤمن به الهندوسية. فالبقرة مثلا تقدس تقديسا لا مثيل له من بين كل الحيوانات، إذ تتمتع بحرية مطلقة في التنقل في الطرقات، ولها ايضا تماثيل في البيوت والمعابد. ولا يمكن ذبحها ويمنع أكل لحمها أو استغلال جلدها في الصناعات. ويجب دفنها بإحترام شديد بعد موتها. وتقدس الهندوسية كذلك، الفيل(جانيش) وتعتبره ابن الأله شيفا، الذي تتجسّد فيه الطبيعة الحيوانية للإنسان. ويعتبر كذلك رمزا للقوة والحكمة والحظ للمؤمنين به .

- ✓ تؤمن الهندوسية بنظام الطبقات، حيث تدّعي كتبها المقدسة أن البراهمان الذي خلق الكون والسماء والأرض والأشياء كلها، هو الذي خلق طبقات المجتمع الأربع: البراهما وهي الطبقة البيضاء المتكونة من(الكهنة وعلماء الديانة والمعلمين والمثقفين وحافظي المعرفة والحكمة) والكشاتريا وهي الطبقة الحمراء المتكونة من(الحكام والجنود وحماة المجتمع والمتعلمين والقائمين على ادارة شؤونه وأمنه) والفيشي وهي الطبقة الصفراء المتكونة من (المزارعين والتجار والمسؤولين عن تأمين الرخاء والاستقرار المعيشي) والشودرا وهي الطبقة السوداء المتكوّنة من(المنبوذين وأهل الحرف اليدوية والخدم وهي أدنى طبقات المجتمع ومن ضمنهم ايضا حفاري القبور، وهم أشبه ما يكونون بالعبيد).

- ✓ تؤمن الهندوسية بعدد لا حصر له من التجسّدات والظهورات الآلهية منذ الخليقة والى اليوم وسوف تستمر هذه التجسّدات والظهورات الآلهية الى اليوم الأخير من الوجود.

- ✓ تعطي الهندوسية المكانة اللائقة للوالدين لما لهما من دور في تربية الأولاد، والاحترام الكبير لمن هم أكبر سنا أو علما أو درجة مع التقدير للأقرباء ولرجال الدين. ويُعد هذا الإحترام نوع من العبادة التي تقرّ به الهندوسية وتقدسه في تعاليمها وشرائعها.

- ✓ السعي المهم لكل هندوسي في الحياة الروحية هو الوصول الى السعادة القصوّى والوحدة مع الله(براهمان)، ولذلك يُحاول الهندوسي المؤمن أن يتحمل الإساءة من الآخر قدر المستطاع من دون أن يرد بمثلها وذلك للتضحية من أجل السلام الداخلي .

- ✓ تؤيد الهندوسية كذلك نظاما أخلاقيا جيّدا بين أتباعها الذين يتمسكون بالكثير من القيّم والفضائل. وهم بذلك يلتقون في كثير من النواحي مع الأديان التوحيدية الابراهيمية، مثل تحريم القمار وكلّ أشكال الرهانات، ومعاقبة من يُمارسه، واعتباره مكسبه غير شرعي على الاطلاق. وكذلك يحرمون الكذب والنفاق والتدنيس والتزوير والتنجيم والارتزاق منه، مع تحريم الرشوة والمكر وسلوك طريق الخبث والغش، وتحريم الخمر وكل أنواع المُسكرّات .

- ✓ تؤيد الهندوسية الدفاع عن حقوق الحيوانات ولكنها لا تملك الطرق الواجب إتباعها أو السلوك الذي يجب استعماله في حمايتها ورعايتها.

- ✓ لا يوجد تعاليم خاصة في الهندوسية عن الحكم بالموت ضد المذنبين والمجرمين، لكنها تعارض القتل والعنف والانتقام. وتندّد بالحرب وقتل الأبرياء وتعذيب الأسرى واستبداد الشعوب.

- ✓ لا تمنع الهندوسية تبرع الأعضاء والأنسجة البشرية ولا تحرّم استعمال حبوب منع الحمل والسيطرة على النسل. ولا تشجع الانتحار ومساعدة المرضى بالموت البطيء حتى للذين يُعانون من الآلام المزمنة.

- ✓ لا يوجد مفهوم للجنة والجحيم في الهندوسية كما هو في الأديان التوحيدية، وليس الوصول الى السماء بالضرورة الهدف النهائي لديهم. والشيء الوحيد الذي يُعدّ أبديا في عقائدهم هو الله والنفس (آتمان) ولهذا نجدهم يجهدون بكل الطرق للوصول الى الله والاتحاد به.

قصص الخلق في الهندوسية:

هناك عدد كبير من القصص والحكايات الأسطورية عن الخلق في الكتب الهندوسية المقدسة. وهي تشكل أدبا رائعا عن الفكر البشري القديم وتصوّراته عن الكون والحياة وعن دور الله في الخلق والتكوين. والشيء المهم في هذه القصص هو أن الله الواحد هو الذي يُبادر في الخلق وأن الأشياء كلها قد خرجت من بين يديه. ولا يوجد شيئ خارجا عنه وعن ارادته. وهو الأبدي الذي لا بداية له، غير المولود، سيد العوالم كلها، البعيد عن كل شرّ وهو النور السامي والذات الآلهية الأبدية والموجود منذ البدء، رب الأرباب، رب الكل، الدائم الوجود.

تؤكد هذه القصّص عن سبب وجود الكون وكل ما فيه من الحياة والحركة والفن والإبداع. وتبدأ معظمها من الأرض أو من الماء. وتنتشر هذه الأنواع من القصص بين الشعوب الهندية الأمريكية والشعوب الاسترالية والشعوب التي عاشت في وادي الرافدين(العراق). وكذلك في عدد كبير من الملاحم الاسطورية التي تطوّرت في الصين والتي تحكي كلها عن انكسار البيضة الكونية وانقسامها الى قسمين وعن خلق الكون وكل ما فيه .

وتقول قصة من تلك القصص الهندوسية ما يلي :

عندما لم يكن هناك شيء في الوجود، مرّ الخلق من خلال طريق طويل، إذ خلق في البدء الماء ونثر فيه الزرع الذي ينمو ويصبح بيضة ذهبية. وبعد سنة من تكوين البيضة تنقسم الى قسمين، (السماء والأرض). وتتحدث هذه الملاحم أيضا عن النور الذي يُشرق، وما نور الشمس والقمر إلا فيض منه. فهو يُقيم في قلب الأشياء في الوجود ومنه تأتي الذاكرة والإدراك. ويكشف من خلال الخلق عن سريّة أعماله للبشر، فمن يعرف سرّه، يصل الى أعلى المراتب من الحكمة والذكاء والقداسة والوعي البراهماني الشمولي والكلي.

وتتحدث هذه الملاحم أيضا عن الشجرة الخالدة، التي تمتد جذورها في الأعالي، وتنتشر أغصانها في الدنيا وتمتد من الأرض إلى السماء، وبراعمها التي هي متعة للحواس، تربط الإنسان الفاني من خلال أعماله. ولا تعرف بدايتها ولا نهايتها، أو مواقع جذورها الحقيقية .

وتتحدث الملاحم كذلك عن وجود عملاق في السماء اسمه (براهما)، وهو(الإله) الحقيقي الذي يُباشر بالخلق: "أنا حقيقة الحقيقة، أنا أرفع من الشمس والأرض وكل هذه الأجرام والكواكب خلقتها يداي وإني أكمن في كل شيء، ولا يُدركني شيء في الوجود". فالبراهمان يخلق شيئاً هائلاً كبير الحجم يكاد يعادل جسمه ومن ثمّ يُحوّل جسده الى ذرات صغيرة ومن هذه الذرات الصغيرة يخلق براهما الأرض والشمس والكواكب والأشياء الأخرى. ويخلق الكون البيضاوي، الذي فيه سبع سماوات لكي تعيش الأرواح الألهية وسبع أراض للحيوانات والثعابين والعوالم التحتانية.

وفي قصص اخرى، تسأل المرأة عن كيفية الخلق، فتتحول الى البقرة، وينقلب زوجها الى ثور ويتصلان جنسيّا وتتوالد الماشية بتزاوجهما. ومن ثم تتحول المرأة الى فرس ويتحوّل زوجها الى جواد، فتتوالد الأحصنة بعد اتصالهما جنسيّا. ومن ثم تتحول المرأة الى حمار وتتوالد الحمير بعد اتصالهما. ومن ثمّ تتحول الى نعجة ويتحوّل زوجها الى كبش ليتناسلا الماعز والخراف وهكذا تستمر المرأة بالتحوّل الى كل أنواع الكائنات حتى يتم الخلق .

وفي قصة اخرى، لم يكن هناك سماء ولا أرض ولا فضاء بينهما. ومحيط من الظلمة يغطي الكون كله. وكانت أفعى كبيرة تطفو على المياه، ويغطي الأله فشنو نوم عميق في هدوء وسكون تام ومن دون حركة ولا أحلام تزعجه وتخرجه من هدوئه في الكون الفارغ.

وبعد ان وصل الليل الى نهايته وبدأ الفجر بالظهور، استيقض فيشنو الأله من سباته العميق وظهر معه نبات اللوتس وفي وسط الزهرة وقف خادم فيشنو (براهما) منتظرا الأوامر من فيشنو. فجاء الأمر من فيشنو(لنبدأ الخلق)، فإنحنى براهما. وأمر فيشنو، أخلق العالم؟ .

وعندما اكتسحت الرياح على المياه، تلاشى فيشنو والأفعى العملاقة. وبقي براهما في الزهرة يطفو على المياه، رافعا أذرعه ليهدىء الرياح والمحيطات. فيقسم براهما الزهرة الى ثلاث أقسام، ويُمدّد القسم الأول ليكون السماء والقسم الثاني الأرض والقسم الثالث السماوات. وكانت الأرض عارية حينما بدأ براهما بالعمل، إذ قام بخلق العشب والورود والأشجار وكل أنواع النباتات وأعطاها الحسّ والشعور بالحياة. وخلق بعد ذلك الحيوانات والحشرات لكي تعيش على الأرض. وخلق الطيور لتطير في السماء والأسماك لتسبح في البحار. وأعطى كل هذه المخلوقات الشعور بالحياة والنظر والشم والسمع والبصر والحركة .

وفي كتاب الفيدا لقصة الخلق وفي قسم (سريماد بهاغافاتام)، يوضح الكتاب كيف حدث الخلق من خلال تنفس الله عندما كان نائما على البحار، حيث أن عدداً لا يُحصى من المخلوقات الكونيّة تظهر للعيان في كل زفير وشهيق من مسامات جلده. وكانت تستغرق المدة بين كل زفير وشهيق بلايين السنين بحسب توقيتنا الأرضي.

وكان أول ما خلق الله هو براهما وأعطى له المهمّة في خلق العالم والكون وكل شيء فيه من أكبر الكائنات الحيّة الى أصغرها مثل النمل والقمل. كما وخلق عدد كبير من الآلهة الصغيرة لكي تساعده في عمل الخلق والتي سميّت (ديفاس) و(ديفيس).

الطقوس والعادات الهندوسية:

تسمى دورة الطقوس الدينية الهندوسية (سامسكارا). وهي طقوس لترتيب الأسرار لكي تساعد المؤمنين الهندوس في تنقية الروح من كل ما يشوّه اتجاهها الروحي وللسموّ بها نحو (النيرفانا) وهي الحالة المثالية في الديانة .

الولادة: هناك أسرار عديدة حول الولادة والأطفال، حيث يهمس الأب اسم الطفل في اذنه أو اذنها.

الزواج: من أهم الأسرار في الهندوسية ويتم بالبحث الجديّ عن الزوجة من قبل جميع أفراد العائلة للأبن الحاضر للزواج. وتتم المُعايّنة لأستشارة الطرفين برأيهم النهائي حول الموضوع. وتتم الطقوس بأن يمسك العروسان باليد اليمنى بحيث يتم ربطها رمزيا بقطن مغطى بمسحوق الكركم الأصفر، ومن ثم يُرش الزوج بالماء، ويدور مع عروسه أخيرا حول نار مقدسة موقدة في الوسط سبع مرات. وفي كل مرة يقسم الواحد للآخر بالإخلاص والخدمة والتضحية والحب حتى الموت. وبعد ذلك يقدم الكهنة والشعب الحاضر الصلوات والأدعية للعريس والعروس ويكتمل طقس الزواج.

الموت: تُحرق الأجساد بعد الموت إذ أن الأجساد لا قيمة لها في المعتقد الهندوسي وذلك بسبب فلسفة التناسخ في الأرواح. فالروح تحتاج الى التحرّر من الجسد بأسرع طريقة ممكنة لكي تتقمص في جسد آخر. فيُأخذ الرماد بعد الحرق الى النهر المقدس ليُلقى في النهر وهذا جزء مهّم من الطقوس الهندوسية، ثم تقرأ مقاطع من الفيدا المقدسة مع ترانيم روحية. وتلقى باقات من الزهور مع الشموع التي توضع في النهر.[196]

الحج في الهندوسية:

في شهر يناير من كل عام يتوجه الحجاج الهندوس إلى مهرجان "كومبه ميلا" ويكون في مواقع مختلفة على طول نهر الجانج وخاصة مدينة الله آباد من أجل المشاركة في طقوس الاستحمام الخاصة التي تحدث كل 3 سنوات، ويعتبر "كومبه ميلا" أكبر تجمع ديني في العالم، ويشارك فيه ما يتراوح بين 60 و70 مليون شخص تقريبا.

ومن ضمن الطقوس الصلاة - كما ذكر د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي في كتابه "دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند"- تقديم البخور والتمسح بالرماد والاغتسال فى النهر، كنوع من نظافة الجسد والروح من الخطايا والذنوب، كما يجب على الهندوسيّ أنْ يترك الأهل والأقارب، ولا يتصل بهم مدة حجّهِ أبدًا ولا يفكر فيهم. عليه أن يتخلّى عن لباسه، فيغتسل ويختار لباس الإحرام، وهو قميصٌ طويل وإزار بلون أصفر، ويأخذ عصا من القصب الهندى، ويعلق عليه نوعًا خاصًا من الآنية للماء، ويخرج مُرتلًا الوِرْد الخاص، وهو (هرى كرشن هرى رام)، ومن الأفضل أن يمشي على قدميه وهو واجبٌ على البرهمي، وتطوعٌ لغيرهِ.

ويستند الهندوس في حجهم على الروايات الهندوسية إلى أنه قبل آلاف السنين فى العصر الفيدى توصلت الآلهة والشياطين لاتفاق مؤقت يقضي بالتعاون على خض رحيق الخلود فى محيط اللبن الأولى وعلى تقسيمه بالتساوي بينهم، لكن عندما ظهرت الكومبة "أى القارورة" التي تحوي الرحيق هربت الشياطين بها ولحقت بها الآلهة، وتحاربت الآلهة والشياطين 12 يوما وليلة فى السماء على القارورة، وخلال المعركة سقطت نقاط من الرحيق على أربعة أماكن هي أماكن حج كومبة ميلا الحالية، لذا يقوم الحجاج بزيارة الأماكن التى سقط عليها الرحيق.

الصلاة:

كثيرا ما يُمارس الهندوس طقوسا للغسل والاستحمام، وارتداء الملابس النظيفة ولا سيّما قبل الصلاة وهي نوع من التطهير الذي تحتاجها الروح في تأملها الروحي. وتختلف طقوس الصلاة في الهندوسية باختلاف الأماكن والأشخاص وهي ليست فرضا وانما يختارها المؤمن بحسب حاجته وبالطريقة التي تليق به إذ يُمارسها إما جلوسا متربعا بالنسبة الى الرجل أو الركوع على الركبتين بالنسبة الى النساء. وتمتاز الهندوسية بكثرة التأمل والعبادة

[196] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الحادية عشرة، القاهرة – مصر، سنة 1984، ص ص 59-75.

وبتقديم القرابين والنذور للآلهة والترنيم بإسمها، علما انه ليس في الهندوسية صلاة جامعة إذ كل صلواتها فردية عبادية وتأملية .

ومن الصلوات المهّمة في الهندوسية، طقوس الصلاة المُتجسّدة التي تكثر فيها القرابين ليتسامى صاحبها الى مرتبة الألوهية التي يبتغيها كل هندوسي وتتم الرحلة بعد التقشفات والأصوام والتناسخات الكثيرة. وهي تعد من أهم الشعائر في الهندوسية، يؤدونها في الصباح عند مطلع الفجر وفي المساء وقت الغروب.

اليوغا:

من الشعائر المهمّة في الهندوسية والتي تسهل الأتحاد بالله (براهمان). وهي رياضة روحية غايتها السموّ بالعقل والروح الى حالة من السعادة القصوى. وذلك بإبعاد المرء نفسه من الشهوات الجسدية والمادية وإنقاذه من كل النوازع الأرضية حتى تصل به الى حالة من القداسة والصلاح تسمى (النيرفانا). ومن خلال الصلاة والتأمل الروحي، يصل المؤمن الى حالة أسمى من النيرفانا وتسمى (الموكشا- الولادة الجديدة). والتي تقوم على الصمت والتركيز على شيء معيّن من دون التشتت في التفكير بالأمور المادية والدنيوية والجسدية العديدة. وأما المؤمن الممارس لليوغا فيُسمى بالقديس (المهاتما) أو صاحب الروح الصالحة أو الروح الكبيرة .

يصل المرء في ممارسة اليوغا الى المشاعر والأحاسيس الداخلية في الأعماق للتخلص من الضغوط العصبية والنفسية والالتحام الكامل بين العقل والجسد. والهدف في طبيعة الحال هو الوصول الى حالة من السموّ الروحي والصفاء الذهني بعيدا عن التأثيرات النفسيّة والعصبية اليومية والتي تمارس اليوم كعلاج لأمراض نفسية من قبل بعض الأطباء النفسانيين في الغرب.

ومن الطرق التي تستعمل في اليوغا:

بهاكتي يوغا: تؤكد على الحب والعبادة للوصول الى حالة الكمال الروحي من خلال عبادته شخصيّا بتنقية العقل وبتكرار اسمه وذكر صفاته العديدة مثل راما وكريشنا وذلك في طقس جميل يُسمى (جابا).

كارما يوغا: يبحث الممارس للكارما يوغا عن تحقيق التوازن العقلي والتخلص من الأنانية الفردية وذلك بممارسة التمارين اللازمة وتكميل الواجبات اليومية من دون خجل أو كسل. والنصيحة الجميلة لكل العاملين والمؤمنين بهذا النوع من تمارين اليوغا هي: أن تقوم بواجبك دائما من دون تردّد أو قلق حول النتائج التي توصل الى الحقيقة .

راجا يوغا: يبحث الممارسون لهذا النوع من اليوغا للحصول على الحقائق الروحية من خلال التأملات والسيطرة على أفكارهم وأفعالهم بدلا من سيطرة النوازع عليهم. وكثيراً ما تعرف هذه الطريقة باليوغا سوترا للوصول الى المعرفة الذاتية ومعرفة الله والحقيقة المطلقة .

جنانا يوغا: تؤكد هذه الطريقة على خطوات مهمّة للحصول على الخلاص الروحي. وهي سلوك عقلاني يُمارسه الناس والرهبان للتجرّد من كل أنواع التعلق المادي في الحياة والتعلقات الحياتية الأخرى مثل الزواج والإنجاب وكذلك للتخلص من الأنانيات الفردية (الأنا)، التي تعدّ مؤقتة وغير حقيقية. وأما الشيء الدائمي والحقيقي والجوهري في الإنسان فهي النفس(أتمان). ويُفترض أنها ترتبط بالأتمان الموجودة في كل الأشخاص وفي النفس الأزلية لله.

التناسخ:

التناسخ أو التقمص في الأرواح هي من التعاليم العقائدية الجوهرية للديانة الهندوسية. وهي حالة تجديدية من الولادات العديدة التي تمرّ بها الروح الى أن تصل الى حالة القصاص(التجسّد الردىء ـ التناسخ الردىء) وذلك بإنتقال الروح الى جسد إنسان آخر(فعندما يموت الأنسان تخرج منه الروح وتدخل في جسد مولود آخر ولد لتوه) وفي طائفة أدنى الى أن تنتهي في جسّد حيوان أو حشرة (كالبرغوث أو البعوضة) في رحلة العقاب، وقد تنتهي بالإنتقال الى جماد، كأقصى عقوبة لشخص شرير ولكن الإصرار على الشرّ في هذه الحياة يعني أن تتعذب الروح بالتنقل من تناسخ ردىء الى تناسخ آخر الى أن تهدأ الروح وتجد طريق الخير والصلاح. فاليوغا إذا هي الطريق الروحي للوصول الى نور الخلاص وللتخلص من الآثام والشرور. وأما إذا أثبت الانسان صلاحه، إنتقلت روحه الى طفل مولود في طائفة أعلى مكافأة على حسن سلوكه وفي تجسّدات أعلى مرتبة تصل الى طبقة الكهنة المُقدسيّن(البراهمة) ومن ثم ترتقي لتصل الى البراهما وتتحد به. وتعدّ هذه الغاية النهائية لكل روح خيّرة صالحة. (وأما إذا كان الإنسان رديئا في حياته فتنتقل روحه الى طفل مولود في طائفة أدنى وإذا لم يُحسن سلوكه فإن روحه تنتقل الى جسم حيوان وفي تناسخات أخرى في عالم الحيوان). أو قد تتنعم الروح بالسعادة الأبدية(التجسد الجيّد) إذ تنتهي بالوحدة مع الله(براهمان) في رحلة السعادة للروح الصالحة ثوابا لها على الخير والصلاح في هذه الدنيا .

وتؤمن الهندوسية بالخير والشر. فإذا كنت صالحا في هذه الحياة فستجازي عن صلاحك في الحياة الأخرى بتناسخ جيّد وإن كنت رديئا فستجازي بتناسخ ردىء. ولا تؤمن الهندوسية بالجنة أو بالجحيم، وإنما تنتقل الأنفس من بدن الى آخر، حتى تتطهّر كاملة وتتحد بالروح الكلية. ويكون طريق الخلاص بإماتة الشهوات الجسدية وبالرياضات الروحية القاسية للسيطرة على الجسد وللأتحاد بالروح الكلية(البراهما).[197]

الزكاة:

ليست الزكاة فرضا تشريعيا على الهندوس ولكنها حالة اختيارية يشعر بها الهندوسي بالصدقة على الفقراء والمساكين والكهنة المتجرّدين الذين لا يعملون ولا يفعلون شيئا في حياتهم سوى الصلاة والصوم والتعبد للآلهة.

[197] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الحادية عشرة، القاهرة – مصر، سنة 1984، ص 61.

التقويم والأعياد الهندوسية:

تستخدم الجمهورية الهندية التقويم الغريغوري للكنيسة الكاثوليكية في الحياة المدنية في الدولة. وأما في التقاليد الدينية والثقافية القديمة يستخدم الناس التقويم الهندي القديم الذي يستند على حركة القمر والسنة القمرية والتي تتألف من 354 يوما وتختلف عن السنة الشمسية المؤلفة من 365 يوما، والإشكال أو الفرق بين التقويمين يحل بإضافة شهر واحد كل ثلاثين شهرا.

وتتميز الهندوسية بكثرة أعيادها ومهرجاناتها الدينية الكبيرة والتي تجذب اليها السواح من كل دول العالم. وترافق هذه المناسبات التراتيل الدينية الجميلة والموسيقى الهندية التقليدية والرقص الروحي الخاص بكل مناسبة على حدة مع الغناء الروحي العذب .

الأعياد التي يحتفل بها الهندوس في كل ارجاء العالم:

ماهاشيفاراتري: يحتفل الهندوس في هذا اليوم بولادة الاله شيفا في القمر الجديد من كل شهر.
ساراسفاتي بوجا: يحتفلون بهذا العيد إكراما للأله ساراسفاتي الذي هو شفيع الفنانين والراقصين والمغنيين .
هولي: وهو يوم الحصاد ويحتفلون في هذا اليوم بالاله كريشنا شفيع الشباب.
راتا ياترا: يحتفل في هذا اليوم بالاله فيشنو، وذلك بحمل تماثيله الضخمة في شوارع المدن .
راشكا باندان: وهو عيد آلهة الورود والأزهار.
جاماشتامي: يحتفلون فيه بولادة الاله كريشنا ونجاحه في التجارب الشيطانية.
نافاراتري: يحتفل بهذا العيد، بالالهة الانثى(دورغا) وهي رفيقة الاله شيفا.
ديفالي: من أهم الاحتفالات الهندوسية الجماهيرية، ويحتفل فيه برجوع الأله شيتا من الأسر.

الرموز الهندوسية:

هناك رموز عديدة في الهندوسية ومنها رمز الأوم الذي يُستعمل كثيرا في الصلاة الهندوسية، ويُمثل البداية والنهاية في الدين ويرمز الى المطلق وأما الدائرة من حول الأوم فترمز الى دائرة الحياة والى دائرة القدر الجيد(الحظ). ومن المحتمل أن الكلمة (الأوم) هي نفسها التي تُستخدم في الصلوات المسيحية والاسلامية وذلك في صيغة (آمين)، لأنها تعني المعنى نفسه في الديانات الهندوسية والمسيحية والاسلام ومعناها (ليكن هكذا أو صدق الله، أو اللهم استجب).

والأوم من أقدس المفردات التي يلفظها كل هندوسي متعبّد للإله براهمان من ولادته الى حين وفاته. وتتكرر الكلمة أثناء الصلوات مرات عديدة. كما جاء في كتابهم المقدس: "تظهر الأرض من المياه، وتظهر النباتات من الأرض، ويظهر البشر من النباتات، ويأتي الكلام من البشر، وتأتي "الأوم" من الكلام. وهي الجوهر والأسمى من كل شيء، لأنها المطلق... والأوم هي الدعاء للمعرفة، وتغنى "الأوم" بتردّدها وبرّنات وألحان مختلفة لأنها المفتاح لكل أنواع المعرفة.. والذين يعرفون النفس" أتمان" والذين لا يعرفون النفس، يقفون صفا واحدا ويُرتلون الأوم".[198]

[198] أوبانشاد 1:1.

ويعتبر ترديد كلمة الاوم في الزرادشتية الصوت الأبدي لبراهمان والموجة الإهتزازية الكونية للروح. وتختم كل صلاة بهذه الكلمة السحريّة التي تذكر كثيرا في الفيدا والكتب المقدسة الاخرى. وتعني الأوم "نعم" وتؤكد ما يقوله المؤمن في صلاته وتؤيده. وبتكرار "الأوم" وبقراءاتها المختلفة ترتفع النفس الى السمو والأبدية. وتكسب النفس المنفذ للوصول الى الأبدية بتكرارها للأوم، وتعطي القوّة والاطمئنان والنعمة والأمان للشخص الذي يُصليها ويُردّدها .

والسواستيكا[199] الهندوسية هي ايضا الرمز المعروف جدا عالميا وتاريخيا وللسوستكا رؤوس التسعة وترمز الى الكون الواسع بأبوابه الأربعة. ويكثر استخدم هذا الرمز في الهند من قبل البوذيين والهندوس عبر التاريخ، علامة للحظ والقوة والصحة الجيّدة. وفي آسيا الشرقية يُستخدم الرمز تعبيرا عن البوذية ومفاهيمها وعقائدها .

والجدير بالإشارة، أن الصليب المعكوف مع أذرعه المتجهة يمينا يرمز الى الحظ والخير. ويرمز الى التعاسة والشرّ عندما تكون اتجاهاته نحو اليسار بحسب المفهوم الهندوسي. وهو رمز مقدس في الهندوسية والجاينية[200] (مذهب منشق عن الهندوسية). وينتشر استخدام هذا الرمز في الغرب الأوروبي ويعرف بالشعار النازي. ولا يزال الهندوس يستعملونه في إحتفالاتهم الدينية والشعبية وفي هياكلهم وأعراسهم وفي غيرها من الأحتفالات الاخرى. ويستعمل هذا الرمز في أندونيسيا وفي حضارات أمريكا الأصلية، ووجد إستعماله كذلك في اليونان القديمة وفي بعض المناطق الأفريقية.

2) العبادات في الدّيانة البوذيّة:

مدخل تاريخي:

قبل ظهور البوذية كانت الهند تعيش في ظلِّ الديانة البرهميَّة، مع ما جاءَت به من تعاليم ظالمة للناس، فجاءت البوذية تخفيفًا لِما جاءت به البرهميَّة من تعاليمَ، وإزالة ما أحدَثته من تفريق بين الناس، فالناس في الديانة

---

[199] الصليب المعقوف (السواستيكا) له تاريخ طويل يسبق شهرته العالمية من بعد ما استخدمه أدولف هتلر لتصميم العلم النازي.
كلمة السواستيكا (الصليب المعقوف) تأتي من السنسكريتية وتعني "حسن الحظ " أو "رفاه" وقد سجل أول استخدام له من قبل 10,000 سنة برسومات وأشغال فنية ودينية. وقد ظهر الصليب المعقوف برموز في آسيا من قبل 5,000 آلاف سنة ومن بعدها بأوروبا ودائماً كان استخدامه بإطار الخير والسعادة والرفاهية وظهر على الكثير القطع الأثرية من الثقافات الأوروبية ما قبل المسيحية.
هذا وقد استخدم من قبل الحضارات القديمة بجنوب أفريقيا لأسباب مشابهة كما انه وجد على أعمال فنية وعملات نقدية بحضارات السمراء بالعراق. ويبقى الصليب المعقوف حتى يومنا هذا رمزا مقدسا في معتقدات الهندوسية والبوذية والجانية وهو مشهد مألوف في المعابد أو المنازل في الهند أو إندونيسيا. في الجانية (وهي ديانة هندية يعود تاريخها الى أكثر من 3,300 سنة) تمثل الأذرع ألأربعة الصليب المعقوف الأربع دورات من الحياة، وأربع ومصائر: الكائنات السماوية، والبشر، والكائنات الحيوانية، والكائنات جهنمية. أما بالديانة الهندوسية، تمثل الأذرع الأسس الأربعة للكون وهي: (دارما البر، والقيم الأخلاقية) وآرثاء (الازدهار والقيم الاقتصادية) وكاما، (المتعة الصليب-المعقوف-(السواستيكا)-بالديانات-القديمة-الهندوسية-والمحبة والقيم النفسية) وموكشا (التحرير، والقيم الروحية).

[200] جاينية (بالإنجليزية: Jainism) (كما تُعرف أيضا باسم "جاين دارما") هي إحدى الديانات الدارمية ذات الطابع الفلسفي، نشأت في الهند القديمة تبعا لتعاليم ماهافيرا (حوالي القرن السادس قبل الميلاد). يشكّل أتباع هذه الديانة حالياً أقلية في الهند إضافة لتجمعات مهاجرة متزايدة في كل من الولايات المتحدة وبلدان وغربي أوروبا، وأفريقيا، والشرق الأقصى ومناطق أخرى حول العالم. تحافظ الجاينية على تقاليد الشرمان القديمة أو ما يدعى بالزهد.
للجاينية تأثيرات عديدة على كامل الثقافة الهندية الدينية والأخلاقية والسياسية على امتداد أكثر ألفيتين. تركز الجاينية على الاستقلالية الروحانية ومذهب المساواة لجميع أنواع الحياة مع التأكيد على اللاعنف والضبط الذاتي أو ما يسمونه ("فراتي"، vratae) للوصول إلى مرحلة "كيفال جنان" وأحيانا "موكشا" أي تحقيق الطبيعة الأصلية للروح.

البرهميَّة ليسوا سواءً؛ من حيث العبادةُ أو الزهد، بل إنهم مختلفون من حيث الطبقات والأعمال، فلقد قسَّمت البرهميَّةُ النَّاسَ إلى أربع طبقات.[201]

الأولى وهي الأعلى، تسمَّى طبقة البراهمة، وهم رجال الدين الذين يتبنون أحكامَه. والثانية طبقةُ الجند، ويزعمون أنَّهم خُلِقوا من مناكب "براهما" ويَديه، وهم الحُماة والغُزاة، ومَرتبتهم دون البراهمة. الثالثة طبقة الزُّراع والتُّجَّار، وهم مخلوقون من رُكبتي الإله، والفارق بينهم وبين من سبقهم كبيرٌ جدًّا. والرابعة طبقة الخَدَم والأسارى، وقد خُلِقوا من قدم الإله براهما، وهي أقلُّ الطبقات عندهم. وبعد هؤلاء هناك طبقة المحرومين وأبناء الزِّنا، والذين يتناوَلون الأعمال القذرة في المدن، والأعمال الحقيرة؛ لذا فكان أوَّلُ مَن دخَل في البوذية هم أولئك الذين ظَلَمهم التقسيمُ الطبقي البرهمي، وبعد ذلك صاروا أتباعًا لبوذا؛ لذا فإنَّ الحديثَ عن البوذية سيكون على أنها ديانة خرَجت على البرهميَّة.[202] والحديث عن البوذية يذكِّرنا بالطرفين المتقابلين في تصوُّر حقيقة السعادة الإنسانية، وكيفيَّة تحقيقها قديمًا وحديثًا؛ أي: الفلسفة الأبيقوريَّة[203] قديمًا، والنفعيَّة حديثًا".[204] فالبوذية من مُجملها إنما هي مذهب فلسفي أخلاقي، فهي فرع من فروع المذاهب المتكامِلة الأركان، مثل: المذهب الإسلامي الأخلاقي المتكامل الأركان.

بوذا والبوذية:

بوذا ليس اسم علم على شخصٍ بعينه، وإنما هو لقب ديني عظيم، معناه: الحكيم، أو المستنير، أو ذو البصيرة النفَّاذة. وقد أُحيطت حياة بوذا بكثيرٍ من الأساطير والخُرافات التي طمَستها معالِمُ حقيقته، حتى قال بعضُ الباحثين بأن حياة بوذا نفسها أسطورة مزعومة. أمَّا عن ميلاده، فلقد اختَلف الباحثون في تاريخ ميلاده، فمنهم مَن قال: إنه وُلِد سنة 568 ق.م؛ يقولُ الدكتور هنري توماس: إنَّ بوذا وُلِد سنة 563 ق. م، في بلدةٍ على حدود الهند، ويقولُ الشيخُ محمد أبو زهرة: إنَّ بوذا وُلِد عام 560 ق. م في بلدةٍ على حدود الهند، وكان من أسرةٍ نبيلة، وكان أبوه ملكًا صغيرًا في تلك البلاد، وقد تربَّى بوذا في الرَّفاهية، وشبَّ عليها، فكان يعيش كما يعيش أبناء السادة والملوك في نعيم عظيم.[205]

---

[201] محمد أبو زهرة، الديانات القديمة، دار الفكر العربي، القاهرة –مصر، سنة 2017، ص 40.

[202] محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة (حضارتها وديانتها)، دار الشعب، سنة 1970، ص 145.

[203] الأبيقورية أو المذهب الأبيقوري يُنسب إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور، الذي أنشأه وقد ساد لستة قرون، وهو مذهب فلسفي مؤداه أن اللذة هي وحدها الخير الأسمى، والألم هو وحده الشر الأقصى، والمراد باللذة في هذا المذهب ـ بخلاف ما هو شائع ـ هو التحرر من الألم والاهتياج العاطفي

[204] مصطفى حلمي؛ الإسلام والأديان، دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة 1407هـ، ص 99.

[205] محمد أبو زهرة: الديانات القديمة، ص 47.

وعندما بلَغ مبلغَ الشباب، زوَّجه أبوه من ابنةِ ملك مجاور له، وسَرعان ما وُلِد له ولدٌ سَمَّوه "راهولا"، وبالرغم من كلِّ هذا النعيم الذي كان يعيشُ فيه، فإنه لَم يَستسلم للملاذ والشهوات، «بل كان راغبًا عن الدنيا، تاركًا ملاذها»[206]، جذَبه جانبُ الشر في الحياة أكثر مما جذَبه جانب النعيم والسرور.

ونتيجة لكلِّ ما سبَق فقد انقلَبَ على هذه الحياة الدنيا وما فيها من الترف والبَذخ، وأحسَّ بمشكلاتِ الناس ومتاعبهم وآلامهم، ولا سيَّما طبقة البؤساء الفقراء؛ لذا فقد قَلق واضطرَب، وترَك كلَّ شيء في قصرِه، وتوجَّه إلى غابةٍ في الهملايا.

لقد توفِّيت والدة بوذا في الأسبوع الأوَّل من ولادته، وهذا الحدثُ من أهمِّ العوامل التي جعَلته ينظر إلى الحياة نظرة التشاؤم والحزن. يُروى أنَّ بوذا الْتَقى ذات مرةٍ بشيخٍ عجوز واهٍ، يتوكَّأ على عصاه، ويوشِك ينكفئ على صدره، فاضطرَب له بوذا وتألَّم، فقال له رفيقُه: هكذا نهجُ الحياة، ولا مَفرَّ لنا من هذا المصير، فكانت مناظرُ الألَم والشقاء من أكثر العوامل التي أثَّرت في حياته أيضًا.

كذلك مشاهداته في جولات المدينة للمرضى والميِّتين، وما يَحدث في هذه الحياة الدنيا الفانية من مرضٍ وآلام، وموت وغير ذلك. كتب بوذا يقولُ: «وعندئذٍ بدأتُ أسأل نفسي: ماذا لو أنني وأنا خاضعٌ لأحكام الميلاد وقد رأيت بؤسَ الحياة بعيني، ماذا لو كرَّستُ حياتي للبحثِ عن سعادة مَن لَم يولدوا بعدُ، والجد في وقف عجلة الحياة كلِّها، والسعي وراء راحةِ النَّفس في عالَم الخلود؟»[207]

أثَّرت الفلسفةُ الهندوسيَّة على حياة بوذا، فقد قرَأها وعرَف اتجاهاتها إلى أن أصبحَ أسيرَها، فقد تأثَّر بميولها إلى العُزلةِ والزُّهد، والانقطاع عن الناس، فلمَّا رأى بوذا منظر المرض والشيخوخة وجثَّة الميِّت، ضَعُفَ دافع المقاومة في نفسه، ورجَح عنده الميل إلى سلوك نفس الطريق الذي سلكَه الهندوس.

ولقد تمكَّنت هذه النظرةُ التشاؤميَّة من فكرِ بوذا؛ حتى إنَّ والده حاوَل أن يقاومَ هذا الاتجاه ويدفعه عن ولده، ويُبعد عنه مناظر الألَم، ويُسبغ عليه مزيدًا من الملذَّات؛ ليجنبه التفكير في الآلام والشجون.، لكنَّ هذه الأحاسيس قد تمكَّنتْ من فكرِه ووجْدانه، فاستقرَّ رأيه على أن يدعَ صخبَ الحياة، وأن يبدأَ حياة الزُّهدِ والفكر؛ لعلَّه يصل إلى معرفة سرِّ الكون.[208]

البوذية ثورة على الهندوسية:

[206] الديانات القديمة، ص 47.

[207] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الحادية عشرة، القاهرة – مصر، سنة 1984، ص 143.

[208] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص 145.

تقوم البوذية على الإيمان ببوذا معلما للحكمة، والإيمان بالدارما، وتعني الحقيقة، وهي تعاليم بوذا، ويعتبر بعض الباحثين البوذية ثورة على الهندوسية، إذ كان بوذا كاهنا برهميا، ولكنه رفض وصاية السلطة الكهنوتية، والنظام الطبقي الهندوسي، ولم يعترف أيضا بأهلية "الفيدا" الكتاب المقدس في الهندوسية، وكانت تعاليمه موجهة إلى الرجال والنساء وإلى جميع الطبقات بلا استثناء، فقد رفض بوذا المبدأ الهندوسي والقائل إن القيمة الروحية للإنسان تتحدد عند ولادته، وجمع أتباع بوذا بعد وفاته تعاليمه، وتقوم هذه المبادئ مثل الأديان السماوية على قيمة العمل وأثره في مصير الإنسان.

الحقائق الأربع النبيلة:

تقدم موعظة لـ (سدهارتا) التي قدمها بعد ست سنوات قضاها في التأمل والزهد لحظة تأسيسية للبوذية، ويسميها البوذيون "الحقائق الأربع النبيلة" وملخصها أن الإنسان تحيط به الآلام (دوكها) والرغبات والشهوات (ساموداياً)، ويكون بدء الخلاص بالتحرر من الآلام والرغبات (نيروذا) ويوصل ذلك إلى الطريق المستقيم (ماجّا) الذي يقود إلى المعرفة والهدوء والرؤية العميقة فاليقظة (نيرفانا)، ويشار إلى الصراط النبيل هذا بالصراط الثماني، لأنه يتضمن ثمانية أقسام: الرؤية الصحيحة، والفكر الصحيح، والكلام الصحيح، والعمل الصحيح، ووسائل الحياة الصحيحة، والمجهود الصحيح، والانتباه الصحيح، والتركيز الصحيح.

وفي النص المسمى ميتا سوتا (الحب العالمي) يدعو سدهارتا (بوذا) من يسعى إلى الحكمة والسلام أن يكون مجتهدا مستقيما، ولا ينغمس في مشاكل الناس، ولا يحمّل نفسه عبء المال، وأن يسيطر على حواسه، وأن يسعى في سعادة جميع الكائنات، وألا يخيب أمل أحد، ولا يحتقر كائنا آخر.

وفي موعظة مانغالا سوتا (النعمة) يقول بوذا النعم هي معايشة العقلاء، واكتساب الثقافة والعلوم والفنون، والعناية بالأسرة والوالدين، والتصرف بكرامة ولطف وتجنب الشرّ والأذى، والتقشف في الحياة، والصبر بعامة وعلى المصائب.

وفي موعظة سيغالوفادا سوتا يشرح بوذا معنى تحية الجهات الستّ، وهو طقس يومي يمارسه البوذيون، فكل جهة ترمز إلى فكرة، الشرق يمثل الأبوين، والجنوب: المعلمين، والغرب: العائلة والأولاد، والشمال: الأصدقاء والشركاء، والسمت الأعلى: رجال الدين، وسمت القدم: الخدم، وتعبر التحية للجهات عن الالتزام المتبادل، وأداء الواجبات وفعل الخير وتجنب الأخطاء والظلم.

ويعرض الشرور الرئيسة (الموبقات) التي يجب تجنبها، وهي القتل والإيذاء والزنا والسرقة والكذب وشهادة الزور، ويتجنب المرء ارتكاب الشر بمعاندة الرغبات والشهوات والجهل والغضب والخوف.. وعلى الساعي إلى الحكمة تجنب المسكرات والقمار ورفاق السوء واللهو وهدر الوقت.

وفي موعظة فاسالا سوتا (المنبوذ) يردّ سدهارتا على فكرة الطبقية واعتبار فئة من الناس منبوذين منذ ولادتهم، إذ يرفض ذلك، ويعتبر ما يرفع قدر الإنسان أو يجعله منبوذا هو عمله؛ فالمنبوذ هو الذي يفعل الشر من الغضب والكراهية والنفاق وإيذاء الكائنات الحية والسرقة وعقوق الوالدين والاعتداء على الناس والبخل والخداع والكبر. إن المرء لا يصبح باريا (منبوذا) أو برهمانا (نبيل) عن طريق الولادة.

وفي موعظة واتثوباما سوتا يعرض بوذا خبائث الفكر وقذاراته التي يجب الانتباه إليها وتجنبها، وهي سوء النية والنفاق والغيبة والحسد والخداع والكبر والكذب والإهمال والجشع.

ويسعى البوذي إلى الفضيلة والحكمة والتأمل، ويصل إليها بسلسلة من السلوك والأعمال تقوم على الزهد والتقشف وفعل الخير والمعرفة وكبح الشهوات، ويمارس لأجل ذلك رياضة نفسية قائمة على التأمل ليصل إلى السلام والخلاص.

النيرڤانا:

نيرڤانا Nirvana مصطلح سنسكريتي يعني حرفياً (الانطفاء بالنفج أو الخمود) والمقصود انطفاء الشعلة أو المصباح، وقد أطلق على حالة الانعتاق العقلي والشعوري من كل ما يجلب الألم والعذاب بالتخلي عن إرادة العيش، وعن المصالح الفردية، وعن أوهام الأحاسيس، والانصراف عن العالم الخارجي، وعن عالم الأفكار إلى مرحلة من الفناء بالمبدأ الكلي والخير الأسمى.

النيرڤانا في البوذية:

كما أطلق في التعاليم البوذية على مرحلة في العبادة يصل فيها المرء إلى الاندماج الكلي في أشياء هذا الكون، حيث تخمد فيها الرغبات والشهوات، ويصبح كل شيء بلا معنى، وتصبح كل الأشياء على مسافة متساوية من الفرد، فلا تميز ولا تفضيل لشيء على آخر، فهي حالة مطلقة من اللامبالاة وعدم الاكتراث. ويستطيع المرء أن يبلغ النيرڤانا عن طريق تدريب مدروس، يطال الجسد كما يطال الروح، فالبوذية ترى أن الإنسان يستطيع التحرر من الألم عن طريق الكمال الأخلاقي الذي يمكن بلوغه عن طريق الانعتاق من الحياة والانغماس في النيرڤانا، وهي المرحلة التي لا يعود الفرد فيها يحس بنفسه على أنه ذات، وإنما يذوب ويتلاشى في الوجود أو الحقيقة الكامنة وراء الوجود الظاهري، وهو ما يسمى بالاستنارة ويسمون من يبلغ هذه الحالة بالمستنير وهو اللقب الذي كان

يطلق حصراً على بوذا (المتوفى سنة 483ق.م) لأن غشاوة الدنيا قد رفعت عن بصره وبصيرته، فرأى الحقيقة رأي العين، وفني عن نفسه فيها، وهي حالة لم يبلغها على الكمال إلا بوذا، حيث قال ذات يوم «لم يعد لدي ما أفعله في هذه الدنيا» فعدوا ذلك بمنزلة الفكرة المنيرة، وأنه قد استنار بها واهتدى. والاستنارة بالصينية، وقد جاءت الفكرة إلى بوذا وهو جالس جلسته المشهورة تحت شجرة (البو) التي أطلق عليها أتباعه (شجرة الاستنارة).[209]

وتتلخص تعاليم بوذا في هذا الشأن في الحقائق الأربع النبيلة الآتية: إن الحياة كئيبة غير مقنعة، وإن الطمع سر بلائها، وإن القضاء على كآبة الحياة يمكن بالقضاء على الطمع فيها، وإن السبيل إلى ذلك يأتي بطرق ثمانٍ هي: الرأي السديد، والطموح السديد، والقول السديد، والسلوك السديد، والتكسب السديد، والجهد السديد، والعقل السديد، والتفكير السديد، وبذلك يتحقق الصفاء النفسي والفكري فنبلغ مرحلة النيرفانا.

يقف مفهوم نيرفانا عند نقطة تشعب طريقين أساسيين في البوذية: طريق طبيعي واقعي: يستعرض الأفكار التي من السهل على الباحث في علم النفس أو الفلسفة تقبلها، وتتحدث عن طبيعة العقل البشري، وأسباب معاناة الإنسان، والطرق التي يمكن أن يحيا بها الإنسان سعيدًا وفقًا لمثل هذه الحقائق. ويرى أتباع ذلك الطريق أن التأمل في البوذية طريقة علاجية أكثر منه ممارسة روحانية. طريق غريب: يركز على مفاهيم ما وراء الطبيعة، أو على الأقل المفاهيم التي لا تقبلها العقول المعتمدة على التفكير العلمي المنطقي فقط. من بين تلك المفاهيم ما يُعرَف بالتجسد، أو ما يُطلِق عيله البوذيون «إعادة الميلاد» (انتقال الروح بعد وفاة الشخص إلى جسد جديد).

وفقًا للمعتقد البوذي، فإن إدراك المفاهيم الغريبة للبوذية يعني التحرر من سيطرة دائرة لا متناهية من إعادة الميلاد، لكن حتى هذه الفكرة الميتافيزيقية تقود إلى أفكار أكثر واقعية متعلقة بمعاناة الإنسان ورضاه، ويمكن من خلال هذا المزج بين طريقي البوذية النظر إلى ممارسة التأمل بنظرة مختلفة.[210]

اتجاهات ومفاهيم بوذية:

الواجبات (كارما): تشترك البوذية مع الهندوسية واليانية والطاوية والسيخية في مفهوم وقانون كارما، ويعني ببساطة أن الإنسان مسؤول عن أفعاله، وأن ما يفعله خيرا كان أو شرّا يعود عليه بالعواقب والنتائج حسب ما فعل أو نوى أو فكر.

سامسارا ويشير إلى مسار حياة الإنسان وما فيها من آلام ورغبات وموت، وربما تعبر عنها الآية القرآنية "يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه".

---

[209] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص 152.

[210] أنظر: محمد صالح الطحيني، تعاليم بوذا، موقع الحوار المتمدن، قسم الدين السياسي ونقد الفكر الديني، رابط الموقع: http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=503775&r=0 ، بتاريخ: 2016/02/06.

الكمال (نيرفانا)، وهي الحالة التي يسعى البوذي إلى الوصول إليها وتحقيقها، وتعبر عن الكمال والسلام التام للروح بالتحرر من الرغبات والآثام وفعل الخير والتأمل والتركيز الذي يمنح الإنسان الحكمة والسعادة، والخلاص من آلام الغضب والجشع والخوف. ولعله مفهوم يقابل الخلاص في المسيحية.

العطاء (دانا)، وتؤشر إلى الممارسات والأعمال النبيلة والخيرة التي يقوم بها الإنسان وبخاصة التبرع والمساعدة في الطعام واللباس والدواء للمحتاجين والمستحقين.

السلوك الحكيم (سيلا) وتركز على ترك الأفعال السيئة، والتي يقابلها في الإسلام مفهوم الكبائر أو الموبقات، وهي القتل والسرقة والزنا والكذب وعقوق الوالدين وشهادة الزور، وتنهى عن أفعال أخرى أيضا يساعد تركها على الكمال أو تحمي صاحبها من الخطيئة، مثل اللهو والقمار والمسكرات ورفاق السوء، كما تدعو إلى الزهد والتقشف في الحياة واللباس والزينة والطعام. وتطبق في مستويات ومراتب، وبعضها موجه إلى جميع الناس وبعضها إلى التلاميذ وبعضها إلى الرهبان المكرسين (سانغا).

التأمل (بهافانا) أو "ميتا"، وهي الرياضات النفسية والروحية التي توصل صاحبها إلى السلام واتّباع الصواب والحكمة، وقد تكون هذه الفلسفة وتطبيقاتها هي الأكثر شهرة خارج الفضاء البوذي، وتأخذ في بعض الأحيان تطبيقات وفي مؤسسات تبدو مستقلة عن البوذية، وفي النموذج الهندوس تسمى يوغا، وهي أيضا رياضة منتشرة ومعروفة في جميع أنحاء العالم.[211]

الحج عند البوذية:

عرف البوذيون الحج أيضًا، حيث يعتادون أن يحجوا إلى أربع مناطق مقدسة تتوزع بين النيبال والهند، وهي لومبيني مسقط رأس معلمهم الأعظم بوذا في النيبال، وبود جايا حيث جاءه الوحي أو "التنوير" للمرة الأولى، تحت شجرة تين، بعد سنين من التأمل. وسارناث في الهند، حيث علّم للمرة الأولى، وكوسينارا في الهند حيث مرقده و"النيرفانا الأخيرة."

ويتكبد البوذيون معاناة قاسية لأداء طقوس الحج وفق عقيدتهم الدينية، حيث يفترض عليهم الزحف على بطونهم، مرتدين أحذية تشبه الـ"قباقيب" في أرجلهم وأيديهم، حتى يصلوا إلى تمثال "بوذا"، قاطعين مسافات طويلة، فيسجدون له، وذلك في معبد ستوبا، الذي يُعد مركزا مهمًا للبوذية التبتية، ويعود تاريخه للقرنين السادس

[211] ابراهيم غراية: البوذية دين الفلسفة والحكمة، موقع مؤمنون بلاد حدود للدراسات والأبحاث، قسم الدراسات الدينية، الرابط: https://www.mominoun.com/articles/ ، التاريخ: 14 نوفمبر 2015.

والخامس الميلاديين، حيث يتوجه آلاف الحجاج البوذيين خلال رحلة مقدسة إلى نيبال لزيارة ستوبا والأديرة القريبة منه.

وحسب موقع "بودانت" فإن الحج في البوذية ليس فريضةً أو طقساً دينياً يكسب البوذي حسنة في العمل، وبدأ أتباع الديانة البوذية في طقوس السفر الجماعي والزيارة إلى الأماكن المقدسة الأربعة بعد أعوام طويلة على موت بوذا. وليس هناك وقت محدد من العام ليقوم البوذيون بحجهم، إلا أن هناك بعض المناسبات الخاصة التي يكثر فيها الزائرون إلى لومبيني. وقد بدأت طقوس الحج في هذه المنطقة تحديداً، بعد أن سافر الملك الهندي أشوكا حاجاً إلى هناك بعد 249 قبل الميلاد.

وطقوس الحج عند البوذيين يشوبها بعض الغرابة والاختلاف حيث يقطعون مسافات طويلة متعبدين مشياً على الأقدام وبشكل جماعي، ويقومون بالتأملات الطويلة خلال رحلتهم، إضافة إلى الأناشيد الروحية من دون موسيقى.

معتقدات البوذية:

- أولا الله في الفكر البوذي: لم يكن بوذا نبيا يوحى إليه بالمغيبات أو فيلسوفا بل كانت دعوته منصبة على ما يراه سبيل الخلاص للبشر ومن هنا كان ينهى تلامذته عن الكلام في الغيبيات وكان يؤمن بالمحسوسات ويبحث عن سر الحياة والتفاوت بين البشر .[212]

ثانيا : اعتقاده بمذهب التقمص أو تناسخ الأرواح: وهو ماورثه من الهندوسية الذي يقوم على تكرار المولد في ولادات متعاقبة فلا ينتهي عمر الإنسان في مرحلة ما بالموت حتى يبدأ حياة أخرى فالولادة في نظر بوذا هي الشرور لذا لا بد من ايقاف استمرارها فدعا إلى الرهبنة وترك ملاذ الحياة وفي مقدمتها النكاح ولم يشجع الزواج .

ثالثا: النجاة عند بوذا: وهو ان يجنب الانسان نفسه العودة إلى الحياة وعندها سينجو وسينطلق إلى عالم آخر عالم لا يمت إلى الواقع بصلة عالم يصفه بوذا بقوله : " أيها المريدون هي طور لا أرض فيه ولا ماء ولا نور ولا هواء لا فيه مكان غير متناه ولا عقل غير متناه ليس فيه خلاء مطلق ولا ارتفاع الإدراك واللا إدراك معا ليس هو هذا العالم وذاك العالم لا فيه شمس ولا قمر ".

[212] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص 206.

وصايا بوذا:- ولة عشر وصايا كما أوردها البستاني في دائرة المعارف: " لا تقتل - لا تسرق - كن عفيفاً - لا تكذب - لا تسكر - لا تأكل بعد الظهر - لا تغنِ ولا ترقص - وتجنّب ملابس الزينه - لا تستعمل فراشاً كبيراً - لا تقبل معادن كريمة" .

عباداتهم: ليس للبوذية عبادات يفعلونها سوى تقديس بوذا وحمده والثناء عليه وقد ذكر صاحب كتاب (دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند) بعض ترانيم البوذية في الثناء على بوذا فكانت فكرة بوذا عن الدين سلوكية خالصة فكان كل ما يعنى به بوذا هو سلوك الناس وأما الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت فكلها أمور لا تستحق عنده النظر او التأمل لعدم إيمانه بالغيبيات .[213]

فرق البوذية: يعتبر تاريخ البوذية تاريخاً غامضاً ولكن المعروف كما يقول البستاني هو أنه عصفت بها المشاكل وحدثت بها انشقاقات وصلت إلى حوالي ثمانية عشر طائفة ولكن أشهرها اثنتان.

الفرقة الأولى: وتدعى "هنايان" لا تؤمن بألوهية بوذا بل تعتقد أنه إنسان عاش كغيره من الناس ومات إلا أنه بلغ درجات عالية من الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة حتى وصل إلى مرتبة قديس واستحق أن يلقب ب "آجايا منش " ويرتدي كهنتها ثوباً أصفر اللون ويحلقون رؤوسهم وعليهم الالتزام بعددٍ من القواعد البوذية شديدة التعقيد مثلاً: لا يسمح لهم تناول أي طعام بعد منتصف النهار ولا يسمح لهم بحمل أيّ نقود أو ملكية وهي أصغر أشكال البوذية وأتباعها يعتبرون أن بوذا مجرد رجل وضع بعض القواعد السلوكية وهو ليس إلها يُعبد وتنتشر هذه الفرقة في جنوب الهند وسيرلانكا وأشهر آثار بوذا في هذه المنطقة هي إحدى بقايا أسنانه التي يتبرك به اتباعه.

الفرقة الثانية: وتدعى "ماهايان" وهي التي تعتقد بان بوذا هو اله وتدعي أنه ليس له جسم بل إنه نور وقد ظهر في الدنيا ليكون رحمة وهاديا لا صحابه ويعتبرونه الإله الأكبر الأزلي وتنتشر هذه الفرقة في الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ويرى البوذيون أن الحافز الى العمل هي نتائج هذه الاعمال وان حوافزها هي نتائجها ومردوداتها على حياة الانسان .

ومن هذا المنطلق فإن الزهد والفكر السليم سلاحان قويان باستطاعتها أن يقفا في وجه الموجات الغرائزية والتحرر من نير الشهوات والفضيلة عند بوذا هي الغاية وقد جاء في نصوص (الدارما): الذين يفكرون بمنطق الفضيلة في كلّ غاياتهم ومقاصدهم يزدادون قوّة على قوّة في سلامة منطقهم فلا يتقيدون برباط دنيوي أو شهواني . كما جعل طريق الزهد والتقشف طريقاً محبباً يسلكه الحكماء بقصد الابتعاد عن الطرقات المظلمة والاتجاه صوب النور:

[213] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص 165.

ليستعد الرّجل الحكيم لترك طريق مظلم، وليدخل في كلّ صوب مضيء، وعندما يترك منزله ولا يجد له محلاً يبيت فيه يكون قد حبّب لنفسه طريق الزهد والتقشف.

أمواتهم: يقومون بتقطيع جثة الميت ويرمون هذه القطع على قمة الجبال حتى تأكلها الحيوانات الضارية والطيور الكاسرة ولا سيما النسور. وطريقتهم في التخلص من جثث الموتى يعتبرونها نوعاً من الكرم لأنهم يقدمون الطعام للحيوانات والطيور وبذلك يطيلون بقاء هذه الكائنات. وهنالك فئة أخرى تعتقد أن هذه المراسم ترسل الميت الى المناطق العليا المقدسة في السماء بواسطة النسور. في أوائل الخمسينات قامت السلطات الصينية بمنع هذه المراسم حيث اعتبرتها أعمال همجية ولكن في بداية الثمانينات سمحت بممارستها من جديد. لا يسمح للغرباء بالاطلاع على هذه المراسم والتصوير ممنوع في أغلب الحالات. في البداية تجتمع عائلة الميت ويقومون ببعض الشعائر الدينية . بعد الانتهاء من هذه الشعائر يتجهون الى قمة الجبل القريبة حاملين جثة الميت وعادة تكون الجثة كاملة ويتم تقطيعها على قمة الجبل بواسطة رجال متخصصون في تقطيع الموتى.

وما تجدر الإشارة إليه، هو أنه توجد طريقتان في التعامل مع جثث الموتى الطريقة الاولى هي القاء الجثة كاملة على قمة الجبل وهذه الطريقة فقط للناس البوذيون الفقراء الذين ليس لديهم امكانية دفع أجور تقطيع جثة الميت منهم. بينما الطريقة الثانية يتم من خلالها تقطيع الجثة الى قطع صغيرة وهذه الطريقة تعتبر مكلفة ويتقاضى عليها الرجل المكلف بالمهمة ما يعادل ثلاث رواتب شهرية بالنسبة لسكان التبت. تعتبر طريقة التقطيع مكلفة لأن المهمة ليست بسيطة وهنالك أدوات خاصة للتقطيع. يقول شهود العيان أن هؤلاء الرجال عند تقطعيهم للجثة لا يبدو عليهم التأثير بل قد تجدهم يضحكون ويتسامرون لأنهم يؤمنون أن هذه الجثة هي عبارة عن كومة لحم فقط لا قيمة لها بعد خروج الروح منها .

3) العبادات في الدّيانة الصّينيّة:
الحياة الدينية في الصين:

لم يقم المجتمع الصيني على العلم بل قام على خليط فذ عجيب من الدين والأخلاق و الفلسفة. ولم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصيني استمساكاً بالخرافات، أو أكثر منه تشككاً أو أعظم منه تُقى، أو أكثر انصياعاً لحكم العقل أو أقوى منه دنيوية. ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية في التحرر من سيطرة الكهنة، ولم يسعد قوم غير الهنود بآلهتهم أو يشقوا بها بمثل ما سعد بهم الصينيون أو شقوا. ولسنا نستطيع أن نفسر هذه المتناقضات إلا بأن نعزو لفلاسفة الصين نفوذاً لا نظير له في التاريخ ، وأن نقر بما في فقر الصين من معين للأماني الخالية لا ينضب. ولم يكن دين سكان الصين البدائيين يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة في جميع نواحيها، وإجلال شعري لما على الأرض من صور رهيبة وما فيها من قدرة عظيمة على الإنتاج والتوالد، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة

وأمطار خصبة كانوا يعدونها عنصراً من عناصر الوئام والارتباط بين ما على الأرض من حياة وما في السماء من قوى خفية، فكانوا يعبدون الريح والرعد والأشجار والجبال والأفاعي؛ ولكن أعظم أعيادهم كانت تقام لمعجزة النماء، وكان الشبان والفتيات في أيام الربيع يرقصون ويتضاجعون في الحقول ليضربوا المثل لأمهم الأرض في الإخصاب والإنتاج. ولم يكن ثمة فرق كبير بين الملك والكاهن في تلك الأيام، وكان ملوك الصين الأولون كما ورد في أقوال المؤرخين الذين أطنبوا فيما بعد في وصفهم كهاناً سياسيين لا يقدمون على عمل من أعمال البطولة إلا بعد أن يمهدوا له بالأدعية والصلوات ويستعينوا عليه الآلهة.

دين بلا إله:

كانت الأرض والسماء في هذا الدين البدائي مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ما تكون بصلة الرجل والمرأة وصلة السيد بالتابع واليانج بالين. وكان نظام السموات ومسلك الآدميين الخلقي عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران من نظام عالمي لا غنى عنه يسمى دو- أي الطريقة السماوية ؛ وليست الأخلاق الطيبة في اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الكل شأنها في هذا شأن القوانين التي تسير نجوم السماء.

وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقي ، هذا الترتيب القدسي ، الذي يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات الحقة بين الأطفال وآبائهم والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله. لقد كان هذا تفكيراً عجيباً ولكنه تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصي حين يصلي الشعب لتين- للسماء المعبودة- والتجريد حين يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى- الشديدة البعد عن قوة البشر فرادى أو مجتمعين- التي تسيطر على السموات والأرضين والأناسي. ولما تقدمت دراسة الفلسفة أضحت فكرة "السماء" الشيئية مقصورة على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيئية فأضحت عقيدة الطبقات المتعلمة ودين الدولة الرسمي.

ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما دين الصين القومي وهما: عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة وعبادة السماء وعظماء الرجال التي تدعو إليها الكنفوشية. وكان الصينيون يقربون في كل يوم قرباناً متواضعاً- ويكون في العادة شيئاً من الطعام- للموتى ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم في مملكة غير محددة أو واضحة له ، وأن في مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه.

وكان الصيني المتعلم يقرب لأسلافه مثل هذا القربان ، ولكنه لم يكن ينظر إلى المراسم التي تصحبه على أنها عبادة بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم. ولقد كان من الخير لأرواح الموتى وللشعب الصيني

بوجه عام أن يعظم هؤلاء الأموات ، وأن تخلد ذكراهم لأن في تخليدها تعظيماً للطرق القديمة التي كانوا يسيرون عليها وسداً لطريق البدع وإقرارا للسلام في أنحاء الإمبراطورية. وما من شك في أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التي لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية وفلح الأرض للزراعة ؛ ولكن هذه الصعاب كانت في نظر الفيلسوف الصيني صعاباً تافهة لا يقام لها وزن أمام ما تسديه عبادة الأسلاف إلى المدنية الصينية من استقرار سياسي واطراد روحي. ذلك أن هذا النظام المتغلغل في كيان الأمة الصينية قد أفضى عليها وحدة روحية زمانية رغم ما فيها من عوامل التفرق والانفصال التي تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة ، ومن فقرها في وسائل النقل وسبل الاتصال. وبفضل هذه الوحدة الروحية ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوي من وحدة التقاليد ، وبذلك كان للحياة الفردية نصيب مشرف موفور وخطر عظيم في هذه العظمة التي لا يحدها وقت وفي ذلك المجال الممتد على مدى الزمان.

الكونفوشية:

ومن عجب أن الدين الذي اعتنقه العلماء واتبعته الدولة قد وسع دائرة هذه العقائد الشعبية وضيق نطاقها في آن واحد ؛ ذلك أن إجلال الناس كنفوشيوس قد أخذ يعظم جيلاً بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مراسيم في المكانة الثانية بعد السماء نفسها. فكانت كل مدرسة تكرمه بوضع لوحة تذكارية وكل مدينة تكرمه ببناء هيكل فيها ، وكان كبار الموظفين يحرقون البخور أو يقربون القرابين من حين إلى حين تكريماً لروحه أو إحياء لذكراه ، ويعدون هذه الذكرى أعظم دافع لفعل الخير بين جميع ذكريات الشعب الصيني التي يخطئها الحصر. ولم تكن الطبقات الراقية المثقفة تعده إلهاً ، بل كان كثير من الصينيين يعدّونه بديلاً من الإله ؛ ولربما كان من بين من يحضرون الصلوات التي تقام تكريماً له لا أدريون أو كفرة ملحدون ، ولكنهم- إذا ما عظموه وعظموا أسلافهم- كانوا يعدون في المجتمع الذي يعيشون فيه أتقياء متدينين. وكان من الأصول المقررة في الديانة الكنفوشية الاعتراف بالشانج تي ، أي القوة العليا المسيطرة على العالم ، وكان الإمبراطور في كل عام يقرّب القربان باحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود المجرد. وقد خلا هذا الدين الرسمي من كل إشارة للخلود، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الله أو نظام العالم.

لكن هذا الدين البسيط الذي يكاد ينطبق على مقتضيات العقل لم يرض أهل الصين في وقت من الأوقات. ذلك بأن مبادئه لا تفسح المجال واسعاً أمام خيال الناس ولا تستجيب إلى آمالهم وأمانيهم ولا تشجع الخرافات التي تبعث البهجة في حياتهم اليومية. ولقد كان الناس في الصين كما كانوا في سائر بلاد العالم يجملون الحقائق الواقعية العادية بالخوارق الطبيعية الشعرية ، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم في الهواء المحيط بهم وفي الأرض التي تحت أقدامهم ، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى

الخفية أو يستعينوا بالأدعية وبالرقى السحرية. وكانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من سطور إلاي- جنج أو أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء والعرّافين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء الأمطار.

وكانوا يعرضون للموت من يولد لهم من الأطفال في أيام "النحس". وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيرة يقتلن أنفسهن في بعض الأحيان ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن.

العقائد في الكونفوشيوسية:

العقائد هي الجزء الأهم من الديانات العالمية، إذ تتجسّد فيها التعاليم التربوية والأخلاقية والروحية، وذلك من خلال الطقوس والشعائر والمراسيم المُختلفة. وتؤكد دائما أن الأدعية والصلوات والعبادات ليست كافية في حياة المؤمنين، إذ لابد من أعمال الرحمة والإحسان في الحياة اليومية، التي لولاها لما بقي الايمان حيّا. وكان الصينيون القدامى يعبدون الآلهة والطبيعة وظواهرها المختلفة، مع عبادة أرواح الأجداد والأسلاف. وتطوّرت العبادات الصينية في إضافة قوة الهية جديدة وموحدة اسمها السماء (تيان) والتي ترادف الكلمة (شانج تي). وبحسب هذا المفهوم، تحكم هذه القوة الآلهية الجديدة على الكون بقوة قدرية هي فوق قابلية الفهم البشري وحكمه وسيطرته. والسماء تعطي أوامرها لبعض الأفراد أو العوائل لحكم الآخرين بالعدالة والانصاف. وعندما يفشل هؤلاء في الحكم العادل فإنها تقيم أناسا آخرين وتجعلهم مسؤولين لحكم الناس وهكذا تستمر السماء بإعطاء بركتها بحسب المفهوم الكنفوشيوسي في العدالة السماوية على الأرض. فالعقيدة في الاساس تدعو الى السعادة والتفاؤل بعكس الطاوية والجاينية. ولهذا دعا كونفوشيوس في تعاليمه الى البحث عن الصداقة وإيجاد الاصدقاء الحقيقيين، لأن الانسان بحسب كونفوشيوس لايستطيع العيش وحده فلا بد إذا من أصدقاء يُعينوه في بناء البيت والعائلة والمملكة. إذ يجب ان يعيشوا معا لكي يتقاسموا الاعمال ويُشاركوا بالخبرات والافكار. وأما عن عقائده السياسية فهي في معظمها نصائح للحكومة، لأن الصلاح يبدأ من الرأس وينزل الى الاسفل للشعب الذي ينظر الى الحكومة كقدوة ومثال في الاخلاق والسلوك. ويتم كل ذلك بمشاركة المجتمع في تهذيب الذات والفكر والقلب حتى يعمّ الهدوء والسلام والسعادة .

وتوجد في الكنفوشيوسية ست مفاتيح أو طرق للسلوك الأخلاق اليومي في الحياة :

1ـ جن: وهي القاعدة الذهبية في التعامل الأنساني مع الآخر: (لا تفعل بالآخر ما لا تريد أن يفعل الآخر بك)، أو بمعنى آخر لا تفرض على الآخر ما تريده أو ترغبه نفسك. وتدل على فضيلة الصلاح والخير. وتعبّر عنها في الحياة بالأقرار بقيمة الآخر وبإحترامه من دون النظر الى درجته أو منصبه الأجتماعي.

2ـ شوون تزوو: يحكي عن الكرم والشهامة والشخصيّة الناضجة والبالغة. لأن التعاليم الكنفوشيوسية، توجه في معظمها نحو هذا النوع من التصرّف لتكوين الشخصيّة الأحسن والعائلة الصالحة والمجتمع النبيل. ويدل

المصطلح أيضا على فكرة الحياة الحقيقية للفرد في معناها الأصيل مع القيم السامية والنبيلة وذلك بتطبيق الفضائل الأنسانية الخمسة: إحترام الذات والكرم والإخلاص والمثابرة والصدقة. وكذلك العلاقات التي تجسّد من خلالها كل ذلك: أن يكون الإبن مخلصا دائما. وأن يكون الأب عادلا ورحيما، وأن يكون المسؤول صادقا وأمينا. وأن يكون الزوج تقيّا وعادلا. وأن يكون الصديق أمينا ومحتشما .

3ـ تشينج ـ مينج: تعني المحافظة على الألقاب وإحترام الكبار والتقاليد الواجب على كل شخص، مع لعب كل شخص دوره الصحيح. فعلى الملك أن يكون ملكا، والمعلم معلما والعامل عاملا. وعلى الابن أن يلعب دوره والأب أن يكمل واجبه الأبوي.

4ـ تي: تعني القوة، والقوة تحتاج الى الحكم، والحكم يحتاج بدوره الى استخدام الحكمة والشرائع الروحية القديمة.

5ـ لي: من المفاتيح التعليميّة المهمّة في الحياة ولها معان عديدة مثل: اللياقة والوقار والإحترام، والشعائر السلوكية الأخرى التي تدل على التصرّف الصحيح في الحياة.

6ـ وين: يدعو الى السلام والقيمة العالية. ويتضمن الموسيقى والشعر وكل انواع الفن .

وبحسب الكنفوشيوسية فإذا ما طبق الناس هذه المبادىء المثالية الصالحة للفرد والعائلة والمجتمع فإن العدالة والمحبة تسودان المجتمعات البشرية وتكون الدولة بخير والوطن في سلامة دائمة.

وهذه بعض الأفكار عن العقائد الكنفوشيوسية:

- ✓ تؤمن الكنفوشية ان كونفوشيوس، معلم حكيم فوّضته السماء لإرشاد الناس وهدايتهم والسعي لتحقيق العدالة السماوية على الأرض وبصورة واقعية قابلة للتحقيق وللابتعاد بقدر الامكان عن المثاليّات الميتافيزيقة (الماورائية).
- ✓ كل شخص بشري يحتاج الى الدين والى أخلاقياته وطقوسه ومراسيمه حتى وإن كان كونفوشيوسيا. لأنه في أثناء الموت، يبكي الأقرباء وبصوت عال لأعلام الجيران، إذ ينوحون ويضعون ملابسة خشنة. وبعد أن يغسلوا الجثة ويضعونها في الكفن، يستعمل الأقرباء البخور والأطعمة التي توضع عادة في الكفن مع الشخص الميّت. ويتبع أهل الميّت الجنازة الى المقبرة. ويستعملون طقوسا ومشاعرا خاصة بعد اليوم الأول والثالث السابع والتاسع، التاسع والأربعين من بعد الدفن .
- ✓ تؤمن الكونفوشيوسية بالمعتقدات القديمة وتحترمها احتراما كبيرا من دون أن تضيف اليها أو تلغي منها شيئا، وقد تبنتها الكنفوشيوسية من دون جدال أو نقاش. ولاسيّما العادات والتقاليد الموروثة على انها نابعة من الضمير الإنساني الذي لا يُمكن إلغاءه والاستهزاء به مع التقديس للعلم والامانة في نشره بين الناس.

- ✓ تؤمن الكنفوشيوسية الايمان القديم لآبائهم الصينيون الذين كانوا يعتقدون بوجود الاله الأعظم في السماء ويُقيمون له القرابين السنوية مع الاحتفالات الكبيرة. ويؤمن الكنفوشيوسيون بالآلهة الاخرى مثل الأرض والشمس والقمر والكواكب والظواهر الطبيعية الأخرى التي يعدّونها آلهة تستحق العبادة وتقديم القرابين. ويعبدون آبائهم وأجدادهم وأسلافهم ويُقدمون لهم القرابين لترضيتهم. ويؤمنون بالأرواح الخيّرة والشريرة .
- ✓ تدعو الكنفوشيوسية الى احترام الانسان والمجتمع والحياة والى إقامة نظام سياسي عادل على أساس العلم والايمان والأخلاق الحميدة بعيدا عن الفتن والأحقاد والحروب .
- ✓ تدعو الكنفوشيوسية في معظم تعاليمها الى قيام حكومات عادلة تحظى بالرضى والإحترام من قبل الشعب وعلى أن تكون حكومات تحاول جهدها في خدمة الشعب بالرغم من طبقاتهم وأفكارهم واتجاهاتهم الفكرية والروحية المُختلفة.
- ✓ تؤكد الكنفوشيوسية على المحبة والشعور بالمسؤولية والعمل الجماعي وتشجع التنشئة التربوية الجيّدة للأطفال من حب الوالدين وحب الطبيعة والسماء والعلم والوطن والحكومة .
- ✓ تؤمن الكنفوشيوسية ان الجزاء والثواب يكونان في هذه الدنيا، ان فعل الانسان خيرا فإنه خيرا يرى وإن فعل شرا فإنه شرا يرى. وتؤمن كذلك أن للخطيئة عقاب على الأرض وهي الأمراض والعواصف والزلازل والبراكين .
- ✓ تؤمن الكنفوشيوسية أن الأخلاق هي الأمر الأساسي الذي جاءت من أجله، من طاعة الصغار للكبار وطاعة الشعب للحكومة العادلة والاخلاص للعائلة والعمل والاصدقاء وعدم جرحهم مهما كان الثمن والابتعاد عن الكذب والدجل والزنى والفجور والمُحابات .
- ✓ تؤمن الكونفوشيوسية بالفوارق الطبقية وباحترام المُلكية الفردية مع السماح بالانتقال من طبقة الى اخرى بحسب الإمكانيات المادية والاجتماعية.
- ✓ تؤمن الكونفوشيوسية ان الحياة هي نتيجة لتقمص الأرواح السماوية مع العناصر الأرضية الخمسة والتي هي: المعدن - الخشب - الماء - النار – التراب.
- ✓ تؤمن الكونفوشيوسية الثنائية (الين يانغ) بالرقم خمسة في كل الأشياء الأساسية في الطبيعة. فالعناصر الطبيعية هي خمسة، والقرابين هي خمسة أنواع، والجهات في العالم هي خمسة جهات: (الشمال والجنوب والشرق والغرب والوسط). وللموسيقى خمسة مفاتيح وللقرابة الدموية، خمس درجات وهي: الابوّة ـ الامومة ـ الزوجة ـ البنوّة ـ الاخوّة.
- ✓ تؤمن الكونفوشيوسية بأن السلطة الحاكمة تستلم أمور الحكم من السماء وتؤكد الارادة السماوية على العدل والرحمة في الحكم. فعلى الحكومة أن تحقق المصالح الشرعية للناس جميعا .
- ✓ تتمحور العقيدة الكونفوشيوسية حول السلوك البشري اليومي والأخلاقيات العامة سواء في الفرد أو العائلة أو الحكم مع توفير الأسس الأولية للمبادىء التي تقوم عليها النظريات والمؤسسات السياسية.

- ✓ ترتكز العقيدة الكونفوشيوسية على كيفية إصلاح الفرد والمجتمع، لأنه في صلاح الفرد، صلاح العائلة والعشيرة ومن ثم الأمة بكاملها. وتقع المسؤولية في ذلك على الآباء والحكومة التي عليها ان تشجع العلم لجميع الناس. وعليها توزيع الثروات على الجميع بعدالة وان تعاملهم معاملة قانونية عادلة .
- ✓ تتشابه التعاليم الكونفوشيوسية والطاوية في كثير من الجوانب الاجتماعية والسياسية والكونية. وكثيرا ما تمتزج الديانتين الى درجة لا يُمكن فصلها أو التمييز بينهما، إذ نجد أناسا يتبعون الطريقتين معاً، ويُمارسون الطقوس والشرائع للديانتين من دون إشكال .
- ✓ ترتكز الأخلاقيات الكونفوشيوسية على المفاهيم المهمة الثلاثة: ذبائح الآلهة والمؤسسات السياسية والادارية والسلوك اليومي للبشر. وهي قضايا مستنبطة من خلال الخبرة الانسانية في الحياة. وهي تراقب كل الأفعال اليومية التي يرتكبها الانسان من جيدة ورديئة وهذا ما يُسمى (لي) والترجمة الأقرب لهذه الكلمة هي البرارة. وتمثل الفضائل الأخلاقية من الاخلاص تجاه الذات والآخرين (تشونج)، والفضائل الاخرى مثل الاستقامة واللياقة والتأدب والنزاهة والتقوى .
- ✓ الرسالة الأهم للكونفوشيوسية هي في ما يُسمى (الجن) والتي تترجم (الانسنة)، أو فعل (الخير). وكان التركيز الأكبر لكونفوشيوس هو في السلوك الحسن في الحياة .
- ✓ توارثت الكونفوشيوسية الديانة التقليدية الصينية في عبادة السماء (تيان) وعبادة الرب (تي) أو الرب الأعظم (شانج تي). وخدامه الآلهة الاخرى، والذين يُطيعون ارادته .

وجدير بالإشارة أن الناس جميعهم جيدون وطيبون في طبيعتهم بحسب فلسفة كونفوشيوس، والمناهج الأخلاقية مثل الرحمة وفعل الخير والسلوك الحسن ومحبة الآخر واللياقة والاحتشام، هي مناهج موجودة في دواخلنا تظهر فينا في فترة من الفترات ولا نحتاج الى الخلاص الذي يأتينا من نبي أو رسول فنحن مخلصون من طبيعتنا. وتعدّ طريقة كونفوشيوس بسيطة في التعبير عن ارادة الله أو الآلهة: "إذا أردت أن تفرح الآلهة، فعليك أن تقوم بأفعال حسنة مع عائلتك وجيرانك ومجتمعك". وببساطة شديدة إذا كنت جيدا فالآلهة سوف تحبك.

العبادة في الكونفوشيوسية:

بدأ أتباع كونفوشيوس بتصميم المعابد الخاصة للعبادة بأمر من الأمبراطور في كل المُدن الرئيسية في الإمبراطورية. وبقيت بعض هذه المعابد كنزا ثمينا للإنسانية تفتخر بها الصين وأتباع الكونفوشيوسية. ولا تزال بعضها تحكي عن الايمان الكونفوشيوسي والفكر الانساني والأخلاقي لمؤسسها قبل 2500 سنة. ومن هذه المعابد، معبد كونفوشيوس الذي يقع في قلب مدينة تشيويفو، بجوار القصر الإمبراطوري ببكين مع القصر والمصيّف الامبراطوري. وتشكل هذه المباني الثلاث(المجموعات الكبرى للبنايات الصينية القديمة).

ويعود بناء هذا المعبد الكونفوشيوسي الى القرن الخامس قبل الميلاد، أو بالأحرى الى السنة التالية من وفاة كونفوشيوس، أي في عام 478 قبل الميلاد. إذ كان الأباطرة في مختلف العصور يقدمون الولاء والطاعة لكونفوشيوس فيه. وكان البناء صغير الحجم متكونا من ثلاث غرف فقط عندما بنيّ في السنة الاولى .

وجدير بالذكر ان الأباطرة من كل المناطق الصينية كانوا يأتون اليه لتقديم القرابين والولاء له ولفلسفته السياسية والأخلاقية، ومنهم الامبراطور (تشيان لونغ) من أسرة تشينغ (1644–1911) ميلادية، والذي كان يحج اليه كل سنة وقد ساهم في توسيعه وترميمه .

وأجريت كذلك الترميمات وعمليات التوسيع للمعبد في عهد أسرتي مينغ وتشينغ (1368-1644) ميلادية. ويُعدّ المعبد المفخرة التاريخية والأثرية للصين وللديانة الكنفوشيوسية، إذ يتكون من 466 غرفة، منها القاعة الكبيرة والقاعة الصغيرة والمقصورة والمذبح للقرابين مع 54 قوسا للنصر. ويغطي المعبد مع قصوره، مساحة 218 الف متر مربع.

لاتختلف العبادة في الكنفوشيوسية عن التقاليد الصينية القديمة، من عبادة السماء وتقديسها، مع عبادة الأسلاف. وكانت تقديم القرابين من أهم العبادات وتتضمن الاحتفالات السنوية الضخمة والتي كانت تقام بأمر من الامبراطور لتمجيد السماء والارادة الآلهية فيها والتي ترعى الكون وكل ما فيه.

تتكون العقيدة الكنفوشيوسية من المفاهيم الفكرية والايمانية الصينية التقليدية نفسها من دون تغيير كبير. فهي تؤمن مثل الصينيين القدامى بالقوة الخارقة في الكون التي تسيّر المخلوقات ويُسمونها السماء ويُقيمون لها المذابح لتقديم القرابين، ويُقيمون كذلك المذابح والمعابد الخاصة لتخليد الأسلاف وأرباب العوائل. إذ كان لكل عائلة في الصين معبدها الخاص تقام فيه الطقوس والعبادات العائلية في أوقات مُعيّنة ويُقيمها عادة رأس العائلة أو الأكبر سناً .

تربط الكنفوشيوسية في تعاليمها بين السماء والشعب والحاكم. فالسماء تولي السلطة للحاكم، والحاكم يُكمل إرادة السماء في تحقيق العدالة للجميع من خلال الحكم من دون ظلم وإستبداد. وهو يؤمن بأن الحكومة إنما أنشئت لخدمة الشعب وليس العكس، وعلى الشعب بالمقابل أن يحترم الحكومة وعليه طاعته.

تمارس الكنفوشيوسية القاعدة الذهبية التي هي جوهر العقيدة والديانة: "أحب لغيرك ما تحبه لنفسك، أو بمعنى آخر، لا تفعل بالناس ما لا تريد الناس أن يفعلوا بك". وتنطبق هذه القاعدة على الحكومات والمجتمعات كما تنطبق على الفرد من معاملة الغير بإحترام وتقدير وبالتعاون معه أو معها في بناء المجتمع.

الرموز الكنفوشيوسية:

إن من أهم الرموز في الثقافة والتراث الصيني العريق وفي الديانة الكنفوشيوسية العظيمة مجموعة من الخطوط المتشابكة والمعقدة. ويُعبر هذا التركيب من الخطوط عن السماء، وهي رمز القوة الخلاقة، الليّنة، الحليمة، والتي تخصب الأرض بالمطر والثلج، والأرض من تحتها كرمز سلبي ومقر للبيوسة. ونجد رموزا اخرى في الشكل بالاضافة الى الارض والسماء، وهي النار والماء وهما الرمزان الضدان، إذ نجد في النار عنصرا ذكريا أرضيا وفي الماء عنصرا انثويا سماويا أو هبة من السماء للأرض .

وتكمن في الشكل كذلك أعظم الفضائل للأحياء والأموات التي ترمز الى الماء والصفاء والحياة والطهارة والعدالة والعلاقات الانسانية والعلاقة تجاه الآخرين التي تجسدها القاعدة الذهبية التي كان كونفوشيوس يرددها دائما:"لا تفعله بالاخرين، ما لاتشتهيه لنفسك".

4) العبادات في الدّيانة الفارسيَّة القديمة (الزّرادشتيَّة):

في معنى الزرادشتية Le zoroastrisme:

الزرادشتية ديانة قديمة، من أقدم الديانات التوحيدية المعروفة في العالم، تأسست منذ أكثر من 3000 سنة في ما يعرف اليوم بدولة إيران على تعاليم زرادشت يعتقد معتنقوها بوجود إله واحد أزلي هو أهورامزدا بمعنى "الإله الحكيم" وهو خالق الكون ويمثل الخير ولا يأتي منه الشر أبدا، يعتقد الزرادشتيين أن زرادشت نبي الله إضافة إلى ذلك هناك عدة مساعدين للإله أهورامزدا وعددهم ستة مساعدين، ويعرفون بأميشا سبنتاس بمعنى "الخالدين المقدسين"، هذه الديانة لم تنقرض بل لا تزال موجودة بأقليات صغيرة.[214]

أسس هذه الديانة زرادشت[215] الذي بشّر بالقوة الشافية للعمل الصالح والقوة الخيرة، النار والشمس هما رمزا المجوسية، ولذلك فإن النار مقدسة لكونها تمثيل عن نور أو حكمة أهورامزدا ويحرص الزرادشتيون على ألا تنطفئ في معابدهم، وهو ما جعل أصحاب الكثير من الديانات الأخرى يفسرونه على أن الزردشتيين يعبدون النار.[216]

الأبستاق[217] هو مختارات من الكتاب المقدس للزرادشتية ولا تزال باقية إلى الآن. كتبت هذه المختارات بلغة الأبستاق، وهي لغة وثيقة الصلة بالفارسية القديمة والسنسكريتية الفيدية. جمع هذا الكتاب بعد وفاة زرداشت بزمن طويل، وتعرض للضياع عدة مرات، ويشمل خمس قصائد قديمة وتتحدث عن مناطق تقع تاريخياً غرب مدينة طهران حالياً بينما الزرادشتية كانت في مناطق العراق وشرق فارس أي شرق مدينة طهران.218

---

214 الشفيع الماحي أحمد: زرادشت والزرادشتية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية- دورية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي-جامعة الكويت، الحولية 21، الرسالة 160، سنة 1422 هـ-2001م، ص ص 14-18.

215 زرادشت (بالأفستية: ZARAΘUŠTRA) هو فيلسوف آسيوي إيراني ومؤسس الديانة الزرادشتية، وقد عاش في مناطق أذربيجان وكردستان وإيران الحالية، وظلت تعاليمه وديانته هي المنتشرة في مناطق واسعة من وسط آسيا إلى موطنه الأصلي إيران حتى ظهور الإسلام. وُلد زرادشت في مدينة أذربيجان الإيرانية في غرب آسيا، وكان اسم والده "بوروزهازيو" ووالدته "دوغدما" وهما من قبيلة "سبيتاما"، وحسب الكتابات الزرادشتية التي تتحدث عن معجزة ميلاد زرادشت، فإن والد زرادشت كان يرعي في الحقل ثم ظهر له شبحان وأعطاه غصنًا من نبات الهوما المقدس وأمراه أن يقدمه لزوجته، فقام بمزج الغصن مع النبات وشربه هو وزوجته، فحملت زوجته بعد شهور وحلُمت بسحابة سوداء أحاطت بيتها وانتزعت طفلها من رحمها وأرادت قتله، ثم صرخت الأم وجاء شعاع من السماء مزق السحابة فاختفت، وظهر من الشعاع شاب يشع بالنور وأعاد الطفل إلى أمه ونبأها بأنه سيكون نبي، وحينما ولد الطفل لم يبكِ مثل الأطفال بل ضحك بصوت عال اهتز له البيت الذي كان مليئًا بالنور الإلهي وهربت الأرواح الشريرة.

216 المرجع نفسه، ص ص 18-21.

217 **الابستاق** (الافيستا/AVESTA) هو كتاب الرسول زردشت الذي يعد الكتاب المقدس لدى اتباع الديانة الزردشتية.[1] وكلمة "الافيستا" باللغات القديمة تعني (الأساس والبناء القوي)، والأبستاق مكتوب باللغة الافستية ذات صلات قوية باللغة السنسكريتية الهندية القديمة، ويقول المؤرخون أن (الافيستا) المقدسة كتب على 12000 قطعة من جلود البقر اتلفت أغلبها نتيجة لمرور تلك القرون من الزمن وبقيت 38000 ألف كلمة منها، وتقول بعض الروايات انها كانت حوالي 345،700 كلمة اي اربعة أضعاف، وكانت من واحد وعشرين جزءاً وخمسة اقسام:

يسنا: وتعني نوع أو شكل وهي على شكل (اناشيد أو تراتيل) وهي ادعية ومعلومات حول الدين وهي أشهر أقسامه وينسب إلى الرسل زرادشتوهو 72 يسنا هات وكل يسنا يشمل مجموعة ادعية.

ويسبرد: يضم مجموعة من ملحقات اليسناوهي أكثر من 23 كَرده

وديداد: (يصف الاشكال المختلفة للارواح الشريرة) وهي حول الحلال والحرام، والطاهر والنجس، فيها كثير من القوانين الدينية. ومعنها القوانين الضد الاباليسة.

يشتها: وتعني الاناشيد والتسابيح وكل يشت باسم أحد الاجسام النورانية.

افيستاي: بجوك(خردة افيستا) وهي الصلوات اليومية وتضم تراتيل في بيان عظمة الاله. (موسوعة ويكيبيديا).

218 أنظر: عبد القادر حامد، زرادشت الحكيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص ص 91-92.

أنظر أيضا: الكوراني علي سيدو، زرادشت والزرادشتية، مطبعة المجمع العلمي الكردي، بغداد-العراق، سنة 1975، ص 592.

يرجح أنَّ جوهر الديانة الزرادشتية كان مختلفًا قليلاً عن جوهرها المعروف بدليل أن الأجزاء الأولى من الافستا، كتاب الزرادشتية المقدس، لم تشر إلى العبادة الثنائية. ومن المحتمل أنَّ هذه الديانة القديمة تشابه ديانة الهندوس، أي تؤمن بتعدد الآلهة، لكن حصل تطور هام خلال الفترة الميدية يمكن أن يعزى لتأثر مجدد هذه الديانة بالديانة العراقية، لاسيما ثنائية (النظام/الفوضى) التي تناظر ثنائية (الخير/الشر) الزرادشتية، ومن المحتمل أيضًا، بحسب ترجيحي، أن اسم إله الخير أهوار مزدا[219] مأخوذ من عبارة إله مردوخ[220] - انظر التشابه بين العبارتين - حيث واكب هذا التأثر تعرض الديانة الرافدينية لخطر الإلغاء أو التحجيم من خلال مشروع الملك البابلي الأخير نابو نائيد[221] الذي أراد تبني عبادة جديدة هي عبادة الإله سين لكي يتقرب بها من الجزريين الذين يمثلون غالبية سكان الإمبراطورية البابلية آنذاك، لكن عمله هذا أغضب، على ما يبدو، كهنة مردوخ ما جعلهم يستعينون عليه بالملك كورش، ملك فارس، الذي ضمَّ بابل إلى مملكته وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين حاملين معهم ديانتهم المرفدنة (المعاد تدوينها على وفق التراث الرافديني). وبتأثير الزرادشتية واليهودية، أو ربما بقايا الديانة الكشية القديمة التي افترضنا أنها تمثل النسخة الأقدم من اليهودية، ظهرت ديانة الصابئة خلال هذه الفترة أو بعد ذلك بقليل، وربما أخذ هؤلاء معتقداتهم من الديانات الرافدينية واليهودية والزرادشتية، بما في ذلك طقس التعميد ومفهوم الكتاب المقدس. وبعد أن هاجر عدد كبير منهم إلى الغرب تكون، من احتكاكهم باليهود هناك، دين جديد هو الدين المسيحي الذي حوى مفاهيم وقصص من عدة ديانات، بل هناك من عدَّ المسيح أحد أتباع دين الصابئة الذي كون جماعته الخاصة بعد ذلك. وربما هاجر بعضهم (أي الصابئة) إلى مكة والمدينة من أجل التجارة، أو ربما برفقة الملك نابو نائيد الذي توغل في هذه الأنحاء لأسباب مجهولة ربما لها علاقة بمشروعه الديني أو بضغط الأقوام الفارسية الناشطة آنذاك

---

219 **هورا مَزدا** هو الإله الأوحد الذي يمثل الخير عند الزراداشتيين والذي يخالفه دائماً إله الشر أهريمان. أهورا مزدا هو عندهم إله النور والخير ويتحلى بصفات النور والعقل والطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والخلود. وأما أهرامان فهو مسبب الجرائم والخطايا والشرور ومصائب الحياة ويتحلى بصفات الشيطان كلها ويتحدث أتباع زرادشت عن القيامة ونهاية العالم في العهد الأخير من صراع أهورا مزدا ضد أهرامان، إذ تشكل ولادة زرادشت بداية حقبة عالمية مدتها ثلاثة أنبياء ينشرون تعاليمه في أنحاء العالم، يأتي يوم الحساب وتقوم مملكة أهورامزدا ويهلك أهرامان وقوى الشر جميعا هلاكا لا قيام بعده. عندها تبدأ الأرواح الطيبة حياة جديدة خالية من الشور والظلمات والآلام، فيبعث الموتى وتعود الحياة إلى الأجسام ويخلو العالم أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال.(موسوعة ويكيبيديا).

220 **مردوخ** (مرْدُوك أو " نمرود " باللغة العربية)، كان كبير آلهة قدماء البابليين، وكان أساسًا إلهًا لمدينة بابل. ولما كانت بابل أهم وأقوى مدينة في العصور القديمة، فقد أصبح مرْدُوك أهم إله في هذه الحقبة، وقد سمَّاه أصحاب السِّيادة المولى الأعظم، مولى السماء والأرض، وزعموا أن قوته كانت تكمن في حكمته التي كان يستخدمها لمساعدة النَّاس الأخيار على معاقبة النَّاس الأشرار.

للتوسع أنظر: علي بشير، دور ومكانة الإله نابو في حضارة بلاد الرافدين، جامعة بغداد، 2014 .

221

نابونيدوس يصلي إلى اله القمر (سين)، SUN AND VENUS

نَبو نيد بالبابلية المتأخرة (نَبو- نا- يد NABÛ-NĀ'ID) ملك بلاد بابل تزوج من ابنة نبوخذنصر وهي نكتوريس NICTORIS من ما اهله إلى حكم الامبراطورية البابلية.وربما لها علاقة بعائلة أشورية غير العائلة الكلدانية. أخذ الحكم من لبشي مردوخ الذي أزيح عن الحكم لصغر سنه (ربما أغتيل).

كان أحد ملوك بابل استلم العرش في عام 556ق.م وتنحى عن العرش سنة 539ق.م، كان أكثر عهده معتكفا بمدينة تيماء(مركز عبادة إله القمر سين)وترك ابنه بلشاصر ملكا لبابل وكان له اهتمام بالدين في دولته. ولذلك سبب له كهنة مردوخ بعض المشاكل. بدا غزو الفرس بالتحالف مع الليديين بقيادة قورش وكانت نهاية الدولة البابلية بإزاحته عن الحكم.

أنظر: جان بوتيرو : بلاد الرافدين الكتابة – العقل –الآلهة، ترجمة الأب البير أبونا، مراجعة وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، سنة 1990.

حيث تشير بعض الآراء إلى احتمال أن يكون (آل قصي) منهم أو ربما من اليهود المتعربين، وأنَّ الكعبة هو معبدهم بدليل إطلاق مشركي قريش لفظة (صبا) على من يدخل في الدين الإسلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا بل وجدنا تشابهًا بين المندى الصابئي ودار الندوة القرشي وإن اختلفت الوظيفة، كذلك قدَّس القرشيون الماء كما فعل المندائيون في العراق بدليل تقديسهم لبئر زمزم آخذين بالاعتبار احتمال أن يكون تقديسهم للماء نابع من شحه في الجزيرة العربية، فيما تطرح المصادر محاججة مشركي مكة الرسول بأفكار ذات صلة بالفكر الرافديني مثل قولهم (من يحيي العظام وهي رميم؟)، أو (بعد أن نموت ونصبح عظامًا إنا لمبعوثون)، وهو أمر ربما يدل على صلة عرقية أو ثقافية. ومن الدلائل أيضًا وجود إرث توحيدي لدى (آل قصي) على ما تشير بعض الروايات وهو إرث يكاد يتناقض مع البيئة الوثنية المحيطة هذا إنْ لم يكن ذلك الإرث من اختلاق الرواة والمؤرخين في العصور التالية. أما أبرز تأثير للزرادشتية فقد تمثل بظهور طبقة السادة الذين يمثلون الأفراد المنحدرين من أصل ديني زرادشتي، إضافة إلى موروثنا ومتخيلنا عن الشيطان والثنائية، ومن المحتمل كذلك أن تكون الدروشة وفكرة المنقذ والتصوف التي يزخر بها عقلنا الديني من أصل زرادشتي أو هندو أوربي.[222]

عقائد الزرادشتية:

بدأت الزرادشتية ديانة عالمية تبشيرية، إذ كانت تحاول أن تخاطب الآخر بطريقة حوارية منطقية جميلة. وكان زرادشت يُدرّب المبشرين لكي يُرسلهم الى العالم الخارجي لإقناع الملوك والقبائل والأشخاص لغرض نشر عقيدته. وكان المبشرين يُعلنون للناس قائلين:"إسمعوا بشكل جيّد وفكروا بعقل نيّر كل واحد منكم من الرجال والنساء، ثم قرروا لأنفسكم."

وكانت الزرادشتية تسلك المسلك المثالي في إقناع الناس منطقيّا وتمارس الحرية في إعتناق الدين من دون جبر ولا إكراه. ولم تدعوا ابدا الى عبادة النار، كما هو شائع عنها، ولم تتخذ من النار إلها، ولكنها رأت فيه رمزا لقوّة الله الذي لا يمكن أن يراه أحدا.[223] وكانت تصرّ على الإحتفاظ بشعلة النار الموقدة منذ أيام نبيّها. وتحاول ابقاء نارها مشتعلة كصورة حيّة من صور الله الواحد الأحد. وتدور مفاهيمها العقائدية حول مفهوم الوحدانية بالصيغة الثنوية(الثنائية). وتحاول أن تؤكد بأن الثنوية في الله، لا تلغي وحدانيته، ولأن مفهوم الثنوية الزرادشتي لا يقف في تعارض مع وحدانية الله، بل يقدم أكثر التفسيرات منطقية لوجود الشرّ في العالم.

وكانت تعدّ العقائد الأخلاقية الزرادشتية من أجمل وأنضج التعاليم في ذلك الوقت والتي كانت تدور حول المجتمع والعدالة الاجتماعية ومساعدة الآخر وتقديم النُصح والمشورة وعدم مقاومة الشر بالشر والدعوة الى السلم

222 باسم محمد حبيب، قراءة في العقل الديني العراقي، موقع معابر على الرابط: HTTP://WWW.MAABER.ORG/ISSUE_MARCH10/LOOKOUT3.HTM

223 عبد الرزاق رحيم، صلال الموحي: العبادات في الديانات القديمة، ص53.

والرحمة بين الناس. وكان شعارها منذ اليوم الأول من نشوءها: الفكر الحسن، والقول الصالح، والفعل الخيّر. ولايُمكن أن يعرف المرء ما هو جيّد إلا من خلال العوّن الإلهي والالهام الروحي في الضمير(بحسب تعاليم آفستا). فالأفكار الجيّدة تؤدي بالمرء الى استعمال الكلمات الحسنة، وهذه تؤدي به الى الأفعال الجيدة والخيّرة والحسنة. ويعتبر زرادوشت هذه المبادىء الثلاثة تجديدا للعقائد القديمة وتحسينها على أحسن ما يكون بعيدا عن عبادات الأصنام والتماثيل التي تقرّب الإنسان من الشرك والشر والخطيئة .[224]

وهناك ايضا أصول دينية لابد منها وهي مثل الأركان الستة للإيمان الزرادشتي: 1ـ التوحيد. 2 ـ الإيمان بنبوة زرادشت. 3 ـ العمل الحسن والقول الجيّد والنية الصالحة. 4 ـ الروح. 5 ـ الثواب والعقاب. 6ـ المعاد والقيامة .وهذه بعض العقائد المهّمة للزرادشتية:[225]

- ✓ تفرض الزرادشتية على أتباعها شهادة الايمان أو عهد الايمان كما جاء في الآفيستا:"أقرّ أني عبد الأله الواحد" أهورامزدا"، وأني أعتنق دين زرادشت، وبالكفر بالشيطان. وأقرّ أني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيّب والعمل الصالح". وتعلم الزرادشتية في كتابها المقدس بأن زرادشت هو نبيّ أرسله الإله (أهورامزدا) بشيراً بالخير وهادياً ونذيراً، وبأنه نبيّ آخر الزمان، وهو يقول: "أيها الناس، إنني رسول الله إليكم، لهدايتكم، بعثني الإله في آخر الزمان، أراد أن يُرسلني اليكم لأبشركم بالخير والحق والرحمة، بشيراً ونذيراً، ولهذا يدفعني الله في حماسة إلى تأدية الرسالة والتضحية من أجلها."

- ✓ تدعو الزرادشتية الى عبادة الله الواحد، الخالق الأعظم (أهورامزدا)، الذي هو الخير المطلق والحكيم المُدّبر، خالق كل شيء جميل وحسن في الكون. وتدعو كذلك الى الابتعاد عن خالق الشر(أهريمان)، المسؤول الأول عن الشرّ والظلمة في العالم والذي تحيط به القوى الخبيثة والشريرة. فالعالم إذا تحكمه قوّتان، القوة الأولى التي تتحكم بالخير ولا تستطيع فعل الشر اسمها أهورامزدا. وتتحكم هذه القوة بالنور وكل الأفعال الخيّرة، وتدرك المستقبل، وتتوقع الغلبة على قوى الشر. والقوة الثانية، التي لا تستطيع فعل الخير وتتحكم في الظلمة، ولا علم لها بالماضي ولا بالمستقبل وهي القوة الشريرة .

- ✓ تعتقد الزرادشتية، أنه على الانسان أن يتبع الخير وأن يكثر من الأعمال الصالحة، النابعة من الأفكار الجيّدة والأقوال الحسنة وذلك في ممارسة الصدق الذي هو السبيل الوحيد في التقرّب من الإله الواحد الحق. وبالطهارة في الأعمال والأفكار والتراحم بين الناس والمجتمعات بل حتى مع الحيوانات.. وتؤكد على الابتعاد عن الشر وعدم الأخذ بالثأر وتمنع السلب والنهب والتخريب والتدمير.

224 عبد الرزاق رحيم، صلال الموحي: العبادات في الديانات القديمة، ص 55.
225 فراس السواح: الرحمان والشيطان، ص 91.

- ✓ تعتقد الزرادشتية بالجهاد المعنوي والحرب الروحية وتدعو الى السلم والمحبة ومبدأ التراحم ونبذ الحرب وعدم ازهاق الأرواح البريئة جراء الجشع والطمع .

- ✓ تعتقد الزرادشتية، بأن الله(أهورا مازدا)، خلق الإنسان وسلمه المسؤولية شريطة أن يتبع القواعد الأخلاقية. وبأنه يُعاقب بعد موته على كل التجاوزات والخطايا التي يرتكبها في حياته: فإذا كانت أعماله وأفكاره وأقواله حسنة وخيّرة، فإنه يستحق الانتقال الى الجنة في السماء حيث السعادة الأبدية، وأما إذا كانت أفكاره شريرة وهو غارق في الشرور والخطايا والمظالم المختلفة فإنه يذهب الى الجحيم حيث العذاب الأبدي، وهذا ما يُسمى بيوم الدينونة الفوري بعد الموت مباشرة. وأما يوم الدينونة العام، فيكون عند نهاية النظام الحالي الذي يعيشه الإنسان في الكون، حيث يخضع كل فرد الى المحاكمة الفورية الأخيرة على أعماله .

- ✓ تؤمن الزرادشتية أن روح الميّت تجلس فوق رأسه ثلاثة أيام وهي تفكر في أفعالها السابقة لتزن خيرها وشرها الى أن تحضر الملائكة عند الروح فإذا كانت صالحة فهي تقودها الى النعيم وإذا كانت شريرة فتحضر الشياطين عندها لتقودها الى العقاب.

- ✓ تؤمن الزرادشتية بوجود ثلاث منازل للإنسان في الآخرة وهي الجنة: منزل السعداء الخيّرون الذين أطاعوا أهورامزدا وعملوا بالفكر الطيب والقول الجيد والعمل الحسن وتسمى بالفارسية(بهشت). والثانية هي النار: منزل الأشقياء الذين وقعوا في شرك أهريمان وشباك شياطينه. والثالثة هي (هامستكان): المكان بين الجنة والجحيم وهي بمثابة المطهر الذي تكفر فيه النفس عن خطاياها وذنوبها السابقة .

- ✓ تؤمن الزرادشتية بأن العلاقة بين الله والانسان هي علاقة أخلاقية بالدرجة الاولى وبأن الانسان هو شريك لله في المشروع الكوني الرامي الى مكافحة الشرّ واستعادة الحياة النظيفة والحسنة المليئة نورا وبهاءً وتقع هذه المسؤولية بالدرجة الاولى على عاتق الانسان.

- ✓ تعتقد الزرادشتية ان النار هي رمز من رموز قوّة الله (أهورامزدا)، ولهذا يجب تقديسها وإبقاءها مشتعلة وليس عبادتها كما يفعل بعض الزرادشتيون .

- ✓ تشجع الزرادشتية على تقويّة الأواصر الأسرية وتحاول أن تؤكد على الرباط العائلي عن طريق الزواج الذي يتقدس بوجود المرأة الصالحة والأولاد السعداء الصالحين وكذلك بوجود عدد كبير من الماشية الذي هو رمز البركة الإلهية.

- ✓ تؤمن الزرادشتية بأن زرادشت هو خاتم الانبياء وهو رسول آخر الزمان، لا تزال بذرته الخصبة حيّة في البحيرة المقدسة، وإذا ما حان الوقت ونزلت عذراء طاهرة الى البحيرة للإغتسال فتتعلق البذرة الخصبة بها وتحمل المخلص، الذي سوف يولد ميلادا إعجازيا، ويكون إنسانا حقيقيا كاملا، يأتي ليُخلص البشر من الشرّ والخطيئة .

- ✓ تعتقد الزرادشتية بالوضوء قبل الصلوات الفرضية الخمسة كل يوم سواء بإستعمال الماء أو الرمل في حالة عدم وجود الماء. وذلك بغسل الوجه والأيدي قبل الصلوات الطقسيّة لتنقية الجسّد والتطهّر قبل التقرّب من أهورامزدا.

- ✓ تؤمن الزرادشتية بالفضائل التي يجب على كل زرادشتي أن يلتزم بها في تعامله اليومي مع الآخرين ومن هذه الفضائل: التقوى والشرف والأمانة والفضائل الاخرى التي تنبثق منها وهي الكذب والوفاء بالعهد وحفظ كلمة الشرف واجتناب الاحتكاك بالموتى .

- ✓ تسمح الزرادشتية بالجهاد وتمجّده في سبيل نشر الإيمان والدفاع عن الوطن والجماعة. ولم تستعمل الزرادشتية القوّة في نشر الدين عمليّا، إلا مرة واحدة. إلا أنها تدعو الى الحرب ضد الشرّ وقواه المختلفة التي يدعونها القوة الخبيثة .

- ✓ تحترم الزرادشتية الأعراق والأجناس والأديان وكل الكائنات الحيّة، وتدين الظلم والذين يرتكبون الآثام والتجاوزات على حقوق الآخرين.

- ✓ تؤمن الزرادشتية بالطبيعة وتحترمها ولذلك نجد أن الإحتفالات الدينية تحدّد على هذه الأسس الطبيعية للتغيرات المناخية مثل عيد رأس السنة الذي يقع في بداية الربيع وعيد الماء الذي يقع في الصيف وعيد النار في وسط الشتاء .

كانت هذه بعض العقائد المهمّة للديانة الزرادشتية التي غايتها الأولى والأخيرة: خلق مجتمع عادل ومتسامح وبعيد عن الشر. وتختصر الأخلاقيات الزرادشتية في ستة وصايا تقوم عليها الديانة وهي: 1 ـ طهارة الفكر والكلمة والعمل. 2 ـ النظافة والإبتعاد عن النجاسات. 3 ـ ممارسة الرحمة والإحسانات المختلفة. 4 ـ الرفق بالحيوانات النافعة والأليفة. 5 ـ القيام بالأفعال الخيّرة والنافعة. 6 ـ نشر التعليم بين الناس من دون تمييز .

تعاني الزرادشتية اليوم من مشكلة تناقص عدد أتباعها لأنها لا تقبل الإهتداءات الجديدة ولا الزواجات المختلطة. وعلى المُنتمي إليها أن يكون من الجنس الفارسي. فلكي تكون زردشتيا جيّدا فيجب أن تكون فارسيا

جيدا. ولا يمكن ايضا الزواج من خارج الديانة بالنسبة للجنسين. وهذا يدعو الى الأسف الشديد لديانة عالمية تبشيرية في أساسها وعقيدتها ونشوئها تتحول في مرور الزمن الى ديانة قوميّة عنصرية مما أثر على تعاليمها وفقدان سحرها ووهجها الروحي العظيم. ولكن الزرادوشتية لا تزال تملك الفرصة في إحياء عقائدها ومناهجها والخروج من انطوائها وتقوقعها.

الصلاة في الزرادشتية:

تبدو فكرة الصلاة في الزرادشتية مُعقدة وغامضة نوعا ما، لأن النبي زرادشت نفسه لم ينوه عنها يوما في تعاليمه ولم يُعطي التوجيهات اللازمة الى ذلك، بالرغم من خلفيته الكهنوتية المعروفة بالتأمل العميق وقضاء الساعات الطويلة في العبادة .

وعلى أية حال، فإن الصلاة تنقسم الى الخاصة والعامة، ولكل منها طقوسها ومراسيمها كما هو في الديانات الأخرى. ويُتوقع من كل زرادوشتي أن يُردّد هذه الصلوات التي تسمى(كوستي)، خمس مرات في اليوم وذلك بعد الوضوء قبل كل منها. والواجبات الطقسيّة، هي نفسها للرجال والنساء من دون تفرقة. وهناك ايضا طقوس وصلوات تقام في المناسبات المختلفة في الهياكل والمعابد، مثل: الولادة والزواج والموت. بالاضافة الى ترانيم مأخوذة من آفيستا، وعلى جميع المؤمنين حفضها وترديدها. ويُقال أنها من وضع وتأليف زرادشت نفسه إلا أنه لا يوجد دليل قويّ يُثبت ذلك .[226]

ويُصلي الزرادشتيون مُتجهين نحو الشمس حيث يستديرون نحوها وينحنون ثلاث مرات بإتجاهها أثناء الشروق والغروب لأنها بالنسبة لهم، روح الله القدوس وصورة تطهيرية لوجوده الحقيقي. وأما ليلا فإنهم يتجهون نحو النار لكونها قبس من نوره الالهي. وتقام الصلوات عند الفجر والظهيرة والعصر والمغرب ومنتصف الليل. وأهمها في وقت الظهيرة (منتصف النهار) حيث تكون الشمس في ذروّة سيطرتها على العالم. وتسبق كل صلاة عادة عملية الوضوء والتي تتم بغسل الوجه واليدين والقدمين. ويقف بعد ذلك المصلي منتصباً مسبل الذراعين في حضرة أهورا مزدا، ويتلو مقاطع خاصة من أناشيد (الغاثا) التي كان زرادشت يتلوها.

ومن الصلوات اليومية التي يُردّدها الزرادشتيين: «لنكن مع كل الذين يجعلون هذه الحياة جديدة. أنتم يا أرباب الحكمة، الذين يجلبون السعادة من خلال التقوى والبرارة، تعالوا، لنتوحد في الفكر والروح ولنهذب أنفسنا في الحياة». وهي دعوة لنشر السلام والمحبة بين الشعوب والأديان والثقافات. ومن الصلوات الأخرى التي تناجي الله: «إني أسألك، أيها الإله الحكيم، لأنشر معرفتك بين الأنام. فأنت العقل الطيّب والخالق لكل شيء جميل وحسن». وهناك صلاة غفرانية يرفعها المؤمنون ايضا طالبين الغفران من الله الواحد قائلين: «اغفر لي أيها الرب القدير كل ما

226 فراس السواح: الرحمان والشيطان، ص 92.

ارتكبت من السيّئات من أقوال سيّئة وأفعال رديئة وأفكار شرّيرة. وأرجو منك يا رب أن تبعدني عن الخطايا، حتى أكون يوم الدين مع الأطهار والأخيار» .[227]

وتعتقد الزرادشتية بوجود الملائكة الروحانيّين الذين أوجدهم أهورامزدا وهم ستة ملائكة نورانيين ويُدعون الخالدون القديسّون وعملهم هو مساعدة الناس في محاربة الشر والظلام ومساعدتهم في التقرّب من الخير والنور وتشجيعهم للصلاة بغية الخير والصلاح للمصلي وللمجتمع.

الطقوس والمعابد في الزرادشتية:

تمارس معظم الطقوس الزرادشتية في الهياكل الخاصة من قبل الكهنة الذين يلعبون دورا مركزيا مهما في هذه الديانة. وكان للذبائح الحيوانية دورا كبيرا في الزرادشتية ولكنها منعت الآن وعدّت طقوسا خارجة عنها. وأما طقوس النار والشعلة المقدسة فهي من الشعائر الجوهرية المهّمة في كل أنواع المراسيم الدينية والإحتفالات. وترمز النار الى الحقيقة أو الى روح القدس لأهورامازدا. وهي وسيلة مرئية تمثل الله الحق وقواه الخارقة في التطهير ونشر النور والخير في العالم .[228]

ولعل المفهوم يوضح مكانة النار في الزرادشتية وقد يكون هذا جوابا شافيا للذين يحكمون على الزرادشتية بعبادة النار. ويؤكد هذا المفهوم ايضا على أن الزرادشتية تعبد الله الواحد قبل ظهور الديانات الإبراهيمية بقرون. وتأثيرها على الفلسفات الغربية والشرقية وعلى الديانات(اليهودية، المسيحية، الاسلام) واضح للدارسين والمختصين وضوحا كبيرا. ومن أهم المفاهيم التي انتقلت منها الى الثقافات والأديان الأخرى، مفهوم الشيطان(أهريمان)، وكذلك مفهوم الملائكة والدينونة والجنة والنار .

وكان زرادشت يمنع بناء المعابد والهياكل والأماكن الخاصة بالعبادة والصلاة. ويمنع كذلك الصور وتماثيل القديسين والملائكة خوفا من الوثنية والشرك. وكان الملك أرداشير (401 ق.م - 359 ق.م)، أول ملك بنى المعابد الضخمة تقليدا بالمعابد البابلية والسومرية والآشورية والأغريقية.

وسمى الزرادشتيون بيوت العبادة بمعابد النار أو أبواب ميثرا وهم يذهبون الى هذه الهياكل مرة في أسبوع أو كل يوم إذا كانوا من المتدينيين المتشدّدين الذين يجلبون أعوادا من الخشب معهم ليضيفوها على النار المقدّسة المتقدة دائما. وكلما كانت النار قديمة أكثر، أزدادت قيمتها وقداستها، ولذلك ينظر الزرادشتيون الى النار الموجودة في ايران بقدسيّة وطهارة أكثر من الموجودة في الهند وذلك لقدمها واستمرارية إيقادها منذ أيام النبي زرادشت والى

227 صبري المقدسي: الزرادشتية: المنشأ والجذور والعقائد الروحية، موقع الحوار المتمدن، تصنيف دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، الرابط: HTTP://WWW.M.AHEWAR.ORG/S.ASP?AID=357743&R=0 ، بتاريخ: 2013/05/05.

228 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزءالأول، مطبعة ميديا، الطبعة الأولى، أربيل- العراق، سنة 2007، ص 80.

اليوم. ويجب أن تحتل النار وسط الغرفة أو الهيكل على موقد حجري مُستقر على أربع قوائم. وتوقد نارها ليلا ونهارا من قبل الكهنة الذين يُمارسون التطهير بغسل الأماكن المكشوفة من أجسادهم وخلع أحذيتهم مع الشعب قبل أن يدخلوا عتبة الغرفة أو الهيكل ليدوروا حول الموقد. وغالبا ما تختم الصلاة بمسح الجبين أو الأجفان بحفنة من الرماد المُقدس من الموقد .

ولا يحرق الزرادشتيون الجثث بعد الموت لكونها نجسة، بعد أن تتركها الأرواح. ولا يمكن ايضا حرقها بالنار بسبب قدسية النار. ولا يمكن رميها بالأنهار والبحيرات كما تفعل بعض الشعوب بسبب قدسيّة الماء. ولا يمكن دفنها في الأرض لقدسية التراب، إذ لا يحسن بالأرض المقدسة أن تحوي في بطنها الجثث الملوّثة. ولكنهم يضعونها على الأبراج العالية لتأكلها الطيور. وإذا لمس أحدهم الجثة، فعليه التطهّر بالماء أو بول الماشية، ولذلك يتجنبون الطيور والحشرات التي تقتات باللحوم الميتة أو الوسخة .[229]

ومن الطقوس الجميلة الأخرى، التوبة إذ يتوب كل زرادشتي من الأفكار الشريرة والكلمات البذيئة والأفعال الرديئة التي يرتكبها في حياته، سواء كانت الروحية منها أو المادية، وعليه ان يُذكر نفسه دائما بكلمات الحكمة من كتاب آفيستا لتقوية روحه في مقاومة الشر.

فالشعائر والطقوس وسيلة مهمّة في الزرادشتية لتقوية الروح ضد القوة الشريرة وتنقيتها من كل أنواع الشوائب. ولا يتم ذلك الا بتطبيق الوصايا الأخلاقية في الحياة اليومية. وللأنسان ايضا دور مهّم في إصلاح الخلل في العالم لأنه المساعد الأيمن لأهورامازدا وليس الخادم الذي لا حول له ولا قوة، كما في بعض الأساطير القديمة التي تجعل منه عبدا للآلهة أو خادما مسيّرا.

الماورائيات في الزرادشتية (الجنة والجحيم):

يتكلم زرادشت قليلا عن الجنة والجحيم ويتجنب التركيز على الماورائيّات. وكان يُحاول بقدر الإمكان الإبتعاد عن الأساطير والخرافات التي كانت تحتل الجزء الأكبر من الديانة الهندوسية الفيدية التي كان يخدمها ويُحاول إصلاحها وتنظيفها من الوثنيّات الصنمية والأفكار التجسّدية والتقشفية الكثيرة.

عبّر زرادوشت عن الجنة والجحيم بمصطلحات جميلة ورمزية إذ يقول بأنها المكان السامي جدا في حضرة الله أو هي الوجود العقلي والروحي أو الوجود الأبدي، وذلك بالنسبة الى الذين يعيشون حياة صالحة وخيّرة. وأما

229 فراس السواح: الرحمان والشيطان، ص 94.

بالنسبة الى الذين يعيشون حياة سيئة وينشرون الشرّ والظلم ويُفضلون الظلمة على النور والرذيلة على الفضيلة، فإنهم يذهبون الى العالم التحتاني مع الشيطان وأعوانه حيث العذابات المختلفة .

ويُعلم زرادشت كذلك وجود جسر يربط بين العالمين وتفصل الأرض بينهما. وتبقى الأرواح الرديئة تسبح في الفضاء بين العالمين من دون جسد الى أن تتخلص من الشرّ العالق فيها ومن ثم تذهب الى الجنة أو السعادة الأبدية.

وهناك فكر جميل عن البعث والنشور في الزرادشتية التي تتكلم كتبها عن الخلاص والدينونة وعن البرزخ وهو المكان الذي تنتظر فيه الأرواح الى يوم الدينونة العامة حيث تقف أمام القاضي (ميترا) الذي يُدين الأرواح على كل صغيرة وكبيرة بوضع الحسنات والسيّئات في ميزان عادل. وتشغل طقوس الموت مكانا خاصا في كل المرسيم الدينية، لأن الأنسان مخلوق مقدس مهمّ بالنسبة الى أهورامزدا وأما جثته فهي نجسة تنتمي الى عالم أهريمان لنتانتها بعد الموت. ولذلك لا يمكن تدنيس الأرض بدفنها في باطنها ولا الى تدنيس النار بحرقها فيه. وعلى الناس الذين يتعاملون مع الجثة أن يتطهّروا جيّدا خوفا من الدنس .

فالنظافة في الزرادشتية هي من صفات الإله أهورمزدا وأما القذارة والنتانة فهي من صفات الروح الخبيثة لأهريمان. ولذلك نجد الزرادشتيون يستعملون الغسل الكثير قبل الصلاة والإبتعاد عن كل ما هو قذر وملوّث. وغيرها من الطرق والوسائل المهمّة في كيفية الطبخ النظيف وشرب الماء الصافي الطاهر وكيفية تحضير النار المقدسة من القش والعيدان.

تصور الخير والشر في الزرادشتية:

حاول الانسان منذ أن شعر بوجوده إيجاد أجوبة وحلولا لكل المشاكل التي تصادفه في حياته اليومية. وبسبب فكره الشرير الذي يدعو الى الحسد والغيرة والانتقام، وقسوة الحياة والآلام والأمراض والكوارث الطبيعية التي تصيبه، تطوّر فكره عن الشرّ، وعن أسبابه ونتائجه واختلاف مفهومه من دين الى آخر، ومن عقيدة الى أخرى. فمنه من قبله وقبل نتائجه، ومنه من تشائم منه، ومن الأمور المحيطة به والمتعلقة به. ولكن هناك ايضا من نكر وجوده في الواقع قائلا: أن الشرّ هو عدم الخير، والظلام هو عدم النور. أو من قال: أن المرء لا يستطيع محاربة الشر، فعليه ببساطة أن يطيعه. أو أن يتقاعد عن الحياة ويتهرّب منه ويترك الأمور الحياتية والمسؤوليّات والمشاعر والرغبات خلفه وينعزل في الأديرة والبراري. أو أن يختار مواجهته بفعل الخير والصلاة والتأمل وايجاد الحلول اللازمة لذلك .

وأما عن أصله، فهناك من يرى أن الشرّ والخير أزليان، وقد وجدا بوجود الحياة، ولا يُمكننا التهرّب منهما. ومنهم من يرى بوجود آلهة خيّرة، وأخرى شريرة مسؤولة عن الشرّ والخراب في العالم. ومنهم من يؤمن بأن الخير والشر

موجودان معا ولابد منهما لخلق نوع من التوازن في العالم. ومنهم من يتصوّر بأن العالم غير كامل ويمرّ في حالة الطفولة، ويحتاج الى العمل يدا بيد لكي يكمل العمل الناقص لله الذي تم في ستة أيام وهو رقم ناقص، ويحتاج الى اليوم السابع (رقم الكمال) لكي يكون العمل كاملا، كما في الفكر التوراتي (اليهودي ـ المسيحي).

وأما بالنسبة الى الزرادشتية فإنها ترى ان الكون الجميل، وكل ما فيه مخلوقا من قبل أهورامازدا وأما الشرّ والخراب فإنه مخلوق من قبل أهريمان. والكون هو ساحة يدور عليها الصراع الدائم بين الخير والشر. وتتم الغلبة للخير على الشر في الحرب الأخيرة التي سوف تضع حدا لقوة أهريمان الشريرة.

وقد دعا الله (أهورامزدا) الإنسان إلى أن يعمل الخير دون أن ينتظر الجزاء، فالخير يحمل جزاؤه في نفسه. ولذلك على الانسان أن يستأصل عامل الشر من نفسه، ويُنمّي بذرة الخير فيه، لأن الخالق جعل له عقلاً وبيّن له طرق الشر، وأمره بمقاومته، بكل الوسائل ولا سيّما عن طريق العقل الذي أعطاه إياه أهورامزدا. وكذلك بالنسبة الى الضمير الذي أودعه فيه وطرق الهداية والصلاح في الكتاب(آفيستا)، الذي أنزله عليه.[230]

الموت في الزرادشتية:

يعتبر الزرادشتيون أن الروح تهيم لمدة ثلاثة ايام بعد الوفاة قبل أن تنتقل إلى العالم الأخر، يؤمن الزرادشتيون بالحساب حيث أنهم يعتقدون أن الزرادشتي الصالح سيخلد إلى جانب زرادشت في حين أن الفاسق سيخلد في النار إلى جانب الشياطين.

للزرادشتيين طقوس خاصة عند الوفاة حيث انهم يعتبرون الجسد نجسا لذا يجب عدم اختلاطه مع عناصر الحياة الثلاثة : الماء، التراب و النار حتى لا يلوثها ، لذا وجب على الزرادشتيين عند وفاتهم ان يتركوا للطيور الجارحة على أبراج خاصة تسمى أبراج الصمت أو (دخنه) باللغة الفارسية حيث يقوم بهذه الطقوس رجال دين معينون ثم بعد ان تاكل الطيور جثة الميت يتم رمي العظام في فجوة خاصة في هذا البرج دون دفنها. ألا أنه مؤخرا منذ نحو 50 عاما و عملا بنصيحة زرادشت و هي أن يتكيف الزرادشتيون مع أي مجتمع يعيشون فيه فقد أبتكر الزرداشتيون طريقة جديدة في دفن موتاهم و هي أن يوضع جثمان الميت في صندوق معدني محكم الاغلاق ويدفن في قبر عادي مما يضمن عدم تلويثه لعناصر الحياة الثلاثة.

الرموز الزرادشتية:

يعتقد معظم الناس أن الزرادشتية، ديانة يعبد أفرادها النار كما أسلفنا، وهذه معلومات خاطئة انتشرت بسبب كثرة وجود النار في مراسيمها الدينية وهياكلها، وكذلك بسبب إحترام وتقدير الزرادشتيين للنار وجعلها المركز الذي

230 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزءالأول، ص 84.

تدور حوله معظم الطقوس والمراسيم الدينية. إذ يعتقد الزرادشتيون بأن النار هي صورة من صوّر الله (أهورامازدا) وهي روحه القدوس وقبس من نوره وتجسيدا لحضوره المقدس على الارض مثلما هي الشمس تجسيدا لحضوره في السماء. ولذلك نجدهم يدورون حول مذبح النار في الهياكل والمعابد أثناء الإحتفالات وفي جميع المناسبات الدينية والوطنية، علما انهم يحافظون على إشعالها وتأججها في الهياكل والبيوت. وتجد كل ذلك في الفصل السابع من كتاب(الغاثا)، حول النار وكيفية قبول توبة المؤمنين وتطهيرهم وتعميدهم من خلال طقوس النار، التي تعطي النفخة الجديدة في المؤمنين وتنقي صدورهم من الإثم والخطيئة. وهو العنصر(الذكر) بينما الماء هو العنصر(الأنثى). وهناك ايضا العناصر الاخرى مثل التراب والهواء وهي تشكل مع النار والماء العناصر المقدسة الاربعة، التي لها الاهمية الكبرى في الزرادشتية، ولها الاهمية نفسها في حياة كل إنسان .[231]

والرمز المهم الآخر في الزرادشتية هو الشمس ويدل على النقاء والحياة المديدة وهم يقدسونها مثلما يقدس المسيحيون الصليب والمسلمون الهلال واليهود نجمة داود. ويُقدس الزرادشتيون كذلك الأرض والطبيعة وهي من الرموز المهمّة أيضا في هذه الديانة.[232]

5) العبادات في الدّيانة الصّابئيّة:

مدخل تاريخي:

من خصائص مختلف المجتمعات والأديان المجتمعة حول بعضها البعض كأقليات في العراق الحديث، انعزاليتها وعدم امتزاجها إلا بالذين على دينها من الناس، ونادرا ما تتزوج من خارج هذا المحيط. ويصدق هذا بصورة خاصة على اليهود واليزيديين والصابئيين، وبالرغم من قلة عدد الصابئين وإحاطتهم من قبل أديان أخرى مجاورة، فهم لا يمتزجون معها مطلقا ولا يصاهرونها، بينما يعتبر الصابئي الذي يتزوج من غير جنسه خارجا على الدين بصورة تلقائية.

الصابئة المندائية هي طائفة الصابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم، والتي تعتبر يحيى عليه السلام نبيًّا لها، يقدّس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها، ويعتبر الاتجاه نحو نجم القطب الشمالي، وكذلك التعميد في المياه الجارية، من أهم معالم هذه الديانة التي يجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجزية من معتنقيها أسوة بالكتابيين من اليهود والنصارى .

حقيقة الصابئة كما وردت في القرآن الكريم نوعان: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون. أما الصابئة الحنفاء فهم بمنزلة من كان متبعاً لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتحريف والتبديل من اليهود والنصارى. وهؤلاء حمدهم الله وأثنى عليهم. والثابت أن الصابئين قوم ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي، وهم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين، ولكنهم عرفوا الله وحده، ولم يحدثوا كفراً، وهم متمسكون (بالإسلام المشترك) وهو عبادة الله وحده،

231 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزءالأول، ص 86.

232 صبري المقدسي: الزرادشتية: المنشأ والجذور والعقائد الروحية، موقع الحوار المتمدن، تصنيف دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، الرابط: HTTP://WWW.M.AHEWAR.ORG/S.ASP?AID=357743&R=0 ، بتاريخ: 2013/05/05.

وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على إيجابه وتحريمه، وهم يقولون (لا إله إلا الله). فقط، وليس لهم كتاب ولا نبي. والصحيح أنهم كانوا موجودين قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأرض اليمن.

وأما الصابئة المشركون فهم قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور ويصلون، فهم يعبدون الروحانيات العلوية .

وعلى ذلك فمن دان من الصابئة بدين أهل الكتاب فهو من أهل الكتاب، ومن لم يدن بدين أهل الكتاب فهو مشرك، ومثالهم من يعبد الكواكب. كمن كانوا بأرض حران عندما أدركهم الإسلام، وهؤلاء لا يحلُّ أكل ذبائحهم، ولا نكاح نسائهم، وإن أظهروا الإيمان بالنبيين، وقد أفتى أبو سعيد الاصطخري بأن لا تقبل الجزية منهم، ونازعه في ذلك جماعة من الفقهاء.[233]

ونظرا لقلة عدد أفراد هذه الطائفة وحبها للسلام، دون أن يكون لديها أي طموح سياسي، فليس لها مقام في التاريخ أكثر من الذكر العابر لوجودها، ومن تسجيل لذكر بعض العلماء اللامعين في بلاط الخلفاء العباسيين، الذين كانوا على طريقة الصابئين في الفكر. واليوم فإن مراكز الصابئين الرئيسية هي في جنوب العراق في منطقة الأهوار وعلى الضفاف الدنيا من نهري دجلة والفرات، وفي مدن العمارة والناصرية والبصرة وقلعة صالح والحلفاية وسوق الشيوخ؛ ويوجد جماعات منهم بأعداد مختلفة إلى الشمال من المناطق المذكورة كبغداد والكويت والديوانية وكركوك والموصل. وقد حملتهم مهارتهم في الصنعة إلى بلاد بعيدة، حيث نجد حوانيت الصياغة ومنهم في بيروت ودمشق والإسكندرية. أما في إيران فقد كان عدد الصابئين كبيرا في إقليم عربستان، غير أن عددهم آخذ بالتناقص، والساكنون منهم في المحمرة والأهواز على ضفاف نهر كارون ليسوا بنعمة وصحة كما هي عليه الحال مع الصابئين في العراق. [234]

وصفوة القول ان أغلبية الدلائل التي تشير إلى أن أصل المندائيين هو في وادي الرافدين، ومنه كان بروز أول دين يؤمن بالرب الواحد وهو الدين المندائي. فارتبط المندائيين بأرض وادي الرافدين وخاصة في جزئيه الأوسط والصفلي إلى الأهوار، ليس ارتباط مهاجرين بأرض جديدة، وإنما ارتباط وثيق مع أصل هذه البلاد وحضارتها. ولا

233 بن تيمية، الرد على المنطقيين (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)، تحقيق عبد الصمد شرف الدين الكتبي، مؤسسة الريان – بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2005، ص 454.

234 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق-سورية، سنة 2009، ص ص 305-322.

أنظر أيضا: عصام خلف غضبان الزهيري: الدين الأول (مدخل إلى الدين المندائي)، الجزء الأول، المسح الضوئي للكتاب هشام رحيم العيداني، الرفع الإلكتروني حسام هشام العيداني، موقع موسوعة العيون المعرفية، ص ص 09-33.
HTTP://WWW.MANDAEANNETWORK.COM/MANDAEAN/AR/BOOKS/MANDAEANNETWORK_SABIAN_MANDAEAN.HTML

يخفى أيضا على أن للمندائيين امتداد عميق في حران (الشام) وفي فلسطين وحتى في مصر حسب ما أورده أغلبية الكتبة والمؤرخين القدماء.

معنى الصابئة وسبب التسمية:

يقول البعض أن كلمة صابئة جاءت من جذر الكلمة الارامي المندائي (صبا) أي بمعنى (تعمد، اصطبغ، غط، غطس) وهي تطابق أهم شعيرة دينية لديهم وهو طقس (المصبتا – الصباغة – التعميد) فلذلك نرى ان كلمة صابئي تعني (المصطبغ أو المتعمد). اما كلمة مندائي فهي آتية من جذر الكلمة الارامي المندائي (مندا) بمعنى المعرفة أو العلم، وبالتالي تعني المندائي (العارف أو العالم بوجود الخالق الاوحد.[235]

في حين يرجع اللغويون العرب كلمة الصابئة إلى جذر الفعل العربي (صبأ) المهموز، وتعني خرج وغير حالته، وصار خلاف حاد حول اصل الكلمة اهو عربي من صبأ أم ارامي صبأ ممكن ان تعطي معنى كلمة الصابئي أيضا، أي الذي خرج من دين الضلالة واتحد بدين الحق، فمن الممكن جدا ان هذه الكلمة كانت تعبر عن فترة من التاريخ عندما كان الناس يتركون (يصبأوون) عن ديانتهم الوثنية، ويدخلون الدين المندائي الموحد، أو الذين دعوا بالاحناف. وبما ان المندائيون ولغتهم ليسوا عربا فاخذ العرب هذه التسمية لتكون صفة مميزة لهم وخاصة قبل الإسلام، أضف إلى ذلك ان هذه التسمية قديمة ولها أصولها في اللغة العربية.[236] ومن الجدير بالذكر بان حتى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) واتباعه دعوا بالصباة، عندما جهروا بدعوتهم لاول مرة في مكة ودعوا إلى الإله الواحد الأحد، فدعاهم مشركي مكة بالصابئة.. على العموم اتفق أغلبية الباحثين والمستشرقين على ان كلمة صابي أو صابئي جاءت من الجذر الارامي وليس العربي للكلمة أي الصابغة أو المتعمدين أو السابحة. والأخيرة اقترحها عباس محمود العقاد، في كتابه (إبراهيم أبو الانبياء)، جعل سببها كثرة الاغتسال في شعائرهم (أي الصابئة المندائيين) وملازمتهم شواطئ الأنهار من اجل ذلك. وذهب المستشرق نولدكه إلى ان كلمة صابئة مشتقة من صب الماء إشارة.[237]

كتب الصابئة المقدسة:

-لديهم عدد من الكتب المقدسة مكتوبة بلغة سامية قريبة من السريانية وهي:[238]

235 الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، سورية، سنة 2006، ص 31.
236 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص 80.
237 الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ص 31.
238 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص ص 50-51.

1. الكنزاربّا: أي: الكتاب العظيم، ويعتقدون بأنه صحف آدم عليه السلام، فيها موضوعات كثيرة عن نظام تكوين العالم وحساب الخليقة وأدعية وقصص، وتوجد في خزانة المتحف العراقي نسخة كاملة منه. طبع في كوبنهاجن سنة (1815) م، وطبع في لايبزيغ سنة (1867) م .

2. دراشة إديبيا: أي: تعاليم يحيى، وفيه تعاليم وحياة النبي يحيى عليه السلام .

3. الفلستا: أي: كتاب عقد الزواج، ويتعلّق بالاحتفالات والنكاح الشرعي والخطبة .

4. سدرة إدنشاماثا: يدور حول التعميد والدفن والحداد، وانتقال الروح من الجسد إلى الأرض، ومن ثمَّ إلى عالم الأنوار، وفي خزانة المتحف العراقي نسخة حديثة منه مكتوبة باللغة المندائية .

5. كتاب الديونان: فيه قصص وسير بعض الروحانيين مع صور لهم .

6. كتاب إسفر ملواشه: أي: سفر البروج لمعرفة حوادث السنة المقبلة عن طريق علم الفلك والتنجيم .

7. كتاب النباتي: أي: الأناشيد والأذكار الدينية، وتوجد نسخة منه في المتحف العراقي .

8. كتاب قماها ذهيقل زيوا: ويتألّف من (200) سطر، وهو عبارة عن حجاب يعتقدون بأن من يحمله لا يؤثر فيه سلاح أو نار.

9. تفسير بغره: يختصُّ في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه والأطعمة المناسبة لكل طقس مما يجوز لأبناء الطائفة تناوله .

10. كتاب ترسسر ألف شياله: أي: كتاب الاثني عشر ألف سؤال .

11. ديوان طقوس التطهير: وهو كتاب يبين طرق التعميد بأنواعه على شكل ديوان .

12. كتاب كداواكدفيانا: أي: كتاب العوذ.[239]

طبقات رجال الدين في الصابئة:

يشترط في رجل الدين أن يكون سليم الجسم، صحيح الحواس، متزوجاً منجباً، غير مختون، وله كلمة نافذة في شؤون الطائفة، كحالات الولادة والتسمية والتعميد والزواج والصلاة والذبح والجنازة، ورتبهم على النحو التالي :

239 الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، سورية، سنة 2006، ص 55.

1. الحلالي: ويسمَّى (الشماس) يسير في الجنازات، ويقيم سنن الذبح للعامة، ولايتزوج إلا بكراً، فإذا تزوج ثيباً سقطت مرتبته، ومنع من وظيفته، إلا إذا تعمَّد هو وزوجته (360) مرة في ماء النهر الجاري .

2. الترميدة: إذا فقه الحلالي الكتابين المقدَّسين سدره إنشاثا والنياني أي: كتابَيْ التعميد والأذكار، فإنه يتعمَّد بالارتماس في الماء الموجود في المندي، ويبقى بعدها سبعة أيام مستيقظاً لا تغمض له عين حتى لا يحتلم، ويترقَّى بعدها هذا الحلالي إلى ترميدة، وتنحصر وظيفته في العقد على البنات الأبكار .

3. الأبيسق: الترميدة الذي يختص في العقد على الأرامل يتحول إلى أبيسق، ولا ينتقل من مرتبته هذه .

4. الكنزبرا: الترميدة الفاضل الذي لم يعقد على الثيبات مطلقاً، يمكنه أن ينتقل إلى كنزبرا، وذلك إذا حفظ كتاب الكنزاربّا، فيصبح حينئذٍ مفسراً له، ويجوز له ما لا يجوز لغيره، فلو قتل واحداً من أفراد الطائفة لا يقتص منه؛ لأنه وكيل الرئيس الإلهي عليها .

5. الريش أمه: أي: رئيس الأمة، وصاحب الكلمة النافذة فيها، ولا يوجد بين صابئة اليوم من بلغ هذه الدرجة؛ لأنها تحتاج إلى علم وفير وقدرة فائقة .

6. الربّاني: وفق هذه الديانة لم يصل إلى هذه الدرجة إلا يحيي بن زكريا عليهما السلام، كما أنه لا يجوز أن يوجد شخصان من هذه الدرجة في وقت واحد. و الرباني يرتفع ليسكن في عالم الأنوار، وينزل ليبلغ طائفته تعاليم الدين ثم يرتفع كرة أخرى إلى عالمه الرباني النوراني.[240]

الإله في الصابئة:

يتأسس إيمان الصابئة المندائيين على وجود رب خالق الأكوان منزه عن السيئات مقيم في ملكوته الحي في أقصى الشمال، ومقيم في جميع الفضائل والجمال؛ وهو غير محدد وأبدي وأزلي في كينونته، ليس له حدود في صفاته، وقوته، وعظمته. الإيمان بأن هذا العالم جزء بسيط وصغير جدا من خلق الخالق العظيم.

فهم يعتقدون - من حيث المبدأ- بوجود الإله الخالق الواحد الأزلي الذي لا تناله الحواس، ولا يفضي إليه مخلوق. و لكنهم يجعلون بعد هذا الإله (360) شخصاً خلقوا ليفعلوا أفعال الإله، وهؤلاء الأشخاص ليسوا بآلهة ولا ملائكة، يعملون كل شيء من رعد وبرق ومطر وشمس وليل ونهار... وهؤلاء يعرفون الغيب، ولكل منهم مملكته في عالم الأنوار .

240 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص 52.

هؤلاء الأشخاص الـ (360) ليسوا مخلوقين كبقية الكائنات الحية، ولكن الله ناداهم بأسمائهم، فخلقوا وتزوجوا بنساء من صنفهم، ويتناسلون بأن يلفظ أحدهم كلمة فتحمل امرأته فوراً، وتلد واحداً منهم. يعتقدون بأن الكواكب مسكن للملائكة، ولذلك يعظمونها ويقدسونها.[241]

المندي الصابئية:

- هو معبد الصابئة، وفيه كتبهم المقدسة، ويجري فيه تعميد رجال الدين، يقام على الضفاف اليمنى من الأنهر الجارية، له باب واحد يقابل الجنوب بحيث يستقبل الداخل إليه نجم القطب الشمالي، لابدَّ من وجود قناة فيه متصلة بماء النهر، ولا يجوز دخوله من قبل النساء، ولا بدَّ من وجود علم يحيى فوقه في ساعات العمل.[242]

الصلاة في الديانة الصابئية:

تؤدَّى ثلاث مرات في اليوم: قبيل الشروق، وعند الزوال، وقبيل الغروب، وتستحبُّ أن تكون جماعة في أيام الآحاد والأعياد، فيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وهي تستغرق ساعة وربع الساعة تقريباً .

يتوجَّه المصلِّي خلالها إلى الجدي بلباسه الطاهر، حافي القدمين، يتلو سبع قراءات يمجد فيها الرب مستمدًّا منه العون، طالباً منه تيسير اتصاله بعالم الأنوار.

الصوم لدى الصابئة:

صابئة اليوم يحرِّمون الصوم؛ لأنه من باب تحريم ما أحلَّ الله. و قد كان الصوم عند الصابئة على نوعين: الصوم الكبير: ويشمل الصوم عن كبائر الذنوب والأخلاق الرديئة، والصوم الصغير الذي يمتنعون فيه عن أكل اللحوم المباحة لهم لمدة (32) يوماً متفرقة على طول أيام السنة .

ابن النديم المتوفى سنة (385)هـ في فهرسته، وابن العبري المتوفى سنة (685)هـ في تاريخ مختصر الدول ينصَّان على أن الصيام كان مفروضاً عليهم لمدة ثلاثين يوماً من كل سنة.

الطهارة في الصابئة:

الطهارة مفروضة على الذكر والأنثى سواء بلا تمييز. تكون الطهارة في الماء الحي غير المنقطع عن مجراه الطبيعي .

241 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص 30.
242 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص 53.

الجنابة تحتاج إلى طهارة، وذلك بالارتماس في الماء ثلاث دفعات، مع استحضار نية الاغتسال من غير قراءة؛ لأنها لا تجوز على جنب .

عقب الارتماس في الماء يجب الوضوء، وهو واجب لكل صلاة، حيث يتوضأ الشخص، وهو متَّجه إلى نجم القطب، فيؤديه على هيئة تشبه وضوء المسلمين، مصحوباً بأدعية خاصة .

مفسدات الوضوء: البول، الغائط، الريح، لمس الحائض والنفساء.

التعميد في الصابئة وأنواعه:

يعتبر التعميد من أبرز معالم هذه الديانة، ولا يكون إلا في الماء الحي، ولا تتمُّ الطقوس إلا بالارتماس في الماء، سواء أكان الوقت صيفاً أم شتاءً، وقد أجاز لهم رجال دينهم مؤخراً الاغتسال في الحمامات، وأجازوا لهم كذلك ماء العيون النابعة لتحقيق الطهارة .

يجب أن يتمَّ التعميد على أيدي رجال الدين .

يكون العماد في حالات الولادة، والزواج، وعماد الجماعة، وعماد الأعياد، وهي على النحو التالي :

1. الولادة: يعمد المولود بعد (45) يوماً ليصبح طاهراً من دنس الولادة، حيث يُدخل هذا الوليد في الماء الجاري إلى ركبتيه مع الاتجاه جهة نجم القطب، ويوضع في يده خاتم أخضر من الآس .

2. عماد الزواج: يتمُّ في يوم الأحد، وبحضور ترميدة وكنزبرا، يتمُّ بثلاث دفعات في الماء مع قراءة من كتاب الفلستا وبلباس خاص، ثم يشربان من قنينة ملئت بماء أُخذ من النهر يسمَّى (ممبوهة) ثم يطعمان (البهثة)، ويدهن جبينهما بدهن السمسم، ويكون ذلك لكلا العروسين، لكل واحد منهما على حدة، بعد ذلك لا يُلمسان لمدة سبعة أيام، حيث يكونان نجسين، وبعد الأيام السبعة من الزواج يعمدان من جديد، وتعمد معهما كافة القدور والأواني التي أكلا فيها أو شربا منها .

3. عماد الجماعة: يكون في كل عيد (بنجة) من كل سنة كبيسة لمدة خمسة أيام، ويشمل أبناء الطائفة كافة رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً، وذلك بالارتماس في الماء الجاري ثلاث دفعات قبل تناول الطعام في كل يوم من الأيام الخمسة. والمقصود منه هو التكفير عن الخطايا والذنوب المرتكبة في بحر السنة الماضية، كما يجوز التعميد في أيام البنجة ليلاً ونهاراً على حين أن التعميد في سائر المواسم لا يجوز إلا نهاراً، وفي أيام الآحاد فقط .

4. عماد الأعياد: وهي :

أ- العيد الكبير: عيد ملك الأنوار حيث يعتكفون في بيوتهم (36) ساعة متتالية، لا تغمض لهم عين خشية أن يتطرق الشيطان إليهم؛ لأن الاحتلام يفسد فرحتهم، وبعد الاعتكاف مباشرة يرتسمون، ومدة العيد أربعة أيام، تنحر فيه الخراف، ويذبح فيه الدجاج ولا يقومون خلاله بأي عمل دنيوي .

ب- العيد الصغير: يوم واحد شرعاً، وقد يمتدُّ لثلاثة أيام من أجل التزاور، ويكون بعد العيد الكبير بمائة وثمانية عشر يوماً .

ج- عيد البنجة: سبق الحديث عنه، وهو خمسة أيام تكبس بها السنة، ويأتي بعد العيد الصغير بأربعة أشهر .

د- عيد يحيى: يوم واحد من أقدس الأيام، يأتي بعد عيد البنجة بستين يوماً، وفيه كانت ولادة النبي يحيى عليه السلام الذي يعتبرونه نبيًّا خاصًّا بهم، والذي جاء ليعيد إلى دين آدم صفاءه بعد أن دخله الانحراف بسبب تقادم الزمان[243] .

هـ- تعميد المحتضر ودفنه :

- ✓ عندما يحتضر الصابيء يجب أن يؤخذ - وقبل زهوق روحه - إلى الماء الجاري ليتمَّ تعميده .
- ✓ من مات من دون عماد نجس ويحرم لمسه .
- ✓ أثناء العماد يغسلونه متجهاً إلى نجم القطب الشمالي، ثم يعيدونه إلى بيته، ويجلسونه في فراشه بحيث يواجه نجم القطب أيضاً حتى يوافيه الأجل .
- ✓ بعد ثلاث ساعات من موته يغسَّل ويكفَّن ويدفن حيث يموت؛ إذ لا يجوز نقله مطلقاً من بلد إلى بلد آخر .
- ✓ من مات غيلة أو فجأة، فإنه لا يغسل ولا يلمس، ويقوم الكنزبرا بواجب العماد عنه .
- ✓ يدفن الصابئي بحيث يكون مستلقياً على ظهره ووجهه ورجلاه متجهة نحو الجدي، حتى إذا بعث واجه الكوكب الثابت بالذات .
- ✓ يضعون في فم الميت قليلاً من تراب أول حفرة تحفر لقبره فيها .

243 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص ص 90-96.

- ✓ يحرم على أهل الميت الندب والبكاء والعويل، والموت عندهم مدعاة للسرور، ويوم المأتم من أكثر الأيام فرحاً حسب وصية يحيى لزوجته .

- ✓ لا يوجد لديهم خلود في الجحيم، بل عندما يموت الإنسان إما أن ينتقل إلى الجنة أو المطهر حيث يعذب بدرجات متفاوتة حتى يطهر، فتنتقل روحه بعدها إلى الملأ الأعلى، فالروح خالدة والجسد فان.

الشعار وملابس الطقوس:

معروف في تاريخ الأديان والمجتمعات والأقوام، بأن الملبس عنصر مهم من عناصر الهوية الاجتماعية لشعب أو قوم معين. فلذلك لا يشذ المندائيون عن هذه القاعدة، بان لديهم لباسا خاصا، كان انعكاسا لرؤى وفكر ديني آمنوا به. فالرستة ما هي إلا الملابس الدينية الطقسية، تخاط بطريقى معينة وتتكون من خمس قطع هي (أكسويا- القميص، شروالا-البنطلون، هميانا-الحزام، بروزينقا-العمامة، كنزالا-الطبرشيل) ومن اللون الأبيض وجوبا، وترمز للحواس الخمس، ولها أهمية روحية مقدسة، ورمزيتها تتجه اتجاهين اثنين: فهي تعنى من جهة عالما نورانيا نظمه الخالق، تدعى بكسوة النور (اصطلي اد زيوا)، ومن جهة أخرى التقرب أو التشبه بالكمال النوراني.[244] والملبس من ناحية أخرى هو علامة الشخص الإنساني يدل على ذاتيته وتميزه عن غيره. وهي رمز النور والصفاء والنقاء والطهارة والحياة الجديدة. فالثياب وبريقها ومدلولها النوراني في الفكر المندائي هي التي تعبر عن جوهر الكائن وصفاته.[245]

أفكار ومعتقدات تميز الصابئة المندائية:

- البكارة: تقوم والدة الكنزبرا أو زوجته بفحص كل فتاة عذراء بعد تعميدها وقبل تسليمها لعريسها وذلك بغية التأكد من سلامة بكارتها.

- الخطيئة: إذا وقعت الفتاة أو المرأة في جريمة الزنى فإنها لا تقتل، بل تهجر، وبإمكانها أن تكفر عن خطيئتها بالارتماس في الماء الجاري.

- الطلاق: لا يعترف دينهم بالطلاق إلا إذا كانت هناك انحرافات أخلاقية خطيرة فيتمّ التفريق عن طريق الكنزبرا.

244 للتوسع أنظر: الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ص ص 61-70.

245 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص 35.

- السنة المندائية: 360 يوماً، في 12 شهراً، وفي كل شهر ثلاثون يوماً مع خمسة أيام كبيسة يقام فيها عيد البنجة.

- يعتقدون بصحة التاريخ الهجري ويستعملونه، وذلك بسبب اختلاطهم بالمسلمين، ولأن ظهور النبي محمد كان مذكوراً في الكتب المقدسة الموجودة لديهم.

- يعظمون يوم الأحد كالمسيحيين ويقدسونه ولا يعملون فيه أي شيء على الإطلاق. - ينفرون من اللون الأزرق النيلي ولا يلامسونه مطلقاً. - ليس للرجل غير المتزوج من جنة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

- يتنبئون بحوادث المستقبل عن طريق التأمل في السماء والنجوم وبعض الحسابات الفلكية. - لكل مناسبة دينية ألبسة خاصة بها، ولكل مرتبة دينية لباس خاص بها يميزها عن غيرها.

- إذا توفي شخص دون أن ينجب أولاداً فإنه يمرّ بالمطهر ليعود بعد إقامته في العالم الآخر إلى عالم الأنوار ثم يعود إلى حالته البدنية مرة أخرى حيث تتلبس روحه في جسم روحاني فيتزوج وينجب أطفالاً.

- يؤمنون بالتناسخ ويعتقدون بتطبيقاته في بعض جوانب عقيدتهم. - للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء على قدر ما تسمح له به ظروفه. - يرفضون شرب الدواء، ولا يعترضون على الدهون والحقن الجلدية.

- الشباب والشابات يأتون إلى الكهان ليخبروهم عن اليوم السعيد الذي يمكنهم أن يتزوجوا فيه، وكذلك يخبرون السائلين عن الوقت المناسب للتجارة أو السفر، وذلك عن طريق علم النجوم.

- لا تؤكل الذبيحة إلا أن تذبح بيدي رجال الدين وبحضور الشهود، ويقوم الذابح – بعد أن يتوضأ – بغمسها في الماء الجاري ثلاث مرات ثم يقرأ عليها أذكاراً دينية خاصة ثم يذبحها مستقبلاً الشمال، ويستنزف دمها حتى آخر قطرة، ويحرم الذبح بعد غروب الشمس أو قبل شروقها إلا في عيد البنجة.

- تنص عقيدتهم على أن يكون الميراث محصوراً في الابن الأكبر، لكنهم لمجاورتهم المسلمين فقد أخذوا بقانون المواريث الإسلامي.[246]

خلاصة المبحث:

إن لب أو جوهر الدين الصابئي خلال جميع التقلبات والتغيرات هو عبادة قوانين الحياة والخصب القديمة، فالحياة العظمى لديهم تجسيد لقوة كونية خلاقة نافعة، غير أنه تجسيد سطحي يكون الحديث عنه دائما بصيغة الجمع المبهمة ويظل تجريدا غامضا، ورمز الحياة العظمى هو "الماء الحي" أو الجاري أو ما يسمونه "يردنة". وهو أمر طبيعي

246 محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، ص ص 76-77.

تماما في بلاد تلتصق فيها حياة البشر والحيوان والنبات بضفاف النهرين الكبيرين دجلة والفرات، ومن هذا يأتي أن أحد الطقوس الرئيسية لديهم هو الاغتسال في الماء الجاري.

والقوة الجوهرية الثانية في دينهم تتمثل في تجسيد النور "ملكا دنهورا" وفي مجموعة الملائكة النورانيين أو الأرواح النورانية الذين يمنحون الكون نعم النور والصحة والقوة والفضيلة والعدل. وفي الدستور الأخلاقي للصابئين، كما هو لدى الزرادشتيين أيضا، يجب أن يصاحب النظافة وصحة الجسم والطاعة الطقسية، سلامة العقل والضمير وإطاعة القواعد الأخلاقية. وهذا الإزدواج كان مما يميز شعائر "أنو" و "أيا" في زمن السومريين، وشعائر "بيل" و "أيا" أيام البابليين. نفهم من هذا أنه إذا كان الفكر الصابئي قد نشأ ونضج تحت التأثير الإيراني أو الشرقي فإن جذوره تمتد إلى تربة مألوف فيها تشابه المثل، وحيث كان يمارس الاغتسال وطقوس الخصب منذ أقدم الأزمان.

والأمر الجوهر الثالث في الدين الصابئي هو الاعتقاد بخلود الروح وبصلتها الوثقى بأرواح أسلافها، صلة إلهية مباشرة. فوجبات الطعام تؤكل نيابة من أجل روح الميت، وتمنح أرواح الموتى التي أعينت العون هي بدورها للأحياء.

6) العبادات في الديانة اليهودية:

تعريف الدّيانة اليهوديّة:

اليهود لغة: اختلف في كلمة اليهود، هل هي عربية مشتقة أم غير عربية، فقال البعض: إنها عربية مشتقة من " الهود" وهو التوبة والرجوع؛ قال عز وجل في ذكره لدعاء موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيكَ﴾،[247] وقال البعض: إنها غير عربية، وإنما هي نسبة إلى يهوذا أحد أسباط بني إسرائيل. أو إلى دولة يهوذا التي كانت في فلسطين بعد سليمان عليه السلام.[248] وهذا أرجح فيما يظهر في هذه النسبة، لأن هذا الاسم وهو " اليهود" لم يذكره اليهود في كتابهم إلاَّ في سفر عزرا الذي يتحدث عن فترة سبي شعب دولة يهوذا إلى بابل. ويظهر من هذا أن تلقيبهم باليهود كان من قبل ملوك الفرس الذين صار اليهود تحت حكمهم بإسقاطهم لدولة بابل.[249]

اليهود اصطلاحاً: هم الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام. وقد وردت تسميتهم في القرآن الكريم ب قوم موسى، وبني إسرائيل نسبة إلى يعقوب عليه السلام، وكذلك أهل الكتاب، واليهود.[250] إلاَّ أن الملاحظ أن هذه التسمية الأخيرة - اليهود - لم يذكروا بها إلاّ في مواطن الذم، كقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَت اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ

247 سورة الأعراف، الآية 156.

248 انظر القاموس المحيط ص 42.

249 سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، دار النشر أضواء السلف، الطبعة الأولى، سنة 1997، ص 45.

250 نفس المرجع، ص 46.

مَغلُولَةٌ غُلَّتْ أيدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبسُوطَتَانِ﴾.[251] وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَت اليَهُودُ وَالنَّصارَى نَحْنُ أَبْنَاؤ اللهِ وَأَحِبَّاؤُه﴾.[252] وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَت اليَهُودُ عُزَيرُ ابن الله﴾.[253] وقوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيا﴾.[254]

تعرّف الدّيانة اليهوديّة بأنّها جملة الشّرائع التي يؤمن بها معتنقو هذا الدّين، وتُقسّم هذه الشّريعة إلى قسمين: الشّريعة المكتوبة أي التّوراة التي تتضمّن الأسفار الخمسة التي أنزلها الله تعالى على سيّدنا موسى عليه السّلام، كما تتضمّن الشّريعة الشّفويّة وهي شروحات الحاخامات وإضافاتهم على نصوص التوراة ويطلق عليها التّلمود أو الكاباله. الدّيانة اليهوديّة من أقدم الدّيانات السّماويّة التي استندت على التّوراة وهي كتاب الله تعالى المشتمل على شرائعه وأحكامه، ولم يتطرّق الخلل والتّحريف إلى شريعة التّوراة إلاّ بعد غياب الأنبياء عن بني إسرائيل بعد داود وسليمان عليهما السّلام؛ حيث أتى رجال الدّين اليهودي ليضيفوا إليها وينزعوا منها ما يشاؤون بناءً على أهوائهم ورغباتهم.

العبادات:

الصلاة اليهودية:

الصلاة على نوعين، فردية، وجماعية:"أما الفردية: فهي صلوات ارتجالية من أفراد، تتلى حسب الظروف والاحتياجات الشخصية، منها صلاة إبراهيم لأجل خلاص سدوم، وصلاة يعقوب لأجل خلاصه من عيسو أخيه، وصلاة موسى لأجل بني إسرائيل. وهكذا صلاة الأنبياء يشوع وصموئيل وإليشع وداود ويونان" يونس" ودانيال وعزرا،[255] وهذا النوع من الصلاة يتلى في أي مكان. والصلاة المشتركة: هي صلوات تؤدى باشتراك جملة أشخاص علناً وعموماً، في أمكنة مخصوصة ومواعيد معلومة، حسب طقوس وقوانين مقررة من رؤساء الدين والكهنة.

ولم توضع الصلوات الطقسية عند الإسرائيليين إلا بعد تأسيس أمكنة العبادة كخيمة الاجتماع والهيكل. وتدلنا مزامير داود وسليمان أن الصلاة كانت ترافق بالغناء والموسيقى القانونية، وقد ورد في سفر عزرا أن ممن رجع من السبي كان يوجد مائتان من المغنيين والمغنيات.

(تفيلاه) بالعبرية، وكانت تعني في أصلها(الإرهاق) أو (تعذيب الذات وإظهار الخضوع). والصلاة أهم الشعائر التي تقام في المعبد اليهودي. ويذكر سفر التكوين جملة صلوات متفرقة وعبادات، كما يذكر الضحايا والقرابين التي يجب أن يقدمها اليهودي للإله. ولم تكن الصلوات في بادئ المر محددة ولا إجبارية، بل كانت تتلى ارتجالاً حسب الأحوال ولاحتياجات الشخصية والعامة.

---

251 سورة المائدة، الآية 64.

252 سورة المائدة، الآية 18.

253 سورة التوبة، الآية 30.

254 سورة آل عمران، الآية 67.

255 جاء في سفر دانيال أن دانيال كان يصلي ويركع ويشكر الله تعالى ثلاث مرات كل يوم (دانيال 6:10)، وأحياناً مرتين كل يوم (مزمور 55:17) .وهي واجبة عندهم. وكانت الصلاة مركبة غالباً من النثر ثم من النظم، وتتلى بالغناء في الابتداء، وبالتدريج صار البعض يستعمل الآلات الموسيقية، كما يتضح من سفر المزامير، وكان يخصص مغنون لهذا القصد (عزرا21:65).

وثمة إشارة إلى بعض المظاهر المقدسة مثل وضع بعض الأحجار على هيئة مذبح قبل التضرع للإله. ومع التهجير إلى بابل، بطلت الضحايا والقرابين وظهرت العبادات بالصلوات. وقد بدأ علماء المجمع الأكبر في وضع قوانينها وفي تقنينها ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد، ولم تكتمل هذه العملية إلا بعد هدم الهيكل وانتهاء العبادة القربانية المركزية التي كانت تأخذ شكل تقديم الحيوانات والنباتات، وحلت محلها الصلاة التي كان يطلق عليها((قربان الشفتين)) أو ((عبادة القلب)). واستغرقت هذه العملية، كما تقدم، وقتاً طويلاً. وعلى أية حال، فإنها لم تستقر تماماً، إذ كان يضاف إلى الصلوات قصائد البيوط التي يؤلفها الشعراء الدينيون. ثم أدخلت تعديلات جذرية على الصلوات ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر الميلادي.

ولا يزال مضمون الصلوات خاضعاً للتغيير حسب التغيرات السياسية والأحداث التاريخية. ففي صلاة الصبح كان اليهودي يشكر الإله على أنه لم يخلقه أممياً، أي من غير اليهود (الأغيار). والجزء الختامي من الصلاة نفسها، والذي يتلى أيضاً في صلوات رأس السنة اليهودية ويوم الغفران، يبدأ بالدعاء التالي: " نحمد إله العالمين.. أنه لم يجعلنا مثل أمم الأرض... فهم يسجدون للباطل والعدم ويصلون لإله لا ينفعهم". وقد حذف الجزء من الصلوات في غربي أوروبا، وظل يتداول شفوياً في شرقي أوروبا وإسرائيل. وبدأ يعاد طبعه مرة أخرى في كتب الصلوات في إسرائيل. كما يمكن أن تضاف أدعية وابتهالات مرتبطة بأحداث تاريخية وقومية مختلفة ودعاء للحكومة. وقد كانت الصلاة تقام بالعبرية أساسا. ولكن، مع حركة إصلاح اليهودية، أصبحت الصلاة تؤدى بلغة الوطن الأم، وإن كان الأرثوذكس قد احتفظوا بالعبرية، ويطعم المحافظون صلواتهم بعبارات عبرية.[256]

وتعد الصلاة واجبة على اليهودي الذكر لأنها بديل للقربان الذي كان يقدم للإله أيام الهيكل، وعلى اليهودي أن يداوم على الصلاة إلى أن يعاد بناء الهيكل، وعليه أن يبتهل إلى الإله لتحقيق ذلك. أما عدد الصلوات الواجبة عليه فهي ثلاث صلوات كل يوم:

1ـ صلاة الصبح (شحاريت)، وهي من الفجر حتى نحو ثلث النهار.

2ـ صلاة نصف النهار، وهي صلاة القربان(منحه)، من تقطعه الزوال إلى قبيل الغروب.

3ـ صلاة المساء (معاريف)، من بعد غروب الشمس إلى طلوع القمر.

وكانت الصلاتان الأخيرتان تختزلان إلى صلاة واحدة(منحه ـ معاريف). ويجب على اليهودي أن يغتسل يديه قبل الصلاة، ثم يلبس شال الصلاة(طاليت) وتمائم الصلاة(تفيلين) في صلاة الصباح، وعليه أيضاً أن يغطي رأسه بقبعة اليرملكا. والصلوات اليهودية قد تكون معقدة بعض الشيء، ولذا سنكتفي بالإشارة إلى القواعد العامة والعناصر المتكررة:

يسبق الصلاة تلاوة الأدعية والابتهالات، ثم قراءة أسفار موسى الخمسة في أيام السبت والأعياد، وتعقبها كذلك الابتهالات والأدعية، وهذه الأدعية والابتهالات لا تتطلب وجود النصاب(منيان) اللازم لإقامة الصلاة لأنها ليست جزءاً أساسياً من الصلاة، أما الصلاة نفسها فتتكون من:

أ) الشماع أي شهادة التوحيد اليهودية.

ب) الثمانية عشر دعاء(شمونة عسريه) أو العميداه. وهي تسعة عشر دعاء كانت في الأصل ثمانية عشر، ومن هنا كانت التسمية.

256 حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، سنة 1981، ص ص 167-181.

ج) دعاء القاديش.

هذا وتضاف صلاة تسمى((موساف)) (الإضافي) يوم السبت وأيام الأعياد. أما في عيد يوم الغفران، فتبدأ الصلاة بتلاوة دعاء كل النذور في صلاة العشاء، وتضاف صلاة تسمى((نعيلاه)) (الختام).[257]

الصوم في اليهودية:

فرض أحبار اليهود نوعاً من الصيام على أتباع اليهودية، وذلك أيام السبي البابلي، فسنوا لهم صوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره، وكذلك سنوا لهم صوم"كذليا" وجعلوه فرضاً عليهم ومن المعروف أن النبي موسى عليه السلام صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة على جبل سيناء وذلك لاستقبال كلمات الله تعالى ولم يرد الصوم في أسفار موسى الخمسة، ولكن كان يوم واحد معين للصوم هو يوم الكفارة.

وهذه الأصوام المفروضة على اليهود لم يفرضها عليهم موسى عليه السلام ولا اشتملت عليه أسفاره، ويرى ابن كثير في تفسيره: أن صيامهم من العتمة إلى العتمة وإذا ما صلى أحدهم ونام صام عن الطعام والشراب والنساء".

وصيام اليهود عدة أيام متفرقة في السنة ومعظمها مرتبطة بأحزان يهودية ولا نريد الخوض فيها الآن أهمها:

1. صوم يوم الغفران(الكفارة)" التاسع من تشري حسب الأشهر العبرية."
2. التاسع من آب. يوم هذا هدم الهيكل وهو ذكرى حصار أورشليم وسقوطها وخراب الهيكل وقتل ومن معه.258
3. السابع عشر من تموز.
4. العاشر من طيبت.
5. الثالث من تشري.
6. الثالث عشر من آذار.
7. صوم أسابيع الحداد الثلاثة. بين 17 من جويلية و 9 من أوت.

وهناك الكثير من الأيام التي يصومها اليهودي قررها الحاخامات وأيام خاصة؛ فيصوم اليهودي في ذكرى موت أبيه وكذلك الزوجين في ذكرى زواجهم. وفي صوم يوم الغفران والتاسع من آب يمتنع اليهود عن الآكل والشرب والجماع وكذلك لبس الأحذية لمدة 25 ساعة من غروب الشمس في اليوم السابق حتى غروب شمس يوم الصيام، أما أيام الصوم الأخرى من شروق الشمس حتى غروب ويمتنعون عن الكل والشرب فقط.

كما خصص اليهود أربعة أيام للحزن والصوم:

- ✓ العاشر من الشهر الخامس (يوم احتراق الهيكل والمدينة).
- ✓ العاشر من الشهر يوم ابتداء حصار أورشليم.
- ✓ الثالث من الشهر السابع (يوم استباحة نبوخذ نصر لأورشليم قتلاً ونهباً).
- ✓ التاسع من الشهر الرابع من كل سنة، وهو يوم استيلاء الكلدان على أورشليم.[259]

الحج:

257 سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 133.

258 حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، سنة 1981، ص 190.

259 سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 134.

- الحج عند اليهود هو قيام بزيارة بيت المقدس(أورشليم)، تقول التوراة" ثلاث مرات يعيد لي في السنة". أي أنه يجب على كل يهودي (ذكر) أن يزور بيت المقدس ثلاث مرات" ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل". وبما أنه لم يعد الهيكل ولا المعبد موجوداً فإنهم يحجون إلى حائط البراق الذي يسميه اليهود(المبكى)، كما أنهم لم يتقيدوا بتعاليم التوراة فاليهود ذكوراً وإناثاً يحجون. يقول الدكتور أحمد شابي مؤلف الموسوعة اليهودية:" إن كل رشيد يتحتم عليه أن يزور" بيت المقدس" مرتين في العام، وأن يبقى أسبوعاً كل مره ويبدأ الأسبوع يوم الجمعة".

الزكاة:

للصدقة مكانة لدى اليهود تقول التوراة "طوبى للذي ينظر إلى المسكين". وتقول التوراة "في آخر ثلاث سنين تخرج كل عشر محصولك في تلك السنة وتضعه في أبوابك، فيأتي اللاوي لأنه ليس له قسم ولا نصيب معك، والغريب واليتيم، والأرملة الذين في أبوابك ويأكلون ويشبعون لكي يباركك الرب إلهك في كل عمل يدك الذي تعمل."

والزكاة واجبة على من بلغ سن العشرين عام. وكان يعطى عشر العشر إلى رجال الدين". إلا أن نشاط اليهود وحماسهم لجمع أموال الزكاة اختلف قوة وضعفاً، وبمرور الزمن أخذ التهاون في دفع هذا الحق مأخذه في نفوسهم، مما أزعج رجال الدين واحدا بهم الأمر إلى أبناء دينهم بوقوع العذاب عليهم، وأن غضب الرب وسخطه سيحلان عليهم، ولكن العامة منهم لم يستجيبوا لنداء رجال الدين مما زاد في اكتناز الأموال فأصبحوا أثرياء بفحش كبير فمالوا إلى تأويل والتعليل ليمنعهم عن لامتثال لهذه الفريضة".

أعياد اليهود:

يحتفل اليهود بعيد الفصح Passouen وهو اليوم الذي نجا فيه بني إسرائيل من آخر طاعون أصاب المصريين يوم الراحة، وقد جاء وصفه في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج.. وهو يوم اجتماع الأسرة، ولذا بجانب العبادة في المعبد يكون احتفال وبهجة في المنزل. تضاء المائدة بالشموع، وتدار كؤوس النبيذ على جميع الأفراد، ويوزع كعك غير مخمر، وصحون بكل صحن منها بيضة واحدة، ولحوم محمرة من الضأن، ثم يوزع الزبيب والمكسرات.. وكل ذلك لإحياء الذكرى العزيزة لديهم، ذكرى خلاص الإسرائيليين من مصر.[260] وتقام صلاة أيضاً حول المائدة تتلى فيها قصة حياة الإسرائيليين في مصر، وتبدأ بسؤال من أصغر طفل يكون حاضراً، وتنشد بعض المزامير في نغمة غنائية، ويقضى بذلك على الطعام والنبيذ، وفي هذا الاحتفال يدعى غير اليهود وتوضع كأس خاصة جانباً باسم النبي إليجا ويترك الباب مفتوحاً عسى أن يحضر ليعلن يوم الرب وذلك عملاً بما جاء في أحد أسفارهم: «ها أنا ذا أرسل إليكم النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف».[261]

وعيد الفصح هو أيضاً عيد الأغنام، تذكيراً برعاة اليهود القدامى، ولذا يكون في مائدة الاحتفال عظام الخراف المطبوخة ثم يأتي عيد الخماسين والكلمة مأخوذة من كلمة خمسين الإغريقية، لأنه بعد خمسين يوماً من عيد الفصح، ويدل على نهاية عيد الحصاد، وفي هذا اليوم يزين المعبد، وتوضع مظلة رمزية كتلك التي كانت تنصب عند حصاد

260 سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 136.

261 سفر ملاخى 5/4.

الكروم أو الخيمة التي كانت تتخذ في رحلة التيه، وتزين المحاكم والحدائق حيث تنصب فيها الخيام والأغصان، ويتناول الطعام هناك لمدة أسبوع، ويزين المعبد بالنباتات والثمار، وتوجد أيضاً الخيام أو الأكشاك مزينة بالنخيل وتسمع صيحات التسبيح.[262]

والأيام العظيمة لديهم والتي يحتفى فيها باحتفالات أكبر هي أعياد رأس السنة وأيام الكفارة والندم على الخطايا أو التوبة، وهذا اليوم أهم الأعياد لديهم ولذا فالذين لا يحضرون في المعبد يوم السبت، لا بد أن يحضروا في هذا اليوم، فيغلقون محلاتهم التجارية ويجتمعون في المعبد. إنه يوم العبادة والتوبة مما يعمل وما لا يعمل من الآثام سواء كانت آثاماً فردية أو جماعية. وتقرأ طقوس الضحية كما هي مسطورة في سفر اللاويين ثم تقرأ العبارة المألوفة: «الله ربنا» سبع مرات، ويروى بها قرن الكبش وينتهي اليوم عند غروب الشمس.

يوم التكفير والغفران:

وهو اليوم العاشر من شهر تشرين، من أهم أعيادهم، وأقدس أيام السنة عندهم، وهو عندهم ذكرى نزول موسى عليه السلام من جبل سيناء ومعه الشريعة، وأعلن لهم فيه أن الله قد غفر لهم خطيئتهم في عبادتهم للعجل، ويبدأ قبل غروب الشمس من اليوم التاسع من تشرين، ويستمر إلى ما بعد غروب اليوم التالي. ويشرع لهم فيه الصيام ويطلبون فيه المغفرة عن الذنوب التي فعلها اليهود، في صلاة جماعية يؤديها الكهنة.[263]

أدوات طقوس يهودية:

تكاد أدوات الطقوس اليهودية تتواجد في كل بيت، وإن كان بعضها يوجد في بيوت المغالين في التديّن فقط؛ وهي تعبّر عادةً عن جوانب مختلفة من العادات والمعتقدات والتقاليد اليهودية. بالنسبة للمتديّنين، تُعتبر أدوات الطقوس اليهودية جزءاً لا يتجزأ من تطبيق الفرائض الدينية اليومية، في حين يعتبرها غير المتدينين تحفاً فنية تحظى بالإعجاب بسبب جمالها أو براعة صناعتها أو مغزاها التاريخي.

ومن المعروف عن الديانة اليهودية أنها تحظر استخدام الصورة أو التمثال. رغم ذلك، أو ربما لهذا السبب بالذات، تطوّرت على مرّ الزمن مجموعة كبيرة من أدوات الطقوس اليهودية التي تستخدم لتزيين الكُنُس والبيوت. وكان الحاخامون اليهود، الذين بلوروا الطقوس والأدوات الطقسية في أوائل العصر الميلادي، قد مجّدوا الجمال. وفي إحدى المناسبات الدينية (في عيد العُرش - سوكوت) يُعتبر السعي وراء الجمال وصية من الكتاب المقدس.

قد تكون أدوات الطقوس مصنوعة من الخزف، الحجر، النحاس الأصفر، البيوتر، النحاس، الفضة والذهب؛ كما أنها قد تكون مصنوعة من الخشب، النسيج، الرقّ، أو غيرها من المواد. وتتجنّب هذه الأدوات أي شكل شبيه بصورة الإنسان، تمشياً مع الحظر الديني على إستخدام الصورة أو التمثال.

الأدوات التي يرد وصفها فيما يلي، يمكن مشاهدتها في الكُنُس وفي البيوت اليهودية. ولها جميعاً استعمالات مختلفة، بل أنها كثيراً ما تُستخدم في الحياة اليومية، وإن كانت تُعتبر جزءاً من الميراث العائلي.

---

262 حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، 303.

263 المرجع نفسه، ص 168-169.

أنظر أيضا: عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الجز 05، ط الأولى، دار الشروق، سنة 1999م، ص 264.

المزوزا:

يأمر الكتاب المقدس اليهود مرتين بأن يكتبوا كلمات الرب على أبواب بيوتهم: "واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك".[264] وأصبحت كلمة "مزوزا" العبرية، ومعناها عضادة، تعني أيضا الغرض نفسه، أي المزوزا ج: (مزوزوت). والمزوزا هي رق مستطيل الشكل تُكتب عليه الجمل الملائمة من الكتاب المقدس.[265] وعلى الجانب الآخر من الرق تظهر كلمة "شدّاي"، وهي أحد أسماء الرب، وتتكون من الحروف الأولى لكلمات ثلاث: "شومير دلاتوت يسرائيل"، أي "حامي أبواب اسرائيل". ويتم لفّ الرق لفًّا شديداً ثم يُعلق على الجانب الأيمن من عضادة الباب في كافة الغرف، فيما عدا غرف الحمام.

ويتم وضع الرق في شق صغير ضيق يُنحت في عضادة الباب ويُغطي بالزجاج، أو في غمد، قد يُصنع من البلاستيك أو من مواد اخرى. وقد يتخذ الغمد أشكالا فنية مختلفة. وبالإمكان مشاهدة نماذج لشقوق في عضادة الأبواب في أحياء يهودية قديمة في اسرائيل، مثل البلدة القديمة في أورشليم القدس، وفي الخليل. وفي بعض الاحيان كان اليهود يستخدمون المزوزا كقلادة حول العنق.

وعُثر على قطعة رق لمزوزا في قُمران (قرب البحر الميت)، حيث كانت فئة يهودية تعيش في القرن الأول ق. م.، ويُعتبر هذا الرق أقدم دليل مادي على هذا النهج. في أيامنا هذه، توجد المزوزا على غالبية عضادات الأبواب في اسرائيل. ونشأت في المجتمع اليهودي المتدين معتقدات متباينة بشان الصفات الخاصة للمزوزا، باعتبارها أداة مقدسة تحمي المكان وأصحابه. وهناك من يمس المزوزا ثم يقبّل أصابعه. ويتم فحص المزوزا مرة كل سبع سنوات للتحقق من كونها سليمة؛ كما يفحصها الكثيرون أو يغيّرونها، في حالة إصابتهم بمحنة شخصية أو جماعية.

طقس وجبة الشبات (السبت):

يوم السبت هو يوم العطلة الرسمية في اسرائيل، وإن كان هناك تبايناً في مدى إلتزام العائلات اليهودية بقدسية السبت. بالنسبة لليهود المتدينين، ترتبط هذه القدسية بطقوس مختلفة، أدّت إلى ظهور مجموعة من الأدوات الطقوسية.

في الكثير من البيوت اليهودية، يُحتفل باستقبال يوم الراحة حين توقد ربّة البيت الشموع يوم الجمعة قبل غروب الشمس بوقت قصير. وتوقَد شمعتان أو أكثر في شمعدان منفرد أو متعدد الشعب. وأحيانا تكون الشمعدانات مزخرفة، وغالباً ما تكون ذات قيمة فنية. ويوضع الشمعدان في مكان يمكن رؤيته منه، لدى الجلوس حول مائدة العشاء. وقبل تناول عشاء ليلة السبت، تتم تلاوة القداس (الكيدوش، أي المباركة على النبيذ)، حيث تُستعمل كؤوس ذات صحون صغيرة، أو بدون صحون. وتكون "كؤوس الكيدوش" عادةً هدايا ثمينة أو جزءاً من الميراث العائلي. وفي كثير من الأحيان يُنحت عليها إسم من تُهدى إليه، والمناسبة التي قُدِّمت فيها إليه.

وتُعتبر الوجبة نفسها مقدسة، إذ يوضع على المائدة رغيفان من الخبز الابيض (حالا، ج: حالوت)، ويُغطى الخبز ساعة تلاوة الكيدوش، بكساء من القماش المطرّز بأشكال جميلة. وفي أحيان كثيرة يُستحدم سكين خاص لقطع الحالا، يكون مقبضه منحوتاً بعبارة "مخصّص للشبات المقدس."

264 (تثنية 9:6 و20:11)

265 (تثنية 4:6-9 و 13:11-20)

مع إنتهاء يوم السبت، تجري طقوس قصيرة تُعرف باسم هفدالا (ومعناها: التمييز، اذ أنها تعلن عن إنتهاء السبت (الشبات) وإبتداء أسبوع جديد). في هذه الطقوس تُستعمل ثلاث أدوات: شمعة متعددة الفتائل، إناء للتوابل، وكأس نبيذ. يجوز إستعمال كأس الكيدوش، إلا أن الكثير من العائلات تحتفظ بمجموعة خاصة للهفدالا، وقد يكون إناء التوابل بشكل قلعة ذات غطاء منفصل. وغالبا ما تكون الأدوات الخاصة بالكيدوش والهفدالا من الذهب والفضة.

طقوس أيام العطلة والأعياد اليهودية:

الإحتفال بالأعياد اليهودية، بكل ما تنطوي عليه من الطقوس، واللقاءات العائلية الاحتفالية، وإعداد الأطعمة الخاصة، هو أمر شائع لدى اليهود المتدينين وغير المتدينين على حد سواء. ويحرص المتدينون على عادات وتقاليد معقدة، في حين يكتفي غير المتدينين بالالتزام ببعض التقاليد المألوفة الخاصة بالأعياد. لذلك فان بعض الأدوات الطقسية الخاصة بالأعياد تكون متوفرة حتى لدى العائلات غير المتدينة.

تُعتبر الحانوكيا (شمعدان خاص بعيد الانوار "حانوكا") من الأدوات الطقسية الأكثر شيوعاً. وتضم الحانوكيا تسع شُعب لحمل الشموع أو الكؤوس الصغيرة من زيت الزيتون. وتُستخدم ثماني شُعب في طقوس إيقاد شموع الحانوكا، أما الشعبة التاسعة، فتكون منفردة عن الشعب الاخرى، وتُستخدم لإيقاد الشموع. وقد تُصنع الحانوكيا من أي مادة غير قابلة للإشتعال مثل المعادن الثمينة، أو من النحاس أو الخشب. ومع اقتراب عيد الأنوار، يقوم تلامذة المدارس عادةً بصنع الشمعدانات الخاصة، أي الحانوكيا .

في ليلة عيد الفصح، تتم تلاوة قصة خروج بني إسرائيل من مصر، التي تُسمى "السيدر". وتُستخدم في ليلة العيد صينية كبيرة، قد تكون مصنوعة من الصيني أو الفضة، وتكون مُقسمة إلى أقسام يُخصّص كل منها لنوع من أنواع الطعام المشمولة في طقوس العيد. ويكون لكل نوع من هذه الأنواع مغزى رمزي يتعلق بالعبودية التي عانى منها بنو اسرائيل، وبتحرّرهم منها. وقد تكون صينية السيدر ذات ثلاثة طوابق، لتوضع عليها الماتسوت (مفرد: ماتسا، أي الخبز غير المختمر، ذكرى للخبز الذي خبزه بنو اسرائيل إبان خروجهم من مصر). وتنطوي طقوس العيد على تغطية الماتسا، ثم كشفها وإخفائها عن الأنظار. ويُستخدم لذلك كساء من القماش أو الأكياس المطرّزة.

قبل حلول عيد العُرش (سوكوت) بقليل، يحرص المتدينون على شراء "الاصناف الأربعة": سعف النخل، الاترج، فروع قصيرة من الصفصاف، والآس؛ وهي الأصناف التي تُستخدم في الطقوس وصلوات الشكر طوال أيام العيد السبعة. ويحرص اليهود المتدينون على أن تكون هذه الأصناف الأربعة سليمة، كاملة الجمال، إذ يُعتبر هذا الحرص جزءاً من فريضة "الأصناف الأربعة". وينطبق هذا الأمر خاصةً على الاترج، وهو نوع من الليمون الذي يتطلب رعاية فائقة. ونشأت عن هذه التقاليد الدينية كتابات معقدة توضح المقوّمات المطلوبة في الأصناف الأربعة. ويتطلب الإلتزام بهذه الفريضة مبالغ كبيرة، قد تصل إلى مئات الدولارات. وقد يوضع الاترج في أواني مزخرفة خاصة، تُصنع من مواد مختلفة .

وتُعتبر السوكا (ج: سوكوت، أي عريشة) ذات قدسية، إذ أنها بمثابة "بيت" له صفة طقسية، تتناول فيه العائلة الوجبات طوال أسبوع العيد، ويجوز للرجال والأطفال المبيت فيه. وتصنع جدران السوكا من الخشب أو القماش، في حين يتم تسقيفها بفروع الشجر، وبسعف النخيل أو بشرائح خشبية. وفي الداخل يتم تزيينها وزخرفتها

بأجمل الزخرفات. وكثيراً من تزيّن السوكا رسومات ترتبط بشخصيات من الكتاب المقدس، "يدعوها" أبناء العائلة إلى السوكا. وأصبح من الشائع في هذه الأيام إستخدام السوكا التي تُباع كطقم، ويمكن إعادة إستعمالها كل عام.

الأغراض الطقسية للصلاة:

يلتزم المتدينون بالطقوس الدينية كجزء من الحياة اليومية، الأمر الذي يتطلب أغراضاً طقوسية شخصية. وتختلف الأغراض الطقوسية التي يستعملها الرجل عن تلك التي تستعملها المرأة. والواقع هو أن غالبيتها خاصة بالرجال لأن الفرائض الطقسية الشخصية تكاد تقتصر عليهم.

تُعتبر الطاقية (بالعبرية: كيبا) الدلالة الخارجية على كون الرجل يهودياً متديناً. الطاقية ليست مقدسة، وقد تكون منسوجة بأنماط مختلفة، منها موتيفات دينية، وأحيانا يُطرّز عليها إسم صاحبها (إذا كان طفلاً). وكثيراً ما يعتمرها الرجال غير المتدينين أثناء الطقوس الدينية.

يلبس الرجال نوعين من الأردية ذات الهُدّاب. الطليت (ج: طليتوت) هو شال الصلاة، وهو عبارة عن رداء بحجم ملاءة صغيرة، مستطيل الشكل، تتدلى من أركانه أهداب (بالعبرية: تصيتصيت)،[266] ويكون الطليت عادةً أبيض اللون، من الصوف أو القطن أو الحرير. وفي كثير من الأحيان يكون مخططاً، إما بخطوط سوداء أو زرقاء. وتكون الأهداب من أربعة خيوط عادية، مربوطة بطريقة معيّنة. قد يكون الطليت مزخرفاً في أركانه وفي البطانة العليا، حيث يمكن تطريز "ياقة" بخيوط فضية أو بشريط فضي تُطرّز عليه أحيانا كلمات التلاوة الخاصة بإرتداء الطليت. ويجوز للرجل إرتداءه على كتفية أو على رأسه، بشكل عباءة.

طقوس في الكنيس:

قد يُقام الكنيس في مبنى عادي أو في قاعة فخمة، وإن كان أحياناً في غرفة بسيطة، أو حتى في ملجأ ضد الغارات. والغرض الطقسي الرئيسي في الكنيس هو خزانة الأسفار، التي قد تكون بشكل دولاب خشبي بسيط، أو خزانة مزخرفة بزخرفات فنية. وتكون خزانة الأسفار عادةً في مكان مرتفع، يوصل إليها درج، كما تكون مزخرفة بأشكال للوصايا العشر.

وتوضع خزانة الأسفار إلى الحائط (أو داخل الحائط) الذي تكون قبلته أورشليم القدس القدس. وتكون وجهتها مكسوة بستارة مطرّزة أو منقوشة، مصنوعة عادةً من القطيفة؛ وأحيانا تكون للخزانة أبواب خشبية مزخرفة. وقد يحتفظ كنيس واحد بعدة ستارات لخزانة الأسفار: ستارة بسيطة للأيام العادية، وأخرى مطرّزة ومنقوشة لأيام السبت والأعياد، وأخرى بيضاء للأعياد التي تتميز بقدسية خاصة.

أهم الأدوات الطقسية هي لفيفة التوراة، أي الأسفار الخمسة التي تسرد تاريخ الشعب اليهودي وتحمل رسالة عالمية تشهد بوحدانية الله وتتعلق بالسلوك الأخلاقي. ويُحتفظ بلفيفة التوراة في الخزانة دائماً، فيما عدا أوقات التلاوة أمام جمهور المُصلين. ولفيفة التوراة هي عبارة عن صفحات كبيرة من الرق حيكت معاً، وقد يبلغ إرتفاعها 80 سنتيمتراً. وتكون اللفيفة مركبة على عصاوين خشبيتين حتى يسهل لفّها ورفعها وحملها. بموجب تقاليد اليهود الأشكناز، تكون مقابض العصاوين مغلفة بتيجان أو بقمم مصنوعة من معدن ثمين. وتكون لفيفة التوراة مربوطة بوشاح، من قماش عادي أو مطرّز، لا يُنزع إلا ساعة تلاوة التوراة على الملأ، كما تغطيها كسوة بشكل ستارة، تكون عادة مطرّزة. ويتدلى من مقابض العصاوين رداء الصدر، الذي يذكر برداء الكاهن الأكبر، ويغطي جزءاً من

266 كما ورد في سِفر العدد: 15: 38-41.

كساء الخزانة. أما لدى يهود الشرق الأوسط (السفاراديم)، فإن لفيفة التوراة توضع في صندوق مخروطي، مصقول ومزخرف، يكسوه عادةً وشاح. وتُصنع معظم الصناديق من الخشب، وإن كانت هناك نماذج من الفضة والذهب.

التعامل مع لفيفة التوراة يتسم بمنتهى الإجلال، ولا يجوز وضعها في مكان قذر، كما هي الحال بالنسبة للتفيلين. ولا يجوز المسّ بالرق الذي صنعت منه لفيفة التوراة، إلا في حالة الضرورة القصوى. ويمسك من يقرأ التوراة بمؤشرة خشبية أو فضية، في نهايتها شكل يد، لها أصبع ممدودة.

قد يحتفظ الكنيس بلفائف إضافية، مثل نشيد الأنشاد، روت، الجامعة، واستير، وهي الأسفار التي تتم تلاوتها على الملأ في الأعياد التالية، حسب الترتيب: عيد الفصح، شافوعوت، سوكوت وبوريم. وتوجد في بعض الكنس خزانة منفردة تحوي لفائف لأسفار التوراة التي تُتلى منها الهفتارا، وهي فقرات إضافية خاصة لأيام السبوت والأعياد. واللفيفة الأكثر شيوعاً، بعد التوراة، هي استير، التي تسرد قصة بوريم. ونظراً إلى أنها لا تذكر إسم الله، فإنها تُعتبر أقل قدسية من غيرها، كما أن نسخها يتطلب مجهوداً اقل. لذلك فإنها توجد في الكثير من البيوت. وتُحفظ في علبة من الخشب أو الفضة، أو من مواد اخرى.

يوضع أمام خزانة الأسفار مصباح فني مزخرف، يرمز إلى "النور الأزلي" في الهيكل المقدس في أورشليم القدس. إلا أن هذا المصباح ليس من الأدوات الطقسية الضرورية في الكنيس.

الشوفار (ج: شوفاروت) هو أحد الأدوات الطقسية التي يحتفظ بها في الكنيس. وهو قرن كبش، يُنفخ فيه في صلاة الصباح أثناء الشهر الذي يسبق عيد رأس السنة العبرية (روش هشانا)، وفي يوم العيد نفسه، وفي يوم الغفران (يوم كيبور). الشوفار لا يكون مزخرفاً عادةً، ولكن يمكن ان تُنحت عليه بعض الرسومات، شريطة أن تظل الفوهة كما هي.

يمكن تزيين جدران الكنيس بأدوات طقسية مختلفة. منها مثلاً ما يسمى بـ "شيفيتي"، وهو صورة فنية للمزامير 8:16، "جعلت الرب أمامي في كل حين" (بالعبرية: شيفيتي)، محاطة بإطار فني. كذلك قد تُعلق على الجدران بيانات تخص الكنيس وجمهور المصلين، وإشارة تبيّن القبلة نحو أورشليم القدس.

في الكثير من الكُنس يوجد كرسي مزيّن ومزخرف بأشكال فنية منحوتة، يبقى خالياً أثناء طقوس الطهور التي تجري للمولود في يومه الثامن. هذه القطعة من الأثاث تُعرف بإسم "كرسي إلياهو هنافي" (كرسي الياس النبي، أي النبي إليشع)، طبقاً لما ورد في سفر ملاخي 1:3، وفيه سُمّي النبي اليشع "ملاك العهد"، بالعبرية: بريت، التي تعني طهور أيضاً.[267]

العناية بالأدوات الطقسية:

الأدوات الطقسية اليهودية تستعمل في الحياة اليومية، لذلك فإنها تبلى. الكتابة على الرق تتلاشى بالتدريج؛ والجلد الذي يصنع منه التفيلين يلتوي ويتلف. كذلك تبلى أهداب الطليت. أما الكتب، خاصةً تلك التي تستعمل في الكنيس، فقد تتمزق بعض من صفحاتها.

هذه الأدوات هي محط إحترام وإجلال، لذلك لا بد من إلتزام الحذر لدى الإستغناء عنها. عندما تصبح غير صالحة للاستعمال، توضع، مثلها مثل أي شيء يحمل إسم الله، في مكان يسمى غنيزا (أرشيف). وحين تمتلئ الجنيزا، تُدفن محتوياتها في طقوس دينية.

267 حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، سنة 1981، ص ص 181-193.

7) العبادات في الديانة النصرانية (المسيحية):

التعريف بالنصرانية (المسيحية):

النصرانية لغة: قيل نسبة إلى نصرانه وهي قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل، وتسمى هذه القرية ناصره ونصوريه، والنسبة إلى الديانة نصراني، وجمعه نصارى.[268]

النصرانية اصطلاحاً: هي دين النصارى الذين يزعمون أنهم يتبعون المسيح عليه السلام، وكتابهم الإنجيل.

وقد أطلق على أتباع الديانة النصرانية في القرآن الكريم نصارى،[269] وأهل الكتاب[270]، وأهل الإنجيل[271]، وهم يسمون أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى المسيح عليه السلام ويسمون ديانتهم "المسيحية."

وأول ما دُعيَ النصارى "بالمسيحيين" في أنطاكية حوالي سنة 42م، ويرى البعض أن ذلك أول الأمر كان من باب الشتم.[272]

ولم ترد التسمية بالمسيحية في القرآن الكريم ولا في السنة كما أن المسيح حسب الإنجيل لم يسم أصحابه وأتباعه بالمسيحيين وهي تسمية لا توافق واقع النصارى لتحريفهم دين المسيح عليه. فالحق والصواب أن يطلق عليهم نصارى، أو أهل الكتاب.[273]

صلب المسيح:

كلما زادت شهرة يسوع في اورشليم، إشتدت مقاومة السلطات الدينية له. ولربما كان دخول يسوع في الهيكل وقلبه للموائد وضربه الصرّافين، السبب المُباشر الذي أدى بالسلطات اليهودية الى أخذ الموقف الصارم ضده. إذ أن الهيكل كان مركزاً إقتصادياً مهماً بالنسبة الى التجار والكهنة والفريسيين الذين كانوا يأخذون حصتهم من التجارة في الهيكل. وكان دخول يسوع الهيكل لآخر مرة راكبا اتاناً، يعدّ عملا مسيحانيّا رمزيا بحسّب التقاليد اليهودية وذلك في أهم موسم من مواسم الأعياد اليهودية وهو عيد الفصح. وكان مؤيدو يسوع قد رتبّوا الفصح في الغرفة العليّة له ولتلاميذه، فيما يُدعى اليوم بالعشاء الأخير. وهناك في العليّة أسس يسوع العهد الجديد الذي يُدعى عهد الافخارستية (القربان المُقدس) بمشاركة تلاميذه، حينما أخذ الخبز وبارك وقال لهم: ((هذا هو جسدي))، ثم أخذ كأس الخمر وقال لهم: ((هذا هو دمي)). ثم قال لهم: ((إفعلوا هذا لذكري)). وكانت الأفخارستية منذ القرن الأول المسيحي، الرمز الأعظم لذبيحة الصليب في المسيحية والى يومنا هذا، يعُاد ذكرها عند غالبية الكنائس المسيحية وهي ذبيحة غير دموية يحتفل بها الكاهن أو المطران مع الشعب المُؤمن كل يوم. وكان يُشكل يسوع خطرا كبيرا على قادة اليهود، إذ كان عمله التخريبي في الهيكل بنظرهم، دليلا كافيا على أنه يشتهي القيادة السياسية للشعب، وخطاباته التي أعلنها أمام الملأ بدنو حكم الله، كانت تتضمن رسالة سياسيّة عميقة ومُخيفة

---

268 انظر: لراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت- لبنان، سنة، 1412 هـ، ص495 .
أنظر أيضا: القاموس المحيط ص622.

269 انظر سورة البقرة، الآيات 62، 111، 113.

270 انظر سورة آل عمران، الآية 64، ثم سورة النساء، الآية 171.

271 أنظر سورة المائدة، الآية 47.

272 قاموس الكتاب المقدس ص889.

273 سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 164.

بالنسبة إليهم. وشكل طرد الباعة والصّرافين من الهيكل تهديداً مُباشراً لهم وللأيمان اليهودي الذي يُمثلونه، لأن الهيكل كان يرمز الى الأيمان اليهودي بكامله وكذلك الى السلطة الدينية التي تديره.

والخطر الثاني الذي كان يُشكله يسوع بالنسبة الى الكهنة والفريسين هو الإعلان عن كون الله هو الآب للجميع وهو قريب في وسط شعبه وليس بعيداً كما كانوا يُصوّرونه. وبهذا المفهوم يكون باستطاعة كل يهودي التقرّب من الله مباشرة. وهذا ما يجعل الشعب في المستوى نفسه مع الكهنة والفريسيّين، من دون وجود طبقات أو درجات، ولا ننسى ما يُشكل فقدان هذه السيطرة على الشعوب من هلع وخوف على الكراسي وعلى المصالح الاقتصادية بالنسبة الى رجال الدين آنذاك. والخطر الثالث الذي كان يُشكله يسوع بالنسبة الى الكهنة والفريسيّين هو أن الشعب كان مُعجَبا بشخصيّته وتعاليمه وعجائبه التي كان يصنعها حتى في الهيكل أمام مسمع ومرأى من القادة والمسؤولين الدينيّين، ولاسيّما قصة الأعمى منذ مولده الذي شفاه يسوع. وكان الحدث مثل الصاعقة على رؤوس الكهنة والفريسيّن، الذين أجروا محكمة على الأعمى وعلى أهله وأرادوا تكذيب الخبر بالقوّة والتزوير ولكنهم لم ينجحوا في مؤامرتهم.[274]

وعلى أية حال، لم تكن كل هذه الأسباب تعني شيئا بالنسبة الى الحاكم الروماني (بيلاطس البنطي) والسلطات الرومانية الأخرى التي لم تكن تهتم كثيرا بالصراعات الدينية داخل المُجتمع اليهودي. وكانت التهمة الثلاثية التي ألصقوها بيسوع، تحريض الشعب ضد الرومان ومنعهم من دفع الضرائب وإعلان نفسه ملكاً لليهود، كانت هذه التهم كافية على إدانته وصلبه بالنسبة الى الرومان. وبالرغم من أن يسوع لم يكن يهتم بتأسيس دولة سياسيّة ولكن تعاليمه الروحية عن الله وحكمه وملكوته على الأرض شكلت تحدياً صارخا بالنسبة الى المؤسسة اليهودية التقليدية وممارساتها السلطويّة اليومية. وكان يسوع قد اتخذ طريقا خطراً لم يكن من السهل الرجوع عنه بسبب وضوح الهدف الذي كان يرمي إليه ألا وهو خلاص البشر جميعا من دون إستثناء.

فكان لابد من التخلص منه بأية وسيلة كانت، حيث أدين وعلق على خشبة الصليب، وكانت هذه الطريقة الرومانية المعروفة في إعدام الأشرار والمُجرمين والثوريّن والخارجين عن القانون. ولربما يتبادر الى الذهن هذا السؤال؟ أما كان بالإمكان أن يفتدي يسوع البشر بكلمة واحدة أو بفعل سجود بسيط بإسم البشرية جمعاء، من دون أن يُقاسي الآلام الفادحة والأهانات القاسيّة. والجواب لهذا السؤال بسيط، وبساطته تكمن في كوّن البشر لا يتأثرون إلا بما يقع تحت الحواس، لكونهم بشرا من لحم ودم تحكمهم الأحاسيس والمشاعر البشرية.

فكان لابد من الموت بهذه الطريقة المؤلمة بسبب فظاعة الخطيئة التي استوجبت التجسّد والموت على الصليب ثمنا للمُصالحة مع البشر الخاطىء، وإلا لما كان للتضحية من معنىً يُذكر، ولا للموت حُبا بالآخرين من هدف يبتغيه الأنبياء والسياسيّون والثوريّون من أجل أديانهم وأوطانهم وشعوبهم من دلالة لها اعتبار.[275]

مفهوم القيامة في المسيحية:

عُلق يسوع على الصليب حتى الموت كما جاء في الأناجيل، وكان على أحد تلاميذ يسوع أن يشتري جسده من الرومان ليسمحوا بدفنه. فوضع جسده في كهف وغطى فوهة الكهف بحجر دائري كبير يشبه حجر الرحى. وحدث هذا يوم الجمعة قبل أن يقبل السبت، وبقي يسوع في القبر الى يوم الأحد، فعندما ذهبت النسوة بحسب

274 شارل جنبير: المسيحية نشأتها وتطورها، المكتبة العصرية، ترجمة عبد الحليم محمود، صيدا-بيروت، ب س ن، ص ص 112-128.

275 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 169-171.

عادة اليهود في اليوم الثالث ليطيّبن جسده، وفي غداة يوم الأحد وجدنَ القبر فارغاً، ثم بشّرنَ بطرس وإخوته)التلاميذ(أن يسوع ليس في القبر. وكان القبر فارغاً، والكفن والمنديل، ملقيان في الداخل. عندئذ فقط، خطرت ببالهما)بطرس ويوحنا(الكلمات التي تنبأ بها يسوع عن قيامته في اليوم الثالث وإنتصاره على الموت. وعندما ظهر لهم وهم مجتمعون، أزال شكوكهم وأوهامهم التي لازمتهم وقال لهم كلماته الأخيرة: «اني قد أُعطيت كل سلطان في السماء والأرض. اذهبوا الآن، وتلمذوا كل الأمم، مُعمّدين أياهم بإسم الآب والأبن والروح القدس، وعلمّوهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل يوم الى منتهى الأجيال».[276]

وكانت قيامة المسيح حدثاً تاريخياً راهناً، بل حدثاً ظاهراً في العلن. الحدث الذي لا مثيل له في التاريخ الإنساني، إذ كيف يُسيطر الموت على من صرّح علانية أنه الطريق والحق والحياة، وكان لا بدّ لمن هو الحياة أن ينتصر على الموت بالحياة، لأن الناس لا يعبدون ميّتا يظل في قبضة الموت، ولا يمكن أن يموتوا من أجله إذا إقتضى الأمر بالشهادة في سبيله كما حدث لمعظم الرسل حيث إستشهدوا وختموا بشارتهم الأنجيلية بدمائهم، وغيرهم كثير من المسيحيين الذين كانوا مستعدّين للموت في سبيل معلمهم القائم من بين الأموات: «فأين نصرك يا موت وأين يا موت شوكتك؟ إن شوكة الموت هي الخطيئة وقوة الخطيئة هي الشريعة، فالشكر الله الذي أتانا النصر على يد ربنا يسوع المسيح».[277]

فالقيامة إذن هي بيان صدق رسالة يسوع ورفعه الى المجد وكشفه عن ذاته وقدرته على الموت والحياة. لأن موته على الصليب كان يبدو لأول وهلة وكأنه دليل على أن الله أباه قد أهمله ولكن في القيامة أظهر الله صدق رسالة ابنه يسوع عندما أقامه من الموت. ونستنتج من كل ما تقدم أن قيامة المسيح أصبحت مصدرا لحياة الله في شعبه وفي العقائد المسيحية والأسرار والطقوس. ولولاها لما كانت المسيحية نفسها ولما كانت الشهادة من أجلها رمزا للبطولة والفداء في أوساط المسيحيين الأوائل. ولا تزال الشهادة جزءاً مهماً من التبشير بالمسيحية الى يومنا هذا، إذ لا يزال يستشهد في سبيلها كل يوم عشرات المُبشرين في كل أصقاع العالم. لأن المؤمن أصبح شجاعا لا يهاب الموت بعد أن تأكد أن معلمه يسوع هو صاحب السلطان على الموت وأنه بقيامته كسر شوكة الموت وغلب الجحيم وصار الموت بالنسبة الى المؤمنين، انتقالا من الحياة الأرضية الزمنية الى الحياة الأبدية.

وجدير بالإشارة أن القيامة أصبحت منذ اليوم الاول من انتشار المسيحية، عيدا تحتفل به المسيحية كل سنة طقسيّة، وهو عيد الغلبة والنصر على الخطيئة، وعيد انتصار الخير على الشر والحُب على البغض والحياة على الموت. وأصبح المسيحيون يتبادلون التحيّة الجديدة (المسيح قام ... حقا قام) ... تحية لطيفة... تحية الاخوّة الحقة، تنبض بالمحبة والتسامح والسلام.[278]

العقائد اللاهوتية المسيحية حول الثالوث الأقدس:

- ✓ تؤمن المسيحية بالتثليث في التوحيد الخالص كما جاء في دستور الايمان في مجمع نيقية (اؤمن بالإله الواحد) الذي يُردّده كل مسيحي من يوم عماده الى يوم انتقاله من هذه الحياة. والتثليث في التعاليم المسيحية في مختلف عقائدها، إنما هو كشف انجيلي لسر الله ولحياته في ذاته.

276 متى 18 /28- 20.

277 كورنثوس الاولى، 55 /15- 57.

278 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 181-183.

- ✓ تؤمن المسيحية أن الظهور الإلهي بلغ ذروته في شخص المسيح يسوع وفي سر التثليث المقدس بالتحديد، وهذا ما كشفت عنه الأناجيل بعد أن مر الكشف سرّا محجوبا عن البشر لقرون وأجيال عديدة.
- ✓ الثالوث الأقدس المسيحي هو الآب والابن والروح القدس في وحدة لا تنقسم ولا تنفصل. والحياة المسيحية بمجملها تستند الى محبة الله الآب التي ظهرت بالابن يسوع(وفي الروح القدس.
- ✓ يرتكز إيمان الكنيسة في الله (جوهر واحد بثلاثة أقانيم)، ثالوث في وحدة ضمن الجوهر الإلهي الواحد. وفي المسيح طبيعتان (إلهية وانسانية)، متحدتان جوهريا في إقنوم الكلمة الإلهي (يسوع المسيح).
- ✓ تؤمن الكنيسة أن التثليث لا يُنقص شيئا من فكرة التوّحيد التوراتية لا بل تؤكده دائما في البسّملة قبل كل صلاة) بسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد آمين(. وهي صفات الأبوّة والبنوّة والحياة القدسيّة في ذات الله الواحدة.
- ✓ تؤمن الكنيسة أن الايمان بالثالوث الاقدس لا ينطلق من النظرة الفلسفية في الذات الإلهية بقدر ما ينطلق من الوحي الإلهي لذاته وسرّه في تاريخ الخلاص المسيحاني، الذي أوحى بنفسه أبا يخلق ويُخلص بكلمته وروحه. وعرفناه عن قرب، وذلك بمجيء ابنه الوحيد في قوله في انجيل متى: «في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال: أحمدك ايها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرّة أمامك كل شيء قد دفع الي من أبي وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له».[279]
- ✓ تؤمن الكنيسة انطلاقا من مفهوم الكتاب المقدس إن الله قد ظهر ظهورا نهائيا في شخص يسوع وأوحى الوحي الأخير في حياة يسوع وأعماله وأقواله. ويتكلم المؤمن المسيحي من خلال يسوع عن الآب. لأنه الكلمة الذي كان منذ البدء لدى الله، به كوّن كل شيء وبدونه لم يكن شيء مما كوّن، فيه كانت الحياة لكونه ابن الله الوحيد الممتلئ من مجد الله، وقد شاهدنا مجده، مجدا من الآب لابنه الوحيد الممتلئ نعمة وحقا. ففي الابن يُمكننا رؤية الآب:((من رآني فقد رأى الآب))، والابن هو إذا صورة الآب والروح القدس هو صورة الابن.
- ✓ يُشبّه آباء الكنيسة من القرون الاولى، الثالوث الاقدس بالإنسان من حيث ذاته وعقله وروحه ومع ذلك هو شخص واحد. والشمس أيضا تشبيه آخر للثالوث الأقدس، الشمس وشعاعها ونورها: هي مع ذلك شمس واحدة. وكما أن الشمس لا تأتي الينا كلها، بل فقط بشعاعها ونورها، كذلك الله الآب يأتي الينا بابنه وروحه فقط.

هذه كانت بعض العقائد اللاهوتية حول الثالوث الاقدس التي تعدّها الكنائس المسيحية حجر الأساس لكل العقائد المسيحية الموحى بها منذ البدء في الأناجيل والكتابات الرسولية، كما تشهد بذلك التحيّة الرسولية في

279 إنجيل متى، 25 /11ـ 30.

المراسلات الاولى بين الرسل مثل ما ورد في رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس[280]: «نعمة الربّ يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس معكم أجمعين».[281]

تصور الخير والشرّ في المسيحية:

تدور في مخيلة كل إنسان أسئلة عديدة حول الكون الذي يحيط به والشمس والقمر والنجوم والكواكب والشر والموت والخلود وعلاقته بالآخر ولاسيّما بالحيوانات والنباتات وبالطبيعة بالعموم وأفعالها وشرورها وقواها المختلفة وعن القضاء والقدر والتخيير والتسيير وغيرها من الاسئلة الاخرى. ونجد في لاهوت الكتاب المقدس، أن الله يظهر أهمية كبيرة للإنسان ولكرامته، فهو لم يخلقه ليكون عبدا الله مسّيرا منه، وانما خلقه لكي يكون حرّا ومُخيّرا في أعماله واختياراته سواء الجيّدة أم الرديئة، للبقاء في حالة النعمة أو في اختيار طريق الخطأ والخطيئة.

ويُركز الكتاب على علاقة الله بالإنسان وعلاقة الرجل بالمرأة، هذه العلاقة التي بدأت وكأنها العلاقة نفسها بين الله وشعب اسرائيل في سيناء، التي يُعبّر عنها بعلاقة العهد (العهد بين الله والانسان)، وهذا العهد يعني أن يكون شعب اسرائيل أمينا مع الله وأن لا يعبُد غيره من الآلهة (لا يكن لك آلهة تجاهي).[282]

فهذه العلاقة أو العهد يُعبّر عنها بأسلوب أسطوري وتعليمي جميل جدا. وهي أن يكون الانسان أمينا للرب، وأن لا يتعدى حدوده المرسومة له. ولكن الخطيئة (الشرّ) وللأسف الشديد يدخل في العالم نتيجة تصرّف الانسان واختياره الحرّ. فالإنسان يخلقه الله في الفردوس ويضعه تحت حمايته (بركته) واذا زاغ واخطأ يخرج من تحت حمايته (بركته)، فحينئذ فقط يشعُر بعريّه (انفتحت أعينهما فعلما أنهما عريانان).[283] وموتا يموت (فأنت يوم تأكل منها موتا تموت)[284] ويقصد بالموت الهلاك الروحي أو الموت الروحي.

والشرّ (الخطيئة) في قصة التكوين التوراتية هو اختيار شخصي للإنسان. وحرمانه من شجرة الحياة كان بإرادته الحرّة وباختياره الخاص ولم يكن بسبب مباشر من الحيّة (المجرّب) ولا بفعل عملها. وأما في الأساطير القديمة، فالإنسان لاحول له ولا قوّة، وهو خادم للآلهة ومجبول بالشرّ من قبل الآلهة، يفقد الخلود بالصدفة المؤلمة.

وهناك تفاسير عديدة في المسيحية للشرّ ومنها التفسير الاوغسطيني في القرن الخامس الميلادي والذي أثر على منهج الكنيسة ولقرون عديدة في الشرق والغرب. وقد انتقلت الخطيئة برأيه من آدم كجد للبشرية الى جميع البشر وان الشهوة الجنسيّة هي نتيجة الخطيئة الاولى وليست من صلب الطبيعة البشرية ويولد الانسان بحسب هذه الفكرة نتيجة للشهوة. وكان الفلاسفة واللاهوتيون قد أتهموا آدم وحواء وحمّلوهم مسؤولية المرض والموت وسائر الشرور الأخرى سواء كانت الطبيعية أو الأخلاقية.

فإذا كان الله ينبوع الخير والصلاح كما تعلم المسيحية، فمن أين جاء الشر؟ ومن أين جاء إذا لم يكن من الله أو من الخطيئة الاولى؟. وإذا قرأنا أمثال يسوع، نرى أن الشر في فكر يسوع هو عدم فعل الخير كما في المثل السامري الصالح (من هو قريبي؟). لأن الغني يحترق في الجحيم ليس لأنه سرق مال الفقير أو أكل حقه، بل لأنه كان قادرا على فعل الخير والمساعدة ولم يُقدمه للعازر المسكين.

---

280 **كورينثوس** مدينة يونانية تقع في وسط جنوب البلاد ضمن منطقة البيلوبونيز الإدارية، وهي مركز مقاطعة كورينثيا ضمن هذه المنطقة الإدارية.

281 كورنثوس2 .13 /13

282 الخروج ، 20/03.

283 سفر التكوين، 23: 3

284 سفر التكوين، 15: 2

وكذلك في مثل الوزنات الذي يُدان لأنه لم يستخدم الوزنة استخداما صحيحيا إذ كان بوسعه أن يُتاجر بها ولكنه دفنها وأعادها كما سلمها. ولم يُعط يسوع تفسيرا للشر بل عمل على إزالته كما في قصة المولود الأعمى الذي لم يخطئ هو ولا أبواه وإنما لتظهر أعمال الله فيه. فما دام النهار ينبغي أن يعمل أعمال الذي أرسله. فسيأتي الليل حيث لا يستطيع أحد أن يعمل.

ونستنتج من هذه القصة أن المرض ليس نتيجة خطيئة الأبوين وليس السبب مهم عند يسوع بقدر ما هو مهم العمل على إزالة الحاجز سواء كان العمي أو الكسح أو أي نوع من العاهة والمرض ليعود الانسان صحيحا كما خلقه الله من دون عاهة ولا مرض.

وعلى أن المسيحية تعلن وبصراحة شديدة أن الله خلق الانسان حرّا وسيّدا له حرية الاختيار في عمل الخير أو الشر. لأن الله خلق الانسان عاقلا ومنحه كرامة شخص يمتلك المبادرة وله السيطرة على أفعاله، وترك في يده الاختيار فيتمكن من أن يبحث هو بذاته عن خالقه. وهذه الحرية تجعله مسؤولا عن أفعاله ما دامت بإرادته، وقد تنقص أو تبطل بسبب الجهل والغفلة والعنف والخوف والعادات والتقاليد والتعلق المُفرط وبسبب عوامل نفسيّة أو اجتماعية أخرى.[285]

الطقوس والعادات المسيحية:

تحتفل الكنائس المسيحية بالمسيح القائم من بين الأموات بطقوس وأسرار وعادات مُختلفة. وتبدو الكنائس البروتستنتية أكثر تحرّرا في عبادتها ومراسيمها الدينية من الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية والمشرقية الآشورية والكلدانية. وهذه نماذج من الطقوس المشتركة بين جميع الكنائس المسيحية.

طقوس الصلاة:

من الممكن إعتبار الصلاة الشخصيّة شيئا مشتركا بين جميع الكنائس المسيحية وهي خلق نوع من الصداقة الحميمة مع الله، بين الأبن وأبيه وبين الخالق والخليقة. وإن المسيح نفسه أوصى بهذا النوع من الصلاة في البيت بعيدا عن التظاهر والتباهي: إذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين فإنهم يحبّون القيام في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم.[286]

فالصلاة الفردية هي مهمّة ومفيدة للمؤمن المسيحي، وأما الصلاة الجماعية في الكنيسة فهي واجبة أيام الآحاد والأعياد في جميع الكنائس المسيحية. وهي تعبير صادق عن إيمان الجماعة الراسخ. وهي الصلاة التي علمّها المسيح نفسه: «أمّا أنتم فصلوا هكذا: أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك، ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، أعطنا خبزنا اليومي، واغفر لنا خطايانا كما نحن نغفر لمن أخطأ الينا، ولا تدخلنا في التجربة، لكن نجنا من الشرير آمين».[287] أو غيرها من الصلوات الاعتباطية التي ترتكز على نفس الأسس للصلاة الربية ولاسيّما في الكنائس الانجيلية.

285 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 186-188.

286 إنجيل متى، 05 /06ـ 06.

287 إنجيل متى، 09 /06ـ 14.

والصلاة الربية هي جوهر الرسالة المسيحية، إذ يتحدث فيها المؤمن المسيحي مع الله ومحبته، وعن غفران الله وثقة المؤمن به وعن محبة القريب والرغبة في الصفح عنه. والمثال الكامل للصلاة كما يقول التعليم المسيحي الجديد هو: (صلاة يسوع البنويّة في الخلوة، سرّا، تقتضي المطابقة الروحية لمشيئة الآب حتى الصليب، والثقة المطلقة بالاستجابة لها).[288] والصلاة التي يُلقنها يسوع يجب أن تكون بقلب نقيّ وإيمان حيّ مثابر وجرأة بنويّة. وتغطي الصلاة المسيحية كل أنواع المناسبات والحاجات الشخصية والعائلية، إذ هناك صلاة تشكرية الله وصلاة الصفح والغفران عن الخطايا وكذلك صلاة الصبح والظهر والمساء وصلوات التبريكات وصلاة الوردية المقدسة (بالنسبة للكاثوليك)، بالإضافة الى التسبيحات والعبادات المختلفة الاخرى.

طقس المعمودية[289]:

يقال قديما: أن الماء هو أصل كل شيء حيّ. وعلى أن هناك حقائق ترتبط بالماء، فالحقيقة الفزيائية تقول: أن الماء يغلي في ١٠٠درجة مئوية، والحقيقة الكيمائية: أن الماء هو :،H2Oوهذا يختلف عن كون الماء مهمّ جدا للعطشان في البرية أو لمن يحترق بيته أو عمّن يسبح ويلهو به في الصيف. ولكن بالنسبة الى الأديان فإن الماء هو رمز للطهارة كما في (الهندوسية واليهودية والصابئة المندائية والاسلام)، حيث أن الماء هو رمز للطهارة من الأنجاس ولهذا يُكثرون من استخدامه في طقوسهم الدينية. وأما في المسيحية فالله هو الذي ينضح على مؤمنيه ماءً طاهرا للتطهير، إذ يقول الكتاب المقدس في سفر حزقيال: «أنضح عليكم ماءً طاهراً فتطهرون من جميع نجاستكم وأطهركم من جميع اصنامكم. وأعطيكم قلبا جديدا وأنزع من لحمكم قلب الحجر واعطيكم قلباً من لحم. وأجعل روحي في أحشائكم وأجعلكم تسلكون في رسومي وتحفظون أحكامي وتعملون بها. وتسكنون في الأرض التي أعطيتها لآبائكم وتكونون لي شعبا وأكون لكم إلهاً».[290]

ويدل الماء الطاهر في هذا المقطع الى العماد، الذي هو رمز مهم جدا للدخول في عائلة الله، إذ به يُصبح المرء ابنا أو بنتاً الله. وهو أول سرّ من أسرار الكنيسة، ويعود بنا الى بدء الأزمنة، الى الحب الإلهي الكامل إذ تقول التوراة في سفر التكوين: «في البدء خلق الله السماء والأرض. وكانت الأرض خالية وخاوية والظلام يغطي الغمّر" البحر". وروح الله يرف على وجه المياه».[291] ولمّا لم يعد بإمكان الإنسان اليوم، أن يرى يسوع أو يلمسه أو يسمع كلام الحياة منه جسديّا، فإنه يستطيع أن يلتقي به بوساطة هذه الأسرار، ولاسيّما في سرّ العماد وسرّ الافخارستية[292] (القربان المقدسL'eucharistie). وفي العماد يُصبح المرء عضوا في جسد المسيح بقوة روح

288 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص 212.

289 المعمودية هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تمثل المعمودية باغتسال المعتمد بالماء بطريقة أو بأخرى. ويعد سر المعمودية أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية وأحد السرين المقدسين في الكنائس البروتستانتية.

290 سفر حزقيال ، 36/ 25 – 28.

291 تكوين، 01/01.

292 سر الأفخارستيا أو سر التناول أو القربان المقدس هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية أو أحد السرين المقدسين في الكنيسة البروتستانتية. وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه (لوقا 19:22 ومتى 26:26 ومر 22:14 و1قور 23:11-25). ويُحتفل بها في جماعة المؤمنين لأنها التعبير المرئي للكنيسة. الاحتفال يكون بصيغة تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز (تعرف بالبرشان) التي تمثل جسد يسوع وأحياناً تذوق أو غمس قطعة الخبز في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع. L'EUCHARISTIE (EN GREC ANCIEN ΕὐΧΑΡΙΣΤΙΑ / EUKHARISTIA, « ACTION DE GRACE ») EST UN SACREMENT CHRETIEN. ELLE OCCUPE UNE PLACE CENTRALE DANS LA DOCTRINE ET LA VIE

القدس، ولا يستطيع أحد أن يُقيّد روح القدس، إذ أنه يهب حيث يشاء، كما وأن الهواء يهب حيث يشاء ولا يستطيع أحد أن يُقيّده. وهو أي سرّ العماد أكثر من علامة انتماء الى ديانة معيّنة، إذ هو التحرّر من الخطيئة ومن الانسان القديم لكي يولد إنسانا جديدا وحرّا، به سوف يدعى المُعمّد ابنا أو بنتا، به سوف ينادي المُعمّد الله (أبانا)، ومن له الله أبُ فهو ليس عبداً.

ويقول الكتاب في سفر العدد: «ثم يأخذ ماءً مقدساً في إناء من خزف ويلتقط بعض غُبار أرض المسكن ويضعه في الماء».[293] وعنصر الماء بالنسبة الى المسيحية هو الحياة كما يقول القديس ترتليانوس[294]. وكان الماء الذي أخرجه موسى من الصخرة لشعب اسرائيل في صحراء سيناء، يرمز الى الايمان وأما الصخرة فإلى المسيح. ومما لا شك فيه، أن العماد أصبح مقدسا في المسيح يسوع بسبب الماء، إذ به اعتمد يسوع على يد يوحنا المعمدان. وعندما تدخل كنيسة ما تجد ماءً مباركاً في قحفة صغيرة على مقربة من المدخل الرئيسي للتبريك ولتنظيف النيّات والتطهير من أرجاس الخطيئة. وتغمس رأس أصبعك الأيمن في القحفة باحترام وأنت ترسم علامة الصليب على وجهك وصدرك قائلا: (باسم الآب والأبن وروح القدس الاله الواحد آمين) وثمّ تدخل الى الكنيسة لتصلي ولا تستعجل في ذلك وانما ردد البسملة بإمعان واهتمام، إذ بها تتذكر عمادك وتُجدّد عهودك وتشكر الله على نعمه الكثيرة لك. ويحدث في بعض الأحيان أن يمد كاثوليكي أصبعه لشخص آخر ليساعده في غمس إصبعه إذا كانت الكنيسة مزدحمة، وهذا شيء وارد ومقبول كنسيّاً. ويُرش الماء المبارك على الشعب في بعض المناسبات في بداية القداس الإلهي ولاسيّما في الطقوس الغربية وبعض الطقوس الشرقية لتذكير المؤمنين بمعموديتهم المقدسة ومحاولة إحياء معانيها في حياتهم اليومية من الايمان بالله الآب والايمان بيسوع المسيح وبروح القدس المحيّ وبالكنيسة الواحدة المقدسة الإلهية وبقيامة الموتى والحياة الأبدية، كما جاء في مزمور داود النبي: «إرحمني يا الله حسب رحمتك، وأمح معاصي حسب كثرة رأفتك. اغسلني كثيرا من إثمي وطهرني من خطيئتي. فإنني أقر بمعاصيّ وخطيئتي ماثلة أمامي».[295]

وإن كان الماء رمزا مهما في العماد، إلا أن المعمودية هي معمودية الروح كما جاء في انجيل يوحنا: «أجاب يسوع وقال له الحق الحق اقول لك ان كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله قال له نيقوديموس: كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ، ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد أجاب يسوع: الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح، لا تتعجب اني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق».[296]

فهي سرّ مقدس من أسرار الكنيسة. والباب للدخول الى المسيحية والى سائر الأسرار الكنسيّة الأخرى، إذ فيها يُصبح المؤمن المسيحي عضوا في جسد المسيح السري (الكنيسة)، أو بالأحرى عضوا في عائلة الله،

293 سفر العدد - الأصحاح 5-17

294 ترتليانوس (TERTULLIANUS) او ترتليان (حوالي 160 - 220 م) مؤلف امازيغى مسيحي مبكر بونيقي، كان اول من كتب كتابات مسيحية باللغة اللاتينية. كان مهتم فى الدفاع عن المسيحية ومعاداة الهرطقات. وشهرته كانت لصياغته كلمة الثالوث (TRINITAS) و ايضا عبارة العهد القديم " VETUS TESTAMENTUM" والعهد الجديد " NOVUM TESTAMENTUM" وقد اطلق هذه التسميات حوالى 200 ميلادية. اعتنق فى اخر حياته مذهب المونتانيه، و قد وصف بأنه اول بروتستانتى.

295 سفر المزامير، 50/01-03.

296 إنجيل يوحنا، 03/03-08.

ويدعى ابنا لله أو بنتا لله. ولا يُمكن للمسيحي أن يُعمّد أكثر من مرة واحدة في الحياة، فهي بمثابة الولادة الطبيعية التي تكون مرة واحدة ولا تعاد ثانية. ولهذا تسمى بالولادة الثانية أو الولادة الروحية.

وتعمّد معظم الكنائس المسيحيّة الأطفال، فيما عدا المُهتدّين الجُدّد الذين يُعمّدون بعد حصولهم على الدروس الضرورية، ويُسمّون قبل عمادهم (الموعوظين). وأما الأطفال المعمّدين فإنهم يمرون خلال دروس التناول الأول والتعليم المسيحي بعد سن البلوغ ليكونوا جنودا روحانيّين للمسيح ويصيرون واحدا في المسيح يسوع، في كيانه وحياته وموته وقيامته وفي ما يُسمى)سرّ التثبيت.(ويُصبح المرء في المعمودية، منتميًا الى عائلة ثانية، ويقول الله أثناء العماد للشخص المُعمَّد ما قاله ليسوع يوم عماده: «أنت ابني الحبيب، الذي به سررت».[297]

وجدير بالإشارة، أن معظم الكنائس البروتستانتية، لا تعمد الا البالغين. وحجتها هي حتى يكون لهم نوع من حرية الاختيار. وأما الكنائس التقليدية (الكاثوليكية والارثوذكسية والكنائس الشرقية الآشورية) فهي تعمد الأطفال وحجتها في ذلك هي:

- ✓ أن المعمودية هي تتمة العهد الذي قطعه الله مع ابراهيم.
- ✓ أن الطفل هو (هي) ثمرة حب الوالدين، والمعمودية هي تقدمة شكر الوالدين الله.
- ✓ المعمودية هي سر الانتماء الى جسد المسيح السري، أي سر العضوية في عائلة الله. ولا يوجد مانع من عضوية الأطفال الى هذه العائلة.
- ✓ المعمودية هي انقاذ الأطفال من الخطيئة الاصلية (خطيئة آدم وحواء) ولم يعد هذا التعليم منتشرا في أكثر الكنائس التقليدية.[298]

سر التثبيت:

التثبيت هو سرّ من أسرار الكنيسة، يُعطى للبالغين في الكنائس الغربية وأما في الكنائس الشرقية فيُعطى مع سرّ العماد. ويمرّ المُعمدّون البالغون من الكاثوليك واللوثريّين والانكليكان[299] في دورات تعليمية عن الأيمان والعقيدة قبل حصولهم على هذا السرّ. والتثبيت بالنسبة الى العماد هو كالنمو بالنسبة الى الولادة. وأما في الكنائس البروتستانتية الأخرى فلا يُعدّ التثبيت سرّا، بل هو علامة يُعطونها للمعمّد وذلك للدلالة على العضوية الكاملة في الكنيسة، وهي علامة تقويّة وتجديديّة في سن الوعي والنضوج الايماني. وأما في الكنيسة الكاثوليكية فهو سرّ الشراكة الكنسيّة والرسالة المسيحية التبشيرية والعمل الكاثوليكي. والمؤمن المُثبت في الكاثوليكية هو جندي للمسيح يسوع، عليه أن يأخذ دوره في التبشير في الايمان المسيحي. ويلتقي الأسقف أو المطران مع الأولاد ومع

297 إنجيل مرقس، 01/11.

298 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 213-216.

299 الأنجليكية أو الأنجليكانية هي تقليد داخل المسيحية، يضم كنيسة إنجلترا والكنائس التي ترتبط بها تاريخيًا، أو تحمل معتقدات ذات صلة وثيقة بها، مثل كنيسة كندا الأنجليكانية والكنيسة الأسقفية البروستانتية في أميركا وكنيسة اسكتلندا الأسقفية. يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، وتكتب باللاتينية ECCLESIA ANGLICANA وتعني: الكنيسة الإنجليزية. تستخدم لوصف الناس والمؤسسات والكنائس فضلًا عن التقاليد الدينية والطقوسية والمفاهيم المتقدمة التي انشئت في كنيسة إنجلترا الانجليكانية والكنائس الانجليكانية المستمرة (أي الجماعات المنتسبة لمجموعة من الكنائس المستقلة التي انفصلت عن الاتحاد الانغليكاني نتيجة للاختلافات المذهبية والطقسية مع مختلف الدول). في بعض أجزاء العالم، تعرف الانجلكانية بالاسقفية. الايمان الانغليكاني هو واحد من أكبر العقائد البروتستانتية. الكنيسة الانغليكانية تعتبر نفسها جزءا من الكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية، كما وان البعض منهم يعتبرون كنيستهم كاثوليكية وتم إصلاحها. (ويكيبيديا).

آبائهم وأمهاتهم لطرح الأسئلة حول الأيمان والروح القدس ورسالة الكنيسة. وحضور الأسقف للمشاركة في هذا السرّ هو تعبير عن وحدة الجماعة.

وما ترمز اليه المسحة في سر التثبيت كما جاء في التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، بالختم الروحي، وبها ينال طالب التثبيت سمة الروح القدس للانتماء الكامل الى المسيح والتطوّع لخدمته على الدوام.[300]

طقوس الزواج:

تحترم المسيحية الزواج احتراما شديدا وترفعه الكنائس التقليدية الى مستوى السر (الرباط) المُقدس، ويجدون فيه سرّ اتحاد الله بالبشرية في شخص الأنسان يسوع (الإله المتجسّد) وكما أن المسيح متحد بكنيسته فهكذا يتحد الزوج بزوجته وهما (الرجل والمرأة) مدعوّان الى أن يحبّ أحدهما الآخر كما أحب المسيح كنيسته. ويقسم من خلاله المتزوّجون أمام الله والكهنة والشمامسة[301] والشعب المؤمن باحترام هذا القسم الى اليوم الأخير من حياتهم كما قال في انجيل متى: «وجاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل ان يطلق امراته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم ان الذي خلق من البدء خلقهما ذكرا وانثى وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وامه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق؟ قال لهم: ان موسى من أجل قساوة قلوبكم اذن لكم ان تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا وأقول لكم: ان من طلق امراته الا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني والذي يتزوج بمطلقة يزني قال له تلاميذه: ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج، فقال لهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين اعطي لهم لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون امهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس ويوجد خصيان خصوا انفسهم لأجل ملكوت السماوات من أستطاع أن يقبل فليقبل».[302]

فالكنيسة تفسّر الزواج على انه سرّ الشركة العميقة الذي أسسه الله وهو إذا ليس مؤسسة انسانية أو عقد مدني، لأن الله الذي وضعه من منطلق حبه للإنسان المخلوق على صورته ومثاله وضعه وأسسه وباركه

---

300 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص 217.

301 الشماس هو خادم الكنيسة وهو من يقوم بمعاونة الكاهن في أداء الخدمات الدينية والصلوات الكنسية، وقد ورد ذكر وظيفة الشماس لأول مرة في سفر أعمال الرسل (أعمال الرسل 6). حيث تم اختيار عدد من المؤمنين واشترطت فيهم اشتراطات معينة للقيام بعدد من الخدمات، وكانت الخدمة الاجتماعية هي أولى مسؤولياتهم للحد من انشغال الرسل الأوائل بالخدمة الدنيوية على حساب الخدمة الدينية الروحانية والخدمة الكرازية، ثم تحولت تلك الوظيفة إلى رتبة من رتب الخدمة الكهنوتية وهي (الشموسية).

هي ادنى الرتب الكهنوتية الثلاث في الكنيسة وتعلوها على الترتيب رتبة (القسيسية- قس) ثم رتبة (الاسقفية-أسقف)، ويعرف أصحاب تلك الرتب بالإكليروس، وهي كلمة يونانية يقصد بها خدام الكنيسة من اساقفة وقساوسة وشمامسة.

كما تنقسم رتبة الشماسية نفسها إلى خمسة درجات كل منها لها صلاحياتها ودورها في الخدمة ،و هي بالترتيب التصاعدي كالتالي :

الابصالتس (المرتل): وعمله الترتيل وحفظ الالحان.

الاناغنوستيس (قارئ): وعمله تلاوة القراءات اليومية في الكنيسة، تلاوة أسماء الاباء البطاركة الذين رقدوا في الرب، التسبيح وترديد الالحان، الوعظ والتعليم.

الايبوديأكون (مساعد الشماس): وعمله ايقاد سرج الكنيسة، حفظ كتب الكنيسة وثياب الكهنة والخدام، تعمير المجامر، يساعد الشماس (الديأكون) وينوب عنه إذا دعت الحاجة، إلى جانب كل مهام الاغنسطس

الشماس (الديأكون): إلى جانب الوظائف السابقة فيقوم الديأكون بالتنبيه على المصلين ببدء الصلوات وحفظ النظام والسكون أثناء الصلاة، تنظيف الهيكل وترتيب المذبح، قراءة الإنجيل في القداس الالهي، خدمة الارامل والمرضى والمحتاجين، الوعظ والتعليم، يتلو المردات من داخل الهيكل، يشترك مع الكاهن في جميع الصلوات الطقسية الأخرى كالعماد واللقان..

الارشيديأكون (رئيس الشمامسة):لا يقل عمره عن 28 سنة وان يكون ملما بكل وظائف المرتل والاغنسطس والايبوديأكون والديأكون وعمله يرأس جميع الرتب الشماسية ويدبر امورها ويحدد لها اعمالها، في حالة الضرورة يمكنه المساعدة في التناول بأذن من الكاهن.

302 إنجيل متى، 19/01-12.

قائلا لهم: «أنموا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها».[303] وهو سرّ فرح ورجاء، حُب مدهش ودائم، يجد فيه المؤمن الوحدة والأمانة والخصب وعدم انفصام مدى الحياة، كما يؤكد التعليم المسيحي الجديد في الفقرة ١٦٠١: «إن عهد الزواج الذي به تقوم بين رجل وامرأة شركة تشمل الحياة كلها، وتهدف، من طبيعتها، الى خير الزوجين والى إنجاب البنين وتربيتهم، قد رقاه المسيح الرب، بين المعّمدين، الى كرامة سرّ».

كما وإن في الكاثوليكية والكنائس التقليدية احتراما شديدا للذين كرسوا أنفسهم للدرجات الكهنوتية والرهبانية من الرجال والنساء، الذين اختاروا البتولية طريقا للتعبير عن الحب البشري الله ولكنيسته وهو عطية يقبلونها من الله أو هي دعوة الهية: «لستم أنتم اخترتموني لكن أنا اخترتكم».[304]

طقوس الموت:

يؤمن المسيحيون أن الموت هو بداية الحياة الجديدة وليس نهاية كل شيء. وأن الحياة على الأرض ما هي إلا زمنية مؤقتة، لأن المسيح علم في كل مواعظه عن الحياة الأبديّة لكل المؤمنين به. ولما كانت الحياة في المسيح هي تضحية وزهد يومي لكي تزداد الحياة ازدهارا، فهكذا هو الموت، حبا بالحياة الجديدة والدخول اليها طوعا وفرحا. عليه أن يستعد الأنسان المؤمن للموت استعدادا جيدا، لأن الموت يأتي بغتة، لا يعرف الانسان متى وأين وكيف يكون، ولا يوجد شخص في العالم ينكر هذه الحقيقة. إذ يترك المؤمن كل شيء وراءه والى الأبد ويترك كذلك جسده فريسة للديدان والفساد، ولكن الأمل بعد الموت هو القيامة، حيث السعادة الأبدية التي لا يأكلون فيها ولا يشربون وإنما فرحا يفرحون وتسبيحا يُسبّحون الله. وجميع الناس مدّعوون الى سلوك هذا الطريق، لأن الرجاء بالحياة الأبدية هو لكل الناس، والمسيح مات من أجلهم جميعا: «ليجمع في الوحدة جميع أبناء الله المتفرقين».[305]

ويشرح بولس الرسول القيامة من بين الأموات شرحا تفصيليا إذ يقول: « ولكن إن كان المسيح يكرز به انه قام من الأموات، فكيف يقول قوم بينكم ان لا قيامة للأموات؟ فان لم يكن للأموات من قيامة، فلا يكون المسيح قد قام، وان لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا وباطل أيضا إيمانكم، فنكون نحن أيضا شهود زور على الله، لأننا شهدنا من جهة الله انه أقام المسيح وهو لم يقمه، وان لم يكن المسيح قد قام فباطل ايمانكم ... فما المنفعة لي ان كان الأموات لا يقومون، فلناكل ونشرب لأننا غدا مائتون».[306]

فبحسب هذا النص، ان الايمان بالقيامة هو ايمان جوهري في المسيحية، لأن الموت هو نهاية الرحلة على الأرض، وهو نهاية زمن النعمة والرأفة الذي يُقدمها الله للإنسان لكي يُحقق حياته على الأرض وفقا لقصده الإلهي. وبسبب هذه التعاليم عن الموت وقدسيّته، رتبّت الكنائس المسيحية طقوسا وليتورجيات[307] عن الموت والتحضير له، إذ تحتفل بعض الكنائس)التقليدية(بالموت في يوم خاص في السنة والذي يقع في 16 فيفري

303 سفر التكوين، 28/01.

304 إنجيل يوحنا، 16/15.

305 إنجيل يوحنا، 52/11.

306 كورنثوس، 12/15-32.

307 الكلمة اليونانية "ليتورجية" (الليتورچية "ليتورچية" - جمع ليتورچيات) أي "خدمة"، يُقصد بها العبادات والصلوات الاجتماعية بكل انواعها ولكن استقر الرأي على إطلاق هذا الاصطلاح على القداس الإلهي تحديدًا.

(شباط) من كل سنة، وهناك طقوسا مميّزة لهذه المناسبة حيث يذهب المؤمنون الى المقابر مع كهنتهم لتقديم الدعاء والصلوات من أجلهم.[308]

طقوس الاحتفالات والأعياد:

غالبا ما تعبر الأديان عن عقائدها وتاريخها الفكري والروحي العريق بخلق نوع من المناسبات والاحتفالات لتذكير الناس والأجيال القادمة بمعناها ومغزاها الروحي والانساني. ونجد في المسيحية الشيء نفسه، إذ أن الأعياد والمناسبات الدينيّة، إنما هي مرآة صافية تعكس التعابير الروحيّة الصادقة عن تلك المناسبات الغنيّة بإرثها الروحي والفكري والحضاري.

- **عيد القيامة:** عيّنت الكنيسة رسميّا تاريخ عيد القيامة يوم الأحد الذي يقع بين 23 مارس (آذار) و 24 أفريل (نيسان) - يختلف تاريخ هذا العيد في بعض الكنائس- ويحتفل المسيحيون بعيد القيامة منذ اليوم الأول من تأسيس ديانتهم. وكان العيد الوحيد الذي يحتفلون به في القرن الأول، إذ كانوا يحتفلون به كل يوم أحد من خلال الذكرى الاسبوعية، ثم في موسم الفصح المجيد، وذلك في شهر أفريل (نيسان) من كل سنة، ويُسمونه العيد الكبير أو عيد الأعياد. وكانوا يُعبرّون فيه عن فرحتهم بتحقيق الخلاص لهم، بعبورهم من الخطيئة الى النعمة ومن الظلمة الى النور.

يترافق عادات العيد زيارات عائلية وتناول غداء الفصح معاً. اللون الأصفر والطاغي لم يرتبط تاريخياً بالفصح، إنّما ارتبط بنظرية الخصوبة وخصوصاً عودة الدجاج لوضع البيض وتفقيس الفراخ وتكاثر أرنب الفصح في الأساطير الشعبية.

الزينة بألوان زاهية تطبع أجواء المتاجر والبيوت بما تحمله من رمزية للفصح، فالبيض بألوانه المختلفة ومفارش طاولات السفرة والمحارم بألوان الربيع هي عادات موغلة في القدم، تكثر العادات وتتعدد الألعاب التي غالباً ما ينتظرها الصغار صبيحة عيد الفصح.

ما تزال عادة تلوين البيض مستمرة حتى يومنا، فتعج المتاجر الخاصة ببيض طبيعي وغيره من الصناعي واليدوي بأسعار باهظة، بينما يقدم للأطفال بيض فصح مصنوع من الشوكولاتة. يرتبط أرنب الفصح أيضاً بقصص شعبية عن أنه يأتي بالبيض للأطفال، ومنذ عام 1600 ارتبط الأرنب بالفصح في لعبة انتقلت من ألمانيا تسمى لعبة "البحث عن الكنز". تلك لعبة يمارسها شعب دول الشمال الإسكندنافي في الفصح متنقلين في الغابات القريبة من سكنهم مع العائلة والجيران لإمتاع الأطفال بالبحث عن الكنز الذي عادة ما يحتوي على بيض وشوكولاتة لهم مربوطة بما يضعه الأرنب هناك.

وفي العالم المسيحي يرتبط لحم الضأن بالفصح ارتباطاً وثيقاً لا يمكن أن يمر بدونه. والحمل مرتبط بعديد القصص لكن أهمها تبني المسيحية في أوروبا المسيحية لقصة الفصح اليهودي والتي تقول بأن النبي موسى طلب من اليهود في مصر دهن دم الخراف على أبواب بيوتهم حتى ينجوا من عقاب الله المنزل ضد مصر. لكن الحمل أيضاً ارتبط لاحقاً بالكنيسة التي رأت فيه رمزية للمسيح الذي ضحى بنفسه لأجل الإنسان.[309]

308 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 220-221.

309 رالف جور: العادات والسلوكيات في أزمنة الكتاب المقدس، ترجمة ماريان منير، مراجعة برسوم فكري، الجزء الثاني، مطبعة دير الشهيد العظيم مارينا العجائبي بمريوط، سنة 2015، ص ص 131-174.

▪ عيد الميلاد:

كانت الشعوب الاوروبية تحتفل في هذا اليوم بولادة الشمس التي لا تقهر، كما واحتفلت الكنيسة بولادة المسيح لكون المسيح هو شمس الحق والنور الذي لا يُغلب، وذلك في يوم الانقلاب الشتوي الذي يقع في 25 ديسمبر (كانون الأول)، تحتفل الكنائس الاورثوذكسية والمشرقية القديمة والكنيسة الأرمنية والروسية في يوم 02 جانفي(كانون الثاني) بحسب الطقس القديم.

▪ الدنح:

كانت الكنيسة تحتفل في يوم 06 جانفي (كانون) الثاني بعيد الميلاد وعيد الغطاس أو عماد يسوع المسيح، بداية السنة الجديدة، ثم بمرور الزمن أصبح المسيحيون يفصلون بين الميلاد والعماد. وأصبح 06 جانفي (كانون الثاني) يُسمى بيوم الظهور الإلهي أو عيد تكريس المياه أو عيد الغطاس فيما عدا الكنائس الارثوذكسية.

▪ عيد السعانين:

يقع في الأحد الأخير من نهاية الصوم الأربعيني وفي بداية اسبوع الآلام وهو عيد دخول المسيح الى اورشليم ويُسمى بأحد الشعانين أو أحد الزهور أو أحد الأغصان. وهو تعبير يرمز الى دخول المسيح الى الهيكل ليطهّره من الباعة والتجار وكأنه يدخل قبل الفصح والقيامة الى قلوب المؤمنين ليطهرّها من النجاسات والفسق والنميمة.

▪ عيد الفصح:

يقع هذا العيد في يوم الخميس وهو اليوم الأخير من الصوم الأربعيني، تحتفل فيه الكنيسة بذكرى العشاء الأخير ليسوع وتلاميذه (ذكرى تأسيس القربان المقدس) ويتم فيه تقديس الأدهان للعماد والميرون (التكريس) وسرّ مسحة المرضى.

▪ الصعود:

وهو يوم صعود المسيح الى السماء ويقع أربعين يوما بعد القيامة ويسمى بخميس الصعود او عيد الرش في الطقوس الشرقية.

▪ العنصرة:

هو عيد حلول الروح القدس على التلاميذ أو عيد ميلاد الكنيسة، ويسمى بعيد الخمسين (خمسين يوما بعد القيامة). وهو كمال الدورة الطقسيّة لأعياد القيامة في الكنائس الرسولية. ويسمى بعيد الحصاد في القديم أو عيد البواكير الأولى.[310]

8) العبادات في الديانة الإسلامية:

شيء من التاريخ:

كان العرب مثل غيرهم من الأمم يعبدون الطبيعة وقواها وظواهرها المختلفة، إذ كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويصنعون لها التماثيل ويتشفعون بها. وكان لهم في مكة 365 صنما في الكعبة وحولها، يُقدسونها ويُقدمون

310 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 222-223.

القرابين لها في أيام الحج وفي الأيام الاعتيادية. وكان تأثيرهم بالأديان الأخرى كبيراً، إذ كانت اليهودية قد انتشرت في الحجاز واليمن ويمتد نفوذها من يثرب حتى تيماء في أقصى حدود الحجاز الشمالية مع سوريا. ولهم عشائرهم المنتشرة في الجزيرة العربية، مثل بني قريظة في يثرب من جهة الجنوب الشرقي، وبني النضير من جهة الغرب. وكان تجمعهم الأكبر والأهم في شمال الحجاز، في ما يُسمى بمنطقة الخيبر. وكانت هناك مناطق مسيحية في شمال الحجاز وجنوبها وفي اليمن وعلى طول ساحل الخليج. وكانت تنتشر الديانات الاخرى مثل الديانة الحنيفية التي كانت تؤمن بإله ابراهيم وتحارب الأوثان والعادات الجاهلية وكذلك الديانات الزرادشتية والصابئية والمانوية(المسيحية ـ الزرادشتية) والمسيحية النصرانية (النصارى) والتي كانت تتمركز في مكة ولها أسقف في عهد النبي محمد (ص) وهو القس (ورقة بن نوفل) الذي كان من القريش. وكان لهذه الأديان تأثير ولا سيّما في نشر عبادة الله الواحد ونبذ العادات الجاهلية القديمة وترك عبادة الأوثان.

الإسلام (المصطلح والمفهوم):

الاسلام هو (التسليم الكامل الله) وهي كلمة عربية من مصدر أسلم يسلم فهو مسلم ويعني: الاستسلام والانقياد. وأما المعنى الاصطلاحي للكلمة، فهو اظهار الخضوع للشريعة ولما أتى به النبي محمد (ص). ويؤمن المسلمون أن مصدر الاسلام هو وحيّ مباشر من الله الى النبي محمد (ص)، وهو النبي الأخير في سلسلة الأنبياء: آدم ونوح وابراهيم ويعقوب ويوسف وهارون وداود وموسى وعيسى. ويعتقد المسلمون أن الوحي الى محمد (ص)، كامل ونهائيّ وأن الشريعة الاسلامية هي أعدل الطرق وأوضحها وأكثرها فعالية في الوصول الى الغاية.[311]

يعني القرآن الكريم في استعماله لكلمة الاسلام الى حالة الإنسان الذي يُسلم أمره الله ويُطيعه في كل شيء. فكل من يُطيع الله هو مسلم حتى وإن لم يتبع دين محمد (ص). ولكن المصطلح انحصر استعماله اليوم في الجماعة التي تتبنى الموقف الإيماني للقرآن الكريم. وهو مسلم إذن من يتلو الشهادتين ويلتزم بالأركان الاسلامية الخمسة.[312]

فكرة الله في الاسلام:

إن نظرة الإنسان إلى الآلهة، واختيار ما يؤمن به ويطيعه، يختلف باختلاف عرقه وجنسه وقضاياه وبيئته زمانا ومكانا، تساوقا مع تطور عقله ورقي مخيلته، وطبقا لنمو معارفه واتساع مجالات ثقافته، ولعل هذا ما أفضى إلى تلون الآلهة وتعددها وتباينها في الماهية والوظيفة والمنزلة في وسط المجتمع العربي قبل الاسلام، وهو ما يبرر كثرتها وتنوعها وتوزعها الجغرافي وتباين أدوارها فقد كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، إلا أن هذا الصنم قد أطلقوا عليه مرة اسما مجردا وأخرى إلها وتارة ربا مجسدا.

فهل يمكن أن نقول إن مفهوم الله يعتبر امتدادا واستمرارا لصيغة إله التي هي بدورها كانت نتاجا لصيغ متعددة؟ وهل الله بما عرف به من صيغة مخصوصة عند العرب قبل الاسلام يمثل تقاطعا مع إله النصارى واليهود وبقية الديانات التاريخية الأخرى؟ وهل ثمة بعض الائتلاف والاختلاف بين الصيغتين الإله والله؟

311 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص 301.

312 المرجع نفسه، ص 299.

تعد اللغة مناخا من مناخات المقدس، بل من خلالها يتبدى المقدس، وهي موصولة بالدال والمدلول، إذ تتصل اللغة بالأسطورة من حيث هي شكل من الأشكال التي يتجلى فيها المقدس، مثلما يتجلى في النصب والشجر والحيوان والوثن والصنم، ومن حيث تماثلها البنيوي. وعلى هذا الأساس لا يمكن أن نتحدث عن مفهوم الله دون أن ننطلق من اللغة ونعود إليها، فكلمة الله في اللسان العربي مأخوذة من "أَلَهَ وأصله: أَلِهَ يَأْلَهُ، إذا تحير، يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله".[313]فعبارة إله قريبة جدا من اسم الله، بل قد نجد هذا اللفظ يطلق بصفة عامة على الكائنات المعبودة بصورة دورية ومنتظمة، وفي أمكنة وأزمنة معلومة، فاللات إله، "إن ربكم كان اللات"[314]، ويغوث إله، وسواع إله،[315] هذه نماذج من أسماء لبعض الآلهة العربية المنتشرة في الجزيرة، وقد يطلق عليها إلها وأحيانا لفظ الله، بل قد تحيل الأسماء العربية المركبة قبل الإسلام على لفظ الله، وإن ليس بالضرورة أن العنصر الإلهي في الاسم هو عنصر عبادي، فنجد الكثير من الأسماء المتواترة مثل زيد الله، أمة الله، عبد الله الذي تسمى به والد محمد نبي الإسلام،[316] فلو لم يكن هذا الإله موجودا، كيف تسمى عبد الله بهذا الاسم؟ زد على ذلك، وجود المسيحيين واليهود في الجزيرة العربية، وإن عرفت هذه الطوائف ألوهيم وليس لفظ الله إلا أنه قد يشي بهذا المهنى، فوجود عبارة الله فترة ما قبل الاسلام كان متداولا، وإن غياب الدليل أحيانا لا يدل بالضرورة على غياب المدلول، باعتبار أن كل المؤشرات ترجح في ضوء المادة التاريخية المتوفرة، وما آلت إليه الحفريات وعلم الآثار، وفي ضوء ما هو معقول أنثروبولوجيا وإبستمولوجيا، وفي ظل المقاربات اللغوية، أن هذا اللفظ كان موظفا ومستعملا، وإن كان من غير «المتحقق قطعا متى ظهر الرمز اللغوي الله لأول مرة في التاريخ اللغوي البشري على وجه التحديد، هناك بالطبع مؤشرات وتقديرات متفاوتة كثيرا أو قليلا، إذ معظمها يعيد نشوء هذا الرمز أساسا إلى الحضارات التي تواجدت في بلاد الرافدين، في الفترة الواقعة ما بين أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وأواسط الألف الثالث قبل الميلاد».[317]

يدور كل شيء في الاسلام، حول الله. واسم (الله) هو آرامي وعربي، ويستخدم بالصيغة نفسها في المسيحية الشرقية، وفي بعض الطوائف اليهودية الشرقية كالسفردية[318] والمزراهية. ولله في الاسلام (٩٩إسما) وهي في الحقيقة صفات الله في معظمها كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَالله الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ

313 لسان العرب، ج 13، ص 369.

314 محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي أبو الوليد، أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ج 1، الطبعة الأولى، دار الأندلس للنشر - بيروت، سنة 2004، ص 126.

315 هشام بن محمد بن السائب الكلبي أبو المنذر، كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة، سنة 1995، ص ص 9-10-16-57.

316 المرجع نفسه، ص 28.

317 الدروبي محمد، اللغة والإله (تشخيص لغوي للمقولات الدينية المركزية)، دراسات عربية، العدد 1و2، السنة السادسة والثلاثون، نوفمبر ديسمبر، دار الطليعة، بيروت-لبنان، سنة 1999، ص 40.

318 **السفرد أو السفرديون** (وبالعبرية تسفارديم) هم أصلاً يهود إسبانيا وحوض البحر المتوسط. وأما الآن فينطلق هذا الأسم على كل اليهود الشرقيين في المجتمع الإسرائيلي. أي اليهود الذين ليسوا من أصل غربي (رَ: الأشكنازيون). وكلمة سفرد تحمل دلالة دينية إلى جانب دلالتها الاجتماعية، لأن الطقوس الدينية السفردية، وهي استمرار للتقاليد الدينية اليهودية التي نشأت وتطورت في بابل، تختلف في بعض الوجوه عن التقاليد الأشكنازية. وجدير بالذكر أن عبرية السفرد مختلفة عن عبرية الأشكناز لمجاورة الأولى للغة العربية وبأثرها بها. ولكن هذا لا يعني أن هناك وحدة لغوية بين السفرد، فاللغة العبادة بالنسبة إليهم هي العبرية (رَ: اللغة العبرية). ولكن هذا لا يعني أن هناك وحدة لغوية بين السفرد. فلغة العبادة بالنسبة إليهم من العبرية (رَ: اللغة العبرية). ولكن لغة الحديث تختلف من أقلية سفردية إلى أخرى، فهي عربية بالنسبة إلى اليهود العرب، ويونانية إلى يهود اليونان. وهكذا.

يُلْحِدُونَ فِي أَسمائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.[319] ويتكلم ثُلث القرآن الكريم تقريبا عن الله وعلاقته بالخليقة وتعاليمه وصفاته. بيد أن كل سورة من سور القرآن تبدأ بالبسملة: (باسم الله الرحمن الرحيم) وان صفاته الجوهرية هي الرحمة والقوة والحكمة وغايته الأساسية هي هداية الناس ونشر الحق والعدالة بينهم. ولا يعترف القرآن الكريم بفكرة تجسد المسيح. ويُعلم بأن إله الاسلام والمسيحية واليهودية هو إله واحد: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.[320] ويكافئ الله الأبرار مكافأة عظيمة. كما يُدين الأشرار دينونة مُخيفة يذوقون نارا وسعيرا تحرق أجسادهم وتأكل أعضاءهم. ولكنه الرحمن الرحيم الذي يغفر التائب إذا تاب.[321]

محمد خاتم النبيئين والرسل:

ولد النبي محمد (ص)، يوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول سنة 570 ميلادية. ونشأ في بطن من بطون القريش، بني المطلب من بني هاشم بن عبد مناف. وكانت عشيرته القريشية تسكن جنوب الحجاز بقرب مكة التي كانت المركز الديني والتجاري في الجزيرة العربية. وكان النبي يُمارس العمل منذ بكورة طفولته ويقضي في الصحراء صباه، وأصبحت الصحراء بالنسبة إليه المدرسة الاولى التي تعلم من شمسها الحارقة ولياليها الباردة، الشيء الكثير. وتزوّج من خديجة بنت خويلد، الأرملة الثرية وانتقل بعد زواجه الى بيتها، وهو في الخامسة والعشرين من عمره والتي تكبره بخمسة عشر عاما. وأنجبت له 06 أطفال، مات 05 منهم في مرحلة الطفولة فيما عدا فاطمة الحبيبة الى قلبه.

كان في سفراته التجارية الى سوريا وفلسطين يلتقي باليهود والمسيحيين ويُناقشهم في أيمانهم بالله والأنبياء. وزاره الملاك جبريل حينما كان يعتكف للصلاة في غار حراء وأوحى له بالقرآن من سنة 610 ميلادية الى أن توفاه الله. ولبث يدعو الناس في مكة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. وآمن به نفر من الأصدقاء والأقرباء ومن ضمنهم زوجته خديجة التي كانت من المؤمنين الأوائل بدعوته، وابنته فاطمة وصديقه أبو بكر الصديق، وابن عمه علي ابن أبي طالب وابنه زيد بالتبني.

هاجر المسلمون الى المدينة المنوّرة (يثرب) في 16 جويلية من سنة 622 ميلادية وذلك بسبب التحرّشات والاضطهادات التي واجهوها من أهل مكة. وبدأ التقويم الهجري منذ ذلك التاريخ. وفي سنة 630 ميلادية زحف النبي على مكة ودخلها من دون مقاومة وبدأ بتحطيم التماثيل الوثنية في كعبتها. و قام بعد ذلك بتوحيد العشائر العربية تحت راية روحية واحدة. وفي 632 ميلادية قام بحجته الأخيرة مع أربعين ألفا من أتباعه وتوفى بعد تلك الحجة في سنة 11 هجرية الموافق 07 جوان من سنة 633 ميلادية وعن عمر ناهز الثالثة والستين، دون أن يترك ولداً ذكرا يخلفه.

---

319 سورة الاعراف، الآية 180.

320 سورة العنكبوت، الآية 46.

321 للتوسع في فكرة الله أنظر: يوسف شلحد، بنى المقدس عند العرب قبل الاسلام وبعده، تعريب خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1996، ص 70.

ثم أنظر: الساسي بن محمد الضيفاوي، ميتولوجيا آلهة العرب قبل الاسلام، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء-المغرب، سنة 2014، ص 88.

العقائد في الإسلام:

يأتي تعريف)العقيدة(في الاسلام من الجانب اللغوي الى الفعل)عقد(وهو العهد واليمين ومكانه القلب والعقل والضمير والتصديق بها والثبوت عليها. وأما من الجانب الاصطلاحي: فالتصديق بالعقيدة والاطمئنان اليها يقينا بالبرهنة والاستدلالات العقلية والحسيّة والطبيعية من دون ريب هو التعريف الأقرب لها. وتسمى العقائد الاسلامية الشريعة التي تخاطب جميع الناس وهي في نظر العلماء المسلمين نزلت بلسان عربي مُبين لكي يفهمها الناس جميعا باختلاف طبقاتهم ودرجات فهمهم وقابلية إدراكهم. كما وتوجد مفاهيم فقهية وعقائد ايمانيّة، تساعد المسلمين في التقرّب الى الله والى بعضهم البعض مثل أغلب الديانات في العالم. وفيه أيضا موجبات العقيدة، التي تفرض الإيمان بالله وبرسله وملائكته. والايمان بأن محمدا رسول الله، هو خاتم الرسل والأنبياء. والقبول بالأنبياء الذين سبقوه وبكتبهم المقدسة وبالجنة والنار.

ومن هذه المفاهيم والعقائد:

- ✓ الايمان بالله في الاسلام هو الايمان المطلق في التوحيد، الذي لا أول له ولا آخر. وليس كمثله شيء، محيط بكل شيء، يُحيّ ويُميت وكل شيء هالك إلا وجهه الكريم السرمديّ، الذي لا يحدّه الماضي والحاضر والمستقبل.
- ✓ الايمان بالله هو التسليم المُطلق والثقة الكاملة به، لا يحتاج الى دليل أو إثبات لوجوده لأنه فوق الأدلة. وفي هذا النوع من الإيمان تختلف درجات المؤمنين قوّة وضعّفا بحسب قابليّات المؤمنين الفكرية وبحسب تجاوبهم معه.
- ✓ تشمل العقيدة القرآنية على كل مجال من المجالات الحياتية لإدارة الدولة والمجتمع. كما وتشمل أنواع العقوبات ضد المخالفين للقانون والمجرمين والقتلى والسكارى والمعتدّين والسارقين والزواني. وتشمل أيضا على قوانين الميراث والزواج. والتفاصيل الاخرى حول الصوم والزكاة والحج والممارسات اليومية لهذه العقائد والشرائع.
- ✓ يُقدر عدد الأنبياء في القرآن الكريم بخمسة وعشرين نبيا ورسولا ومن هؤلاء الأنبياء، آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى. وهم معصومون من الخطأ، مرتبتهم أعلى من مرتبة الملائكة. فهؤلاء ثماني عشر وهناك سبعة رسل ذكروا في آيات اخر وهم: آدم وهود وصالح وشعيب وادريس وذو الكفل والنبي محمد (ص). والايمان بجميع هؤلاء الرسل والانبياء واجب على كل مسلم ومسلمة .
- ✓ يؤمن الاسلام بظهور الملائكة للأنبياء بهيئة البشر، وهم ينقلون للبشر الرسالة السماوية. ويوضح القرآن بعض خصائصهم، فهم لا يأكلون ولا يشربون بحسب القرآن(ولا توجد بينهم الفروقات الجنسيّة. والملاك جبريل هو رئيسهم والمُتحدّث باسم الله. وأما عزرائيل فهو ملاك الموت، الذي يستلم الأنفس البشرية. وإسرافيل، الملاك المسؤول عن القيامة بعد الموت. وسرافيم، الملاك الذي يُسبّح الله ويحسب على الناس خطاياهم. وعدد كبير من الملائكة والمخلوقات الروحيّة التي تملأ الفضاء.

- ✓ يؤمن الاسلام بوجود القوى الشريرة بقيادة رئيس الشياطين (ابليس) الذي كان قريبا من الله يوما ولكنه سقط بسبب عدم بيعته لآدم، وكذلك يؤمن الاسلام بوجود الجّن التي هي مخلوقات ناريّة تستطيع أن تأكل وتشرب وتموت وهي من العوالم الغيبيّة، إذ ورد ذكرهم في القرآن الكريم ولهم قدرات خارقة وهم مأمورون بالعبادة الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾.[322] ومنهم المؤمنون والكافرون، ويُحاسبهم الله على أعمالهم.
- ✓ يُعلم الاسلام بأن الديانة هي واحدة منذ آدم والى اليوم وقد بشرّ الأنبياء المرسلون من قبل الله بالرسالة نفسها للبشرية، ولا فرق بينهم، فهم إخوة وأمهاتهم شتى ودينهم واحد: «سُنة من أرسلنا قبلك من رسلنا، ولا تجد لسُنتنا تحويلا».
- ✓ صوّر القرآن اليهودية والمسيحية على أنها الديانات الابراهيمية وأتباع اليهودية والمسيحية هم من أهل الكتاب، ويُفرّق في تعامله بينهم وبين الوثنيين.
- ✓ يؤمن الاسلام بالإنسان وبأنه مخلوق على صورة الخالق ولكنه لا يعرف الخطيئة الموروثة وهو يرتفع في المقام الى القمة)قمة الخليقة(، الى مقام الملائكة. ويهبط في المقام، الى مقام الشياطين (أسفل السافلين). فالإنسان الأول، لا تدينه خطيئته أبدا ولا تدين أبناءه: ﴿وعصى آدم فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى.[323] أو في الآية من سورة التين: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددّناه أسفل سافلين، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.[324] فالشرّ إذا هو مشكلة شعورية في جوهرها.
- ✓ يُعلم القرآن الكريم عن القضاء والقدر ويسمي هذه الحقيقة (بالقدرية). فالله عليم بكل شيء ويُتابع الأمور الدقيقة التي هي نابعة من إرادته ولا يخفى عليه شيء: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.[325] فكذلك الحوادث التي تصيبنا فإنها تعدّ ضرورية الوجود، وهي تتحقق لأنها جزء من نظام الخلقة وفقا للقضاء الإلهي المُعيّن والمرسوم لها من قبل الله. وتؤكد كذلك الاحاديث النبوية هذا الامر كما جاء في صحيح مسلم في قوله: (ونؤمن بالقدر خيره وشره).
- ✓ يُحرّم الاسلام الخمر وهو من أشد الجرائم في نظر الشريعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.[326] ويُحرّم بيعها والمُتاجرة بها، ولكنه يُجيز على المسلم أن يشرب منها ما يأمن به من الموت عطشا إذا كان في الصحراء القاحلة. كما ويُحرّم الميسرة ولحم الخنزير والدم ولحم الميّت،

322 سورة الذاريات، الآية 56.
323 سورة طه، الآية 122.
324 سورة التين، الآيات 4-5-6.
325 سورة القمر، الآية 49.
326 سورة المائدة، الآيات 90-91.

ويُجيز أيضا أكل اللحم الحرام فقط لكي ينقذ الانسان نفسه وعائلته من الموت جوعا في حالة المجاعة الشديدة يُحرّم الاسلام الربا أو الزيادة في الفائدة النسبية المضاعفة تحريما شديدا لكونها تنافي الشريعة في معناها وصورتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[327]

- ✓ لا إيمان بدون الأعمال الصالحة. فالإيمان والأعمال الصالحة شرط أساسي للفوز بالجنة: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة﴾.[328] ولهم من عند الله مغفرة وأجر كبير وكل أنواع الملذات من حور عين الى مآكل دائمة لا تنتهي وظلال وارفة وأنهار عذبة وغرف ومنازل وفرش مرفوعة وأسرّة مصفوفة وزرابي مبثوثة.
- ✓ على كل مسلم أن تكون له أعمال البر المختلفة لكي يكون مسلما صالحا ومنها الإحسان الى ذوي القربى واليتامى وأبناء السبيل والسائلين وإطعام المساكين، لأن الله مع المُحسنين. ومن يعمل حسنة في هذه الدنيا يزيد الله له فيها أو يُضاعفها حسنا، لأن الله يعلم ما تعمل من خير ولا يخفى عليه شيء ويُعطيك أجره. أما الذين ضلوا السبيل، فسيطرحهم في النار الموقدة ويكون حسابهم عسيرا وينبذهم نبذا أبديا، وحينئذ لا تغنيهم أموالهم ومناصبهم وعروشهم.[329]

العبادات في الاسلام:

توجد في جميع الأديان طقوس أو دعائم أو أساسيات لا بد من ممارستها من قبل الأتباع لكي يكونوا أتباعا حقيقين. وتسمى في الاسلام (أركان الدين) وهي خمسة: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلا».

1. **الشهادة:**

الشهادة هي تعبير ايماني عن الحقائق أو هي تصريح بما يؤمن به الانسان من دون تردد أو خوف، وبنيّة صادقة ولغرض صالح. أي أن تقول الحق وأن لا تقول إلا الحق. وهي في الاسلام شهادة مهمّة للدخول فيه والانتماء إليه. وتدعو الناس الى الخروج من طور العبودية العامة للدخول الى طور العبودية الخاصة لله الخالق الذي: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[330] وهي الركن الأول الذي تقوم عليه أركان الديانة الاخرى، وبغيره لا يكون المرء مسلما.

2. **الصلاة:**

الصلاة هي فعل يُحاور المؤمن من خلالها مع الله، وغرضها الحقيقي، إنما هو تعظيم الله، بالخشوع والخضوع لعظمته الخالدة، لأن الصلاة تنهي عن الفحشاء وتبعد عن المُنكر. فهي تهذب النفوس وتقوّم الأخلاق. ويُنظر الي

---

327 سورة آل عمران، الآية 130.

328 سورة البقرة، الآية 82.

329 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 312-315.

330 سورة الحديد ، الآية 3.

القرآن على أنه كتاب صلاة وعبادة ومنهج دين ودستور دولة. ويُصلي المسلمون، خمس مرات في اليوم: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.[331] وعلى المسلم أن يُؤديها في أوقاتها وأن لا يستهين أو يتكاسل عن إقامتها. وتضبط أوقاتها اليوم بالساعات الفلكية المنضبطة وتتوزع في وقت الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والصبح. ومن أنكر كونها فرضا بحسب السُنة والائمة، فهو مُرتد عن دين الاسلام بلا خلاف.

ويجتمع المسلمون في يوم الجمعة في المسجد للصلاة الجماعية. كما يستطيع المسلم أن يُصلي في كل مكان طالما فيه الماء للوضوء وإن لم يكن الماء موجودا فالوضوء بالرمل يُكمل الصلاة. والوضوء هو فرض يبدأ بغسل الوجه واليدين الى المرفقين ومن ثم غسل الرأس كلا أو بعضا وغسل الرجلين الى الكعبين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ رُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[332] ويدعو المؤذن المؤمنين الى المسجد للصلاة مُناديا: (الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمدا رسول الله. حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح. الله أكبر. لا إله إلا الله)، ويتبعه الإمام الذي يقود الجماعة في الصلاة ومن ثمّ الخطيب الذي يخطب في الجماعة. وقد يُمارس الإمام نفسه في بعض الأحيان، كل هذه المهام وبحسب حاجة الجماعة وبحسب حجمها. كما وليس في الاسلام كهنوتا كما في المسيحية واليهودية، ولكن الامام يُمارس المهام نفسها، مثل الزواج ودفن الموتى. وهو قائد للجماعة في خصوص التشريع والقانون والعادات الاجتماعية. وتتجه المساجد عادة نحو مكة، التي هي قبلة المسلمين أينما كانوا في العالم، وهم يصطفون في المساجد بنظام وترتيب ليقفوا في حضور الله ويُسبّحوه ويُمجّدوه في صلوات مستمدّة من القرآن الكريم.

3. **الزكاة**:

هي ركن مهّم من أركان الاسلام غايتها التقرّب الى الله وتوزيع الثروة بصورة عادلة في المجتمع الاسلامي. وعلى الدولة الاسلامية الحق في جبايتها وجمعها بالقوّة من الممتنع عن دفعها، وعليها مقاتلة الجماعات التي تمتنع من دفعها لأنها فرض إلهي بالضرورة كما جاء في الكتاب: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.[333] وشروطها هي البلوغ والعقل والاسلام، إذ لا يمكن جمعها من الصبي ولا من المجنون. كما لا يُمكن جمعها من المرتد أو الكافر.

4. **الصوم**:

كان الصوم معروفا عند الكثير من الديانات القديمة. ولغويا هو الإمساك عن قول أو فعل شيء ما. وأما شرعا، فهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع (المفطرات) من الصبح الى المغرب (يوما كاملا). وهو صيام مفروض على كل مسلم صحيح البدن وخال من الأمراض في الشهر المقدس وهو شهر رمضان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ

331 سورة النساء، الآية 103.

332 سورة المائدة، الآية 6.

333 سورة البقرة، الآية 110.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[334]وهو شهر الجهاد والكفاح، الذي أوحى الله فيه بالقرآن للنبي محمد: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ الله عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[335] ويستعمل المسلمون التقويم القمري في تحديد توقيته ولذلك يختلف توقيته كل سنة. وثبوت تحديده هو رؤية الهلال إذا كانت السماء خالية مما يمنع الرؤية من غيم أو دخان أو غبار. و الطريقة الأخرى لثبوته هو إكمال شهر شعبان ثلاثين يوما إذا لم تكن السماء خالية مما ذكرنا.

5- **الحج**:

الحج هو فرض على كل مسلم، ذكرا كان أم أنثى كما يذكر القرآن الكريم: ﴿والله على الناس حج البيت من أستطاع إليه سبيلا﴾.[336] وشروطه هي أن تكون مسلما، إذ لا يجوز على المرتد أو الغير المسلم أن يحج الى البيت الحرام. ومن الشروط الاخرى للحج هي البلوغ في العمر. إذ لا يجوز على الصبي الذي لا يفهم الدين أن يحج، ولا يصح كذلك على المجنون، فهو مثل الصبي الغير الناضج في العمر. كما ولا يصح الحج لمن لا يستطيع ماديا أو بسبب وجود عائق يمنع الابتعاد عن العائلة أو البلد الذي يعيش فيه.

ومن طقوس الحج الدوران حول الكعبة سبع مرات مع تقبيل الحجر الأسود. وهو اجتماع ديني كبير إذ يجتمع فيه المسلمون من جميع أنحاء العالم الاسلامي في مهبط الوحي ومهد الرسالة. وهو برهان على الرابطة الدينية القويّة بين المجتمعين من مختلف الأجناس البشرية. ويحج المسلمون الى (الكعبة) في مكة وهي المدينة المقدسة المعروفة في الحجاز.

ويقوم أكثر من مليوني مسلم برحلة الحج الى مكة في السعودية كل عام، والحج في الاسلام هو بمثابة الولادة الجديدة. ويلبس الحاج قطعتين من القماش الأبيض من دون غطاء للوجه ومن دون ملابس داخلية أثناء القيام بمراسيم الحج وأما بالنسبة الى النساء فيلبسن ملابسهن الاعتيادية ولكن بدون مكياج أو أي نوع من أنواع التبرّج. وهم يقضون فترة في مكة والمدينة. إذ يدخلون المسجد في مكة مستخدمين الرجل اليُمنى أولا، فتبدأ الرحلة الإيمانية للمسلمين بين الصفا والمرّوة وبين مكة والمدينة للتقرّب الى الله الواحد والتأمل والصلاة وطلب الغفران والتكفير بالشيطان، رجالا ونساء من كل الأجناس البشرية، وذلك رمزا الى الوحدة والألفة والوقوف أمام الله في عفة وطهارة ويبدأ الحج رسميّا في الثامن أو التاسع من شهر ذي الحجة الذي هو الشهر الثاني عشر في السنة القمرية الاسلامية والذي يبدأ برؤية الهلال. وهو فرض على كل مسلم قادر على إدائها.

334 سورة البقرة، الآية 183.

335 سورة البقرة، الآية 185.

336 سورة آل عمران، الآية 97.

تصور الجن والملائكة في الاسلام:

يؤمن الاسلام بوجود الجن والشياطين وهناك أدلة عديدة على وجودهم في الاسلام. فالجن اسم جنس للجمع، واحده (جني) ومعناه لغويا (الشيء المستتر) وهي أجسام نارية مخلوقة من نار السموم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾.[337] ومنهم الصالح والطالح ومنهم محب للخير أو كاره له. ويسمى الكفرة المتمردون من الجن بالشياطين الذين يوسوسون في صدور الناس، الذين هم من ذرية إبليس.

وأما الملائكة فخلقت من نور وهي تستطيع أن تتشكل بصور الانسان فهم إذن مخلوقات نورانية ليس لها جسم مادي فلا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون بعكس البشر والجن. وهم كلهم مؤمنون صالحون إذ يُسبحون الله الليل والنهار ولا يفترون ولا يعصون له أمر ويفعلون ما يُؤمرون.

الطقوس والعادات في الاسلام:

تتميز الديانة الاسلامية بوجود طقوس وعادات كثيرة لغرض التقرّب من الله وتقوية إيمان المؤمنين كما في الأديان الاخرى التي تحاول أن تمارس طقوسا مختلفة للتعبير عن عقائدها وشرح أسرارها. فعندما يولد طفل في العائلة المسلمة مثلا يُحاول أحد الأقرباء أن يُردّد الشهادة في أذني الطفل. كما ويُختن الطفل الذكر بعد اليوم السابع من عمره وعلى أن لا يتجاوز الثاني عشر من عمره.[338]

وأما الزواج فهو عقد مهم يقرّه القرآن ويُشجّعه كما ويمنع القرآن العزوبية وعدم الزواج. والآباء هم المسؤولون في اختيار الزيجات لأولادهم برضى الطرفين في طبيعة الحال. لأن الزواج في الاسلام هو أكثر من اتحاد شخصين، فهو بالأحرى اتحاد عائلتين. والزواج ليس طقسا كما في المسيحية، وإنما هو عقد علاقة بين الرجل والمرأة. ولا يحتاج المسلم أن يذهب الى المسجد للزواج وإنما يُمكن عقده في البيوت أو الأماكن العامة مع وجود شخص مسؤول وبوجود شاهدين. ويُسمح للمسلمين بالطلاق ولكنه من أكره الحلال عند الله. كما ويسمح بتعدد الزوجات، ولكن على الرجال أن يعدلوا بينهن ويوفرّوا لهن العيش الكريم: ﴿فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مَثنى وثلاث، ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾.[339]

الأعياد في الاسلام:

كانت تكثر الاعياد في العرب قبل الاسلام، فمنها الدينية والشعبية والمحلية. ومنها الخاصة بالآلهة مثل اللات والعزّى ومناة الثالثة. وكانت العرب تحتفل بها لتعظيم الآلهة والأصنام التي تمثلها و كذلك لتعظيم الكعبة المشرفة. وكانت العرب تلعب وتمرح وتلبس أجود الملابس وتنشد الشعر والرقص بالسيف. ومنع الاسلام هذه العادات كلها بعد مجيئه وأعطاها صفات روحية بعيدة عن الروح الوثنية. وبقيّت هذه الأعياد حيّة في الاسلام ولكن بمفهوم جديد لتمجيد الله وعبادته ولتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين. وتسمى اليوم بالذكر وهي فرصة لهداية الناس وتثقيفهم روحيّا وتقريبهم من الله. ومن الأعياد الاسلامية:

337 سورة الحجر، الآية 37.

338 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص 330.

339 سورة النساء، الآية 3.

Siteweb :www.dernounisalim.org Email : s.dernouni@univ-biskra.dz / anthropders@gmail.com
http://elearning.univ-biskra.dz/moodle/course/index.php?categoryid=243

- ✓ المحرّم: وهو الشهر الاسلامي الأول في التقويم الاسلامي، والرمضان هو الشهر التاسع وهو الشهر الذي يصوم فيه المسلمون البالغون من الأكل والشرب والتدخين من الفجر الى غروب الشمس.
- ✓ ليلة القدر: هي الليلة التي يُقرّر فيها الله مصير المؤمن ومصير العالم ولهذا يقضي معظم المسلمون هذه الليلة في الصلاة وقراءة القرآن وذلك في السابع والعشرين من شهر رمضان)شهر الصوم.)
- ✓ عيد الفطر: يحتفل المسلمون به في ختام شهر رمضان وهو عيد مهّم جدا في الاسلام، إذ يتبادل فيه المسلمون الهدايا ويُقدّمون التهاني بعضهم لبعض.
- ✓ عيد الاضحى المُبارك: هو عيد القرابين، ويؤمن المسلمون أن ابراهيم الخليل قدم في هذا اليوم ذبيحة حيوانية الله بدلا من ابنه اسماعيل البكر. لذلك يحتفل المسلمون بذبح الحيوانات على شكل قرابين الله. ويقع هذا العيد بعد صوم رمضان.
- ✓ الاسراء والمعراج: يقع في 27 من شهر رجب وهو الشهر السابع من التقويم الاسلامي، واليوم الذي صعد فيه النبي محمد في لقاء الله الذي علمه الصلاة وهذا ما يُسمى(المعراج). وأما الإسراء فهو توجه النبي ليلا من مكة الى بيت المقدس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.[340] ويقترب النبي من الله اقترابا خاصا لكي ينال البركة وما يلزم من الهداية والعون لإنجاز المهمّة النبوية.
- ✓ المولد النبوي: يحتفل المسلمون في عيد ميلاد النبي محمد (ص) الذي يقع في يوم 12 من الشهر الثالث. وهو عيد شعبيّ منتشر في العالم الاسلامي، حيث يجلس المؤمنون في حلقات دائرية، يُسبحون الله ويرتلون التسابيح لتمجيد النبي. وأما بالنسبة الى التقويم الاسلامي فهو تقويم قمري أنشأه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وجعل من هجرة الرسول الى المدينة نقطة الانطلاق للسنة الجديدة ولهذا سمي بالتقويم الهجري. ويتكون من ١٢شهرا قمريّا ومن ٣٥٤يوما. وأما الشهر فيتكون من 29 أو 30 يوما، والفرق بينه وبين التقويم الميلادي هو 11 يوما.[341]

V. الممارسات الدينية بين المحلي و الكوني:

1. الحج والسياحة الدينية:

عرف الانسان السفر والترحال منذ بداية وجوده على هذه الرض، حيث كان يسعى وراء طعامه وشرابه، وكانت التجارة وأداء الطقوس الدينية هي الأغراض الأولى التي دفعت الإنسان إلى السفر والترحال من منطقة إلى أخرى، وتاريخ السفر ارتبط بظاهرة الحج في العصور الوسطى Medieval Pilgrimage والتي يعبر عنها في الوقت الحاضر بـ Holydays أو الأيام المقدسة، حيث المصطلح المشتق من مقدس Holy ويوم Day، هذا النوع من الرحلات شكل النواة الولى لظاهرة السفر غير العشوائي والذي تطور حتى وصل في يومنا هذا إلى ظاهرة منظمة هي الحج، حيث يسافر الملايين سنوياً لأداء فريضة الحج والعمرة.

340 سورة الاسراء، الآية 1.

341 صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، ص ص 331-333.

تعد السياحة الدينية من أقدم أنواع السياحة ومن أهمها وكذلك أكثرها اتساعا حيث كان كثير من السائحين ومنذ القدم يندفعون باتجاه المعابد وأماكن خاصة لغرض ممارسة بعض الطقوس الدينية أو إيفاء النذر أو لشفاء مرضى على اختلاف المعتقدات والديانات ثم تطورات إلى زيارات منتظمة في أوقات محددة على وفق تعاليم ومناسك معينة كالحج والعمرة وزيارات المراقد المقدسة، ويتميز هذا النوع من السياحة باستمراره على مدار السنة ويكون بأعداد غفيرة ولمدة قصيرة كما أن السائح الديني يتميز بقلة تأثره بالحالة المادية مقارنة بالسائح غير الديني على الرغم من ضعف الحالة المادية في بعض الأحيان حيث أنه يقوم بالتوفير على طول السنة أو أكثر لغرض تأمين مبلغ كلفة أداء الحج والعمرة والزيارات الأخرى.

ويعد الوازع الديني من الدوافع التي تدفع الإنسان للسفر، وتقوم السياحة الدينية سواء كانت داخلية أم خارجية على العاطفة الدينية والرغبة في إشباع هذه العاطفة. وتعد العقيدة الدينية من العوامل البشرية الهامة المؤثرة في السياحة الدينية. إذ أن الرغبة في زيارة الأماكن الدينية المقدسة تمثل دافعا كبيرا لاتجاه أعداد غفيرة من السياح إلى أماكن محددة من العالم وخلال فترات معينة كما هو الحال بالنسبة لاتجاه المسلمين إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج خلال شهر ذي الحجة من كل عام وزيارة قبر الرسول (ص) في المدينة المنورة.

يقدر عدد الحجاج بما لا يقل عن ثلاثة ملايين سنويا، فضلا عن الأعداد الكبيرة التي لا تنقطع طول العام لأداء العمرة ولا سيما خلال شهر شعبان ورمضان، وهذه ظاهرة فريدة لا يوجد لها مثيل في عالمنا المعاصر من حيث ضخامة التجمع البشري في مكان محدد بالسعودية.

ومن الأماكن ذات الأهمية الدينية عند المسيحيين والمسلمين زيارة المسجد الأقصى في القدس الشريف، وبيت لحم والناصرة في فلسطين، كما أن لوجود المراقد المقدسة والمزارات الدينية أثرا مباشرا في نشاط حركة السياحة الداخلية ومثل هذه الأماكن ما هو موجود في العراق من مراقد الأنبياء والأولياء والأئمة المعصومين عليهم السلام في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. وتتم هذه السياحة بالانتقال لزيارة الأماكن ذات التاريخ الديني والتي تعد زيارتها حجا أو نوعا من ممارسة التعاليم الدينية. ويقوم هذا النوع من السياحة على المعتقدات أو الاتجاهات الدينية حيث يقوم بها الناس من أتباع دين معين إلى أماكن مقدسة عندهم خلال فترات محددة من السنة لممارسة بعض الشعائر أو تنفيذ بعض التعاليم الدينية. هذا النوع من السياحة تنفرد به بعض دول العالم وتأتي في أولها المملكة العربية السعودية المشهورة بالمعالم الدينية عند المسلمين والمتمثلة في الحج والعمرة. كما نجد المعالم الدينية المسيحيين في المدن المقدسة بفلسطين وللمسيحيين الكاثوليك بالفاتكان بإيطاليا. فيكون الدافع روحيا وعقائديا لأداء فريضة وواجب ديني بقصد الحج وتكون لزيارتهم دقوس دينية وأصول سلوكية محددة.

وعليه فإن السياحة الدينية يعول عليها دائما، وهي في تزايد مستمر إن لم تعرقلها قرارات أو مواقف سياحية تحد أو تمنع انتقال السواح من بلد إلى آخر، والمقصود أنه إذا توجهت الدول الإسلامية نحو الاهتمام بهذا القطاع لضمنت تدفق السواح في المناسبات الدينية أو حتى على مدار السنة.

مفهوم السياحة الدينية:

السياحة الدينية-:

حكاية حج هي مقاربة أنثروبولوجية عميقة، تعتمد المشاركة والمعايشة الميدانية، لطقس ديني تتحكم فيه الشروط الثقافية والاجتماعية للمجتمعات الإنسانية التي يقرر أفرادها أداء هذه الفريضة وتدين دين الإسلام، وتبرز

فيه التفاعلات التاريخية، حيث يؤثر الماضي في الحاضر ويحتكم الحاضر للماضي. فالباحث الأنثروبولوجي هذه المرة يبرز أكثر قوة، متسلحا بمناهج العلم ووسائله التي تعين على تفكيك هذه الأنساق المترابطة من الممارسات والسلوكيات والأفعال، التي تتخذ مظاهر ملموسة في مواقع متعددة، حيث تصبح الملاحظة وقت الفعل إمكانية متاحة، فالأنثروبولوجي هنا يجب عليه أن يراقب الفعل وقت وقوعه، ليتمكن من ضبط التوجه العام له، والذي يتغير باستمرار. ويأتي هذا الأمر في سياق اعتراف معلن في الكتاب "ساقتني أعمالي في الأنثروبولوجيا بشكل طبيعي إلى التفكير في الدين ... فباشرت الحج كمشروع بحث"[6]. يعتمد عبد الله حمودي منهجه الخاص والمتقدم في معالجته لمختلف طقوس الحج، فلا يكتفي بالاعتماد على المنهج البنيوي، حيث يحلل البنيات الكامنة والخفية خلف بعض هذه الطقوس مكتشفا رمزيتها ودلالتها، ولا يسعى فقط باعتماد المنهج الوظيفي إلى تفكيك وفهم مختلف الوظائف التي تؤديها هذه الطقوس إن على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي. فهذه المناهج كما هي تبقى في نظر عبد الله حمودي قاصرة عن فهم الظاهرة بشكل كاف؛ مما يستدعي الاعتماد عليها في سياق نظرية الفهم والمعنى، فالأفعال الإنسانية لها معنى ومغزى، وهو معنى غير قار وغير ثابت، ويكون دائما محط جدال بين الناس. كما أنه يتبلور في إطار علاقات اجتماعية وخاضع للمتغيرات السياسية، ومن تم فهم مؤقت دوما، كطقس رمي الجمرات "ما هو إذن الفعل القائم على رمي الجمرة، ورجم الشيطان؟... وبعبارات أخرى كل هذه الحركات هي من نمط أن تفعل مثل ما يفعله الحجاج. مثل إسماعيل لا يرمي الحجارة في اتجاه عمود، لأن ابن إبراهيم، جد العرب، لم يهاجم عمودا فحجارته التي لا يحدد حجمها، بعكس حجارتنا كان يقصد بها ضرب وإصابة الشيطان نفسه. ومن ثم صار ممكنا توافق الإرادات مع إرادته أو على الأقل تلك كانت حالي في حال الشك والبحث الحياتي، التعرف إلى هذا الفعل والتوافق معه على سبيل التضامن". كما يكشف الباحث في جانب آخر أن رجم الشيطان هو طقس يعكس رغبتنا في طرد الشيطان الذي يسكننا، والذي يصبح أنا آخر يقتحم ذواتنا ويبعدها عن طريق الطهر والعفة، فالرجم هو محاولة للتخلص منه أو إلى حد ما معاقبته.

يواصل عبد الله حمودي تحليله الأنثروبولوجي لمختلف طقوس الحج، كالإحرام الذي يعكس تحريم مجموعة من الملذات الدنيوية المبتذلة عن الذات التي ينبغي عليها أن تلبس لباس الإحرام ومعه سلوك العفة والقناعة والترفع عن جميع الملذات الحسية والجسدية. كما يخصص حيزا مهما لمقاربة طقس الذبيحة، والذي سبق للباحث أن أنجز بحثا مطولا ومهما جدا عنه في السابق. فهذا الطقس الذي يحمل نوعا من العنف المستتر، يعكس مفهوم التضحية "تضحية إسماعيل لتحقيق رؤية إبراهيم عليهما السلام"، ومفهوم الصبر "صبر الأب إبراهيم وهو يهم بذبح ابنه"، ومفهوم الطاعة "طاعة إبراهيم للأمر الإلهي"، لكنه أيضا تصوير لمشهد التدمير والتعسف الذي تتعرض له كائنات حيوانية، وجودها يبقى شرطا أساسيا لاكتمال هذه العقيدة.

إن حضور الباحث الأنثروبولوجي المزود بمناهجه وأدواته العلمية، لم يكن ليجنبه التعرض لحدث يسوق نحوه أشياء لا متوقعة تغني تجربته الحياتية "فبينما اعتقدت بالقدرة على إنجازه كباحث أنثروبولوجي، كان علي تلقيه كحدث ممتلئ باللامتوقع يقتحم حياتي"[8].

2. زيارة الأضرحة:

تشترك مجتمعات المغرب الإسلامي في مجموعة من الموروثات الحضارية، ولعل أبرز هذه الموروثات تجانس شعوبها في العادات والتقاليد والسمات اللغوية والثقافية، ووحدة الفكر الديني والعقائدي لأفرادها، إضافة إلى التقارب الجغرافي المتصل اتصالا طبيعيا، هذه القواسم المشتركة زادت من انتعاش التواصل الثقافي والمعرفي بينهما، ولعل أبرز تلك التفاعلات وآلياتها كتب الرحالة الذين نبغوا في طرح شهاداتهم التي تعتبر مصدرا صادقا لما شاهدوه وعايشوه في خضم تلك الرحلات. فقد كانت الرحلات قد نقلت لنا ذلك التواصل الثقافي والفكري والصوفي بينهم، وغذت العادات الاجتماعية والدينية والاقتصادية زيارات العلماء والأولياء من مشايخ الصوفية وعلماء الدين ،الأحياء منهم والأموات، حيث تحظى المزارات بتقدير وحتى تقديس الرحالة، فخصوهم بالزيارة والتبرك مشيدين بكراماتهم وأعمالهم، فقد قال العلامة أبن قنفد القسنطيني، صاحب كتاب" أنس الفقير وعز الحقير":" إن أرض المغرب هي الارض التي نبتت الصالحين كما نبتت الكلأ" وهو يشير إلى ظاهرة الصلحاء والاولياء في المجتمع المغاربي في زمنه، فشاعت زيارة الأضرحة وعمت في سائر الرحلات.[342]

تُعدّ زيارة الأضرحة عادة متوارثة لا يعرف بالضبط تاريخ ظهورها في العالم الإسلامي عامة وفي الجزائر خاصة. لكن المؤكد هو انتشار الأضرحة في كافة المنطقة، ولا تكاد تخلو قرية أو مدينة من ضريح وقبة أو أكثر، وعُدَّت المنطقة الخالية منها مغضوبًا عليها، وتنقصها البركة. لكن الاختلاف في هذا الجانب يكمن في تفاوت أهمية شخص الولي الصالح صاحب الضريح، ومستوى كراماته، وحجم الاهتمام والعناية التي يلقاها ضريحه من القائمين عليه من زاوية وأوقاف وغيرها، وكذا بالنظر للأغراض المتوخاة من الزيارة.[343]

لقد شكّلت زيارة الأضرحة، في تقدير بعض الأنثربولوجيين، متنفسًا وخروجًا عن العالم المادي إلى العالم الروحي، ممثلاً في رمز الولي الصالح، واعتبرت محاولة للهروب من الحياة الدنيوية إلى الخيال المقدس. كما أن هذه الظاهرة مثّلت تواصلاً بين الماضي (الجميل) والحاضر (المفزع) عند استذكار فضائل وكرامات أصحاب الأضرحة. وفي ذلك أيضًا استحضار لذكرى الأجداد والأولين واستلهامًا لبطولاتهم وأمجادهم بشكل غير مباشر. كل ذلك من شأنه إضفاء بعض الإشراق والفرح على الواقع المر، وشحن الناس بالطاقات الايجابية ومواجهة مشاكل الحياة العصيبة.[344]

وقد أرجع إدموند دوتي (E. Douté) أسباب ظاهرة زيارة الأضرحة، وتمسك المجتمعات المغاربية عمومًا بها، إلى رغبتهم الكبيرة في التمسك بدينهم، وقدم تفسيرًا لذلك يكمن في أن عدم وجود وسيط بين الإنسان وربه في الدين الإسلامي يجعل الإنسان يبحث عن سبل لنيل مرضاة الله، ويتقرب إليه، وأنه يجد ضالته في زيارة الولي الصالح باعتبار مكانته ومستواه من التقوى والصلاح.[345]

---

[342] بوسليم صالح، الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات المغربية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 21 ديسمبر 2015، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، ص ص 267-278.

[343] انظر: سراج، جيلالي (2015)، زيارة الأضرحة وأثرها في المعتقدات الشعبية: ضريح سيدي يوسف الشريف نموذجا، ماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان، ص. 16.

[344] السراج، خالد (2000)، المقدس ودلالته في المجتمع الجزائري: الضريح بمنطقة عين تموشنت نموذجا، ماجستير في الفنون الشعبية، جامعة تلمسان، ص. 22.

[345] Douté, E. (1900), Notes sur l'islam maghrébin, éd. Ernest Leroux, Paris, p. 23.

تشغل المعتقدات والطقوس جانبا كبيرا من الأهمية في إطار دراسة ظاهرة الأضرحة، هذه الأهمية تتجلى من خلال تحيين بعض المعتقدات والطقوس التي تعود في بعض الأحيان إلى عصور ضاربة في القدم، بشكل تظن فيه أنك تحاكي الزمن الذي ولدت فيه. وكونها تعتبر مكونا من المكونات الأساسية للدين في كل زمان ومكان.

إن للطقوس التي تمارس داخل وفي محيط الأضرحة دلالة رمزية سيميولوجية بالنسبة لمارس الظاهرة، لكنها بالنسبة للممارس ذات دلالة واقعية وتنتج عنها آثار واقعية، لأن الممارس يعتقد في وجود قوة غيبية حاضرة وفاعلة في عناصر الطبيعة، وخصوصا تلك الموجودة في محيط وداخل الضريح، لأنه يعتقد أن الولي المدفون في ذلك الضريح ما زال حيا وحاضرا كقوة مؤثرة في حياة الناس، فهم يظلون أحياء في أضرحتهم يواصلون التدخل لصالح " قاصديهم من الناس" لإبراء أمراضهم وإبعاد سوء الحظ عنهم، وإنزال العقاب (الغيبي) بأعدائهم، فكل ما يحدث في هذه الدنيا هو حتما من صنع الإرادة الإلهية، بيد أن هذا لا يمنع هذه الإرادة الإلهية من العمل بتدخل من الأولياء أو بطلب منهم. فالوساطة التي شكلت وتشكل القاعدة الأساسية للتصوف الشعبي بالمغرب، جزء لا يتجزأ من الإسلام كما يدركه ويفهمه هؤلاء الناس، رغم اعتراض الفقهاء واحتجاجهم، ذلك أن العلاقات التي تربط الناس بالغيب تماثل في نمطها إلى حد كبير العلاقات التي يعتقد أنها تحكم بنية التنظيم الاجتماعي بالمغرب، ويكمن الفرق الوحيد بين العلاقتين فقط في الاعتقاد بكون الغيب أكثر جبروتا من البشر، حيث يصعب دائما التكهن بما يصدر عنه. هذه التي يسميها الناس البركة ويغلفونها بغلاف ديني هي امتداد وتجسيد للإحيائية التي اعتقد فيها الإنسان منذ فجر التاريخ.

الإحيائية هي الاعتقاد في وجود أرواح في عناصر الطبيعة، وهي بحث عن شيء مقدس في العالم المادي، عن مرجع وملاذ، يلجأ إليه الناس وقت الأزمات والضعف والقهر، وتختلف أشكالها باختلاف مستويات التجريد والتمثل لدى الناس. فقد تمثلت المظاهر الأولى للإحيائية في عبادة الأشجار والنار والكواكب ومنابع المياه والجبال والأحجار وغيرها، وقد حاربت الديانات التوحيدية هذه المظاهر الإحيائية لكنها لم تستطع القضاء عليها بصفة نهائية، فبقيت لها امتدادات في الثقافة الشعبية حيث يغلب الخيال والمعتقدات اللاعقلانية.

يمكن ملاحظة مظاهر الإحيائية في كل الطقوس التي يمارسها الزائر للأضرحة، وتختلف الطقوس باختلاف هذه الزيارة، فالمرأة التي تريد أن تتخلص من "العكس" الذي يمنعها من الزواج تغتسل بماء البئر الموجود بجانب الضريح لاعتقادها في أن الماء فيه بركة أو قوة روحية تخلص المغتسل به من الموانع التي تقف أمام الزواج، كما يطلب منها التخلص من بعض الثياب الداخلية مع المشط الذي استعملته أثناء الغسل ورميه أو تعليقه على المكان الموجود بجانب البئر.

إن هذا الطقس هو تجسيد مادي لعملية خروج "العكس" من الشخص المغتسل. إن الاستعانة بالأشجار والماء للتخلص من هذه القوة الشريرة التي تسمى"العكس" يترجم بطريقة واقعية ذلك الاعتقاد في انتشار تلك القوة الروحية للولي في محيط وحرم الضريح، وحلول تلك القوة في العناصر الطبيعية الموجودة فيه، سواء كان حجرا أو شجرا أو ماء أو ترابا أو أكلا كالتمر وغيره أو حناء، وعموما تعم البركة مجموع الحرم، بحيث تنتقل القداسة إلى كل شيء موجود في محيط الضريح.

تتنوع المعتقدات والطقوس الدينية حسب نوع الأديان وتكوينها، فهناك طقوس الخصب والنماء والطقوس الجنازية وطقوس الطبيعة واستنزال المطر وطقوس الصلاة والعزاء والحج والصيام والطقوس المرتبطة بالأضرحة، كطقس كتابة الأسماء بالحناء، وطقس القطع، وطقس الاستحمام وطقس الشمع وطقس الأقفال، وطقوس لا حصر

لها تنتظم وفق تفاصيل العقيدة الدينية المجتمعية وتشكل جانبها العملي، نحاول في هذا الفصل الوقوف عند أهمها، وقبل ذلك لابد من التعرض إلى أهم المعتقدات المرتبطة بالضريح التي من أجلها وجدت هذه الطقوس الوقائية منها والعلاجية، التي تزيد من قوته وتماسكه.[346]

الحج إلى مكة لمن استطاع إليه سبيلا، ومن لم يستطع فالبدائل متوفرة. على الأقل هذا ما يعتقده البعض ممن يقصد أضرحة مستغانم، فضريح سيدي لخضر بن خلوف واحد من أضرحة الحج ،وكذلك ضريح سيدي بن ذهيبة رغم اللافتة الموجودة في مدخله والتي تمنع وتحذر من الطواف بالضريح. إن الطقوس التي تقام في هاذين المقامين تمثيل للموسم الذي ينظم في مكة"، يقول أحد الزوار "ليلة الوقوف في عرفة في مكة نأتي لسيدي لخضر نقف كما يقف الحجاج في عرفة ومن لم يستطع الذهاب لمكة يأتي ليقف هنا عند سيدي لخضر بن خلوف".[347]

تعتبر "الزّيارة" عنصرًا أساسيًا وضروريًا في إحداث العلاقة بين الطرفين (الزائر والمزار)، وهي كل ما يمنحه الزائر للضريح من نقود وغيرها مقابل حصوله على مراده. وهي بمثابة "ضمان" لتحقيق الغاية من الزيارة. وعلى الرغم من افتقار غالبية الجزائريين حينها، إلا أنهم لم يبخلوا على الأضرحة بالهدايا والهبات النقدية والعينية، وعلى رأسها الذبائح باختلاف أنواعها من غنم وبقر ودواجن وغيرها. والملاحظ أيضا أن "الزّيارة"، رغم كونها طوعية، إلا أنها اتخذت بحكم العرف طابعًا إلزاميًا.[348]

وارتبطت "الزّيارة" أيضًا بـ "الوَعْدة"، والتي تعني وعدًا بالتعهد بتقديم هدية عند تحقق أمنية الزائر، وهي بمثابة نذر يلزم صاحبه بالعودة ثانية للضريح حاملاً ما وعد به (في حال الاستجابة أو عدمها)، وتقديمه لمرة واحدة، أو بالمواظبة على ذلك عدة مرات أو بشكل دوري.

3. علاج المرضى :

أ- العلاج التقليدي:

ب- الرقية:

الرقى لدى الصابئة:

إن كتابات الرقى الصابئية لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه ما عدا الكتابات المنقوشة على القحوف، فقد اعتاد الصابئون منذ القدم وفي أوقات تفشي الأوبئة أن يدفنوا في عتبة الدار أو مع المتوفي في قبره قحفين الواحد مقلوب فوق الثاني تنقش عليها تعاويذ لتصد أرواح الظلام والجن. كما تتضمن اللعنات أولئك الذين يجلبون الشر والبلوى، وتضرعا لأرواح النور والحياة.

إن الدواوين الطلسمية كلها في نفس الروحية والأسلوب، وقد استنسخت وأعيد استنساخها منذ قرون (وغالبا دونما إدراك، لأن بعض الأسماء والأرواح الطلسمية التي لا تزال تذكر فيها قد اختفت من الدين الأصلي وهي غير موجودة في أي كتاب من كتبهم المقدسة). وتعتبر هذه الأحراز الصغيرة واقيا ضد الأمراض وسوء الطالع

---

[346] عبد الوافي مدفون: البعد السوسيوأنثروبولوجي لمؤسسة الضريح، موقع أرنتروبوس (الموقع العربي الأول في الأنثروبولوجيا)، الرابط: http://www.aranthropos.com/، التاريخ: 2018/12/27.

[347] مناد سميرة: طقوس زيارة الأضرحة في مستغانم، مقاربة أنثروبولوجية، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 06، الجزء 04، جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم-الجزائر، بتاريخ 2017/12/31، ص ص 129-139.

[348] نفيسة دويدة: المعتقدات والطقوس الخاصة بالأضرحة في الجزائر خلال الفترة العثمانية، إنسانيات (المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية)، العدد 68، سنة 2015، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية، وهران – الجزائر، ص ص 11-34.

والعين الشريرة، ولا يكلف استنساخها ما يكلفه استنساخ الكتب المقدسة، وهي على الأغلب عادة وثنية روحية ويجد الإنسان فيها عرضا، كائنات تعامل في الكتب المقدسة كشياطين وكإثم، ولكنها تظهر في الأحراز ككائنات نافعة؛ فمثلا إن الكواكب السبعة وعلامات البروج الإثنتي عشرة، تلعن في أكثر الكتب المقدسة، إلا أنها تعامل في الأحراز معاملة الحليف والصديق. وامتلاك حرزا هو امتلاك تعويذة حب مرفوعة إلى "لبات-دلبات-عشتار" تبدأ هكذا بصراحة: «باسم ليبات سيدة الآلهة والناس» وأحيانا في نفس الحرز. وفي الحقيقة فإن التقاليد الديني الأصيلة والتعاويذ والأحراز قد اختلطت اختلاطا كليا.

والحرز الطلسمي نوعان، فالكبير لا يمكن للإنسان أن يحمله ويدعى "قماهة" أما الصغير والذي يطلق عليه اسم "زرستا" فهو الحرز المعتاد، وهو ثابت لا يتغير ويكتب للتو على قصاصة طويلة من الورق عرضها من عقدتين إلى ثلاث تلف بإحكام وتدلج في صندوق صغير من الذهب أو الفضة بحيث تعليقها في عنق الإنسان بوساطة سلسلة أو خيط. وهذا النوع من الأحراز طويل عادة حتى ليبلغ السبعة أو الثمانية أقدام طولا، ولهذا يستعمل له ورق رقيق جدا.

إن الوثائق الطلسمية تكشف عن مزاج حاملها التهيبي وتخوفه من الضغينة والمرض والنكد، وفيها تصب أقسى وأطول اللعنات على رؤوس الأعداء والوشاة والمارقين عن الدين، بينما تجسد فيها الأمراض عادة كما لو كانت كائنات شيطانية. والاسم الفلكي لمن تصنع من أجله هذه الأحراز يذكر في الحرز عدة مرات مع التضرع لقوى النور والحياة من أجله ومن أجل عائلته وممتلكاته ومهنته. ولها قوة وقائية كما مر معنا، ثم يتبع ذلك صيغة قصيرة: "حمدا لإلهي طاهر القلب طاهر الفم" وكلها تبدأ بجملة "باسم الحياة العظمى لتكن الصحة والطهارة والقوة والثبات والنطق والسمع وسرور القلب وغفران الخطايا لفلان أو فلانة ابن أو ابنة فلانة".[349]

ج- الحجامة :

تعتبر الحجامة أحدى طرق العلاج التي يلجأ إليها الأفراد لمداواة مرضاهم، وتختلف دوافع المرضى في اللجوء إلى الحجامة، فمنهم من يلجأ إليها من منطلق اعتقادي أو اقتصادي أو ثقافي إلا أننا نتناول تلك المعرفة العلاجية الشعبية من زاوية المعرفة التقليدية المتوارثة والتي دخل على بعض أجزائها الممارسات الطبية الحديثة والمعتقدات، وقد تم اختيار بعض طرق العلاج الشعبي كجزء من المعارف الشعبية وقد " نقصد بالمعارف هذه الحصيلة من القواعد العلمية الشعبية، في الطب والزراعة والحرف المختلفة وفى قواعد السلوك الاجتماعي وقضايا الأخلاق .. أي ذلك العرف التجريبي بإزاء الطبيعة وإزاء المجتمع البشرى ذاته" .(1)

تعريف الحجامة:

تعرف القواميس الحجامة على النحو التالي " هي حرفة وفعل الحَجَام ، والحَجْمُ : المَصّ. يقال : حَجَمَ الصبيُّ ثَدي أُمه إذا مصه . والحَجَّامُ: المَصَّاص . قال الأَزهري : يقال للحاجم حَجَّامٌ لامْتِصاصه فم المِحْجَمَة ؛ قال ابن الأَثير: المِحْجَمُ، بالكسر، الآلة التي يجمع فيها دم الحِجامة عند المصّ، قال: والمِحْجَمُ أَيضاً مِشْرَطُ الحَجَّام ، ومنه الحديث: لَعْقَةُ عَسلٍ أَو شَرْطة مِحْجَم".[350]

الحجامة في المعتقدات الشعبية والأحاديث النبوية:

349 الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، سورية، سنة 2006، ص ص 56-57.

350 ابن المنظور، لسان العرب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ، بدون سنة نشر ، جزء15، ص5 .

تعتبر الحجامة من المعارف الشعبية إلا أنها شأن كثير من الممارسات الشعبية ترتبط بالمعتقدات الشعبية ولا يمكن التعرض لها دون الرجوع إلى المعتقدات التي تولدت منها هذه الطريقة أو ساعدت على بقاءها وتمدها بالوقود لتستمر، فيعرض الباحث ارتباط الحجامة كطريقة علاج متوارثة ببعض المعتقدات مثل ارتباطها بتفسير الأحلام كذلك الاعتقاد في الأوقات التي يستحب فيها العلاج بالحجامة، أيضا التداخل الشديد مع الاعتقاد الديني الذى يدعم انتشار واستمرار الحجامة في مجتمعات الدراسة لما لها من أسانيد في الأحاديث النبوية الشريفة، ويوجد اعتقاد بأن الحجامة تساعد على إخراج الجن من جسم الإنسان، يتجه بعض أفراد مجتمع الدراسة لإجراء عملية الحجامة على الرغم من أنهم أصحاء ولا يشكوا من أي مرض ، إلا أنهم يعتقدوا أن الحجامة علاج وقائي يحصنهم ضد الأمراض ويعللوا ذلك بأنها سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

د- الختان :

الختان لغة من ختن "وقيل الخَتْنُ للرجال والخفض للنساء. والخَتِين: المَخْتُون، الذكر والأنثى في ذلك سواء.. والخَتْنُ: فعل الخاتِنِ الغُلامَ، والخِتَانُ ذلك الأمر كلّه وعلاجه. والخِتانُ: موضِعُ الخَتْنِ من الذّكَرِ، وموضِعُ القَطْعِ من نواة الجارية".[351] ولا يخرج استعمال الفقهاء للمصطلح عن معناه اللغوي. إلاّ أنّهم اختلفوا في حكمه فمنهم من ذهب إلى كونه سنّة في حقّ الرجال وليس بواجب (الحنفيّة والمالكيّة وهو وجه شاذ عند الشافعيّة) "وهو من الفطرة ومن شعائر الإسلام فلو اجتمع أهل بلدة على تركه حاربهم الإمام، كما لو تركوا الأذان".[352] واعتبره المالكية مندوبا في حق المرأة في حين عدّه الحنفيّة والحنابلة مكرمة وفي قول عند الحنفيّة إنّه سنّة في حقّهنّ وفي آخر إنّه مستحبّ.[353] ومن الفقهاء أيضا من ذهب إلى كون الختان واجبا على الرجال والنساء (الشافعيّة والحنابلة وسحنون من المالكيّة). ومنهم من نصّ على كونه واجبا على الرجال ومكرمة في حقّ النساء (ابن قدامة).

ويكون ختان الذكور بقطع "الجلدة التي تغطّي الحشفة، وتسمّى القلفة والغرلة"،[354] أمّا الأنثى فيكون ختانها بقطع "ما ينطلق عليه الاسم من الجلدة التي كعرف الديك فوق مخرج البول والسنّة فيه أن لا تقطع كلّها بل جزء منها".[355]

وقد اختلف الفقهاء في توقيته فمنهم من أوجبه ما بعد البلوغ وقرنه بالطهارة مثل الشافعية والحنابلة وإن استحبّوا وقوعه في الصغر لكونه أرفق وأسرع إلى الشفاء. ومنهم من استحبّه في ما بين العام السابع والعاشر وقرنه بأمر الصلاة (في قول للمالكية والحنابلة).

يُرجع البعض مصدر الختان إلى التوراة إلا أنها عادة أقدم من ذلك بكثير. فالمومياوات والصور المرسومة على أوراق البردي تشير إلى وجود عادة الختان لدى قدماء المصريين. ولم يكن قيامهم بالختان يرجع لأسباب صحية فقط إذ إن الرهبان كانوا يقومون بختان الذكور في بداية مرحلة البلوغ.

---

[351] ابن منظور، ، ج1، ص791.

[352] ختان. الموسوعة الفقهيّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ج19، ط 02، الكويت سنة 1989، ص 26.

[353] ختان. الموسوعة الفقهيّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ج19، ط 02، الكويت سنة 1989، ص 27.

[354] ختان. الموسوعة الفقهيّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ج19، ط 02، الكويت سنة 1989، ص 28.

[355] ختان. الموسوعة الفقهيّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ج19، ط 02، الكويت سنة 1989، ص ص 29-30.

ويُقال أن عادة التضحية بأول طفل ذكر في العائلة في حضارة بلاد ما بين النهرين قد تحولت إلى عادة الختان لدى الأكديين (الإمبراطورية الأكدية). كما ينتشر الختان في إفريقيا لدى غير المسلمين أيضاً. وكان أفراد الطبقة العليا في شعب الآزتيك يمارسون الختان. كما اندهش كولومبوس عندما علم أن الهنود الحمر أيضاً يمارسون الختان.

ويقول العلماء إنه قبل خمسين ألف عام كان جميع الذكور مختونين إلا أن عادة الختان قد اختفت في أوروبا بسبب المجاعات التي انتشرت في العصر الجليدي ولكن ظلت عادة الختان مستمرة ومنتشرة في المناطق الحارة.

شيء من التاريخ:

تروي التوراة أن إبراهيم عليه السلام أُمر بالختان وهو في سن متقدمة، وأنه هو من قام بختان نفسه وبفضل ذلك تمكن من الإنجاب. وفي ملة إبراهيم كان الختان سنّة مستحبة متروكة لرغبة الشخص، وعن موقف الصابئة من ختان إبراهيم الخليل؛ بسبب المرض، بأنهم أخرجوه من الملة، وما نأخذ من هذه القصة، هو تحريمهم القديم للختان، وعلة ذلك هو عدم جواز التدخل بما خلقه الله، أو إنقاص خلقته. فالصابئة يتمسكون بالقول: «إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئا زائدا أو ناقصا في جسم الإنسان؛ وكل ما طرأ ويطرأ على الجسم من فعله أيضا».[356]ولهذا من مؤهلات رجل الدين ألا يكون مختونا، مثلما لا يكون عاقرا أو مخصيا، وبالجملة يجب أن يكون الجسد «سليما نقيا كاملا»، والختان عندهم يشوه الجسد وينقصه.

أثرت مقالة الصابئة المندائيين قديما بالمحيط، بخصوص الختان، فحرمه بعض رؤساء الفرق السرية الإسلامية للسبب نفسه، وهو عدم انقاص ما خلقه الله في الجسد. فقد شاع عن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (القرن الثاني الهجري) أنه شرع لأصحابه، وهم جماعة من الشيعة، تحريم الختان، وقال ما قاله الصابئة: «إن المختتن راغب عن خلق الله، ولولا الشعر والظفر ميتان، وعلى الحي مفارقة الميت ما قلمنا ظفرا، ولا أخففنا شعرا».[357]

كذلك تأثرت جماعة أخرى بقصة صراح وانتصار هيبل زيوا المندائي على ملكة الظلام الروهة؛ هذا ما وجدناه متجسدا في مقالة إحدى الفرق الشيعية (أصحاب بن حرب) في محمد بن الحنفية؛ يوم يخرج من البلد الأمين، ويقضي على الجبابرة بسيف من شق صاعقة، يكور بها الشمس. «ثم يعود في عمق الأرض حتى إذا بلغ الماء الأسود والجو الأزرق، صاح به صائح يسمع الثقلين (الجن والإنس): قد شفيت قد شفيت، فيمسك عند ذلك ويعود إلى البلد الأمين».[358]

أما في تعاليم موسى عليه السلام فإن الختان واجب لابد من القيام به. لدرجة أن كلمة "غير مختون" تستخدم للدلالة على غير المؤمنين (عديمي الدين). فترك الختان سبب للطرد والنبذ عند اليهود.

---

[356] رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق ، ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 2016، ص 97.

[357] رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق ، ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 2016، ص 98.

[358] رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق ، ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 2016، ص 99.

اختتن عيسى عليه السلام بعد ثمانية أيام من مولده. والأول من يناير هو تاريخ اليوم الذي اختتن فيه عيسى عليه السلام. بينما كان بولس الرسول يبشر بالديانة المسيحية رأى أن اليونانيين لا يريدون الختان. فزعم أن الإنجيل قد ألغى أحكام التوراة وجاء بأحكام جديدة وقام بإلغاء الختان. ولكن بالرغم من ذلك لا يعارض السيريانيون الختان. كما أن الكنيسة القبطية تمارسه.

لا توجد عادة الختان في الهند والصين لأن الديانتين الهندوسية والبوذية تحرمانها.

أول خطوة نحو الرجولة

أمرنا النبي محمد –صلى الله عليه وسلم- بختان الذكور وأخبرنا أن ذلك سنّة أبيه إبراهيم عليه السلام.

ويقال إن النبي ولد مختوناً.

يطلق الأتراك على الختان لفظ "سُنّة" لأنه سنّة النبي صلى الله عليه وسلم.

لم يحدد الإسلام سناً محددة للختان. فيمكن القيام به في أي وقت منذ الولادة وحتى البلوغ. وبالرغم من أنه ليس فرضاً إلا أنه لا يمكن أن تجد مسلماً غير مختون.

شُرع الختان للذكور فقط. أما ختان الإناث المنتشر في إفريقيا وبعض المجتمعات العربية البدوية فلم يأمر به الإسلام ولم يشرعه. وليس له أي علاقة بالمصادر الإسلامية الصحيحة ولا العادات الإسلامية.

حفل الختان

يحتفل المسلمون اليوم بختان أطفالهم كأنه عيد خاص يتزين فيه الأطفال ويتلقون الهدايا، وتقام فيه الولائم. وكان العثمانيون يولون أهمية كبيرة للختان ويعدونه أول فرحة بالطفل. وكانوا ينظمون في ذلك اليوم احتفالاً يُسعد الأطفال. فهو يوم يعمل فيه الجميع على إسعاد الأطفال.

تقام مراسم الختان في تركيا عادة في فصل الصيف في أيام الإجازة الصيفية. ويرتدي فيها الأطفال أفضل وأفخم الثياب. وعادة ما تتم زيارة ضريح أشهر ولي في القرية أو المنطقة التي ستجرى فيها مراسم الختان. ويركب الأطفال الأحصنة أو الحناطير المزينة ويتجولون بها احتفالاً بختانهم.

كما يقوم الأغنياء في مراسم ختان أطفالهم بختان أطفال الحي الذي يسكنون فيه وينظمون لهم المراسم ذاتها التي يعدونها لأطفالهم.

فرصة للمرح والتسلية:

بينما يتم ختان الطفل يقوم أحد الأصدقاء المقربين للعائلة بحمل الطفل. ويطلق على هذا الشخص في اللغة التركية اسم "كيروه". وطبقاً للعادات التركية القديمة فإن لـ "الكيروه" مكانة خاصة في حياة الطفل؛ إذ إنه تنشأ بينهما رابطة اجتماعية تستمر طوال العمر لدرجة أنه في بعض الأماكن يعتبرون أطفال الـ"كيروه" إخوة للطفل ومن غير اللائق أن يتزوج بإحدى بناته.

بينما يتم ختان الطفل يقوم أقرباؤه بإلهائه بالألعاب التي أعدوها له. ولكي لا يصرخ يضعون في فمه الحلوى. كما تقرأ الأدعية والتكبيرات بصوت عالٍ. وبعد انتهاء الختان يوضع الطفل في فراش مزين وتزين الوسادة خصيصى بقلائد وأشياء تحمل عبارة "ما شاء الله" لدرء الحسد. ويقوم الأقارب والضيوف بتهنئة الطفل وتقديم الهدايا له لأنه خطا أول خطوة نحو الرجولة.

كانت مراسم ختان أطفال الأسرة الحاكمة أكثر مرحاً وتسلية وتقام على نطاق واسع. وتكون فرصة لكل أهل المدينة كي يفرحوا ويسعدوا. وقد استفاض المؤرخون والرحالة في الكتابة عن مراسم الختان وتبارى الرسامون في رسمها. لذلك فإن مراسم الختان هي أكثر المراسم الاجتماعية التي نعرف عنها معلومات شاملة.

الختان والصحة

هناك مؤسسات دولية مثل منظمة الصحة العالمية تؤيد القيام بالختان نظراً إلى فوائده الصحية. وفي ستينيات القرن التاسع عشر كان يتم التشجيع على الختان في أوروبا وأمريكا بهدف الحد من الأمراض التناسلية والاستمناء.

VI. المقدس:

يتوقف وجود المقدس من منظر الباحث نور الدين الزاهي، على المقدرة الإنسانية في العطاء الرمزي؛ فحينما تثار علاقة المقدس بالرمزي، يتحول سؤال المقدس إلى سؤال عن الكيفية التي يهب بها الإنسان المعنى لما يوجد حوله، وبها ومن خلالها يملأ الموجودات بالمعنى، كي تتحول إلى موجودات رمزية. وإذا كان المقدس مميزا بغموضه وإزدواجيته، فإن الرمز ظل دائما حاملا للغز ومعنى فائضين، يتطلبان الكشف والإظهار. ربما لهذا السبب ظلت الرموز لغة المقدس المفظلة، مثلما ظلت تعبيرية المقدس مكومة بتعددية المعنى وبلعبة الحضور والغياب، وكذا القدرة على استحضار الغريب والعجيب في واضحة النهار.

والحمولة الغنية والرمزية للمقدس تخضع لقوانين وآليات تسمح بتحويلها إلى تعبيرات كونية، وهي نفس آليات الرمز، فالمقدس ينتمي إلى جهة الرمز، وبفضل هذا الانتماء تتهيكل تعبيريته بالصور والموز المتجذرة في عمق المتخيل الجمعي، لتظهر بألوان متعددة داخل المعرفي والطقوسي والمجالي والسياسي.

1. محاولة تحديد مفهوم المقدس:
ما هو المقدس؟

ترى مختلف الدراسات ذات الصلة بالمقدس/ولدنيوي (المدنس)، أن البحث في ماهيته هو في ذاته إبطال لمفعول قدسيته.359 إنه شكل من أشكال انتهاك المحرم بالفعل، البحث فيه تحويل له إلى موضوع شبيه بجميع موضوعات الفكر، موضوع يقال باللغة، ويفكر بها وفيها، الأمر الذي يخضعه لمنطقها وعقلانيتها الداخلية، وهو يدخل على المقدس ما هو غريب عنه ومتعارض معه.

إن إفتراض إبطال مفعول المقدس، بفعل بحثه وتفكيره يحيل على تعريف معين للمقدس، بوصفه ما ينتفي بحلول ما يعارضه ويغاير طبيعته. هذا ما قام إمل دوركايم بإرسائه عندما حدد قدسية المقدس بما يعارضها بشكل كامل عن مجال المدنس، فالمقدس لا يلتقي بالمدنس إلا لكي ينتفي أحدهما ويظل الآخر قائما. وبذلك يتشكل كل طرف بوصفه نظاما خالصا ومتجانسا ومختلفا ومعارضا وموازيا للطرف الآخر. وبقدر ما يحيل المقدس داخل سياق تعارضه مع المدنس، إلى ما هو طاهر وخالص Pur. فإن المدنس يحيل إلى ما هو دنس Profane ونجس Souillé.360

يأخذ الإنسان علمه عن المقدس لأن هذا يظهر، ويبدو كشيئ مخالف تماما للدنيوي. إن تاريخ الأديان مشكل بتراكم المقدسات، وبمظاهر وقائع مقدسة، ومن أكثر التجليات بدائية: على سبيل المثال، إظهار المقدس في موضوع ما، حجر أو شجرة... فهذا التجلي يظهر لنا حقيقة ليست من عالمنا ولا تنتمي إليه في موضوعات تشكل جزءا لا يتجزأ من عالمنا «الطبيعي»و«الدنيوي». «الحجر المقدس والشجرة المقدسة لم يعبدا بصفتهما تلك، وإنهما ليسا موضع عبادة فعلا لأنهما تجليان، ولأنهما يظهران شيئا ما ليس هو لا حجر ولا شجرة، وإنما الكائن المطلق».[361]

بإظهار المقدس يصبح موضوع ما شيئا آخر، وبدون أن ينقطع عن كونه هو ذاته، فهو يكمل مساهمته في وسطه الكوني المجاور. فالحجر المقدس يبقى حجرا، ولا يتميز عن الحجارة الأخرى. وبالنسبة للذين يتكشف لهم حجر

359 نور الدين الزاهي: المقدس الاسلامي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء – المغرب، سنة 2005، ص 17.
360 للتوسع راجع نفس المرجع، ص ص 15-26.
361 مرسيا إلياد: "المقدس والمدنس"، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق- سوريا، سنة 1977، ص 17.

أنه مقدس، تتحول حقيقته مباشرة. يقول «إلياد» في نفس الإطار: «بالنسبة لمن لديهم تجربة دينية، تبدو الطبيعة برمتها أنها قابلة للكشف بصفتها قداسة كونية. فالكون في كليته يمكن له أن يصبح تجليا قدسيا»[362]

كان المقدس يعادل القوة، وفي النهاية يعادل الحقيقة بامتياز. إن المقدس مشبع بالكينونة، وقوة مقدسة تعني في آن واحد حقيقة وخلودا وفاعلية. والتعارض بين المقدس والمدنس هو تعارض بين الحقيقي والغير حقيقي، أو بين الحقيقي والمزيف، وإننا نجد الفرق بَيِّنٌ بَيْنَ الإنسان المتدين والغير متين في أن الأول يجهد نفسه أكبر وقت ممكن ليبقى في العالم المقدس، والثاني يجهد نفسه لتجريدها من كل عاطفة دينية حتى يعيش في عالم مجرد من القداسة.

إذن «المقدس» على حد قول «عبد الرحمان موساوي» يكون بمثابة المفهوم الأساسي الذي يجب تعريفه منذ البداية.[363] «المقدس شكل من أشكال المبدأ الإيجابي يسمح للعالم المعلوم بالدخول في حوار مع الغيب... المقدس يطهر ويدنس، يؤهل» يرى فيه أتو مزيجا مما يرهب ويرعب ويسحر.[364] ويرى ج. كازنوف أن المقدس ما يتجاوز حدود العادي، مدخلا بذلك الدنس والنحس في ميدان القداسة، ومن هنا كانت المحرمات والمحظورات هي التي ترسم حدود المقدس.[365]

ماهو التابو؟

التابو(المحرم أو المقدس) مأخوذة من البولينيزية حيث تدل على ما هو محظور لخلفية دينية.[366]وانطلاقا من هذا تحدد ماري دوغلاس مفهوم الدنس ووظيفته. وهو يتكون برأيها من خليط ظواهر تنتمي إلى فئات مختلفة. فالنجس والتلوث والحرام تصدر عن الطريقة التي نصنف الظواهر على أساسها. (التماس الجسدي مع الحيوانات المدنسة مثل الخنزير والثعبان... يفرض القيام بطقوس تطهيرية. والتعارض بين الطاهر والمدنس أساسي في كل مكان. فهو متجذر في منظومة الطوائف حيث يتمثل الدنس في المزج بين طائفتين، وهو يبدو على امتداد العالم موجها

362 مرسيا إلياد: "المقدس والمدنس" ، ص 17.

363 *MOUSSAOUI Abderrahmane, « Espace et sacré au Sahara »Ksour et oasis du sud-ouest algérien, CNRS Editions, Paris 2002,p 12.*

364 فيليب لابورت-تولرا وجان بيار فارنييه: إثنولوجيا أنتروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة01، سنة 2004، ص169.

365 المرجع نفسه، ص170.

366 JEAN CHEVALIER ET ALAIN GHEERBRANT, « DICTIONNAIRE DES SYMBOLES « MYTHES, REVES, COUTUMES, GESTES, FORMES, COULEURS, NOMBRES » », EDITION REVUE ET CAUGMENTEE, ROBERT LAFFONT/ JUPITER, PARIS, 2005, P 918.

للشعور الأخلاقي بالخجل أو بالذل، أو بالفخر والإعتزاز. والطهارة الشعائرية شرط أساسي لتأدية الصلاة عند المسلمين.

إن مفهوم «التابو» (Tabou) أو التحظير والتحريم ينطوي على دلالتين متعارضتين: من جهة أولى، دلالة الشيء المقدس والمكرس، ومن جهة ثانية، دلالة الشيئ المقلق، الخطر الممنوع، المدنس. بتعبير آخر يشتمل التحريم في تعيينه على: الطابع المقدس أو المدنس للأشخاص والأشياء؛ ونوع التحريم الذي يترتب على هذا الطابع؛ والنتائج المقدسة أو المدنسة التي تنجم عن انتهاك هذه الموانع.[367]

والتحريم سحيق القدم، وهو مفروض من الخارج (من قبل سلطة ما)على جيل من البشر، وموجه ضد أقوى رغبات الإنسان. وقد بقيت التحظيرات المشتركة للعشيرة البدائية قائمة وأصبحت جزءا عضويا من الحياة النفسية للأجيال التالية؛ وهم يتقيدون بها بمثل القوة التي يتقيد بها البدائي بالتحظيرات المشتركة لقبيلته. وكان من نتيجة بقاء التحريم التي استمرت في البقاء لدى تلك الأقوام الرغبة البدائية في ارتكاب الحرام. ولذلك كانت تعاني هذه الشعوب من موقف ازدواجي تجاه التحظيرات المحرمة: فقد كان لاوعيها يميل إلى انتهاك هذه التحظيرات، غير أنها كانت تخاف أن تفعل ذلك، وهي تخافه لأنها كانت ترغب في أن تفعله. وبما أن الخوف أقوى من الرغبة، فهي تمتنع عن فعله. ولكن الرغبة لا تختفي وتزول، بل تبقى قائمة، لدى كل فرد من هذه العشيرة في أعماق لاوعيه. «إن أقدم التحظيرات المحرمة وأهمها إطلاقا تتمثل بالقانونين الأساسيين للطوطمية: عدم جواز قتل الحيوان الطوطم، ووجوب تحاشي العلاقات الجنسية مع أفراد الجنس الآخر المنتمين إلى الطوطم نفسه»[368]

ينطلق التحليل النفسي لتارخ المجتمع البشري وكيفية تطوره من «العقدة الأوديبية»[369]التي تتواجد عند كافة البشر، والتي تتضح من الميل إلى امتلاك الأم والرغبة في قتل الأب؛ كما يستند أيضا إلى بعض الدلالات التي لها

367 فيصل عباس: "التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة)، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، سنة 1991، ص27.

368 FREUD : TOTEM ET TABOU, TRAD PAR JANKELEVITCH, ED PAYOT, PARIS 1968, P 43.

369 يعني اسم أوديب باللغة اليونانية (صاحب الأقدام المتورمة) وملخص هذه الأسطورة بأن العراف قال لملك طيبة آنذاك بأنه سيقُتل بيد ابنه ، وفي ذلك الوقت كانت زوجته (جوكاست) حاملا فلما ولدت اوديب أمر الملك بان تدق مسامير في أقدام الوليد ويرمى فوق الجبل ولهذا السبب جاء اسمه أوديب . وهكذا دقت المسامير ورمي فوق الجبل فوجد الرعاة ذلك الطفل على تلك الحالة فأخذوه إلى ملك (كورنثيا) الذي تولى تربيته كما يُربى الأمراء ، ولما كبر أوديب أراد أن يعرف موطنه ومولده ولكن العراف لم ينصحه بذلك أي العودة إلى بلاده وقال له أن هناك خطر ينتظرك وستقتل أباك وتتزوج أمك ولم يأبه اوديب بذلك وقرر أن يغادر كورنثيا ويذهب إلى طيبه موطنه الأصلي ، وفي الطريق صادف رجلا تشاجر معه واشتدت المشاجرة حتى قتله ، ولكنه لم يعرف أنه قتل أباه . ذهب أوديب إلى طيبة وفي ذلك الوقت كان (السفينكس) ذلك الحيوان الذي له راس امرأة وجسم أسد وجناحا طائر يقسو على أهالي طيبة ويعذبهم اشد العذاب . وإن الآلهة أرسلت (السفينكس) إلى طيبة ليسال الناس الغاز ومن لم يحل تلك الألغاز يقتله.
دفع هذ ا الوضع (كريون) خليفة الملك (لايوس) أن يعلن للناس بأن كل من يخلّص البلد من محنتها التي يسببها لها هذا المخلوق الشرير سيتولى العرش ويتزوج أرملة الملك (ليبوس) الملكة الجميلة (جوكاستا) ، وعندما دخل اوديب المدينة قابله (السفينكس) و ألقى عليه ذلك اللغز الذي يتضمن : (ما هو الحيوان الذي يمشي على أربعة صباحا ، وعلى اثنين ظهرا ، وعلى ثلاثة مساءا ؟) أجاب ادويب على هذا السؤال وذلك بقوله انه الإنسان ، أي عندما يكون طفلا يحبو على أربعة وعندما يكبر يمشي على اثنين ، وعندما يشيخ يستعين بالعصا أي انه يمشي على ثلاثة .
هناك روايتين إحداهما تقول عندما سمع سيفينكس هذا الجواب انتحر ، وأخرى تقول إن اوديب قتله . ونتيجة لذلك صار ملكا على طيبة وتزوج الملكة دون أن يعرف

ارتباط بفكرة الطوطم والمحرم والزواج الخارجي التي كانت سائدة في المجتمعات البدائية. ويعتقد فرويد أن عقدة أوديب هي أساس المجتمع والدين والأخلاق: أي تشكلت وحدة المجتمع نتيجة لضرورة تجاوز الصراع المميت بين الإخوة على حق امتلاك النساء في العشيرة البدائية، كما تشكل الدين والإلتزامات الأحلاقية عن طريق كبيت عقدة أديب، والهرب من تأنيب الضمير، وذلك بالتوجه نحو الأب المتسامي. ويلخص فرويد ذلك بقوله: «إننا نهتدي في عقدة أوديب إلى بدايات الدين والأخلاق والمجتمع والفن معا، وهذا بالتوافق التام مع معطيات التحليل النفسي الذي يرى في هذه العقدة نواة العصاب كافة...وكثيرا ما سنحت لنا الفرصة لنشير إلى الإزدواجية والوجدانية بالمعنى الحقيقي للكلمة، أي ذلك المزيج من الكره والحب تجاه موضوع واحد، تكمن في أساس عدد كثير من التشكيلات الإجتماعية... »[370]

ماهو الطوطم؟

تطلق كلمة (طوطم) على كل أصل حيواني أو نباتي أو جماد، تتخذه العشيرة رمزا لها، ولقبا لجميع أفرادها. وهي ترتبط به ارتباطا وثيقا، وتؤلف معه وحدة. لذلك ينظر الأنثروبولوجيون إلى كلمة (الطوطمية)باعتبارها تعبيرا عن وحدة الجماعة اجتماعيا، وتقيم معه علاقات مودة وألفة، وهو يعمل على تضامنها وتماسكها، وهو يمد الحياة الإجتماعية باسمه. وهم يقومون ببعض الطقوس والشعائر لاعتقادهم بأنه يعطي العشيرة القوة، ولأن هذه الشعائر تحافظ على قوة الحياة لدى الحيوان والطوطم، وتجعله يتضاعف ويتكاثر، وهم لا يقتلون ولا يأكلون هذا الطوطم، وإنما يترك ليتكاثر، وليمد العشائر الأخرى بالطعام.[371]

2. المقدس / المدنس ، المقدس و الدنيوي:

يشير الباحث التونسي العروسي لسمر في مقال له نشر بمؤسسة "مؤمنون بلا حدود" تحت عنوان: (حفريات في المقدس والدنيوي في الاسلام)؛[372] إلى لجوء العديد من الدارسين إلى التعريف بالخلف والنقيض؛ فالمقدس (Sacré) نقيض المدنس (Profane) وهو نقيض الدنيوي. وتتجسد هذه التناقضات في التصورات الدينية على وجه الخصوص، فقد لاحظ روجيه كايو «أن الإنسلان المتدين هو من يعتقد قبل كل شيء بوجود وسطين متكاملين: واحد يستطيع الإنسان أن يتحرك فيه بعيدا عن كل قلق ورعدة، ولكن من دون أن يورط نشاطه هذا شخصه السطحي، وآخر يضبط فيه كل ميل من ميوله ويحتويه ويوجهه شعور حميم بالتبعية، حتى ليلقى نفسه

بأنها أمه وأنجب منها أربعة أطفال ، عندها جاء العراف وابلغه بالحقيقة المرة فعندما عرفت زوجته التي هي أمه الحقيقة شنقت نفسها ، أما اوديب فقد فقع عينيه وغادر طيبة مع ابنته التي ولدتها أمه وهام ليعيش بقية حياته في البؤس.

370 FREUD : TOTEM ET TABOU, P,179,180.

371 حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية- مصر، سنة 2002، ص162.

372 العروسي لسمر: حفريات في المقدس والدنيوي في الاسلام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ، قسم الدراسات الدينية، ص 4.

متورطا فيه بلا تحفظ. كلا هذين العاملين: المقدس والمدنس يتحدد بالآخر، حتى ليستحيل بمعزل عن هذه المقارنة إعطاء تعريف دقيق لأي منهما. إنهما يتلاغيان ويتعارضان».[373]

هذه العلاقة الجدلية التي تتضمن الصراع تحصل على المستوى النفسي والشعوري، لأن الإنسان انتقل من مرحلة الخوف من المقدس إلى توظيف واستعماله في خدمة مصالحه وتبرير واقعه، لهذا تتأسس العلاقة بين المقدس والمدنس على التناقض والرغبة في استحواذ كل طرف على الآخر. فالمقدس «لا يلتقي بالمدنس إلا لكي ينتفي أحدهما، ويظل الآخر قائما. وبذلك يتشكل كل طرف بوصفه نظاما قائما خالصا ومتجانسا ومختلفا ومعارض لطرف الآخر».[374]وامتد هذا الإلغاء ليشمل الأرضية المفاهيمية، حتى أمسى من الصعب إدراك المقدس بفعل عدم مصطلح واضح يحيط بالحقل التداولي للمفهوم. فنجد شبكة من المفاهيم والدلالات من فئة المدنس والرجس والدنيوي واليومي. وهكذا يتضح أن العلاقة بين المفهومين متحركة وغير مستقرة، لأن «مكونات العالم الدنيوي ليست غائبة عن مجال المقدس، سواء على مستوى الوعي أو السلوكيات، والاستمرارية حاضرة...في كثير من الطقوس».[375]

لقد فصل مرسيا إلياد بين المفهومين، لكنه في النهاية أقر بإمكانية المرور بين الفضائين بطريقة متعاكسة من المقدس إلى المدنس، أو من المدنس إلى المقدس؛ وهكذا فإن المقدس جزء من استراتيجية تفاعلية لا تؤمن بالثبات والانغلاق، فيتماهى المقدس بنقيضه ويداخله دون الذوبان فيه وفقدان خصوصياته. «فليس هناك ما هو متمحض للقداسة دائما، ولا ما هو خالص للدنيوي والدنس على مدى الدهر، والمقدس ونقيضه يختلفان من ثقافة إلى أخرى ومن زمان إلى آخر؛ فالمقدس ليس معطى جاهزا غيبيا لا علاقة له بالإرادة والفعل البشريين، لأنه في الحقيقة أمر مكتسب من إنشاء الإنسانية».[376]

بهذا المعنى يمكن اعتبار المقدس فضاء رحبا ومفتوحا؛ أما «دائرة الأشياء المقدسة، فلا يمكن أن تغلق بصفة نهائية...فصفة مقدس ليست موقوفة على شيء معين بل كل شيء، وكيف ما كان يمكن أن يصبح مقدسا، وقداسته تطال كل شيء له علاقة به».[377] ولما كان الدنيوي منفتحا وفي جدل مع المقدس فإن كل شيء يمكن أن يصبح محل قداسة. وقريبا من هذا المنطق، يقول مرسيا إلياد: «من الثابت أن كل ما استعان به الانسان، ما شعر به ما صادفه أو أمكن تحوله إلى قدسية»؛[378]بمعنى أن الشيء لا يستمد قداسته من ذاته، بل بما يضفيه عليه الآخرون من صفات القداسة؛ وفي هذا السياق ذاته يقر كايو بأنه «ليس هناك شيء لا يمكن أن يغدو مقرا

---

[373] روجيه كايو: الإنسان والمقدس، ترجمة سميرة ريشا، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان، سنة 2010، ص ص 35-36.

[374] نور الدين الزاهي: المقدس في الثقافة العربية الاسلامية، مجلة الفكر العربي المعاصر 109/108، شتاء 1999، ص 29.

[375] نور الدين الزاهي: المقدس في الثقافة العربية الاسلامية، مجلة الفكر العربي المعاصر 109/108، شتاء 1999، ص 31.

[376] حمادي المسعودي: مدخل إلى دراسة المقدس في الثقافة العربية الإسلامية، مجلة آداب القيروان، العدد 07، ص 214.

[377] E. Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse, 2e édition, Paris 1925 pp50-51.

[378] مرسيا إلياد: المقدس والمدنس، مرجع سابق، ص 24.

للقدسي، وأن يرتدي على هذا النحو في نظر الفرد والجماعة رداء فريدا، ليس كمثله شيء. كذلك لا يوجد شيء لا يمكن تجريده من القدسي».[379]

لقد شخص المنظرون منذ القرن التاسع عشر أن مجال المقدس منفصل عن العادي. لكن هذا لا يعني أنه منفصل عن الحياة الدنيوية. فهذا الفصل الشعوري قائم في الدنيا، والمقابلة بين المقدس والدنيوي هي مقابلة حديثة لم تعرفها العصور الماضية حيث ساد تقابل بين روحاني وزمني مثلا في المؤسسات والقيادات البشرية، أي أنها تقسيمات ضمن الدنيوي. كما ساد دينيا التمييز بين إلهي وشيطاني، وكلاهما متجاوز للدنيا. لكن المقدس كان دائما متواشجا مع الدنيا وفيها، وذلك بصورة أشياء مقدسة، وأرواح تتخلل المادة، وكلمات مقدسة. وظهر في بداية الحداثة دَنْيَوَة جديدة للمقدس تتجلى باستعارة لفظ "مقدس" في وصف قيم إنسانية يعلى شأنها، مثل الوطن، وحقوق الإنسان، ومن ضمنها أيضا الملكية الخاصة. لا يوحي المقدس هنا، كما لم يوح في العصور الوسطى، بتجربة دينية خاصة منفصلة عن الحياة الدنيوية.[380]

وطبعا الحرام هو المقدس، ويعتبر تدنيسه ممنوعا. المقدس حرام على المدنس؛ إذ يحظر التعامل معه أو النظر إليه، أو دخوله إلا على من هو مؤهل لذلك، وبعد تنفيذ شروط معينة من التطهر وغيرها في طقوس خاصة بالعبور من مكان "عادي" إلى آخر مقدس. كما أن المقدس هو أيضا الرهيب المريع. والتعامل معه مباشرة من دون أدوات معينة يعرفها العارفون، قد يلحق بالإنسان الأذى الجسدي أو النفسي. من هنا اختلط مفهوم الحرام بمفهوم المحرم، وحملت أيضا معها المدنس أي المحرم. والمحرم هو في الواقع الحدود الفاصلة بين المقدس والعادي. وقد جهدت الثقافات في إنتاج أصناف من "التابو" كي تفصل بين المقدس والعادي. ولتحويل عبورها الحدود بين هذه المجالات إلى طقوس مرور متعددة. ومع أنها تصف عادة طقوس العبور من زمن إلى آخر، ومن منزلة إلى أخرى، فنحن نستخدمها هنا مجازا لطقوس التطهر. وتفصل التوراة مثلا فيها عند تأهيل الكاهن ليدخل الهيكل، أو للعبور من منطقة إلى أخرى فيه.

تقابل طقوس التطهر والتطهير، وهي غالبا طقوس العبور من العالم الدنيوي إلى التماس مع المقدس، وطقوس التكفير عن الذنوب أو الخطايا، مثل العزل والصيام والاعتراف والمناولة والنذر على أنواعها، وهي التي تؤهل المدنس للعودة من الديني إلى الدنيوي العادي.[381]ومن أهم الظواهر التي تجسد انقساما في الزمان هي الأعياد. وهي في ما عدا ذلك تذكر بعلاقة الدين بالنظام الاجتماعي. فهي توفر مهربا موسميا من النظام إلى الفوضى وإتاحة ما ليس متاحا في الحياة العادية. وما زال أثر ذلك قائما في الأعياد على الرغم من غلبة الطقوس عليها. فالأعياد في

[379] R. Caillois, Article sacré, Encyclopédie Francaise, T XIX p5.ee

[380] عزمي بشارة: الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، سنة 2013، ص 176.

[381] عزمي بشارة: الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، سنة 2013، ص 177.

الأصل مواسم للتحلل من النظام، بل حتى قلبه في حالات، ومن ذلك أثره في الإفراط بالشرب والأكل في الأعياد وإطلاق العنان للجسد في الكرنفالات على أنواعها، وقلب النظام السياسي القائم، كما كان في تعريض الملك للإذلال مثلا في رأس السنة البابلية. فالعيد يتضمن عودة إلى الأصل، وإلى ما قبل النظام، ثم العودة منها للاحتفال بالمدنية والنظام الاجتماعي.

هنالك نوع آخر من المحرم، هو المحرم لا بسبب قداسته، بل بسبب نجاسته، أي لأن الدين قد اعتبره نجسا وغير جائز؛ فعلا أكان أم قولا، جمادا أم كائنا حيا. وغالبا ما يكون هذا المحرم مقدسا لدى ديانة سابقة جاء الدين الجديد لينفيها، فحول قداسته السابقة إلى نجاسة. وكثير من الحيوانات التي تحرم ديانة ما أكلها، كانت تعتبر من الطوطم المقدسة عند الديانات السابقة. ينطبق ذلك أيضا على بعض الممارسات التي كانت طقسية دينية فحرمها دين جديد، حتى باتت أكثر من ممنوعة، أي صارت دنسا، أو رجسا. ومن المدنس الذي يحمي التحريم الإنسان منه، كل ما هو غير مألوف وغير سوي ويساهم في قلب النظام الطبيعي والاجتماعي.[382]

فما هو غير متوقع وغير مألوف بالمعنى الذي يجسد قلب نظام الأشياء في الشكل أو الممارسة أو المنشأ، هو في نظر الإنسان مخيف، وبالتالي مدنس يثير الخوف والنفور في الحياة البدائية، وقد ينقلب هذا المدنس إلى مقدس في مرحلة لا حقة. معنى "حرمت" في عبارة "حرمت الصلاة على الحائض". لا تعني أن الصلاة حرام على الحائض، بمعنى أن لها حرمة، بل هي تعين القداسة والنجاسة، وتحرم تدنيس القداسة بالحيض. ولا تعني بالضرورة أن الحرام له معنيان فهو المقدس وهو المدنس، بل إن الصلاة هي المقدسة ويعتبر تدنيسها بالحائض محرما أي حراما. القداسة للصلاة وليست للحائض. وهي حرام، أي حرم تدنيسها. ومن هنا فإن اختلاط فهم المصطلح ثم اختلاط استخدامه لا يؤثر في أن الفصل الأصلي هو بين الحرام والحلال، المحرم والمحلل، المقدس والمدنس. وأحد أسباب اختلاط المعاني أيضا أن المقدس والمدنس هما من المجال غير العادي. وفي بعض الحالات يكون المدنس مقدسا سابقا، في ديانات أخرى، أو لدى ديانات سابقة.[383]

3. المقدس و طقوس المرور(الطقوس الجنائزية مثالا):

الظاهرة الاحتفالية أو طقوس العبور السنوية والموسمية من الظواهر اللصيقة بالإنسان البدائي والمتحضر، فمنذ أن وجد الإنسان وجدت معه احتفالاته وطقوسه موسمية كانت أم سنوية، «الظاهرة الاحتفالية كصيرورة إنسانية رافقت وجود الإنسان روحا وجسدا»،[384] إنها لحظة استعطاف المقدس، لحظة الفرح والرقص والتمسرح

---

[382] يوسف شلحد، بنى المقدس عند العرب قبل الاسلام وبعده، تعريب خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1996، ص 177.

[383] عزمي بشارة: الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، سنة 2013، ص 178.

[384] بووشمة الهادي: الوعدة (التمثل والممارسة)، دراسة أنثروبولوجية بمنطقة أولاد أنهار وعدة سيدي يحيى بن صفية نموذجا، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، جامعة وهران، سنة 2006، ص11.

وتقديم القرابين، لحظة التواصل مع الألهة، والطوطم والأجداد والأسلاف ومع المجتمع ذاته. وإذا كان الاحتفال ظاهرة دينية، فإن الدين كان ولا يزال آلية للمؤانسة، وارتباط البشرية ببعضها البعض وبالمقدسات التي صنعتها من تساؤلاتها وحاجاتها، وفي متخيلاتها، فكان البرق والرعد والشمس والقمر والنار بقدر ما هي مخلوقات ترهب، بالمقابل نجدها جذابة في اتخاذها آلهة تقدم لها القرابين والأضاحي كعربون وفاء وارتباط ورمز للاستئناس والتطهر، وفي هذه الشروط الجديدة غدت الظاهرة الاحتفالية مندمجة ضمن سياق تواصلي لا ينفصل عن سياق التاريخ والدين والاجتماع الروحي عموما، وأكثر من ذلك إن اجتماع هذه العناصر يؤرخ للفعل الاحتفالي والاعتقادي في تطوراته وتمظهراته وتفاعلاته وتجلياته. هذه لحظات الإنسان في رحلته التاريخية والأسطورية، بحثا عن مصادر الطمأنينة والفرح والسمو الروحي، فلم يجد غير التدين

طقوس الموت:

يتكون النظام الطقسي الإسلامي المتعلق بالموت من عدد مهم من الطقوس؛ تبدأ من مرحلة ما قبل الموت إلى المرحلة ما بعد الموت. والطقوس التي تتخذ من الميت موضوعا لها، هي تلك التي تمارس منذ خروج الروح ومفارقتها للبدن وتتوصل إلى غاية دفنه ومواراته التراب. تبدأ بطقوس الاحتضار الذي يمثل أول مظهر من مظاهر الموت، وهي اللحظات التي يبدأ فيها عجز المريض، حيث تخور قواه العقلية والجسمية، إنها فترة انتقالية من الحياة إلى الموت، ولا يثبت الميت إلا بمفارقة الروح للجسد. ولما كان الاحتضار على صلة وثيقة بالموت وكانت طقوسه تتصل بالميت أو المريض المحتضر، جاز لنا أن نعدها من طقوس الموت عموما، وأن ندرجها ضمن دائرة طقوس العبور أو المرور، على اعتبار أنها انتقال تدريجي من الحياة إلى الموت. وتتمثل هذه الطقوس خاصة في الإحاطة بالمريض وتذكيره إن كانت لديه وصية بخصوص ميراثه، ومكان دفنه، وتلقينه الشهادتان، والدعاء له...وفي حالة الاحتضار، تظهر علامات واضحة على الانسان نتيجة مرض عضال ألم به أو نتيجة كبر السن (الشيخوخة) أو حوادث أخرى...وعند الاحتضار، يوجه المحتضر باتجاه القبلة بأن يلقى على الظهر ويكون باطن قدمه باتجاهها ويطلب منه التشهد إن كان واعيا، إما إذا فقد وعيه ينوب عنه شخص آخر للتشهد له، ويكون من أقاربه، وتقرأ عند رأسه بعض السور القرآنية ومجموعة من الأدعية والأذكار الخاصة بالموت والميت، اعتقاد أن ذلك يخفف من سكرات الموت وتسهيل عملية خروج الروح ومفارقتها للبدن، كما يسود اعتقاد آخر يتمثل في أن الملائكة تحضر موقف الاحتضار وتشارك الناس دعائهم علاوة على الرهبة التي يبعثها الموقف في النفوس. ويزوره في هذه اللحظات كل الأهل والأقارب لتوديعه والمسامحة بينه وبينهم ويخيم على الموقف الحزن والتأثر لفراقه خاصة إذا كان المحتضر صغيرا أو شابا أو ذا مكانة ومنزلة في مجتمعه...

طقوس الميت:

تتلخص طقوس الميت في ستة مراحل أساسية: تبدأ بإغماض عيني الميت وتسجيته حين مفارقة الروح للجسد؛ ثم طقوس الغسل التي تمثل وجها من وجوه الاحتفاء بالميت وتطهير الجسد حتى يلقى ربه مؤمنا طاهرا. تبدأ طقوس الغسل بالنية والتسمية والبسملة، ولا يغسل الميت إلا طاهر أو طاهرة، وتحنيطه بالكافور على سبعة مواضع من جسده تسمى بالمساجد السبعة وتشمل جبهة الميت وباطن كفيه، وظاهر ركبتيه، وإبهاما القدمين بمسح رأسها. ثم طقس التكفين بالقماش الأبيض القطني لدلالته على الطهارة والنقاء، يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية بالنسبة للرجال، لا يمر عليه ابرة أو مخيط، هذه الأجزاء هي: المئزر، القميص، الإزار. ولا يختلف كفن المرأة عن كفن الرجل إلا في العمامة للرجل والعصابة للمرأة. ثم يوضع الجثمان في التابوت المخصص لحمل الموات إلى مثواه الأخير، حيث ينقل إلى المسجد أو إلى ساحة المقبرة للصلاة عليه صلاة تسمى بصلاة الجنازة التي تتميز هي أيضا بطقوس خاصة تبدأ بتوجيه الثمان نحو القبلة توجيها للروح في سفرها نحو العالم الآخر، ثم وقوف الإمام بجانب الجثمان مستقبلا القبلة على أن يكون رأس الميت على يمينه وقدماه على يساره، وتتكون الصلاة من خمسة تكبيرات... وبعد ذلك يحمل الجثمان إلى مثواه الأخير لتبدأ طقوس الدفن الذي يسمح باستمرار الأموات في الفضاء المكاني على الأقل ويجعل لهم مكانا معلوما يمكن زيارته والتردد عليه، وقد بين فيرنان أن طقس الدفن في مثل هذه الحال يصبح بمثابة "الجذور التي تثبت المجموعة على الأرض وتمنحها الاستقرار في الفضاء والاستمرار في الزمن". الأمر الذي ينطبق بشكل بين على واقع المجتمع الاسلامي وخاصة ظاهرة الاعتناء بالقبور وزيارة الموتى. وذفن الميت عن طريق وضعه في حفرة يكون عرضها شبرا وطولها حسب طول الميت، يوضع على جنبه الأيمن مستقبلا القبلة ورأسه إلى الغرب ورجله إلى الشرق، ويرش القبر برائحة المسك، لتوضع عليه ألواح حجرة أو خشبية وقد تكون من الاسمنت المسلح، ويرد فوقها كامل التراب الذي استخرج من القبر حيث هناك مثل شعبي يقول (مثل القبر التراب الذي استخرج منه يرد إليه). وتنتهي طقوس الدفن بقراءة الأدعية للميت من طرف إمام أو فقيه أو أحد الحاضرين يتوفر على نصيب من التعليم وحافظا لبعض السور والأحاديث أو الأدعية التي تقرأ في مثل هذه المناسبات.

4. المقدس و السياسي:

نقدم هنا نصا مترجما للأستاذ داود محمد، نشر في مجلة إنسانيات الصادرة عن مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، يفي مضمونه علاقة المقدس بالسياسي:

«يتفصل التاريخ القديم و الحديث للمؤسسات و الممارسات السياسية الأساسية في المجتمعات ذات التقليد الإبراهيمي، و حتى في المجتمع الهندي كذلك، حول نواة خلافية تضع الدين و السياسية وجها لوجه.

و على أية حال، يدل وجود هنا أو هناك بعض القوى الاجتماعية المطالبة بالعودة إلى الأصول أو إلى الصفاء الأولي، و أخرى في المقابل تنزع على الأقل لتحديد مكانة الدين داخل المجتمع، دلالة واضحة على أن مسألة التمييز بين النظامين مسجلة بشكل ضمني أو صريح ضمن الإنشغالات و في صلب ثقافة المجتمع.

و قد أثبت التاريخ السياسي للعالم الإسلامي ذاته بما فيه الكفاية، أي منذ وفاة الرسول (ص) أن هذه العلاقة تؤسس الذات-الكلية، كما توجه أشكال الحكم و الإدارة.

و يمكن الإستدلال على صحة ما نذهب إليه، بالإشارة إلى تجربة الخلفاء الراشدين الأربعة من خلال استلامهم للسلطة الدينية و السلطة السياسية معا، و كذا الخلط بين السلطتين في ممارسة الحكم و التي انتهت إلى اغتيال ثلاثة منهم (عمر، عثمان و على و هكذا طرحت مسألة صلاحية السياسي في الدين و كذلك الديني في السياسة، عبر كامل تاريخ المسلمين.

و قد برهن، في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، على ذلك بقوة العلامة ابن خلدون على الأخص، حيث ذكر أن السلطة السياسية لا تكتسب من طرف سلالة معينة في المغرب العربي أو في الأندلس و لا تقام إلا على عصبية قوية و لا يعترف بها شرعا إلا على أساس عقائدي أو بموجب دعوة دينية تنادي بإصلاح أخلاق السلطة و المجتمع.

و هكذا ترافق الأزمات السياسية دائما أزمات ذات طابع ديني تطهيري : و سبب ذلك أن الأيديولوجية المطالبة بالعدالة الاجتماعية التي تتأسس جوهريا على القيم الدينية، بإمكانها حشد أقوى الحركات السياسية التي تتوصل إلى قلب العائلات الحاكمة و إلى إقامة الأنظمة الجديدة. إن هذا المنطق في حركيته الأكثر بساطة و المعبر عنه هنا، لم يتغير ؛ غير أنه لم يعد ممكنا، في أيامنا الحالية، التوصل إلى الانقلابات الكبرى كالتي عرفت في الأزمنة الماضية. و يعود ذلك إلى أن الحملات الاستعمارية التي عرفتها المجتمعات الإسلامية من أندونيسيا إلى المغرب الأقصى مرورا بأفريقيا الساحلية في القرن التاسع عشر و في القرن العشرين قد طبعت بصفة عميقة، في ذات الوقت و مع مرور الزمن، هذه المجتمعات.

فتسيير الحكم، لم يعد ممكنا، سواء في ظل الأنظمة الملكية أو في ظل الجمهوريات اللائكية، دون بناء دولة أو مؤسسات تشتغل قليلا أو كثيرا بعيدا عن العلاقات لشخصية و تبعا لقوانين مصادق عليها من طرف هيئات تمثيلية وطنية.

و منذ تراجع الظاهرة الإستعمارية ، أصبح الولوج إلى الحداثة يمر عبر إعتماد الدستور كقانون مؤسس، و عبر مجالس مستقلة و بعيدة عن أي نوع من الوفاء للأفراد و الجماعات. على أية حال، فهو توجه قد برز منذ 1924 بتركيا و استمر العمل به إلى الآن في بلدان أخرى.

عندئذ تطرح مسألة صلاحية الديني في السياسي ضمن مصطلحي التميز أو الفصل بين النظامين، و بعبارة أخرى، فإن صلاحية السياسي و إستقلاليته عن الديني أصبحا اليوم مذكورين بوضوح داخل السياسي بالذات و

إنطلاقا منه، بشكل مرخص به قليلا أو كثيرا في كامل العالم الإسلامي. فالحركات التي تقلق البلدان الإسلامية، و التي تعتمد في عملها على المقدس، تلجأ إلى الديني مثلما يحدث في كل أزمة يتعرض لها السياسي. و لا يمكن إعتبار هذه الحركات أنها حاليا غير قابلة للإرتدار أو للإنتشار القوي، لأن مظهرها الذي أعطته وسائل الإعلام الحديثة مشهدية و تأثرا لدى الجماهير، يخفي طبيعتها الإرتكاسية.

فالحركات الدينية التي تكتسح السياسي حاليا، هي استجابات دفاعية لما يحدث من تطور عام للشمولية الاقتصادية و الثقافية، التي نتجت عن زوال الإتحاد السوفياتي و الإشتراكية المسماة بالإشتراكية الحقة، هذا من جهة، و هي من جهة أخرى، فعل جماهيرية لمجموعة كبيرة من الناس ضد التفقير العام، و ضد العنف السياسي و الظلم الذي يتعرضون له و لا يمكن في ظل هذه الظروف، إعداد مشروع سياسي مبنى على نظرية للدولة و للمجتمع، ذات آفاق مستقبلية. و حينئذ ندرك و بصفة جيدة لماذا تستند هذه الحركات على الجانب الكاريزماتي للشخصيات، ذات الوظائف المقدسة و يعكس غياب البرنامج السياسي لهذه الحركات طابعها التمردي المحض و رفضها للسياسي بصفته هذه، ذلك بالنسبة لأولئك الأكثر جذرية منهم على الأقل.

ويدرج تداخل النظامين أشكالا من التراتبية و كذا أشكالا من الخطاب الديني في حقل صياغة و تنفيذ القرار السياسي، حيث تطمس التوصية و الفتوة الدينية إستقلالية اللعبة السياسية كفن للممكن و للنسبي، و كذلك كإمكانية للتفاوض و للتسوية. و يعوض تسيير و تنظيم العنف المدني، بإستحالة النزاع الاجتماعي نفسه، لأنه لا يمكن أن تكون هناك معارضة في ظل الدولة الربانية) مادام قد تقرر تكفير الديمقراطية. و تعتبر الدولة الربانية إسقاط إرتدادي للحاضر في الماضي، بمعنى ما هو موجود فيما لم يعد موجودا، مادام الحاضر قد أعتبر ناقصا من ناحية العمق الأونطولوجي و الحضور الإلهي. و تعبر إيديولوجية العودة إلى الأصول عن رفض جذري لكل تغيير و نفي للتاريخ و لسيرورته، و تتجلى كذلك بتحريم كل إمكانية للتخمين، و للشك بالتالي لكل ما من شأنه أن يذكر بالتفكير، فإن تأكيد الذات الأزلية، تزدوج بفقدان دلالة الإختلاف كمقولة فكرية و كشكل للكائن الاجتماعي، و لكل كائن ممكن. و هكذا تنتهي هذه الأيديولوجية في الذوبان في عملية إصدار الفتاوي للإنهائية حول الحلال و الحرام، الطاهر و الناجس، إلخ...

و في نفس الوقت، يزيل الإستعمال المبالغ فيه للنشاط الإنساني الأنظمة الرمزية الحية. إذ تتحول الطقوس إلى قيمة في حد ذاته، هي غاية ذاتها. فالإحساسات الحركية تدجن الأجساد بتقديس أوضاعها في جميع المجالات. هذا بالإضافة إلى أن خارج الزمن يوطد السياسي في خارج المعنى، و النتيجة القصوى لهذا، هي تقييد الذات خارج المجتمع، أي مجتمع بالتضحية، ضمن حركة منقذة حيث تكون الحياة ذريعة لإعطاء الموت أو تلقيها.

و لعل ما هو مطروح كرهان في التقديس المفرط للجسد -و بخاصة جسد النساء- هو مراقبة "الأرواح" و في نهاية المطاف السيطرة على كامل المجتمع. و ضمن هذا الأفق، لا يمكن لأي نظام رمزي متقدم أن يستمر في البقاء. و كم من مذابح تمت انطلاقا من هذا المنطق الذي لا يقهر. كيف السبيل إلى إدراك الأسباب العميقة لكل الاضطرابات الرمزية المؤدية إلى الأزمات، إلى المجازر، إلى الإنتحارات الجماعية، التي تمت فيه التوصية و التنفيذ باسم الله ؟

و المعروف أنه في النصوص الدينية المؤسسة للأشكال الثلاثة لديانة إبراهيم الخليل، أن خلق الكون هو في ذات الوقت، إحداث الذات -الكل البشري : فقد خلق الله الكون بالفصل بين السماء و الأرض، الليل و النهار، الفضاء و الزمن. و هكذا تتجه المؤسسة النبوية و بنفس الطريقة، إلى التمييز بين الوظيفة السياسية حيث تؤكد استقلاليتها المطلقة عن هذه الأخيرة.

و يمكن إعتبار العلاقة بين إبراهيم الخليل و النمرود ملك بابل هي النموذج للعلاقات الآتية : موسى/فرعون، عيسى/بيلاطس، محمد (ص)/ أبو سفيان و لكن هناك استثنائين برزا إلى الوجود هما : العهدة الملكية للنبي داود و العهدة الملكية للنبي سليمان اللتين كانتا في ذات الوقت وظائف نبوية. و في هذا الصدد يقول الطبري المؤرخ المسلم لحياة الأنبياء؛ "أنه لا يوجد أحد قد جمع بين الملك و النبوة" و يقول أيضا: "لقد طالب سليمان بالملك، و لكن النبي داود توصل إليه دون المطالبة به، لأن من يرتبط بالدنيا، تبتلعه الدنيا بإذن الله"[1.]

و يؤكد القرآن الكريم بشدة هذا الإستثناء على لسان سيدنا سليمان عندما يترجى الله : "قال رب إغفرلي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهاب" حينئذ تطرح أسئلة القراءة، و البت و التلقي و بكله واحدة، تفسير النصوص الأساسية للديانات الإبراهيمية. و من المألوف جدا أن نسجل أن التغيرية ذاتها التي تمس أشكال العلاقة بين الديني و السياسي في المجتمعات اليهودية، المسيحية، و المسلمة تشير إلى التنوع في العلاقة التي تقيمها النصوص حسب الثقافات و الفترات التاريخية للمجتمعات. تطرح أيضا مسألة الحق و سلطة إصدار القوانين، و كذا شرعية السلطة و مصدر التشريع، عندما نعلم أنه من بين أمثلة لا متناهية فإن رجم النساء الزانيات غير موجود في القرآن الكريم، كما أن قضايا الملكية و الخلافة و أي شكل من أشكال الحكم القادمة لم تطرح أبدا.

إن طرح مثل هذه الأسئلة، يؤدي بالضرورة إلى الشروط التاريخية و السياسية لإمكانية التفكير و كذا حريته، و من الخارج، في الديني، و في السياسي و في العلاقة بينهما.

أما المجال الذي ننطلق منه للحديث عن هذه العلاقة هو مجال علوم الإنسان و المجتمع. و مما لا شك أن هذه الشروط هي موجودة الآن بالمجتمعات الإسلامية و بخاصة في الجزائر و يتعلق الأمر بتدعيمها».[385]

5. المقدس و الفضاء المكاني:

تقترن القداسة ببعض الأمكنة، وقد ذكر الله تعالى الوادي المقدس طوى والأرض المقدسة والوادي المقدس يشير إلى البركة والطهارة، ولذلك استوجب خلع النعلين في إشارة إلى طقوس الطهارة واحتصار رمزي للمكان المقدس؛ فقد أمر الله موسى بخلع النعلين، ليجعل من المكان الذي ستطأه قدماه حيزا محددا للقداسة، إذ لا يمكنه أن يظل على تلك الحالة في مكان فسيح وشاسع.[386] والمكان الذي ينعت بالمقدس هو فضاء للحضور الإلهي واحتضان السر المقدس، «لأنه مرتبط بتجلي قوى إلهية فيه أو بوجود رفات أضحت في عداد المقدسات بسبب المنزلة التي حظي بها أصحابها لدى أنصارهم، مثل أضرحة الصحابة والأولياء الصالحين».[387]

والمكان المقدس هو مجال معزول عن المدنس والدنيوي، وقبل الإسلام كان الحرم المكي محل قداسة وكذلك كان الحمى، وهو مكان منتشر في الثقافات السامية. ويذكر روجيه كايو أن للحمى طابعا قدسيا، وهو «المكان المقدس في الديانات السامية، حيث تحظر ممارسة العمل الجنسي وملاحقة الطرائد وقطع الأشجار واقتلاع العشب، كما يتوقف عند حدوده عمل العدالة».[388]ويصبغ المكان قداسته على كل من يؤمه، حتى وإن كان شخصا مدنسا، ومن هنا تأتي القيمة الحمائية للمكان المقدس، لأن «قدسية هذا المكان تجعل المجرم الذي يلجأ إليه مكرسا، وبالتالي مصونا من كل اعتداء».[389] أما الحيوان الذي يخترق هذا المكان وبسبب هذه القدسية، يعتبر مفقودا. وفي كتاب الأصنام، نجد قصة شاهدة على ذلك، فيذكر أن صنم الفلس محمي بحمى ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له ولم تخفر حويته. ثم ابتدع العرب الحمس، «ويتكون من أهل الحرم والقبائل الحليفة، والتزموا بالعديد من الضوابط؛ فلا ينبغي للحمس أن يدخلوا بيوتا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرما...وما ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل في الحرم».[390]وتواصلت بعض الطقوس مع الإسلام؛ فالمسلم يلتزم بجملة من الشعائر عند أداء مناسك الحج ويطوف في ثياب خاصة، وهي من لوازم الطهارة لأن «اكتساب الطهارة يأتي نتيجة التقيد بمجموعة ممارسات طقسية، وكما أثبت دوركايم فالمطلوب، أولا هو فصل الذات عن العالم الدنيوي تدريجيا، بغية التمكن من اختراق عالم المقدس، دونما خطر أو أذية. ينبغي التخلي عن الإنساني قبل الولوج إلى الإلهي، ما يعني أن شعائر التطهير هي ، بالدرجة الأولى، ممارسات سلبية، تصنف في

---

385 https://insaniyat.crasc.dz/index.php/fr/cahiers-insaniyat/71-c-1-2004/1677-المقدس-و-السياسي-حـيثيات
386 حمادي المسعودي: مدخل إلى دراسة المقدس في الثقافة العربية الإسلامية، ص 217.
387 المرجع نفسه، ص 218.
388 روجيه كايو، الإنسان والمقدس، ص 58.
389 المرجع نفسه، ص 58.
390 ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، تحقيق خو رشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، سنة 1985، ص 127.

خانة الإمساك والامتناع».[391] وتظهر هذه السلوكات في الأعراض عن كل ما يميز الدنيوي من نشاطات والتطهير منه، ويتجلى ذلك القطع مع سير الحياة العادية عن طريق الصوم والإمساك عن مخالطة الآخرين والامتناع عن الكلام والنوم أو تناول بعض الأطعمة والأشربة، وعدم الإقبال على العلاقات الجنسية، وهي قيود تعد الإنسان لمواجهة الإلهي.

وحسب العروسي لسمر المكان المقدس يفرض جملة من اللوازم التي تجعله مفصولا عن غيره من الأمكنة،[392] وللاستدلال على ذلك أورد تعريف مرسيا إلياد للمكان المقدس بقوله: «كل مكان مقدس ينطوي على تجل المقدس، وعلى تفجر للقدسي ينتج عنه انفصال إقليم عن محيطه الكوني، فيجعله مختلفا عنه نوعيا».[393]والمكان المقدس يتصف بالعزلة عن المدنس ويحظر على الإنسان دخوله عموما، لأن روحا خفية تجلت فيه واتخذته مسكنا لها...يبني المؤمنون عموما للقوة العليا بيتا يغدو مركز عبادة، كما توضع الأماكن المحيطة بالحرم في حماه وتحت رعايته. ونعت القرآن مكة بمقر الآلهة، فهي بيت الله الحرام، والله هو رب البيت العتيق. وعرف عرب الجزيرة عبادة الأصنام وخصوها ببيت فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها: يحجونها ويعتمرون إليها.

فالمكان المقدس فضاء للتجلي الإلهي والتقرب منه. ويسود الاعتقاد أن المكان المقدس محمي ولا تطاله الكوارث، لأنه يجسد مركز العالم وسرة الأرض ولقربه من الفوق وعالم الآلهة، ونظرا لما يتضمن الرمز العمودي من القداسة والخلود. وفي هذا السياق، يقول جيلبير دوران: «إن الهم الأساسي للرمزية العمودية هو قبل أي شيء آخر نصب سلم بوجه الزمن والموت، وهذا الخلود الارتقائي هو تقليد مشترك...وهو واضح أيضا في صور مألوفة لدينا، عنينا بها سلم يعقوب...هو السلم نفسه الذي رأى النبي (ص) أرواح المؤمنين تصعد عليه».[394]

هذه الرموز وسائل للوصول إلى السماء، ويقدح الأمر مقابلة بين العمودية الروحانية والسطحية الشهوانية أو السقوط. ويثير الارتقاء مسألة التخلص من العرضي والدنيوي، ويلاحظ مرسيا إلياد أن السلم والدرج يمثلان من الناحية التشكيلية تغيير المستوى مما يجعل الانتقال ممكنا من نسق إلى آخر. ويحمل العلو إمكانية الالهام، وكثيرا ما يقع المكان المقدس بالجبل، وهذا أمر متواتر في الكتب المقدسة، وكذلك في الإسلام يقع غار حراء في جبل، وهذا ما دعا باشلار إلى الإقرار بأن الأرض المرتفعة تحوي بالإلهام في قوله: «أقل هضبة لمن يستوحي أحلامه من الطبيعة، هي ملهمة» ولهذا يشيد الناس أمكنة تتصف بالعلو، مثل الكعبة والأهرامات والمعابد والمساجد،

[391] روجيه كايو، الإنسان والمقدس، ص 61.
[392] العروسي لسمر: حفريات في المقدس والدنيوي في الاسلام، ص 10.
[393] مرسيا إلياد، المقدس والمدنس، ص 75.
[394] جيلبير دوران: الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، ترجمة مصباح الصمد، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات وللنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، سنة 1991، ص 101.

وكثيرا ما تكون في مركز المكان وتتصف بالإطلالة والإشراف على بقية الأماكن. ويمكن أن ينسحب الأمر على الزمن، فنجده منقسما إلى زمن مقدس وآخر دنيوي.[395]

6. المقدس و الفضاء الزماني:

كما ينفصل المكان إلى مكان مقدس وآخر مدنس، ينفصل الزمن إلى مقدس وعادي أو دنيوي، وكان العرب قبل الإسلام يقسمون الأشهر إلى أشهر عادية وأخرى حرم، وكانوا يعظمون أشهر الحج؛ فقد ذكر ابن حبيب في المنمق "أن قريش وغيرها من العرب لا يحضرون سوق المجاز إلا محرمين بالحج، وكاموا يعظمون أن يأتوا شيئا من المحارم أو يغير بعض على بعض، لأنها أشهر حرم، وإنما سمي الفجار لما صنع فيه من الفجور".[396] ومن الأيام ما هو أكثر قداسة من غيره كيوم الجمعة بالنسبة للمسلمين، والسبت عند اليهود، والأحد لدى النصارى. وتحظى أيام الأعياد برمزية مقدسة، ويدوم العيد لدى الحضارات البدائية أشهرا أو أسابيع تتخللها فترات استراحة تمتد ما بين أربعة أو خمسة أيام، ويختم بممارسات طقسية للجنس الجماعي. وفي هذا السياق يقول روجيه كايو: «ينتهي العيد بفحش ليلي وسط عربدة مجنونة تعج بالصخب والحركة اللذين يتحولان إلى رقص موقع».[397] وهذه الطقوس تجعل من العيد مناسبة تعبر عن أوج الحياة، لأنه يدخل قطيعة على اليومي والرتيب والإغراق في قضاء الحاجات الملحة، وأشار دوركايم إلى دور العيد في إحداث تعارض بين الحماس والتفجر وتفريغ للطاقة الحيوية وتكرار يومي للانشغالات، ولهذا يمثل "عالما آخر للفرد الذي يشعر في أثنائه أنه مدعوم بقوى تتخطاه وتنتقل به من حالة إلى حالة".[398] ويصدق الأمر نفسه على الأعياد الدينية وما يرافقها من فرح وقلق، لأنه يسبق بأيام أو شهر من الصوم، فضلا عن أداء الصلاة وما يصاحبها من خشوع والمثول في حضرة الإلهي والغيبي.[399]

---

395 أنظر: العروسي لسمر: حفريات في المقدس والدنيوي في الاسلام، ص 11.
396 ابن حبيب، المنمق، ص 229.
397 روجيه كايو، الإنسان والمقدس، ص 142.
398 المرجع نفسه، ص 143.
399 العروسي لسمر: حفريات في المقدس والدنيوي في الاسلام، ص 11.

البيبليوغرافيا:

❖ الكتب المقدسة:

1. القرآن الكريم.
2. إنجيل متى.
3. إنجيل مرقس.
4. إنجيل يوحنا.

❖ الأسفار:

5. سفر التكوين.
6. سفر العدد .
7. سفر المزامير.
8. سفر حزقيال.

❖ المعاجم والموسوعات:

1. ابن منظور، لسان العرب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ، بدون سنة نشر .
2. إيكهولتكرانس، **قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور**، ترجمة حسن الشامي ومحمد الجواهري، (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1973).
3. 1بيار بونت وميشال إيزار، **معجم الإثنولوجيا والنثروبولوجيا**، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت- لبنان، سنة 2006.
4. جان لابلانش، ب بونتاليس: معجم التحليل النفسي، تر مصطفى حجازي، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 1987.
5. 1جورج بونزو آخرون. ***معجم الحضارة المصرية القديمة***، *ترجمة: أمين سلامة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996).*
6. ختان. الموسوعة الفقهيّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ج19، ط 02، الكويت سنة 1989.
7. روبير جاك تيبو. **موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية**، ترجمة فاطمة عبد الله، *(القاهرة: مشروع الترجمة في المجلس الأعلى للثقافة، 1998).*
8. الشيطان ـ الموسوعة البريطانية نسخة محفوظة 29 أبريل 2015 على موقع واي باك مشين.
9. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الجز 05، ط الأولى، دار الشروق، سنة 1999م.

❖ المصادر والمراجع باللغة العربية:

1. ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، تحقيق خو رشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، سنة 1985.
2. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الحادية عشرة، القاهرة – مصر، سنة 1984.
3. إريك فروم، اللغة المنسية (مدخل إلى فهم الأحلام والحكايات والأساطير)، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، سنة 1995.
4. أودلف آرمان. ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997)،
5. بن تيمية، الرد على المنطقيين (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)، تحقيق عبد الصمد شرف الدين الكتبي، مؤسسة الريان – بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2005.
6. بوسليم صالح، الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات المغربية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 21 ديسمبر 2015، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر.
7. بووشمة الهادي: الوعدة (التمثل والممارسة)، دراسة أنثروبولوجية بمنطقة أولاد أنهار وعدة سيدي يحيى بن صفية نموذجا، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، جامعة وهران، سنة 2006.
8. جان بوتيرو : بلاد الرافدين الكتابة – العقل –الآلهة، ترجمة الأب البير أبونا، مراجعة وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، سنة 1990.
9. جميل محمد ابو العلا، التصوف الاسلامي نشأته واطواره، مطبعة النهضة، القاهرة – مصر، سنة 1894.
10. جيلبير دوران: الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، ترجمة مصباح الصمد، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات وللنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، سنة 1991.
11. حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، سنة 1981.
12. حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية- مصر، سنة 2002..
13. حمادي المسعودي: مدخل إلى دراسة المقدس في الثقافة العربية الإسلامية، مجلة آداب القيروان، العدد 07.
14. الدروبي محمد، اللغة والإله (تشخيص لغوي للمقولات الدينية المركزية)، دراسات عربية، العدد 1و2، السنة السادسة والثلاثون، نوفمبر ديسمبر، دار الطليعة، بيروت-لبنان، سنة 1999.
15. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت- لبنان، سنة، 1412 هـ.
16. رالف جور: العادات والسلوكيات في أزمنة الكتاب المقدس، ترجمة ماريان منير، مراجعة برسوم فكري، الجزء الثاني، مطبعة دير الشهيد العظيم مارينا العجائبي بمريوط، سنة 2015.

17. رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق ، ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 2016.
18. رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق ، ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة 2016.
19. روجيه كايو: الإنسان والمقدس، ترجمة سميرة ريشا، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان، سنة 2010.
20. الساسي بن محمد الضيفاوي، ميتولوجيا آلهة العرب قبل الاسلام، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء-المغرب، سنة 2014.
21. سراج، جيلالي (2015)، زيارة الأضرحة وأثرها في المعتقدات الشعبية: ضريح سيدي يوسف الشريف نموذجا، ماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان.
22. السراج، خالد (2000)، المقدس ودلالته في المجتمع الجزائري: الضريح بمنطقة عين تموشنت نموذجا، ماجستير في الفنون الشعبية، جامعة تلمسان.
23. سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، دار النشر أضواء السلف، الطبعة الأولى، سنة 1997.
24. سليمان الأشقر: عالم السحر والشعوذة، دار النفائس للنسر والتوزيع، الطبعة الرابع، عمان- الأردن، سنة 2002.
25. سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، تبسيط وتلخيص نظمي لوقا، سلسلة دار الهلال، العدد 137 أوت 1962.
26. سيقموند فرويد: " تفسير الأحلام"، ترجمة مصطفى صفوان، مراجعة مصطفى زيور، دار المعارف، القاهرة- مصر، 1981.
27. سيقموند فرويد: " **نظرية الأحلام**"، تر جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت- لبنان، 1980.
28. شارل جنبير: المسيحية نشأتها وتطورها، المكتبة العصرية، ترجمة عبد الحليم محمود، صيدا-بيروت، ب س ن.
29. الشفيع الماحي أحمد: زرادشت والزرادشتية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية- دورية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي-جامعة الكويت، الحولية 21، الرسالة 160، سنة 1422 هـ-2001م.
30. شفيق مقار . السحر في التوراة والعهد القديم، (لندن: دار رياض الريس،ط1، 1990).
31. صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، الجزء الأول، مطبعة ميديا، الطبعة الأولى، أربيل- العراق، سنة 2007.
32. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، دار الوراق للنشر المحدودة، الطبعة الثانية، بيروت لبنان، سنة 2012.
33. طوالبي نور الدين : "الدين، الطقوس، التغيرات"، منشورات عويدات و ديوان المطبوعات الجامعية 1988.

34. عبد الحليم محمود، المنقد من الضلال، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، سنة 1985.
35. عبد الرزاق رحيم، صلال الموحي: العبادات في الديانات القديمة (المصرية-العراقية القديمة-اليونانية القديمة-الرومانية القديمة-الهندوسية-البوذية الصينية-الفارسية القديمة (الزرادشتية)-الصابئية)، دار صفحات للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، دمشق-سورية، سنة 2012.
36. عبد الفتاح محمد أحمد: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ط 1، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1987.
37. عبد القادر حامد، زرادشت الحكيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
38. عبدالرحمن بن خلدون. ***مقدمة بن خلدون***، (القاهرة: طبعة دار المعارف المصرية، كتاب الشعب، ب ت).
39. العروسي لسمر: حفريات في المقدس والدنيوي في الاسلام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ، قسم الدراسات الدينية.
40. عزمي بشارة: الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، سنة 2013.
41. علي بشير، دور ومكانة الإله نابو في حضارة بلاد الرافدين، جامعة بغداد، 2014 .
42. عمر سليمان الأشقر: عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الطبعة الرابعة، الكويت، سنة 1974.
43. غوستاف لوبون، الآراء والمعتقدات، ترجمة عادل زعيتر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة مصر، ب س ن، ص 18.
44. فراس السواح: "دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني"، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط04، سنة 2002.
45. فراس السواح: الرحمان والشيطان (الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية)، منشورات دار علاء الدين، ب ط، ب ت ن، ص 57.
46. فرديناند دي سوسير: "***دروس في الألسنية العامة***" ، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش، الدار العربية للكتاب، طرابلس- ليبيا، 1998.
47. فيصل عباس: "التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة)، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، سنة 1991.
48. فيليب لابورت-تولرا وجان بيار فارنييه: إثنولوجيا أنتروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة01، سنة 2004.
49. قزويني زكرياء بن محمد، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق قاضي محمد بن يوسف، مكتبة الثقافة الدينية، القاعرة – مصر، سنة 2004.
50. القشيري، الرسالة القشيرية، مكتبة صبيح واولاده، القاهرة –مصر، سنة 1965.
51. كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ترجمة نهاد خياطة، الطبعة الثانية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سورية، سنة 1997.

52. **كلود ريفيير**، الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، ترجمة وتقديم أسامة نبيل، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة-مصر، سنة 2015.
53. الكووراني علي سيدو، زرادشت والزرادشتية، مطبعة المجمع العلمي الكردي، بغداد-العراق، سنة 1975.
54. لسان الدين ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق محمد الكتاني، دار الثقافة، الطبعة الأولى، سنة 1970، بيروت – لبنان.
55. الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، سورية، سنة 2006.
56. مبارك حنون: " دروس في السيميائيات"، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، سنة1987.
57. محمد أبو زهرة، الديانات القديمة، دار الفكر العربي، القاهرة –مصر، سنة 2017.
58. محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة (حضارتها وديانتها)، دار الشعب، سنة 1970.
59. محمد الصغير غانم: "**الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إيفريقيا**"، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، سنة 2005.
60. محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي أبو الوليد، أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ج 1، الطبعة الأولى، دار الأندلس للنشر - بيروت، سنة 2004.
61. محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة-مصر، سنة 1932.
62. محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون (العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم)، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق-سورية، سنة 2009.
63. محمود شكري الألوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المجلد الثاني، دار الكتاب المصري، القاهرة – مصر.
64. مرسيا إلياد: "المقدس والمدنس"، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق- سوريا، سنة 1977.
65. مصطفى حلمي؛ الإسلام والأديان، دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة 1407هـ.
66. مناد سميرة: طقوس زيارة الأضرحة في مستغانم، مقاربة أنثروبولوجية، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 06، الجزء 04، جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم- الجزائر، بتاريخ 2017/12/31.
67. منير البعلبكي: معجم أعلام المورد (موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين)، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، سنة 1992.
68. نعيم اليافي: تطور الصورة الفنية في الشعر الحديث، ط 1، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، 1983.
69. نفيسة دويدة: المعتقدات والطقوس الخاصة بالأضرحة في الجزائر خلال الفترة العثمانية، إنسانيات (المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية)، العدد 68، سنة 2015، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران – الجزائر.

70. نور الدين الزاهي: المقدس الاسلامي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء – المغرب، سنة 2005.
71. نور الدين الزاهي: المقدس في الثقافة العربية الاسلامية، مجلة الفكر العربي المعاصر 109/108، شتاء 1999.
72. نور الدين طوالبي: الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، سنة 1988.
73. الهجويري: كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة وتقديم بديع جمعة، الجزء الثاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – مصر، سنة 2007.
74. هشام بن محمد بن السائب الكلبي أبو المنذر، كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة، سنة 1995.
75. ياروسلاف تشيرني: الديانة المصرية القديمة، ترجمة أحمد قدري، مراجعة محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للآثار، مصر، ب س ن.
76. يوسف شلحت، نحو نظرية في علم الاجتماع الديني (الطوطمية-اليهودية-النصرانية-الإسلام)، تحقيق وتقديم خليل أحمد خليل، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، سنة 2003.
77. يوسف شلحد، بنى المقدس عند العرب قبل الاسلام وبعده، تعريب خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1996.

❖ المدونات والمواقع الإلكترونية:

1. ابراهيم غرايبة: البوذية دين الفلسفة والحكمة، موقع مؤمنون بلاد حدود للدراسات والأبحاث، قسم الدراسات الدينية، الرابط: https://www.mominoun.com/articles/ ، التاريخ: 14 نوفمبر 2015.
2. إيناس خنسه، المنامات والرؤيا عند العرب، رصيف 22، /HTTPS://RASEEF22.COM/CULTURE/2016/07/02
3. باسم محمد حبيب، قراءة في العقل الديني العراقي، موقع معابر على الرابط: HTTP://WWW.MAABER.ORG/ISSUE_MARCH10/LOOKOUT3.HTM
4. چورچ سعد: تطور الديانة المصرية القديمة " الجزء الأول "، مدونة الباحثون المصريون، الرابط: HTTPS://WWW.EGYRES.COM/ARTICLES يوم: 09 جويلية 2016.
5. الدين في روما القديمة، مدونة المعرفة، الرابط الآتي: HTTPS://WWW.MAREFA.ORG/ ، بتاريخ: 2018/12/21.
6. صبري المقدسي: الزرادشتية: المنشأ والجذور والعقائد الروحية، موقع الحوار المتمدن، تصنيف دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، الرابط: HTTP://WWW.M.AHEWAR.ORG/S.ASP?AID=357743&R=0 ، بتاريخ: 2013/05/05.

7. عبد الإله خبطة: الحياة الدينية في الحضارة اليونانية - دولة المدينة، موقع رقيم، رابط الموقع: HTTPS://WWW.RQIIM.COM/ABDOUJUVE ، بتاريخ: 2016/06/05.
8. عبد الوافي مدفون: البعد السوسيوأنثروبولوجي لمؤسسة الضريح، موقع أرنتروبوس (الموقع العربي الأول في الأنثروبولوجيا)، الرابط: http://www.aranthropos.com/، التاريخ: 2018/12/27.
9. عشتار داود محمد: " الإشارة الجمالية في المثل القرآني" دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، سنة2005، ص 20، تم تحميله من الموقع: WWW.AWU-DAM.ORG/BOOK يوم: 2007/02/27.
10. عصام خلف غضبان الزهيري: الدين الأول (مدخل إلى الدين المندائي)، الجزء الأول، المسح الضوئي للكتاب هشام رحيم العيداني، الرفع الإلكتروني حسام هشام العيداني، موقع موسوعة العيون المعرفية، HTTP://WWW.MANDAEANNETWORK.COM/MANDAEAN/AR/BOOKS/MANDAEANNETWORK_SABIAN_MANDAEAN.HTML
11. محمد صالح الطحيني، تعاليم بوذا، موقع الحوار المتمدن، قسم الدين السياسي ونقد الفكر الديني، رابط الموقع: http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=503775&r=0 ، بتاريخ: 2016/02/06.
12. مدونة المعرفة، مقال بعنوان: الديانة في اليونان القديمة، الرابط الآتي: HTTPS://WWW.MAREFA.ORG ، يوم: 2018/12/21.

❖ المراجع باللغة الأجنبية:

1. CLAUDE RIVERE, « SOCIO-ANTHROPOLOGIE DES RELIGIONS », ARMAND COLIN, PARIS 2003.
2. DURKHEIM EMILE, « *LES FORMES ELEMENTAIRES DE LA VIE RELIGIEUSE* », PARIS : PUF, 1968 (1912).
3. JEAN CHEVALIER ET ALAIN GHEERBRANT, « DICTIONNAIRE DES SYMBOLES « MYTHES, REVES, COUTUMES, GESTES, FORMES, COULEURS, NOMBRES » », EDITION REVUE ET CAUGMENTEE, ROBERT LAFFONT/ JUPITER, PARIS, 2005.
4. CLAEK AND PIGGOTT 1965 : 60-84, WIMER 1982 .
5. Douté, E. (1900), Notes sur l'islam maghrébin, éd. Ernest Leroux, Paris.
6. Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse, 2e édition, Paris 1925 .
7. FRAZER, *THE GOLDEN BOUGH: ASTUDY IN MAGIC AND RELIGION, PP. 67-71.*
8. FREUD : TOTEM ET TABOU, P,179,180.
9. FREUD : TOTEM ET TABOU, TRAD PAR JANKELEVITCH, ED PAYOT, PARIS 1968.
10. HERSKOVITS, L'HERITAGE DU NOIR : MYTHE ET REALITE, PRESENCE AFRICAINE, 1962.
11. James Frazer. *The Golden Bough: a Study in Magic and Religion*, (1st edition, 1890).
12. MALNOFISKY, *A SCIENTIFIC THEORY OF CULTURE.*
13. MARTINE SEGALEN : « ***Rites et Rituels Contemporains*** », Éditions Nathan, Paris, 1998.
14. MARTINE SEGALEN : « Rites et Rituels Contemporains .Armand colin, 2e edition, 2009.

15. *MOUSSAOUI Abderrahmane, « Espace et sacré au Sahara »Ksour et oasis du sud-ouest algérien, CNRS Editions, Paris 2002.*

16. OSWALD DUCROT, TZVETAN TODOROV: "Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage", Edition du Seuil, 1972.

17. R. Caillois, Article sacré, Encyclopédie Francaise, T XIX p5.ee

18. RALPH SOLECKI, PREHISTORY IN SHANIDAR VALLEY, NORTHERN IRAQ, 1963.

19. *ROBERTSON SMITH, P. 57*

20. Roget's II: The New Thesaurus

21. ROGET'S II: THE NEW THESAURUS, PP. 92-94

22. **THE NEW DICTIONARY OF CULTURAL LITERACY**, P, 311.

23. WENKE 1980 : 184.